كازارشان: أمنيات محارب

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: كازارشان: أمنيات محارب

اسم المؤلف: أحمد عز الدين

التدقيق اللغوي: هدير محمود

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢١٤١٤ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٩٣-٧-٨




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

كازارشان: أمنيات محارب





إهداء

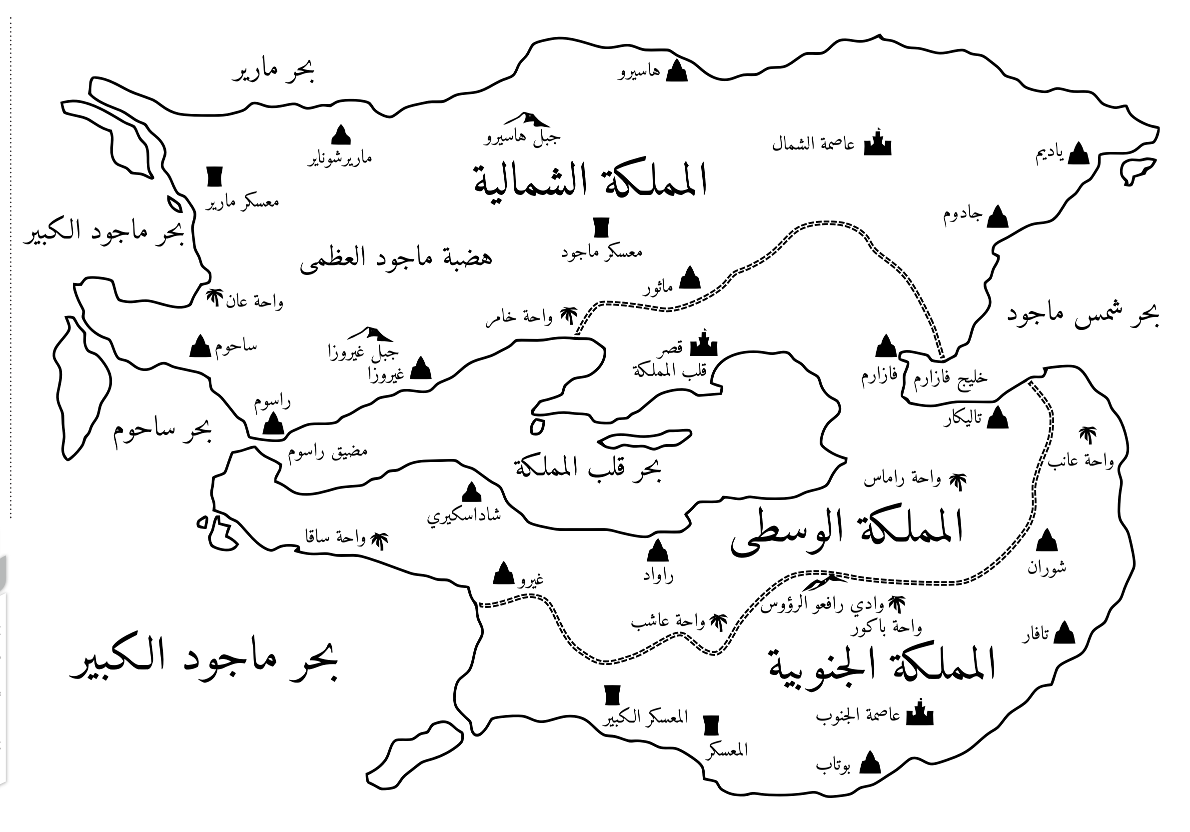
إلى أمي، التي كتبت أول كلماتي من أجلها..

إلى مجموعتي العزيزة، التي بدأت معي هذه الرحلة رغم المسافات..

وإلى المحارب، الذي رافقتني قصته لما يزيد عن عشر سنوات..

حتى أصبحت أمانيه من أمنياتي.

أحداث هذه الرواية لم تحدث في هذا العالم
لكنها حدثت في عالم داخل هذا العالم


بحر مارير
هاسيرو
جبل هاسيرو
ماريرشوناير
عاصمة الشمال
ياديم
معسكر مارير
المملكة الشمالية
بحر ماجود الكبير
معسكر ماجود
جادوم
هضبة ماجود العظمى
ماثور
واحة عان
واحة خامر
بحر شمس ماجود
ساحوم
جبل غيروزا
قصر
قلب المملكة
فازارم
خليج فازارم
غيروزا
راسوم
تاليكار
بحر ساحوم
مضيق راسوم
بحر قلب المملكة
واحة عانب
واحة راماس
شاداسكيري
المملكة الوسطى
واحة ساقا
غيرو
راواد
شوران
وادي رافعو الرؤوس
واحة عاشب
واحة باكور
تافار
بحر ماجود الكبير
المملكة الجنوبية
المعسكر الكبير
عاصمة الجنوب
المعسكر
بوتاب

﴿ الفصل الأول ﴾

امتدت يد أنثوية إلى صدر الرجل النائم وربتت عليه برفق وهي تقول:

- (كازان)!

لم يجبها الرجل النائم بشيء، فتحسست صدره المبلل بالعرق رغم البرودة التي تسري بالجو، ثم تابعت في صوت أعلى:

- (كازان)!.. استيقظ يا (كازان).

بدت من (كازان) رجفة بسيطة، ثم فتح عينيه متأملاً هذا الظل الجالس بجواره وخلفه يطل ضوء الشروق الباهت، وما أن بدأ يعي ملامح زوجته حتى تنهد مبتسماً، وقال:

- ما أجمل أن أستيقظ كل يوم على وجهك يا (راسيا)!

ابتسمت في رقة، ثم قالت وهي تساعده على النهوض:

- هل ستكرر هذه الكلمات كل يوم؟

سألها بينما يميل بعينيه إلى عينيها بابتسامة عريضة:

- وهل مللتها؟

أسندت ظهره إلى الوسادة ثم نظرت بدورها إلى عينيه وأجابته بدلال:

- بالطبع لا.. ولكن يوم بعد يوم، أخشى أن تقولها لي يوماً مجاملة.

مسح بيده على رأسها قائلاً:

- لن يحدث أبداً يا (راسيا)، قد أملّ يوماً شروق الشمس عليّ، وكدت أن أفعل، لكني لن أملّ نور وجهك أبداً.

أمالت رأسها خجلاً وأجابته بابتسامة مكملة ترتيبها للفراش، فذهب بنظره إلى النافذة وتمتم:

- يبدو الشتاء جاداً في محاولة طرد الخريف مبكراً هذه السنة.

- يبدو أكثر من جاد، لقد تحملت بالكاد برودة الماء في الليل.

اعتدل (كازان) جالساً، وحاول في تردد وضع قدميه على الأرض، فضحكت (راسيا)، وضحك لضحكها، ثم اقترب منها مداعباً إياها وقال:

- أرى ألا نترك الفراش اليوم.

استمرت في ضحكها بينما تحاول الهروب منه، ثم قالت:

- لا مانع لدي.. لكن دعني فقط أعد لك الإفطار.

تنبه (كازان) لقولها، فسألته:

- ماذا؟!

- كم تبقى من الطعام لدينا يا عزيزتي؟

- ربما يكفينا للغد إن ظللنا طيلة اليوم هنا.

ضحك لدلالها، فاقترب منها وقبّل وجنتها، ثم همس:

- يبدو أنه يوم للمغامرة بالذهاب إلى السوق، لن أسمح لأميرتي بالقلق تجاه أي شيء ينقص دارنا.

- لا يا (كازان)، يمكنك الراحة اليوم والذهاب غداً.

تنهد بينما يهز رأسه نافياً ثم قال:

– لن اتأخر يا حبيبتي، لن أسامح نفسي إن قلقتي لحظة تجاه الغد، يكفي وضعنا الذي نحن عليه.. بسببي.

ثم ضم شفتيه محاولاً الابتسام، فجاءت ابتسامته مهتزة، وعلمت (راسيا) أنه يؤنب نفسه هذه اللحظة، تلك الحركة التي عهدتها فيه منذ أشهر كلما فرت شياطين الماضي من الجحيم إلى جنتهم الصغيرة هذه.

اعتدل (كازان) برفق، فاعتدلت بدورها ضامة إياه من الخلف قائلة:

– لا يوجد قلق لدي تجاه الغد وأنت معي كل يوم يا عزيزي.. أقسم لك.

ربت على يدها في حنان، ثم حاول القيام في رفق فظلت متعلقة به من الخلف، فضحك ومد يديه كأنه يشكو انعدام الحيلة، وتساءل:

– هل سأذهب إلى السوق هكذا؟

ضحكت بدورها مجيبة إياه:

– لا شأن لي، لو أردت المغادرة خذني معك، أم أن فارسي الحبيب قد ذهبت قواه؟

– أتراهنين؟

ثم قام وركض بها وهي متعلقة بظهره بينما يضحكان وغادرا الغرفة، حيث ساعدته في الاغتسال وارتداء عباءته الثقيلة اتقاءً لبرودة الأجواء، ثم ودعته بدلال عند باب الدار قائلة:

– لا تتأخر عليّ.

قبّل وجنتيها التي لطالما أحبها، وأجابها:

- لن أفعل.

ثم فتح الباب وغادر في سرعة مغلقاً إياه وراءه قبل أن تنساب البرودة للداخل، ثم التفت للطريق متأملاً حتى الأفق في قلق، والأفكار تصارع بعضها داخل رأسه، فتنهد محاولة طمأنة نفسه وبدأ يتخذ طريقه إلى السوق.

***

كان الطريق إلى السوق طويلاً، يستغرق الذهاب إليه والعودة منه ما يقرب من ساعة كما تخبرهم ساعتهم الرملية، كان يمضي وقته في تأمل الأفق والحذر من وعورة الطريق، وتمتمة بعض أناشيد المناسبات بصوت خفيض حتى يصل.

وعندما وصل (كازان) إلى منتصف الطريق وجد جنديين يسيران بحزم في اتجاه قريته، فتوجس خيفة وأحس بالقلق على زوجته، ماذا يمكن أن يقصد هذان الجنديان في قريته الصغيرة الملقاة على أطراف المدينة؟

توقف متردداً وتظاهر بأنه قد نسي شيئاً، وأخذ يبحث في جيوب ملابسه وحقيبته حتى تخطاه الجنديان، وبمجرد أن مرا واسترق النظر إليهما وجدهما يلتفتان خلفهما ويختلسان النظر إليه كذلك، فانقبض صدره وشعر بقلق بالغ، فاستدار وأكمل طريقه إلى السوق بخطوات بطيئة كي لا يشعرا بقلقه، لكن أحد الجنديان قال للآخر:

- أهو ما نقصد يا (هام)؟

ضم الجندي الآخر شفتيه في تردد، ثم قال:

- لا أعلم يا (لام)، لم أر وجهه لوقتٍ كاف.

- دعنا نذهب ونتأكد منه، فإن كان هو فسيختصر هذا علينا مهمتنا.

فتبعاه؛ وعندما ارتفع صوت خطواتهما الثقيلة بمسامع (كازان) أسرع في مشيه لعله يبعدهما عن القرية وزوجته، وعندما يصل إلى مكان أمين ينظر كيف يتصرف معهما، لكنهما أسرعا الخطى وراءه، فبدأ يعدو.. فعدوا خلفه، كان من الواضح أنه أسرع منهما برشاقته وعدم ارتدائه لدرع ولا لسلاح، وعندما أيقن الجنديان أنهما لن يلحقا به صاح الجندي (هام) بحزم:

- توقف يا (كازارشان).

تشنج جسد (كازان) فجأة على مسمع الاسم فتعثر وسقط على وجهه، فقال الجندي (هام):

- إنه هو.. لنلحق به وننهي هذه المهمة.

تحرك (كازان) وهو يشعر بالألم في أغلب جسده الذي تركت صخور الطريق علاماتها عليه، كاد أن ينهض جارياً إلا أنه سقط مجدداً من الألم الذي أصاب كاحليه وركبتيه، حتى أدركه الجنديان فقبضا على كتفيه في قوة، وقال له (لام):

- لا فرار بعد الآن.. الملك يريدك.

***

طوال الطريق لم يدر (كازان) ماذا يفعل، شعر أنه لا حيلة لديه ولا فائدة للقوة بعدما بدا أنه انكشف أمره، وتعجب أن يكون البحث عنه استمر حتى الآن دون يأس، وهو قد لجأ لهذه الأرض منذ أشهر قليلة، ولعن ظنه السابق بأن اختياره السكن بقرى العاصمة الملكية سيقلل من احتمالية أن يبحث أحد عنه هنا، لكن يبدو أنهم قد مشطوا الممالك بأكملها من أجل إيجاده، حتى وإن

طال البحث قصر الملك نفسه!.. ثم.. ماذا يريد منه الملك؟ لم يطل وقت التفكير بينما عبر به الجنديان بوابة القصر.

دخل الجنديان (بكازان) غرفة العرش، وبمجرد أن عبر (كازان) الباب نظر إلى حيث يجلس الملك هناك، ويبدو من جلسته أنه لم يكن منشغلاً إلا بانتظار ما سيأتي به الجنديان، وكان أسفل درجات العرش صفان من المقاعد يجلس عليهما أشخاص يبدو عليهم الوقار بكامل حلتهم الرسمية، التفتوا نحوه بمجرد دخوله.. بالطبع هم صفوة جلساء الملك من المستشارين والوزراء والقادة، ويوجد بين صفيّ المقاعد سجادة طويلة تؤدي من باب الغرفة إلى أسفل درجات العرش.

أما الملك.. فقد كانت ملامحه تتضح أكثر بينما يقترب الجنديان (بكازان) نحوه، كان يبدو بمنتصف الخمسينات من عمره، وإن كان عمره الحقيقي كما يقول العامة أكثر من هذا، ورغم هذا يبدو قوي البنية وبصحة جيدة، له لحية بيضاء متوسطة الطول، ويرتدي ثوباً كثيفاً من القماش الأزرق بخطوط ذهبية، وفوق هذا الثوب عباءة من الفرو الأبيض، بينما يعلو رأسه تاجاً ذهبياً غير متكلف ولا مبهرج.

وصل الجنديان (بكازان) إلى بداية صفيّ المقاعد وتوقفا، فحدق الملك (بكازان) بحذر ثم قال:

- يبدو أن الترجيحات كانت صحيحة إذاً.

أشار لهما بالاقتراب أكثر، فأخذا يعبران صفيّ المقاعد بينما (كازان) ثقيل الخطى بينهما، يسترق النظر يميناً ويساراً إلى الحاضرين، وتعلق نظره بوجه أحدهم للحظة، ثم عاد ببصره حيث يقوده الجنديان، حتى اقترب ثلاثتهم من أسفل درجات العرش، فأومأ الملك بإشارة فانحنى الجنديان وتراجعا إلى

صف من الجنود المتحفزين يقفون على مسافة قريبة.

وقف (كازان) أمام الملك بصعوبة ولم يجرؤ على رفع بصرٍه ولم يستطع أن يتحامل في الوقوف أكثر، فالتفت الملك إلى الجنديين متسائلاً بحزم:

- من صنع هذا به؟

توتر الجنديان وأحنوا رأسيهما، بينما قال الجندي (لام):

- لا يمكن أن نعصي أوامرك جلالة الملك، لقد حرصنا أن نأتي به سليماً قدر ما نستطيع، وتولينا حمايته حتى هنا، لكنه من صنع هذا بنفسه بسبب فراره منا.

فعاد الملك بوجهه إلى (كازان) متسائلاً:

- أهذا ما حدث؟

انطلق صوت (كازان) المتردد:

- نعم.. نعم يا سيدي.

أشار الملك قائلاً:

- احضروا له مقعداً، ولتأتوا بطبيب.

انصرف الجنديان في ارتباك، وتبعهما أربعة جنود لينفذوا الأمر في سرعة، واحضروا (لكازان) المقعد، فنظر إلى الملك بتردد، لكن الملك طمأنه بإيماءة من رأسه:

- اجلس.. اجلس يا (كازارشان).

استرق (كازان) نظرة سريعة إلى الملك وهو يومئ ممتناً وقلقاً ثم جلس

في بطء، وأخذ الملك يتأمله.. كان (كازان) شاباً يقترب من نهاية العشرينات من العمر، طويل القامة، بوجه قمحي به سمرة قديمة بعض الشيء بسبب الشمس، تطل منه وسامة معتدلة، ويبدو أن الشمس قد تركت كذلك أثرها على شعره الذي يبدو أنه كان أسودٌ كالفحم فيما مضى، له لحية قصيرة يبدو أن تشذيبها أخر اهتماماته، وكان جسده يشي بقوة ربما خمدت قليلاً نظراً للنحافة التي أصابته، ربما بسبب الأعمال الشاقة وسوء التغذية كذلك.

بينما الملك يتأمله حضر الطبيب إليه وأخذ في سرعة وحرص بكشف قدميه وساقيه وتطهير جروحهما، والتأكد من عدم وجود كسور تحت هذه الكدمات، بينما يتحامل هو كم الألم الذي يشعر به، حتى انتهى الطبيب من عمله وطمأنه أن إصاباته تتطلب راحة وستُشفى قريباً، ثم قام واقفاً في احترام أمام الملك فأذن له بالانصراف والتفت إلى (كازان) سائلاً إياه:

- أأنت أفضل الآن؟

- نعم يا سيدي، أشكرك.

- حسناً، أيمكن أن نتحدث؟

- أمرك يا سيدي.

تنهد الملك في راحة، ثم أشار بيده نحو الجالسين على المقاعد، فقام أحدهم وكان مسناً ونحيفاً متوسط القامة، له لحية بيضاء طويلة أخذت تهتز مع عرجه الملحوظ، فتوجه إلى (كازان) حتى وقف أمامه ونظر إليه مبتسماً، فبادله (كازان) النظر بقلق، فاتسعت ابتسامة الرجل وربت على كتفه قائلاً:

- لا تقلق يا بني، أنا (تاسيرون)، مستشار ملكنا العظيم (جاسيرشوناير).

أومأ له (كازان) برأسه في تردد، فقال له المستشار:

- والآن فلتجبني على بعض الأسئلة، حسناً؟

- حسناً.

- هل أنت (كازارشان ماثير بوتابيرون)؟

علم (كازان) أن كل شيء لن يعود كما كان منذ الكلمة التالية، فأجاب:

- أ.. أجل.

أومأ (تاسيرون) في راحة، ثم عاد ليسأل:

- هل كنت جندياً بالقوات الخاصة لجيش الملك الجنوبي (كاسارشوناير)، ثم أصبحت قائداً للكتيبة رقم عشرة من قوات الهجوم، أو كما كان اسمها (كتيبة البرق)!.. ثم قائداً لقوات قلب الجيش؟

انتشر القلق على ملامح (كازان) ونظر للملك في قلق بالغ بينما قلبه يخفق وأنفاسه تتسارع، فوضع المستشار يده على كتفه مطمئناً وقال:

- قلت لك لا تقلق، أنت في أمان.

بلع (كازان) ريقه في صعوبة، وسأل:

- ماذا تريدون مني؟

- قلت لك لا تقلق، أجبني.. أما قلته عنك هو صحيح؟

- نـ.. نعم.

- جيد، الملك يريد منك طلباً، ما رأيك؟

- سيدي، أقسم لك أ...

- ما رأيك؟

نظر (كازان) في أعين المستشار بيأس، وعلم في نفسه أنه عدم الحيلة تماماً، وربما إلى الأبد، فأجاب:

- حسناً.

- جيد، الملك أمر بوضع كتاب لتأريخ الحرب التي قامت بينه وبين المملكة الجنوبية -سابقاً- التي كنت أحد مواطنيها وحاربت في جيشها، وبما أنك...

لم يستوعب (كازان) بقية كلام المستشار، حيث عاد إلى ذهنه صهيل الخيول، وارتفع صليل السيوف كأنه خلف أذنه، حاول أن يتمالك نفسه طارداً تلك الأصوات، لكن زاد الأمر حيث سمع تهليل الجنود وكأنه يأتي من جدران الغرفة التي بدأت بالزوال، حيث لم يرى سوى الحطام، وسمع صرخات فزع وصيحات استغاثة، وهناك جنود يدفنون المئات أحياء، وآخرين يقطعون رؤوس قد انحنت في استسلام لقدرها، وقائد يـ...

" (كازارشان)، هل أنت معي؟ "

التفت (كازان) في حدة محدقاً بعينين متسعتين في المستشار بهلع، ثم صرخ كالمجنون:

- لا!

ثم قام راكضاً نحو عرش الملك، فهب كل من بالحجرة، وجرى الجنود إلى (كازان) قبل أن يصل، لكنه كان قد وصل بالفعل وانهار عند أعلى درجات العرش حيث نهض الملك متراجعاً في تحفز، بينما يقول (كازان) في صوت باكٍ:

- أرجوك، أرجوك أيها الملك، لا أريد أن أعود لتذكر تلك الأيام بعدما

استرحت قليلاً من مطاردتها لي، لا تعلم قدر ما رأيت، ولا تعلم ما أرى في أحلامي وحتى أثناء استيقاظي، إني أتيت لمملكتك في سلام أنا وزوجتي ولم أؤذ أحداً ولو بكلمة منذ ذلك الحين، أرجوك أيها الملك.. أعفني عن هذا الطلب و...

وصل الجنود إلى (كازان) وقبضوا على كتفه وصدره وأنزلوه عن درجات العرش بالقوة، فحاول أن يمسك بطرف سجادة الدرج لكنه أفلت من يده، فأخذ يتلوى كي يتخلص من أيديهم فسقط على الأرض، ثم أنقلب على ظهره، فأمسك الجنود بيديه وقدميه وأخذوه يجرونه عن درجات العرش حتى الأرض، وهو يصيح رجاءً وألماً:

- أيها الملك، أرجوك، آه.. لا أريد أن أتذكر.. آآآه.. أرجوك.

" توقفوا "

صاح المستشار بهذه الكلمة، فتوقف الجنود ناظرين إليه...

" دعوه برفق وعودوا لأماكنكم "

ترك الجنود أطراف (كازان) في حرص، ثم تبادلوا النظرات سريعاً وبدأوا في العودة لأماكنهم، وظل (كازان) ملقاً على ظهره ناظراً لسقف الحجرة وصدره يرتجف في عنف، فذهب إليه المستشار وجلس على ركبتيه بجواره، ثم أخذ ينظر في ملامح (كازان) الفزعة، ودموعه التي تحاول الفرار من عينيه، فوضع يده على صدره قائلاً في شفقة:

- أعلم مدى بشاعة هذه الحرب وأعلم ما عانيت، الملك وجميع الحاضرون هنا يكرهون تذكر أي شيء عن ذلك الكابوس الطويل، لكن الملك يسعى بهذا الكتاب أن تستقر نفوس الأجيال الحالية والقادمة بعد الكوارث التي

حلت بالجميع، لا نريد المخاطرة بحدوث كارثة مثل هذه مجدداً، خاصة وأن الوضع ما زال مشتعلاً في بعض المتعصبين من أهل الجنوب، وكتاب مثل هذا بشهادة محارب مثلك ومن أهل الجنوب قد يُحدث أثراً عميقاً هناك.

أخذ (كازان) يردد في خفوت وانهاك:

- لا.. لا.

هز المستشار صدر (كازان) بقوة محفزاً إياه قائلاً:

- هذا وقتك يا (كازارشان) لإخبار أهلك ومدينتك هناك بما كان مخفياً عنهم، نحن لم نكتف بشهادة من طرفنا فقط وإلا لكنا فعلنا منذ أشهر، بل نريدك أن تكون بشهادتك دليلاً على الأحداث التي لم يشهدها أهل الجنوب بينما ينادون بأمجاد وشعارات فارغة لا يعلمون قدر الدماء التي أريقت من أبنائهم لأجل بدء الحرب.. ولا يقدّرون قدر الدماء التي أريقت من أبناء غيرهم لأجل انهائها.

أصاب (كازان) الإنهاك فلم يستطع الرد ولو بنظرة تجاه المستشار، فخفض الأخير رأسه إلى الأرض ضاماً شفتيه، ثم رفع رأسه بعد لحظات وسأله:

- أتحب أن يخوض أبنائك يوماً حرباً كتلك؟

التفت إليه (كازان) بحدة، فأعاد المستشار سؤاله:

- لقد سمعتني، أتحب أن يخوض أبنائك يوماً حرب كتلك؟ أو حتى أبناء أحدهم أياً كان؟

ظلت ملامح وجه (كازان) متجمدة للحظات، ثم بدأت تتزعزع وتتردد،

وأخذت ترتجف من جديد، فمسح المستشار بيده على صدره في اشفاق، وأخذ كل من بالحجرة ينظر إلى (كازان) الممدد على الأرض منهاراً، فقال الملك بصرامة:

- دعوه يذهب لمنزله، وليصحبه عشرة جنود لحمايته، وأرسلوا معه صناديق الطعام، وليظل الجنود في حراسة بيته ويتبدلون ثلاث مرات في اليوم.

فقام المستشار من جلسته وأشار لبعض الجنود كي يساعدوا (كازان) على النهوض، ثم قال فيهم:

- فليرافقكم طبيب، ولتنصبوا له خيمة بجوار منزله.

أومأ له الجنود في طاعة، ثم خرجوا (بكازان) من غرفة العرش، حيث جاؤوا بحمالة خشبية وأرقدوه عليها وبدأوا في السير نحو منزله، وحوله جنود الحراسة والطبيب، بجانبهم العمال يدفعون عربة الطعام.

أثناء ذلك كان الملك شارداً بنظره وتفكيره، فتقدم مستشاره بالقرب من العرش متسائلاً:

- أجدك غير سعيد بعدما وجدنا ضالتنا أخيراً، جلالتك!

لم يتحرك من الملك سوى عينه التي تركزت في وجه المستشار، ثم اعتدل في جلسته وأجاب باستنكار رغم هدوء لهجته:

- أهذا هو الشخص الذي كانوا يحذروننا منه؟

زفر متهكماً ثم أشار في حدة نحو باب الغرفة حيث غادر (كازان) منذ قليل، وتساءل في سخرية:

- أهذا ما كان ذكره يوتر معنويات جيشي بأكمله؟ إنه يبدو لي كشخص مهتز ومجنون.

تنحنح أحد الحاضرين من صفوة الملك بقوة، ثم قال:

- المعذرة جلالتك، أستطيع أن أؤكد لك أنه هو.

كان المتحدث هو قائد جيوش المملكة، فرد الملك:

- لقد توقعت أن أنبهر في أول لقاء لي به، لكن شكي الآن أكبر من انبهاري الذي أعددته.

أجاب القائد باحترام:

- بحكم الموقف الذي جمعني به أستطيع أن أؤكد لك جلالتك أنه هو، رغم ما ساءت إليه حالته، والتي استنكرتها بدوري أيضاً.

- حسناً، إنه هو.. لكن حالته هذه لا تجعل منه الشخص الذي بحثنا عنه.

❋❋❋

عندما وصل الجنود إلى بيت (كازان)، تقدمهم الطبيب وأخذ يدق على الباب، ثم سمع صوت خطوات تقترب من الداخل، وصوت قفل الباب يُفتح، ولم تكد (راسيا) تفتح الباب حتى صرخت في هلع:

- زوجي!

أجابها الطبيب في سرعة:

- لا تقلقي أرجوكِ، إنه بخير.

- ماذا حدث؟

- لا تقلقي، لقد كان في ضيافة الملك.

أشار الطبيب للجنود كي يدخلوا به، فأفسحت لهم (راسيا)، وأرشدتهم إلى فراشه وهي لا ترفع بصرها عنه، وبمجرد أن وضعوه على الفراش هرعت إليه وقالت في بكاء بينما تنظر إلى عينيه التائهتين:

- عزيزي، ماذا فعلوا بك؟!

قال الطبيب:

- أرجوك يا (كازارشان) طمئنها.

التفتت (راسيا) نحو الطبيب عند سماعها الاسم، ثم عادت بنظرها إلى (كازان) الذي رفع يده ليمسح دموع زوجته، ويقول بابتسامة مُجهدة:

- لا تقلقي يا عزيزتي، أنا بخير.

- ماذا حدث؟

التفت (كازان) إلى الطبيب قائلاً:

- ليخرج الجميع.

أومأ له الطبيب متفهماً وخرج من الحجرة مشيراً للجنود والعمال على الباب بالانصراف، وبعد أن أغلق الطبيب الباب ورائه فتح (كازان) عينيه قائلاً لزوجته:

- برغم قلقي الدائم كنت أشك أن يتواصل البحث عني لأشهر، وفي النهاية انكشف مكاني يا حبيبتي.. أنا آسف لكِ.

قبضت (راسيا) على كفه وأخذت تقبلها، ثم قالت:

- لا تأسف على شيء يا حبيبي، أنا بجوارك.

- لقد.. طلب مني الملك أن آ...

- ماذا؟

أغمض (كازان) عينيه وأخذ يمسح جبهته وهو يجاهد في النطق، فقالت:

- فلتُرحٍ نفسك الآن، والأهم لدي أنك بخير، سأخرج لأعد لك الإفطار ثم تنام قليلاً.

قبّلت رأسه وقامت مسرعة، فتبعها بنظره حتى خرجت من الحجرة، ثم نظر إلى السقف قائلاً:

- بخير؟!

﴿ الفصل الثاني ﴾

دخلت (راسيا) حجرة النوم حاملة طعام الإفطار، وما أن نظرت إلى (كازان) قالت:

- كنت أظن أني سأجدك قد ذهبت في النوم.

حوّل (كازان) عينيه من السقف إليها، ثم قال بصوت خفيض:

- وكيف أشتهي النوم بعد ما حدث لي؟

توجهت إلى الفراش بينما اعتدل (كازان) لاقترابها فوضعت بجانبه الطعام قائلة:

- لتتناول فطورك الآن ودع هذا التفكير والأحاديث لما بعد الطعام كي لا تنصرف شهيتك.

- لقد انصرفت بالفعل.

- لا يا (كازان)، أرجوك.

- صدقيني يا (راسيا)، لا شهية لي للطعام.

- ستجعلني هكذا أتحسر على إعدادي للطعام من أجلك.

نظر إليها بيأس، ثم تنهد قائلاً:

- حسناً.. لن أستطيع تحمل عذابين معاً، وحزنك هو العذاب الأكبر بالنسبة لي.

ثم مد يده إلى الطعام وبدأ يلتقط لقمة من هنا وهناك، و(راسيا) تساعده على تناول الطعام بيديها، حتى بدأ يأكل بشكل أقرب لعادته، وما أن انتهى من الطعام تنهد قائلاً:

- لا أعلم ماذا كنت لأفعل لولا وجودك بجواري!

ابتسمت (راسيا) ابتسامة بسيطة، فقدر الحزن في لهجة زوجها لا يريحها، لذا فقد حملت الطعام عن الفراش واقتربت بجانب (كازان) قائلة له وهي تمسح على صدره المليء بالهموم:

- والآن.. شارك حبيبتك ما قد حدث.

مسح (كازان) جبهته ورأسه بكلتا يديه في قوة، ثم تنهد بقوة قائلاً:

- الملك.

- ماذا به؟

- يريد أن يكتب كتاباً عن الحرب التي انتهت مع الجنوب.

- ماذا؟!.. أي كتاب هذا؟!.. ولماذا الآن؟!

كادت (راسيا) أن تستمر في لهجتها المصدومة، لكنها تذكرت أن زوجها به من الهموم ما يكفي، فقالت في سرعة:

- هوّن عليك يا حبيبي، قل له أنك لا تستطيع هذا وليبحث عن غيرك.. إنه الملك، ولن يعجز عن العثور على أحد آخر من أجل مجرد كتاب.

- كيف أتحجج ولا يوجد بالأرض شاهد شهد الحرب بكل ما بها مثلي؟ لو أراد الملك شخصاً غيري لما انتظر كل هذه المدة، وأرسل جنوده شمالاً وجنوباً للبحث عني!.. لقد شعرت من لهجة الملك ومستشاره والجمع الذي

كان ينتظرني هناك أنهم كانوا يهدفون العثور عليّ جسداً وروحاً.

- هل سيسجنك أو يعذبك؟

- لا أعلم.. الملك رغم كل شيء معلوم عنه الحكمة، كما أن مستشاره قد ذكر لي أن الكتاب من أجل استقرار نفوس الأجيال الحالية والقادمة حسب وصفه، وتوعيتهم بفظاعة ما حدث وتفاصيله.. ليكون عبرة للجميعٍ بمن فيهم هؤلاء الحمقى بالجنوب الذين ما زالوا متأثرين بالهزيمة بدلاً من أن ينعموا بانتهاء الحرب.

- إذاً ما الحل؟

قلّب (كازان) كفيه بقوة ثم نكس رأسه بين راحتيّ يديه، فاقتربت (راسيا) أكثر في لهفة وهي تقول مترجية:

- أرجوك يا (كازان) لا تعذب نفسك، لا أتحمل رؤيتك هكذا.

- لا أريد تذكر شيء عن تلك اللعنة.

- هل نهرب إذاً؟!

رفع (كازان) رأسه بحدة وسألها مستنكراً:

- إلى أين يا (راسيا)؟!.. إلى أين؟!.. هل نعود إلى الإمارة الجنوبية كي تطولني الذكريات المؤلمة وعذاب الضمير أينما ذهبت؟!.. أم نهرب بين مدن هذه المملكة ونحيا دائماً في ترقب وخوف بعدما وجدنا الأمان هنا؟!

صمتت (راسيا) بعد كلمته، وخيم الصمت عليهما لمدة وكل منهما يفكر، حتى قطعت الصمت قائلة بهدوء:

- (كازان)!



- ماذا؟

- توصلت لحل أرجو ألا تغضب مني لاقتراحه.

حاول (كازان) أن يبتسم لكنه استطاع فقط أن يقول بهدوء:

- لا يمكن أن أغضب منك يا عزيزتي، كلي آذان.

تنحنحت برقة ثم قالت:

- أنظر.. نحن هنا نعيش في أمان عن أي مكان آخر، تحت رعاية ملك عادل وحكيم، وهذا الملك الآن يعرفك ويطلب منك طلباً، فلن يضيرك أن تجيبه وتتخلص من هذا الطلب بألمه للأبد، كما أن الملك سيجزيك على هذا بكل تأكيد حتى ولو بإعطائك الأمان الدائم، وحينئذ سننعم أكثر في حياتنا هنا دون أي خوف.. أعلم.. أعلم أن ذكر هذه الفظاعات يؤلمك، لكن تذكر أنه رغم ألم نفسك فلن يطولنا أي خطر أو قلق تجاه العودة لتلك الحرب مجدداً، فهو ألم مؤقت مهما بلغت شدته، يعقبه حياة مطمئنة لنا بعد هذا...

قطعت (راسيا) حديثها عند تلك النقطة كي تنظر إلى ردة فعل زوجها، فرأته ينظر إليها في تأمل، فشعرت بالقلق وقالت في سرعة:

- لا تؤاخذني يا (كازان)، لن أذكر مجدداً هذا الـ...

قبض (كازان) على يديها مطمئناً إياها، بينما صمت مفكراً.. وطال صمته، بينما يدور نظره في ركن الحجرة كأنه يرى أشياءً تتحرك هناك، ثم ارتسمت ملامح شيء من القبول على وجهه ورفع يد زوجته يقبلها، ثم قال لها بلهجة لم يدر لها شعوراً واحداً:

- حسناً.. حسناً يا عزيزتي، أقسم لك أني متردد وخائف في صدمتي

وموافقتي.. مترقب لهذا الألم حتى وإن تأهبت له.. لكن يبدو كما تقولين أنه لا سبيل لنا كي ننعم بحياتنا في هدوء إلا هذا.

حاول أن يبتسم فتهلل وجهها، وأجابته في سعادة:

– أقسم لك أنه لا يهمني إلا راحتك، وأنا بجانبك في أي حال يكون.

– وأنا أعيش بوجودك ومن أجلك.. أحبك يا (راسيا).

ابتسمت في خجل وكادت أن ترد عليه لولا أن طُرق باب المنزل، فزفر (كازان) وقام بصدر منقبض ومتذمر نحو الباب لقطع تلك اللحظة السعيدة مع زوجته، فوجد أنه الطبيب فسأله في حزم:

– ماذا؟

ارتبك الطبيب لرؤية (كازان) يرد عليه بهذه القوة بعدما كان منهاراً منذ ساعة، فتنحنح قائلاً:

– أرجو المعذرة، لكني رغبت أن أطمئن عليك.

– إني بخير، لا تقلق، ويمكنك أن تعود إلى القصر من الآن.

– لكن الملك قد أمر أن...

– قلت لك أني بخير ولم أعد أحتاج طبيباً، أشكرك جزيل الشكر على مجهودك.

– سيدي إني أقوم بواجبي فقط.

– أشكرك حقاً.

ضم الطبيب شفتيه ثم قال:

- حسناً يا سيدي، وحمداً للرب أنك قد أصبحت بخير.

ثم رجع بظهره خطوات قليلة إلى الوراء واستدار ليرحل، فأغلق (كازان) الباب ليعود إلى زوجته.

***

مر يومان؛ و(كازان) يحاول أن ينسى ذكريات ذلك اليوم الكئيب بما يقضيه مع زوجته من وقت سعيد، وفي صباح اليوم الثالث طُرق الباب، ففتحه (كازان) ليجد مستشار الملك أمامه مبتسماً ويقول:

- صباح الخير يا (كازارشان).

انقبض قلب (كازان) لرؤية المستشار التي ذكرته بانهياره في القصر...

" كيف حالك الآن؟ "

عاد (كازان) إلى سؤال المستشار فأجابه:

- ماذا؟!.. أ.. نعم.. صباح الخير.. نعم.. بخير.

اتسعت ابتسامة المستشار، ثم تساءل:

- هل أتيتك في وقت غير مناسب؟

رد (كازان) في اقتضاب:

- لا بالطبع.

- (كازارشان)، أرجو ألا يكون ذلك اليوم قد جعلك تبغض حتى رؤيتنا!

تنهد (كازان) قائلاً:

- وماذا الآن؟

مسح المستشار بيده على لحيته في حرج بسبب لهجة (كازان)، ثم قال:

- يبدو أنك تفضل الحديث أمام الباب، حسناً.. الطبيب قد أرسل لنا أنك قد أصبحت بخير في نفس اليوم، ولكن تركناك يومين لتأخذ قسطاً أكبر من الراحة، أما الآن.. فالملك يطلب رؤيتك.

انقبض قلب (كازان) أكثر، فاقتربت زوجته من الباب وهي تنادي:

- من بالباب يا (كازان)؟.. آه مرحباً بك يا سيدي.

أومأ لها المستشار مبتسماً، وقال لها:

- أهلاً بك يا سيدتي، أنا (تاسيرون) مستشار الملك.

- تفضلوا بالدخول.

اتسعت ابتسامة المستشار وهو يقول:

- أشكرك جزيل الشكر، لكن يبدو أن (كازان) يفضل الحديث عند الباب.

نظرت (راسيا) إلى زوجها في قلق، وتساءلت:

- ماذا حدث؟

فرد عليها المستشار:

- لا تقلقي، الملك فقط يطلب رؤيته.

نقلت (راسيا) بصرها إلى زوجها ورفعت يديها إلى ظهره تربت عليه في هدوء كي تهون مما به، فقال (كازان) للمستشار:

- حسناً، سألحق بكم.

- لا، لن أستطيع أن أعود إلى القصر بدونك.

- وماذا إن لم أرد أن أذهب الآن؟

- (كازارشان)، أُقدِّر تماماً ما تشعر به، لكني أقول لك الملك يريدك.. الملك!.. هل تعي ما أقول؟!

تنهد (كازان) في يأس ثم أجاب:

- حسناً، ولكن أريد أن يظل الجنود للحراسة هنا حتى أعود.

أجابه المستشار في ابتسامة ودودة:

- لا تقلق يا (كازان)، لقد أمر الملك بحراسة منزلك دائماً، في وجودك أو لا، وإن طلبت زوجتك أي شيء من السوق أو أي مكان فلتطلب فقط من أحد الجنود، فهم مأمورون بإجابة طلباتكم.

- حسناً، أعطني لحظات حتى أستعد.

- تفضل، وسأنتظرك في الموكب.

نظر (كازان) إلى العربة ذات الخيول التي أتى بها المستشار، وكان يحيطها عدد من الجنود مرتدي الدروع الخاصة بالقصر الملكي، فأومأ للمستشار ودخل منزله مغلقاً الباب في هدوء، وذهب إلى غرفة نومه كي يبدل ملابسه، حيث ساعدته (راسيا) وهي تقول:

- أرجوك يا عزيزي ألا تقلق، وأن يكون صدرك رحباً لحديث الملك.

أومأ لها بالإيجاب ثم اعتدل متنهداً عدة مرات وحاول أن يبتسم فابتسمت هي مشجعة إياه، وصحبته إلى الباب مودعة، ثم تأملته وهو يمتطي جواداً

بجوار عربة المستشار، فعادت إليها ذكريات زوجها عندما كان جندياً شديد البأس في الجنوب، وظلت واقفة أمام الباب حتى تحرك الموكب، فنظر إليها (كازان) بابتسامة.. فبادلته الابتسامة قبل أن يلتفت مع الموكب نحو القصر، وظلت تتأمله بقلق حتى ابتعد.

***

دخل (كازان) حجرة العرش بهيئة مختلفة عن هيئته التي كان عليها منذ يومين، فقد دخل بثبات، وكانت في عينيه نظرة جادة حادة، لكنه كان قلقاً بداخله أكثر مما سبق لأن الملك سيجدد طلبه بكل تأكيد، فتذكر قول زوجته بأن ما يمر به سيذهب لاحقاً إلى غير رجعة، محاولاً التخفيف على نفسه وكأنها معه.

توجه (كازان) إلى عرش الملك بتلك الهيئة، فابتسم الملك وقال:

- مرحباً بك (كازارشان)، يا للمهابة التي عليك!.. لعلها تكفي الآن لتؤكد لي كيف كنت محارباً شديداً في جيش (كاسارشوناير).

شعر (كازان) بعدم الراحة لهذه الكلمات، فقال في رجاء:

- أرجوك سيدي الملك ألا تذكرني بهذا، فما طلبته مني كان كافياً بصدق لإصابتي بالحزن والألم.

- ستعلمٍ غداً يا (كازارشان) قيمة ما ستفعله بعد أن تنتهي منه، كما أنك ستكون بطلاً.

- لم تعد البطولة تعني لي شيئاً.

ضحك الملك ضحكة قصيرة، ثم سأله:

- هل استنفدت تلك الحرب بطولتك حتى لا تجد دافعاً كي تأتي بفعل نبيل كهذا؟

صدم قول الملك قلب (كازان)، فنظر إلى الملك منعقد الحاجبين قائلاً:

- سيدي، لقد قبلت بطلبكم، وأجد أن هذا الكلام لا يجلب عليّ إلا المزيد من الألم، ولن يساعدني المزيد منه في أي أمر يكون.

رفع الملك حاجبيه في تعجب وتساءل:

- أحقاً قد قبلت؟!

تنهد (كازان) ثم أجاب:

- نعم، نعم جلالتك.

تهلل وجه الملك في رضا، فتقدم المستشار وربت على كتف (كازان) وهو يقول للملك:

- البطل ما زال بطلاً جلالتك.

التفت (كازان) في حدة إلى المستشار وقال بجدية:

- أرجو ألا تذكروا كلمة بطل هذه.

ابتسم الملك قائلاً:

- من اليوم ستكون ضيفاً في قصري، حتى ننتهي من هذا الكتاب.

- أمرك أيها الملك، ولكن لي رجاء عند جلالتكم.

- وما هو؟

- أرجو أن تأتي زوجتي إلى هنا وتكون معي.

- بالتأكيد، لا تقلق، وستظل الحراسة على بيتك رغم هذا.

- لا أجد فائدة لهذا، فلا يوجد ما قد يُسرق منه.

اتسعت ابتسامة الملك وهو يسأل (كازان):

- ألم يربح محارب مثلك جوائز من مملكته أو غنائم من معاركه؟!

- الكثير، لكني تركت كل شيء خلفي كي آتي إلى مملكتك هنا يا سيدي.

- ألهذه الدرجة كنت تود الابتعاد عنهم؟!

- أنا لم أرد إلا أن أقضي حياتي بسلام مع زوجتي، ولعنت بسبب هذه الحرب أي ثروات أو مجد قد يأتيان منها.

تأمله الملك بإعجاب، ثم قال:

- ومملكتي ترحب بشخص نبيل مثلك يا (كازارشان)، وللعلم لا توجد سرقات منتشرة في مملكتي.

- أعلم هذا أيها الملك، ولهذا تعجبت لإصرارك في حراسة الجنود لبيتي رغم فقره.

- هذا إكراماً لك يا (كازارشان).

ابتسم (كازان) ممتناً وأجاب:

- أشكرك جزيل الشكر يا سيدي، آملاً أن يحيطني كرمك وأمانك هذا حتى النهاية.

أومأ الملك برأسه ثم التفت إلى المستشار، الذي ابتسم للملك بدوره ثم نادى أحد الجنود عند باب غرفة العرش، فأسرع إليه الجندي بخطوات

واسعة، فقال له المستشار:

- فلتذهب أنت وسبعة من الجنود بعربة من الموكب إلى بيت (كازارشان)، ولتأتي بزوجته عزيزة ومصونة.

انحني الجندي ثم استدار مسرعاً لينفذ الأمر، فالتفت (كازان) إلى الملك متسائلاً:

- هل نبدأ الآن؟.. أم متى؟

- سنبدأ خلال ساعة حتى تطمئن على زوجتك في الحجرة التي أعددناها لكم في القصر، وحتى يستعد الكتبة...

ثم ابتسم الملك ابتسامة واسعة وتابع:

- وحتى أستعد أنا أيضاً، فلدي ما سأذكره بالكتاب.

***

صعدت (راسيا) الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني في القصر بصحبة المستشار، فوجدا (كازان) جالساً أمام بابها، وما أن انتبه لهما حتى هب واقفاً في سرعة وهو يتأمل زوجته، فتعجب المستشار وسأله:

- لمَ لم تدخل حتى الآن؟!

تأمل (كازان) زوجته مطمئناً عليها، وأجاب:

- كيف لي أن أدخلها قبل أن تأتي زوجتي؟

ابتسمت (راسيا) في خجل، وتأمل المستشار حب هذين الزوجين حيث استدار (كازان) وفتح الحجرة ثم التفت إلى زوجته مبتسماً، ومد يده يدعوها للدخول قبله، فتقدمت في خجل حتى دخلت، ثم التفت (كازان) إلى

المستشار فوجده يتأملها في إعجاب، فابتسم (كازان) قائلاً:

- إنها أغلى وأثمن ما لدي.

- دمتما لبعضكما يا بني...

ربت على كتف (كازان)، ثم تابع بعد لحظة:

- عندما يحين الوقت سأرسل لك من يستدعيك فكن مستعداً.

تنهد (كازان) ثم أجاب:

- حسناً يا سيدي.

ابتسم المستشار ابتسامة ودودة وطمئنه في لهجة أبوية:

- لا تقلق يا بني، أنت تعلم أنك في أمان وفي رعايتنا هنا.

ابتسم (كازان) بالكاد ثم أجابه:

- كلي أمل بهذا يا سيدي.

ولم يكد ينتهي من جملته حتى وصل لمسامعهما صوت جندي يقترب مسرعاً، فالتفتا إليه وقد وصل إليهما قائلاً باحترام:

- سيدي، لقد أمر الملك بأن يستريح سيد (كازارشان) وزوجته، وليبدأ الحديث في الصباح.

فالتفت المستشار إلى (كازان) قائلاً:

- ألم أقل؟.. إنك هنا في رعايتنا، نحن لسنا تهديداً ولا نرغب في أي ألم ممكن لك، وها هو الملك قد أمر أن تستريح حتى الغد مع زوجتك.

أومأ (كازان) مبتسماً ثم شكره بامتنان، فاستأذنه المستشار وتمنى له ليلة

طيبة، ثم انصرف مع الجندي وتركه يدخل حجرته ليستريح مع زوجته حتى يأتي الغد المنتظر بما يحمل من أحداث وأحاديث.

❊ ❊ ❊

دخل (كازان) الحجرة فوجد (راسيا) تقف أمام صندوق بجانب الفراش، فتقدم إليها متسائلاً:

– ماذا هناك؟

أجابته في لهجة امتلأت بالسعادة:

– هذا الصندوق مليء بالملابس، ويبدو أنها من مقاسنا أو قريبة من ذلك.

أحاط كتف زوجته في حنان متمتماً:

– تستحقين ما هو أفضل يا حبيبتي، وكم تمنيت لو كنت أتيت بغنائمي إلى هذه المملكة كي أشتري لك ما تتمنين.

التفتت إليه قائلة:

– لا، لا يا (كازان).. لم ولن أرغب أبداً بأن تنفق عليّ مما غنمت من تلك الحرب.

قبّلها (كازان) ثم قال:

– أريدك غداً بجانبي، أشعر وكأن الأمس يعود ليتغذى عليّ من جديد.

احضنته (راسيا) قائلة:

– لا تقلق، أنا بجانبك دوماً.

انطلق صوت الرعد ففزع الزوجان، وما لبثا أن ضحكا لهذا، فقال

(كازان):

- هيا، لنذهب للنوم الآن، فغد يحتاج لأن نرتاح قبله قدر ما نستطيع.

الفصل الثالث

" ماذا تفعل أيها الجندي؟! "

" أنت تعصي الأوامر! "

" (رازام).. لا "

" ما هذا الصوت؟! "

" تمرد أيها الجنود.. اقتلوه "

" إنها لرحمة لي أن أموت قبلك "

" لا "

" (كازان)! "

" لاااا "

" (كازان).. (كازان) "

" أبي "

" (كازان).. استيقظ "

شهق (كازان) وهو يقوم بحدة من نومه، أخذ صدره يعلو ويهبط باضطراب وهو يتأمل هذه الجدران الغريبة، وما أن وعى أنه في حجرته بقصر الملك حتى بدأ يبكي في حرقة، فاقتربت منه زوجته أكثر وضمته من الخلف وأخذت تبكي هي الأخرى...

" ألن أتخلص من هذه اللعنة؟! "

صرخ (كازان) بهذه الجملة، فضمته زوجته أكثر وهي تقول:

- ستتخلص منها يا (كازان)، ستتخلص منها اليوم.

تأوه (كازان) في حسرة، ثم قال:

- أريد أن أتخلص منها يا (راسيا)، لقد بكيت بالشهور الأخيرة كما لم أبك طوال عمري.

أخذت عينا (كازان) تدمعان للحظات حتى شهق شهقة بسيطة ومسح دموعه، ثم التفت إلى زوجته وقال في رجاء:

- أرجوكِ لا تدعيني لهذا الكابوس مرة أخرى.

- لا تقلق، أقسم لك أني معك وسأكون هكذا دوماً.

أومأ لها برأسه في حزن، فمسحت دموعه مهملة دموعها، وقالت في ابتسامة مشجعة كي تهون عليه:

- هيا، هيا لتغتسل ثم نُفطر سوياً قبل أن يستدعينا الملك.

***

" المجد للملك (جاسيرشونايز) "

وقف الجميع في غرفة العرش أثناء دخول الملك، الذي توجه إلى العرش في وقار وصعد إليه ثم استدار إلى الحضور، حيث كان بالحجرة المستشار (تاسيرون) الذي تقدم في سرعة إلى أسفل العرش وقال للملك وهو يشير إلى الجمع:

- جلالة الملك (جاسيرشونايير)، الجميع حاضر اليوم...

ثم أخذ يشير إلى كل شخص بعينه ويذكر اسمه للملك:

- المحارب السابق (كازارشان) وزوجته (راسيا)، والقائد الأعلى لجيوش مملكتك، يليه كبار قادة الأجنحة والقوات الخاصة، ووزراء شؤون العامة والتعليم والزراعة والصناعة، وهناك المؤرخ والكاتب (هيموتاير)، والكتبة الأربعة المساعدون له.

أومأ الملك برأسه وهو يدير رأسه ملتفتاً إلى الجميع حتى وصل نظره إلى الأريكة في مواجهته بالأسفل التي يجلس عليها (كازان) وزوجته، فابتسم لهما وقال:

- صباح الخير يا (كازارشان).

أجابه (كازان) في هدوء:

- صباح الخير جلالة الملك.

- صباح الخير يا (راسيا).

فابتسمت (راسيا) مجيبة إياه:

- صباح الخير جلالة الملك.

- كيف حالك اليوم يا (كازارشان)؟

تنحنح (كازان) ثم أجاب:

- بخير يا سيدي ما دمت في ضيافتكم.

أومأ الملك برأسه وهو يبتسم برضا، ثم دار ببصره مرة أخرى في الحجرة

حتى ابتعد ببصره إلى خارج الشرفة وشرد قليلاً، والجميع ينظر إليه، وبعد مرور لحظات عاد ببصره مرة أخرى (لكازان) وقال:

- هل أنت مستعد كي نبدأ الآن؟

تنهد (كازان) بعمق، وأجاب:

- أنا مستعد.

فتوجه الملك بنظره إلى الكتبة، فوجد كل منهم ينظر إليه منتظراً ومستعداً لبدء حديثه، وكل منهم يحمل قلم كتابته ومحبرته بجواره، وكتاب كل منهم مفتوح أمامه، فبدأ الملك يتحدث:

- أنا الملك (جاسيرشوناير).. ملك المملكة الكبرى، وأبدأ كتابي هذا المُهدى إلى الأجيال الحالية قبل القادمة، وعبرة عمن مات لمن يعيش ثم لمن يأتي بعد ذلك، هذا الكتاب يحكي تاريخ حرب قامت بين شقيّ هذه الأرض، حملت بين بدايتها ونهايتها أفظع ما قد يُكتب في تاريخنا، فلقد قامت هذه الحرب كأول حرب تقوم بأرضنا هذه بعد اتحادها تحت مسمى (المملكة العادلة)، وبهذا الكتاب أسعى لأن تكون آخر حرب...

سكت الملك عند تلك النقطة، فنظر إليه الجميع فوجدوه يلتفت إلى (كازان) ويتابع:

- ويساهم في هذا العمل النبيل.. المحارب السابق (كازارشان ماثير بوتابيرون)، من أقوى جنود المملكة الجنوبية -سابقاً- التابعة للملك السابق (كاسارشوناير)، وقد فضّل هذا المحارب الانشقاق عنهم، عن الظلم والتجبر وإراقة الدماء، ومما يثبت صفاء نيته أنه قد ترك كل ما يملك من مجد وثروة كي يأتي إلى مملكتي، ليعيش منطوياً فقيراً مع زوجته المخلصة (راسيا)،

ويعمل بالأعمال الشاقة كي يوفر ضرورات الحياة لزوجته قبل نفسه، ضارباً مثلاً عظيماً في التضحية من أجل السلام والحب الذي أرجو أن يعم نفوس مملكتي حتى ساحلها الجنوبي.

ولعله السبب الأكبر في أن تلهمني الحكايات التي رُويت عنه أن أكتب هذا الكتاب، لأنه أثبت ما كان يقوله لي والدي الملك العادل: "لا يمكن انتزاع الإنسانية من الجندي المحارب، ولن ترغمه أشد السيوف حدة على انتزاع قلبه إلا إذا أراد هو هذا"، وبالرغم مما سمعته عن بشاعة هذه الحرب التي أنستني قول والدي، إلا أن ما فعله (كازارشان) ذكرني بقوله مجدداً وأثبته لي، ولهذا أهدي هذا الكتاب لروح والدي الملك العادل (ماجودشوناير).. وبهذا تنتهي مقدمة هذا الكتاب.

سكت الملك؛ ونظر إلى الكتبة حتى ينتهوا من كتابة المقدمة، ويستعدوا لإعداد أول صفحة، وما أن فعلوا حتى قال:

- أنا الملك (جاسيرشوناير) ابن الملك العادل (ماجودشوناير) وملك المملكة الكبرى، هذه المملكة التي كانت منقسمة إلى مملكة شمالية وأخرى جنوبية، كانت منذ ما يزيد عن أربعة عقود مملكة واحدة يحكمها والدي، وهي تشمل كل الأرض المعروفة لدينا، خاصة بعد أن خسف زلزال جزيرة الإمارة الشرقية منذ زمن بعيد، ولهذا كان أبي ملك للأرض جميعاً.

وقد أنجبت والدتي في أول مرة ذكراً وهو أخي الأكبر (ماريرشوناير)، ثم أنجبت بعده بسنتين ذكرين توأمين، وأسمت أحدهما (جاسيرشوناير) والآخر (كاسارشوناير).

وعندما بلغت أنا وأخي التوأم العشرين من العمر، جعلنا والدي أمراء في مكانين بعيدين كي ننال الخبرة والقدرة على الإمارة والقضاء في شؤون

الناس، وعيّن مع كل منا مستشاراً ذو حكمة وخبرة، وكان من نصيبي مستشاري المخلص (تاسيرون)، أما أخي الأكبر فلقد أبقاه والدي بالقصر كي يتعلم كل شيء عن الحكم بجواره ليكون خلفاً مباشراً له.

ومع مرور الأشهر كانت تقارير عني وأخي تصل لأبي عن كيفية تصرفنا، كان (كاسارشوناير) يتصرف بتجبر مع العامة بقصر أبي بالمنطقة الجنوبية للمملكة، بجانب طمعه في جمع الثروات واحتكار تجارات، وتسخير مجهود العمال من أجل هذا، فقد كان يظن أن هذا من مصلحة الملك، إلا أن أبي قد حذره مما يفعل، وأن الملك لن يستفيد شيئاً من جمع الثروات ما دام ينعم بالثروة الحقيقة وهي محبة الناس والأمان بينهم، ولكن (كاسارشونايير) لم يلق بالاً ولم يبد استجابة لكل محاولات تقويمه، بل زاد على ذلك تسلطه على قبائل وواحات المنطقة الجنوبية التي لها اتفاقات سابقة مع أبي مثل جميع قبائل وواحات المملكة باحترام امتلاكها لنظامها وعرفها الخاص تحت حكم الملك العادل.

أما أنا فلقد عاملت الناس بكل ما ملكت من حب لأبي واقتداءً به في المقام الأول، ثم إكراماً لهؤلاء الناس، لقد فلح أبي في أن يجعلني أشعر بقيمة كل خير من خلال حبي له، واستمر الأمر على ما هو عليه معي ومع شقيقي، حتى حدثت فاجعة كبرى بموت أخي الأكبر بحمى شديدة ومفاجئة أصابته، لم يفلح بعلاجها أي طبيب بالمملكة، وحينئذ قرر أبي أن يكون ولي عهده من أبنائه هو أنا.. وبالطبع استعر قلب أخي حقداً ورحل عن القصر، وما هي إلا أيام حتى أصيب أبي بنفس الحمى التي أصابت أخي.. ولحقت روحه به.

سكت الملك؛ وعاد بنظره إلى (كازان) إن كان لديه استفساراً، فوجده

يحدق به في تعجب الذي يعلم لأول مرة، فابتسم الملك وتابع:

- كل هذه الصدمات وما أحاطتها نفسي من شكوك جعلتني أستمع للنصح بأن أكون أكثر حرصاً حتى في طعامي وشرابي، وفي تعيين المقربين مني، وقد تولى مستشار أبي تنصيبي ملكاً للمملكة الكبرى بينما تخطيت العشرين من العمر بقليل، لكني لم أنعم بحكمي لأيام حتى وصلتني رسالة من أخي يعلن بها تمرده واستقلاله كملكٍ للمملكة الجنوبية.

لم أرد أية مشاكل في أول فترة حكمي، بل أردت أن أثبت نفسي كخلف جدير بالملك العادل، وكان ردي بأن ذهبت لأخي بجيش معسكر (ماجود) الكبير حتى القصر الجنوبي كي أحطم غروره وأقنعه، لكنه فاجئني بادعائه أنه من ينبغي أن يكون الملك على كل الأرض، لأن المملكة الكبرى أجدر بملك استطاع أن يُخضع الجميع بما فيهم القبائل والواحات التي تمردت على نظام الملك السابق والمملكة بأكملها باحتفاظها بطرق حكم خاصة وأعراف مختلفة ومتخلفة عن باقي المملكة، فرددت ادعائه بأن اختلافهم هذا يجب احترامه، كما أمرته بالخضوع لأمر أبي وميراثه العزيز بين الناس لكنه رفض.

قررت أن أدع له أياماً للتفكير، لكني لم أكد أغادر حتى حاول بعض جنوده اغتيالي خارج قصره، فقبض عليهم حراسي وتخلصوا منهم، وعدت إلى قصر أبي بالإمارة الوسطى والحزن يملأ صدري على ما صار إليه أخي.

أخذت عدة أيام أفكر في حل بعيد عن الحرب كي لا يموت جنود المملكة الواحدة بأيدي بعضهم من أجل أطماع شخص واحد مهما كان منصبه وأصله، مهما أغراهم بالمال ووعدهم بالكنوز، حتى طلبت من أخي أن يأتي إلى قصر أبيٍ كي نتفاوض على حل الأمر، لكن الحوار اشتعل بيننا حتى رفع عليّ خنجراً وكاد أن يطعنني لولا أن دافعت عن نفسي حتى تدخل رجالي

ورجاله.

وقتئذ اكتشفت ما صار إليه من وحشية، وأنه قد يكون السبب وراء موت أخي وأبي لأجل طمعه في الحكم.. وبعد تفكير لم أجد إلا القبول مضطراً بانقسام المملكة، وأن أترك أخي لحاله وأطماعه، وألا أتعرض له بجيشي فننهي بعضنا البعض، لكن بشرط أن يلتزم العدل في معاملة كل ما هو واقع داخل أرضه، وألا يلوث نفوس الناس بوعوده.

ورغم تعهده بهذا إلا أني اكتشفت مع مرور الأيام أنه كان يماطلني ويخدعني، كنت أعلم أنه لن يرضى إلا بأن يحكم كل المملكة، خاصة أن المملكة الجنوبية أصغر مساحة من مملكتي، فأنا يقع تحت حكمي إمارة الشمال والإمارة الوسطى بما يتبعهما من مدن وقرى وواحات ومراكز إدارة ومعسكرات.

ومر على ذلك ما يزيد عن ثلاثة عقود، كانت تأتيني فيهم الأخبار من خلال التجار والمسافرين عما يتعامل به أخي مع شعبه الجنوبي، وتلك الأسطورة التي تحكي عن معسكر قد تم انشاؤه لإعداد وحوش بكل معنى الكلمة.. لذا.. وعند هذه النقطة.. (فكازارشان) هو أفضل من يتحدث عن هذا التاريخ.

ختم الملك حديثه ناظراً إلى (كازان) الذي كان يحملق متعجباً، ولكن ذكر الملك لاسمه قد نبهه قليلاً، فهز رأسه كي يستفيق من أفكاره ورفع يده كي يتكلم، فأذن له الملك، فتنهد (كازان) وقال:

– لقد علمت من جلالتكم الآن لأول مرة أنه لا أرض ولا ممالك غير هذه المملكة الكبيرة التي كانت منقسمة، وهناك أمور قد تم ذكرها الآن أنا متأكد أنها كانت لتفاجئ الآلاف من الجنود الذين تم جرّهم إلى المذبحة،

دون غاية واضحة إلا المثول لأمر ملك لم ير كيف يُلقى جندي واحد إلى الموت في سبيل ذلك.

- بالفعل يا (كازارشان)، ولذا أريدك أن تذكر كل ما تستطيع ذكره عن حياتك، أريد أن أعلم ما الذي صنع هذا الكائن وأدخله لتلك الدروع، وما قد تقوله أفكاره ونبضاته المتوارية خلفها -إن وجدت- مروراً بكل ما حدث، والآن.. ألديك استفسارات عما قلت؟ أم أنك ستبدأ في السرد؟

أخذ (كازان) من الهواء شهيقاً عميقاً وكتمه داخله، ونظر إلى الأرض للحظات، علم أنه لا مفر ولا فائدة من تأجيل حديثه، فزفر في بطء بينما يعود بنظره إلى الملك ويقول:

- حسناً.. سأبدأ بالسرد جلالة الملك.

الفصل الرابع

اسمي (كازارشان ماثير بوتابيرون)، ومعنى (كازارشان) في اللغة القديمة كما تعلمون هو (عظيم الشأن)، ولقد اسماني والدي بهذا الاسم كما أخبرني لأنه رأى في ملامحي ما أبشره، وتنبأ لي بعلو الشأن وأنا ما زلت رضيعاً، بينما يدعوني الناس (بكازان) كما كانت تطلق عليّ والدتي، وهو كاسم تخفيف أو تدليل (لكازارشان)، أما عن أبي فكان يعمل في ديوان القصر الملكي الجنوبي، ولكن هذا لم يمنع أني قد قاسيت كثيراً منذ صغري.

كانت الحياة في المملكة الجنوبية مليئة بالكآبة والمعاناة، فمنذ أن وعيت الحياة وأبي يخبرني بأن الملك (كاسارشونا ير) قد أنشأ منذ عقدين تقريباً أول معسكر حربي بالجنوب لمنافسة المعسكرات الشمالية، وأنه يعد الجيوش للسيطرة على الشمال حتى أقصاه، ورغم علم الملك الشمالي (جاسيرشونا ير) بهذا إلا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاه هذا بالحرب، فحرب مع جيش الجنوب الذي يتدرب بأسلوب وحشي وحتى انتحاري سيكون ضحاياها بعشرات الآلاف على أقل تقدير.

كانت أخبار الجنوب تصل للشمال عبر حركة التجارة بين القبائل والواحات التي لم تنقطع رغم العداوات بين المملكتين، وكما أخبرني أبي أيضاً.. إن ما يصل للشمال من أخبار هي لا شيء أمام الحقيقة، ولقد رأيت الحقيقة بأم عينيّ.

كان الملك عندنا يشجع على إنجاب الذكور، وكان لكل أب هدية مجزية

مقابل كل ذكر ينجبه، وأنجب أبي خمسة أولاد ثم بنتين ثم ثلاثة أولاد ثم بنت، وكان ترتيبي الخامس بين اخوتي، وكان كل ولد يُولد بكل شبر بالمملكة يتم تسجيله بأحد دواوين القصر الفرعية حتى يتم أخذه للمعسكر وهو بعمر العاشرة، حيث تأتي لجنة إلى منزله لتختبر حالته الجسدية والذهنية كي ينضم للجيش، حيث التدريب في معسكر على أطراف المدينة على أداء الأعمال الشاقة ورفع الأثقال والتدريب على المصارعة حتى يصلب عوده، وذلك تحت تدريب قادة لا يختلفون إلا في الهيئة عن وحوش الصحراء، حيث تتم معاملة الأطفال بكل قسوة كي يزيلوا أي رحمة من قلوبهم منذ الصغر قدر المستطاع.

لقد جربت هذه المعاناة بنفسي، فلم يكن كوني ابناً لرجل في الديوان الملكي عذراً، فحتى أبناء الأمراء والوزراء يمرون بكل هذا، لم تكن هناك أي أفضليات للنسب والأصل هناك، فابن الوزير يمكن أن يكون أقل الناس شأناً وتعرضاً للقسوة والذل إن لم يبد أي قوة وجدارة، وفي الحقيقة.. لم يكن هناك قيمة لكونك ابناً لوزير أو ابناً لخادم، أنت منذ سن العاشرة ملكهم الآن بأمر الملك مقابل هدايا وأموال وترقيات لمن ألقى بابنه إلى هذه الحياة.

وعندما يصل الطفل منا إلى سن الثانية عشر.. يتم إرساله لمعسكرات.. في عمق الصحراء، و...

آ... و...

" اهدأ يا (كازان) "

انتبه (كازان) إلى قول الملك، فأخذ يجفف العرق الذي ينحدر على وجهه، ورفع رأسه إلى السقف وأخذ في التنفس بعمق محاولاً تمالك ارتجاف صدره، ثم بعد لحظات مسح وجهه بقوة ونظر بجانبه إلى زوجته التي وضعت يدها

على كتفه كي تطمئنه أنها بجانبه، واقتربت منه هامسة:

– تذكر يا عزيزي، يوماً ما ستتخلص من هذا الألم، تحمل من أجلنا يا عزيزي أرجوك.

أجابها (كازان) بابتسامة بسيطة، ونظر إلى الملك، الذي قال له:

– هل تحب أن ترتاح قليلاً؟

– لا يا سيدي، سوف أكمل.

وتنهد ببطء ثم تابع...

***

عندما تأتي هذه المرحلة تعلم أنك لن ترى أهلك مجدداً، على الأقل لمدة عشر سنوات قادمة، لقد كان كون المعسكر الأول على أطراف المدينة يمثل أملاً أو دعماً معنوياً بسيطاً أنك قريب من منزلك، وبرغم الزيارات التي يسمحون بها على فترات متقطعة، إلا أن اندماجك في هذه الأجواء ويأسك من أن تجد منها مفراً كان يجعل مقابلة الأهل بتلك الزيارات يصبح بالتدريج أمراً رتيباً مملاً من ناحيتك لا شوق فيه ولا مشاعر، حتى لتصبح مع مرور الوقت تشعر بالانزعاج من هؤلاء الأفراد الذين يقاطعون سير يومك من أجل رؤيتك!.. لماذا يريدون رؤيتي؟!.. من أجل أمل أحمق أني سأعود إليهم يوماً؟.. أم من أجل رابطة أسرية أصبحت أكثر شفافية من الهواء!.. أو ربما لا تريد أحداً يذكرك بأنه كان لك بيت وأسرة، ومشاعر حمقاء لا فائدة منها في المعسكر إلا جلب العقاب لك لتقصيرك، أو إبدائك للحظات ضعف مثل الرؤية الضبابية التي تنذرك أنك على وشك البكاء.

أما عن المعسكرات في عمق الصحراء فقد كانت كابوساً بشعاً، كان

الأطفال يمرون بها بأقسى التدريبات من القتال بالعصيّ والسيوف المعدة خصيصاً لنا والتعود على امتطاء الخيل.. إلى رماية السهام والحراب وحمل المزيد من الأثقال، كان الإخفاق في أحد التدريبات عقابه البيات ليلاً في العراء مربوطاً إلى عامود في وسط المعسكر حتى الصباح، فتتعرض للبرد القارس ورعب الوحدة طوال ظلمات الليل التي لا تُحصى.. خاصة لكونك طفل، أما عن عقاب مخالفة الأوامر أو التمرد فهو إما التعرض للجلد بسوط يشق الجلد وإما أن يُقيد الطفل ويضربه باقي الأطفال بكل ما يحملوه من قسوة حتى يعلن خضوعه مرة أخرى، وكانت لهذه العقوبات النتيجة المرجوة لهم، وهي قلة أعداد المتمردين، بل وندرتهم بعد ذلك، ولكن هذا لم يمنع أني رأيت حالات كهذه أمام عيني.

ولا أحدثكم عن الطعام، كنا أحياناً نأكل البيض النيء والثمار الجافة وجذور النباتات، وكان اللحم نصف المطهي له أوقاته المعروفة، كان كل شيء في هذا المناخ يقسّي القلب، لدرجة أن أي حيوان ضال سيء الحظ كان يقترب من المعسكر كنا نتسابق على اللحاق به وقتله والتمثيل بجثته، بل وكان هناك من رفقائي من يأكلون قطعاً نيئة من لحمه ويتفاخرون بهذا، ولا أنكر قدر القسوة التي اكتسبتها من كل هذه التربية والتدريب، لدرجة أني قتلت زميلاً لي.

نعم؛ كان التدريب على القتال لا يعترف بالصداقة ولا القرابة، ومن يتهاون في القتال لأحد هذه الأسباب كان يتعرض لما ذكرته سابقاً من عقاب، فبدأ التدريب.. وجاءت المصارعة بيني وبين زميلي، وأخذنا نتعامل بعنف في المصارعة حتى بدأ يقسو عليّ في الضرب، فقسوت عليه بدوري، وهكذا أخذتنا الأجواء إلى حد بعيد حتى ضربته بشدة بكلتا قبضتي يدي في صدره فقتلته.

كنت متفوقاً في التدريبات، لكن كانت قبضتيّ من الأشياء التي ميزتني في القتال منذ هذه الحادثة، خاصة لو كانت الضربة بالقبضتين معاً فإنها تُقلق منافسي، ربما هذا شيء لم أقصده يوماً، لكن قراري باستهلاك أقصى قدراتي في التدريب منذ استسلامي لهذا الأمر الواقع كان بنية الخلاص من هذا بأسرع وقت، إما بأن تقتلني التدريبات أو أقتلها أنا بالتمكن منها وتجاوزها إلى الحد الذي لا يجدون فيه ما يختبرونني به.

***

وعندما يصل الطفل منا إلى عمر الثامنة عشر يمر بأصعب مراحل التدريب قبل أن يُسمى جندياً محارباً، فعندما وصلت إلى هذه المرحلة العمرية كان أحد المشرفين عليّ أحد أشقائي الكبار ويدعى (كابارشان)، وللعلم.. فأثناء فترة تدريبي قد وصلتني أخبار بمقتل شقيقين لي في التدريبات، وانتحار آخر.

أما عن التدريب في هذه المرحلة فقد كان عبارة عن اختبارات للتحمل، من سهر وتجويع مع القتال، بجانب قتال حيوانات شرسة، وكان الطعام يجب أن تحصل عليه بنفسك من الصحراء، أما عن النوم فكان في العراء ليلاً ولا تملك إلا عصاً للدفاع عن نفسك، فالوجود في هذا الجو غاية في القلق والرعب في أول الأمر، حيث أنك لا تستطيع الاستسلام للنوم بينما الخوف يسيطر عليك من احتمال أن يهاجمك أحد الحيوانات أو وحش من وحوش الصحراء، فكنت أبيت في العراء ليال عديدة وأسمع صياح زملاء لي في مناطق بعيدة مختلطاً مع زمجرة حيوان مفترس، وكان جسدي يقشعر عندما يتقطع صراخ أحدهم أو يخفت، كنت أعلم وقتئذ أن زميلي هذا يتمزق ويتناوله الوحش بلا رحمة.. كان جواً.. بشعاً.

" إن هذا أقل ما يوصف به يا (كازان)، يا للهول! "

قاطع قول الملك حديث (كازان) فرفع رأسه إليه حيث رأى الصدمة في ملامحه، فتابع الملك:

- لا أصدق أن أمامي شخص مر بهذه البشاعة!

نظر (كازان) إلى الأرض ثم أومأ موافقاً قول الملك، كاد أن يزفر في تهكم على نفسه إلا أنه حرص ألا يبدي فعلاً كهذا قد يُساء فهمه، وبعد لحظات عاد يتحدث:

- نعم، ولكن ليس ببشاعة الهروب من هذا الاختبار، فمن يهرب في الصحراء بعيداً عن المعسكر أو من يلجأ للمعسكر هروباً من الصحراء، كانوا يأتون به ويضعون رأسه داخل خوذة حديدية لا يظهر منها إلا عينيه، ويذهبون به إلى الصحراء فيربطونه إلى عامود خشبي صلب ويعطونه رمحاً، فإن عادوا بعد يومين ووجدوه ما زال حياً وقد نجح في الدفاع عن نفسه يعيدونه إلى المعسكر.

وإن استطاعت الوحوش التهامه فيذهبون إلى العامود الذي رُبط إليه ويأخذون الخوذة بما يتدلى منها من بقايا جسده عائدين بها إلى المعسكر، حيث يفتحون قفل الخوذة أمام الجميع، ويخرجون الرأس السليمة بما تحمل ملامحها من رعب اللحظات الأخيرة، ويفصلونها عن بقايا الجسد، ثم يعلقونها على حائط المعسكر الداخلي.. ولهذا كانت الخوذة.. لحماية الرأس من الالتهام كي تكون عبرة لجنود المعسكر.

كما أن الخوذة لا تُظهر إلا العينين كي يستطيع الدفاع عن نفسه برؤية الأخطار التي تحيط به، أما الفم فلم تكن له فتحة حتى لا يعلو صراخ المتدرب فيجلب عليه وحوشاً من كل مكان لا داعي لهم، كما أنه من المفيد ألا يسمع من بالمعسكر صراخه حتى لا يعلموا ما يواجهه أو ما حل به قبل

الوقت المحدد.

ويأتي صباح يتكرر كثيراً لنخرج إلى ساحة التدريب لنرى رؤوس رفقاء الأمس معلقة كعبرة لنا، والعبرة هي "إما أن تقتل أو تُقتل، نحن لا نمزح هنا".. "هذا ليس حيواناً من الصوف مثل الذي كانت تأتيك أمك به".. وربما "حياتك أنت الذي يخسرها.. وليس نحن"...

" امسح دموعك يا (كازان) "

رفع (كازان) يده فمسح الدموع التي انحدرت على وجهه، دون أن يرفع رأسه، وظل صامتاً ينظر إلى الأرض ودموعه تسابق أصابعه على خديه يميناً ويساراً، فأشار الملك إلى مستشاره، فقام المستشار إلى (كازان) وربت على كتفه قائلاً:

- يكفي ما تذكرته إلى الآن يا (كازان)، فلتذهب إلى حجرتك ولنكمل في المساء.

خجل (كازان) أن يرفع وجهه، فأجابه وهو ما يزال ناظراً للأرض:

- حسناً.

فمسح عينيه وقام واقفاً بمساعدة زوجته، وخرجا من حجرة العرش، وتركا الملك ينظر في أثر (كازان) بصدمة ودهشة شديدين، ثم عاد بنظره إلى الحضور وقال كأنه يحدث نفسه:

- هل سمع الجميع حديث (كازان) كما سمعته؟!

تنحنح المستشار قائلاً:

- أجل جلالتك، كل كلمة، إنه لأمر بشع أن يمر به أحدهم يومياً..

ولسنوات.

زفر الملك كأنه يطرد بعض أثر كلمات (كازان) من نفسه، وعم الصمت على حجرة العرش.

❊❊❊

حل المساء وكان نفس الأشخاص مجتمعين في غرفة العرش، وبعد أن رفع الخدم أواني الطعام وكؤوس الشراب، وانتهى الجميع من أحاديثهم الجانبية والأحاديث مع الملك، فتح الكتبة صحائفهم واستعدوا للكتابة، واعتدل (كازان) في مجلسه هو وزوجته ونظرا إلى الملك في انتظار إشارة البدء.

أخذ قلب (كازان) ينبض في قلق ويتمنى أن يتأخر الملك في اعطاء إشارة البدء قدر الإمكان، ولكن ما أن رأى في أعين الملك التي التفتت له رغبة في متابعة سرد قصته.. تنهد ببطء واستعد لقول الملك الذي كان:

- ها يا (كازان)، هل أنت مستعد؟

وضع (كازان) يده على صدره لعله يهدئ من عنف نبضات قلبه، ثم زفر في بطء، وقال بشيء من الوهن:

- نعم جلالتك، مستعد.. احم.. أنا مستعد.

❊❊❊

كانت أيام المعسكر ثقيلة بثقل همومنا، وكان كل استيقاظ يمثل كابوساً بالنسبة إلى الكثيرين منا.. أو جميعنا، لكن هذا قبل أن تنزرع القسوة داخل معظمنا مع مرور الساعات والأيام والشهور والسنين التي أحصيناها حتى مللنا، ومع كل اختبار وكل أمر يوجهه لنا المشرفون تمتد جذور الوحشية

بأعماقنا، أتذكر تلك الأيام وكم كان قلبي يقسو يوماً بعد يوم حتى صار كالحجر، أو فلأقل لم يصر لي قلب على الإطلاق، كأن تلك الاختبارات قد نزعت أجزاءً من قلبي بالتدريج حتى أزالته تماماً من داخلي، وعندما أتممت عامي التاسع عشر كنت لا أشعر بشيء بتاتاً من الرفقة واللين والعطف، كنا كأننا تماثيل جامدة تسير هنا وهناك، ولولا النوم لكنت نسيت أننا كباقي الناس.

وبعد أربعة سنوات أخرى جاءت آخر اختبارات لفرقتنا، وهي قتال حيوانات ووحوش الصحراء، فبعدما كنا ندافع عن أنفسنا ضدهم، كان لابد في هذه الاختبارات مهاجمتها وقتلها، وكان التدريب يشمل خمسة حيوانات تتدرج في الخطورة، بدءاً من الأقل وانتهاءً بالأخطر، وامتد هذا الاختبار لأشهر بسبب كثرة أعداد المجندين، فعندما ينتهي مجند منا ينزل مجند أخر إلى الساحة كي يبدأ قتالاً مع وحش جديد، وعلمت أنهم في مكان ما بأقصى الجنوب يقومون برعاية وحوش الصحراء في البرية، فمن جانب يزيدون عددها ومن جانب يدعوها في الصحراء كي تبقى على وحشيتها.

وكانت الاختبارات هذه تُقام عدة منها في نفس الوقت اختصاراً لمدتها، فكانت هناك اثنتا عشرة ساحة تبدأ فيها الاختبارات عند الشروق.. وتنتهي قبل الغروب بقليل، وكان باقي المجندين يشاهدون الصراع من وراء سور خشبي، وشاهدت بعينيّ زملاء لي والوحوش تمزقهم وتنتزع أعضائهم وما في بطونهم، وأرى بعد المصارعة الجنود المدرعون يدخلون ليقيدوا الوحش ويجمعون بقايا زميل لي كان منذ لحظات إنساناً يتحرك ويجري ويقفز.. و.. كــ.. كانت رؤية هذه المناظر إما أن تُزيد قساوة قلبك أكثر كي لا يكون مصيرك كمثل ما ترى، وإما أن تحطم صخرة قلبك وتدفعك للصراخ والعويل، ومن يصيبه الفزع ويرفض المثول للاختبار يلبسونه الخوذة الحديدية ويذهبون به

إلى الصحراء وإلى العامود الذي ذكرته من قبل.

وجاء دوري في صباح أحد الأيام، ففتحوا لي باب السور المحيط بالساحة لأتقدم ومعي رمح للحيوان الأول والأقل خطورة، وما هي إلا لحظات وكنت أقف على جثته ورمحي مخترقاً عنقه، وسمعت من حولي الأصوات العالية التي تحييني، فالتفت بنظري إلى مشرفي الواقف عند السور وصحت:

- متى الاختبار التالي؟.. أريده الآن.

فابتسم لي في إعجاب ابتسامة لم تلغ قسوة ملامحه، وصاح:

- عند عصر اليوم.

أومأت له برأسي في حزم، ونزعت رمحي وتقدمت به إلى باب السور، وتقدمت بين أياد زملائي التي أخذت تخبط على ظهري وكتفي تحية لي، ثم تخطيتهم وعدت إلى مكاني أمام سور الساحة كي أشاهد القتال التالي.

***

مرت الاختبارات عليّ وأنا أنجز فيها نجاحاً وراء آخر، حتى وصلت إلى الاختبار الأخير لي، وهو مقاتلة وحش الصحراء، أن تجتمع بوحش أشبه بالأسد وفي حجم ثور في ساحة مغلقة، شيء لم تكن لتفعله حتى في أحلامك الأكثر تطرفاً وجموحاً، والكارثة أن هذا الوحش بالذات الذي كان من نصيب اختباري قد أشركوه في أيام سابقة في أربع مصارعات متتالية، وكان من المقرر ألا يصارع وحش في مصارعتين متتاليتين -إن ظل حياً- كي لا يُنهك ولو بمقدار يجعله يتعرض للهزيمة، فينتصر عليه المجند التالي بسهولة ولو بمقدار بسيط عن زميله السابق.

لكن هذا الوحش كان من الوحوش التي كانت قوية بالدرجة التي تسمح

بخرق هذا الشرط، حتى يتمكن من قتل أربعة فيتم التخلص منه بحجة أنه قوي بشكل نادر لكي لا يقضي على جنود أكثر بالاختبار، وكان ترتيبي الرابع من صباح ذلك اليوم، وكان الثلاثة الذين سبقوني قد قتلهم الوحش، فكان شيء غير مبشر بالمرة.. فقد أكون بعد لحظات بقايا إنسان.. أو لا.

فتحوا لي باب الساحة مع هتافات زملائي الغير مشجعة على الإطلاق، مثل:

" يبدو أنها آخر أيامك أيها البطل "

" يا للخسارة يا (كازان)! "

حتى العبارات التي تعتبر مشجعة كانت تقال بلهجة متشائمة، مثل:

" لا تكن وجبته الأخيرة يا (كازان) "

" أخرج حياً بقدر ما تستطيع "

وبرغم هذا.. دخلت الساحة بخطوات ثقيلة هادئة كي أبث في نفسي مزيداً من الثقة، وما أن أغلقوا الباب حتى رفعت رمحي وأنا أنظر لقاتلي المحتمل، فزمجر عالياً وركض ناحيتي.. فركضت نحوه، وعندما اقتربنا من بعضنا تنحّيت جانباً في سرعة وتركته يكمل اندفاعه، وما أن مر جانبي حتى اعتدلت وركضت وراءه، وقبل أن يتوقف من اندفاعه كي يغير اتجاهه انتهزت الفرصة فقفزت وطعنته بقوة في ظهره أملاً في إنهاؤه بطعنة واحدة، لكنه زمجر والتفت لي بسرعة لم أستطع منها أن أنزع رمحي من ظهره، فركضت سريعاً إلى الجهة المقابلة من الساحة وهو يتبعني، وبدأت أتذكر مناظر زملائي الذين أصبحوا وجبة له.

" هيا يا (كازان) "

لا أعلم من صاح بهذه العبارة وقتئذ، ولكنها كانت الجملة المحفزة الوحيدة التي انطلقت من هذا الجمع الكبير الذي يحتشد عند السور وفي نوافذ مباني المعسكر، فاستنفرت بي من صدق لهجتها المزيد من الحماسة، فصحت لمن يقفون خلفي وراء السور دون أن التفت إليهم:

" ابتعدوا من هنا "

فسمعتهم يتحركون على الفور، فأثنيت ركبتيّ في وضعية استعداد، وما أن اقترب الوحش مني حتى جريت ناحيته بضعة خطوات و.. قفزت قفزة جانبية، فاصطدم وجه الوحش بقوة في السور الخشبي فخر على الأرض من الصدمة، فانتهزت هذه الفرصة وقبضت على رمحي كي أغرزه أكثر في ظهره كي أصيب كبده، ولكن ما أن قبضت عليه حتى قام في سرعة وهو يزمجر، فيبدو أن قوة الألم قد أفاقته من دواره، ولكني هذه المرة لم أترك الرمح بل قبضت عليه أكثر وبدأت أدور به والوحش يدور كي يطولني.

وهكذا؛ أخذت أدور والوحش يدور حول نفسه، ومع سرعتنا التي تزداد في كل دورة.. قفزت على ظهره وامتطيته وأنا أتشبث بالرمح، فجرى وهو يتلوى كي ينزعني عن ظهره، ولكني تشبثت بإصرار ونزعت الرمح وقفزت عنه، ولكن مع التواءاته القوية والمفاجئة وقعت على ظهري والرمح بيدي.

وما أن تحملت آلامي كي أقف حتى دار الوحش وتوجه إليّ، ولم أكد أقف حتى كان قد وقف على قدميه الخلفيتين كي يجهز عليّ بمخالب قدميه الأماميتين، لكني استغليت هذه اللحظة وكأن كل شيءٍ قد صار بطيئاً فدفعت رمحي نحو عنقه ليهبط عليه بثقله وتنحّيت جانباً بينما الرمح يخترقه، فصاح الوحش متحشرجاً وسقط على الأرض فأخترق الرمح عنقه إلى ظهره.. وفجأة.. ارتفع الصياح من حولي.

***

أفقت من الحالة التي كنت فيها والتفتُّ، فإذ بالمعسكر كله يصيح تحية لي، وأخذوا يضربون على السور بأيديهم من الإعجاب، ووجدت أفواها تصيح بجمل لم أفقه منها شيئاً من علوها وتداخلها، فتنهدت وابتسمت في راحة، وأنا أدور حولي لأشاهد كم الأيادي والألسنة التي تتلوى لتحيتي، فنزعت الرمح وأخذت أتأمله من أوله لأخره، ثم رفعته في فخر فارتفع الصياح أكثر، وفُتحت البوابة ودخل زملائي الساحة والتفوا حولي، وأخذوا يخبطون عليّ في إعجاب وتحية، وهناك من أخذ يتحسس رمحي المغطى بالدماء...

" نظاام "

صمت الجميع لهذه الصيحة، والتفتوا إلى مصدرها وإذ بالقائد كبير فرقتنا يدخل الساحة ويتجه ناحيتي، وتنحى الجميع كي يفسحوا له، وما أن وصل لي حتى قال:

- أحسنت يا (كازارشان).

أومأت برأسي في احترام وقلت له بحزم:

- أشكرك أيها القائد، إن كلماتك هذه دافعاً لي كي أفعل الأفضل.

وضع القائد يده على كتفي المغطى بالعرق والدماء، وهزني هزة بسيطة وهو يقول:

- إنك لست الوحيد الذي انتصر على وحش مثل هذا، لكني قلما أرى مصارعة بهذا الإصرار والتشويق أيضاً، ويخرج منها أحدهم بالمستوى الذي خرجت به من قوة وقلة في الخسائر.. أنت بالفعل كاسمك.. (كازارشان).

عقدت حاجبيّ ثم ضربت الأرض برمحي بحماس وأنا أقول:

- إن هذه لفخر كبير لي يا سيدي، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنك وقدوة لزملائي.

رفع القائد رأسه في فخر وهو ينظر لي:

- خذها كلمة من رجل له خبرة طويلة، سيكون لك شأن عظيم في الحرب.

ابتسمت في تقدير للقائد، بينما كنت في داخلي ابتسم إعجاباً بنفسي...

" أحسنت يا (كازان) "

توقف (كازان) عند جملة الملك، ورفع رأسه إليه فوجده يومئ إليه في تقدير، فابتسم (كازان) بمرارة قائلاً:

- تحية جلالتكم تعيد إليّ ثقل هذه الذكرى.

ابتسم الملك وهو يقول:

- بعيداً عن ذلك الجو السيء، فإن لك قدرات جديرة بالتقدير والإعجاب.

نكس (كازان) رأسه قائلاً:

- وليتها كانت نتيجة لتدريب هادف، أو لأجل شيء نبيل.

- أعلم أنها لم تكن هكذا، ولكن يبدو أنك ولدت بمواهب وقدرات عدة بعيداً عن هذه التدريبات التي لم تفعل شيئاً إلا إظهار وتنمية ما لديك بالفعل.

هز (كازان) كتفيه قائلاً بدون حماسة:

- ربما!

صمت الملك قليلاً ثم قال:

- لتكمل يا (كازان)، يبدو أننا اقتربنا من ذكر وقت الحرب.

- لا يا سيدي، فهناك عدة ذكريات مهمة قبل الحرب.

- أنا مستمع.

***

بعد هذه المباراة الفاصلة في حياتي قضيت عدة أشهر إما في مشاهدة مصارعات زملاء آخرين مع الوحوش، أو الذهاب للتجول في أنحاء المعسكر، أو تفريغ مللي واستثارة طاقتي في المزيد من التدريبات.

وفي صباح اليوم التالي لانتهاء هذه التدريبات تم إيقاظنا من قبل المشرفين كي نلتحق بطابور الفجر، كان يبدو على أسلوبهم الكثير من الحماس، فشعرت أن هناك جديد على الفرقة، فقمنا وارتدينا ملابسنا بسرعة وجرينا إلى ساحة الطابور، وكان كل المجندين بأرض الطابور يقفون في صفوف منتظمة وكبيرة كأنهم يستعدون لمعركة، فوقفت في مكاني وانتظرت مع زملائي نزول القائد الذي لم يتأخر إلا لحظات.

وبعدما نزل القائد تقدم له أحد كبار المشرفين وأعطاه لفافة ورجع إلى مكانه، ففتحها القائد ونظر فيها للحظات ثم عاد بنظره إلى صفوف المجندين وصاح:

- أيها المجندون.. اليوم ستتخرج منكم دفعة جديدة، وهي دفعة مختارة

من أكثر المتميزين في الاختبارات، وسيلقب كل منهم من الآن بلقب (جندي محارب)، وهذه الدفعة التي سأذكر اسماءها يستطيعون العودة لمنازلهم في إجازة بدءاً من اليوم إن أرادوا...

بدأت ترتفع بعض الهمهمات في صفوف المجندين، فصرخ فيهم أحد كبار المشرفين:

- سكوت أيها الحيوانات.

وما أن صمتوا حتى تابع القائد:

- فمن اليوم ستنال الدفعة هذه إجازة تمتد لشهر قبل طلبهم لتدريبات القوات الخاصة.

بدأت الهمهمات تعود مجدداً، فصرخ نفس المشرف ولكن هذه المرة في المشرفين الثانويين على الصفوف:

- فلتخرجوا أسواطكم، ومن يفتح فمه ليتنفس حتى.. اجلدوه.

أخرج كل مشرف من المشرفين علينا سوطه المعلق في خصره مثل السيف، فخرس الجميع وهبت غيمة من الصمت أشد مما كانت عليه قبل الهمهمة، فعاد القائد يتابع:

- والآن سأنادي على الأسماء...

لأول مرة رغم اعتيادي على هذا الجو القاسي تمنيت أن أنال هذه الإجازة، إن الحياة في المعسكر عندما تعتاد عليها يضيع من ذهنك أن هناك يوماً ستنتهي التدريبات فيه.. إن نجوت، وها قد نجوت ولكني لم أتذكر أن هناك ذلك اليوم الذي سأخرج فيه و...

" (كازارشان ماثير بوتابيرون) "

قطع هذا الاسم تفكيري، فبدأت انتبه لكلام القائد بعد حديثي لنفسي هذا، وما أن انتبهت حتى وجدت من يقفون حولي من المجندين ينظرون لي.. وفجأة.. تنبهت!.. هذا هو اسمي...

" أنا هنا يا سيدي "

صحت بهذه الكلمات ورفعت يدي، فأشار لي القائد بالتقدم كي أقف بجانب الدفعة المختارة، فتقدمت بينما أشعر بقدر من الراحة ومعها أكبر قدر من الحماسة شعرت بها منذ دخولي المعسكر.. لا لشيء سوى أنه حدث جديد، ووقفت بجانب زملائي من الدفعة وظللت أستمع إلى نداء القائد على باقي المجندين، وأنا أرى بعض نظرات الحقد هنا ونظرات الإحباط هناك في أعين زملائي الذين تمنوا أن تطول قائمة الأسماء ولا تنتهي إلا بذكر أسمائهم.

وبعدما انتهى نداء الأسماء، أشار القائد لكبير المشرفين، فتقدم وهو يحمل صندوقاً صغيراً وفتحه أمام القائد، ورأيت أنا ودفعتي قلادات براقة في الصندوق، فأخذ القائد واحدة تلو الأخرى ليلبسنا إياها حول أعناقنا وهو يحيينا ويثني علينا، وبعدما انتهى صاح موجهاً كلامه للمجندين:

– من يريد أن ينال كمثل ما نالوا فليجتهد أكثر حتى دفعة الإجازات الشهر القادم.

صمت للحظة ثم صاح:

– تحية للجنود المحاربين الجدد.

فضرب جميع المجندين بأرجلهم اليمنى الأرض في قوة مرتين، ثم صاحوا

صيحة ترددت في هدوء الفجر، فابتسم القائد في رضا، ثم قال:

- فليذهب المجندون إلى غرفهم في الحال، وينتظروا إشارة طابور الشروق بعد نصف ساعة.

نكّس عدد كبير من المجندين رؤوسهم وبدأوا يتحركون في احباط، والمشرفون يضربون بأسواطهم الأرض كي يحثوهم على الاسراع، وعندما انفضت الساحة تقدم القائد إلى دفعتنا قائلا:

- هنيئاً لكم أيها الجنود.

ضرب كل منا الأرض بيمينه قائلاً:

- شكراً لك سيدي.

ابتسم القائد ثم سألنا:

- من منكم سيستغل إجازته من اليوم؟ ومن منكم يفضل أن يقضيها هنا؟

رفع الجميع أياديهم إشارة على رغبتهم على العودة إلى ديارهم، فأومأ القائد برأسه وأمر في عدد من المشرفين يقفون حولنا قائلاً:

- اذهبوا واحضروا ملابسهم وأدواتهم من حجراتهم.. سريعاً.

فانصرف المشرفون في سرعة لتنفيذ الأمر، وأشار إلينا القائد كي نتبعه، فسار ناحية الدرج المؤدي لغرفة القيادة وتبعناه، وما أن دخل ودخلنا وراءه حتى أشار إلى ركن في الحجرة قائلاً:

- هذه لكم.

فنظرنا إلى ما تشير إليه يده، وإذ بمجموعة من السيوف يدل شكلها على

حداثتها، وكان معها أحزمتها وحوافظها، وكانت بعددنا، فتقدم كل منا وحمل سيفاً وعلقه على خصره في فخر، بينما نتبادل النظرات فيما بيننا وكل منا يتباهى بامتلاكه أخيراً سيفاً خاصاً به، وبينما نحن كذلك دق باب الحجرة، فقال القائد:

- أدخل.

فُتح الباب، ودخل المشرفون يحملون حقائبنا، فتناول كل منا أغراضه ووقفنا في صف أمام القائد، فنظر إلينا في فخر وقال:

- هنيئاً لكم، تستطيعون الذهاب الآن.

ما زلت أذكر تلك البرودة التي شعرت بها بعد هذه الجملة، أحسست كأن الهواء دخل صدري أخيراً وتوغل فيه، وعدت أتنفس من جديد، فاستدرت أنا وزملائي كي نخرج، كنا نتصرف بارتباك، لم نتدرب من قبل على استقبال أي إجازة، ولم نتخط بوابة المعسكر منذ دخوله إلا للتدريب في عمق الصحراء.

وما أن خرجت من الحجرة حتى أخذت شهيقاً عميقاً، ونظرت للسماء وأنا لا أعلم إلام أنظر!.. ثم رفعت حقيبتي على ظهري ونزلت الدرج وتوجهت إلى باب المعسكر...

" (كازان) "

التفتُّ ورائي وإذ بالمنادي هو أخي المشرف، فابتسمت وقلت:

- أهلاً يا (كابارشان).

وصل إليّ أخي وقال في لهجة ساخرة:

- هل هناك معنى لكلمة "أهلاً" وأنت تخرج دون أن تودعني؟

- صدقني يا (كابان) لم أقصد هذا، ولكنك تعلم الارتباك بسبب أول إجازة...

قاطعني بابتسامة وهو يضع يده على كتفي:

- أعلم هذا، هنيئاً لك يا أخي، أنا فخور بك وبما أنجزت.

ابتسمت له مقدراً كلماته، فربت على كتفي قائلاً:

- فلتسرع إلى المدينة ولتنعم بإجازتك، ولتبلغ الأسرة سلامي.

- حسناً يا (كابان).

أومأ لي برأسه مشجعاً، وقال:

- هيا، هيا كي لا تتأخر.

فابتعدت عنه وأنا أنظر إليه، ولوحت له قائلاً:

- إلى اللقاء يا (كابان).

- إلى اللقاء يا (كازان).

وعدت بنظري مكملاً طريقي إلى بوابة المعسكر، التي أخذت اقترب منها بينما أتخيل ذلك الطفل القلق الباكي الذي عبر منها منذ سنوات بعيدة مدفوعاً بالأوامر والصياح والضرب، يتلفت يميناً ويساراً مع زملائه الصغار، يتأمل ذلك المكان الذي سيصبح عالمه لسنوات طويلة قادمة، لا يعلم هل ستنتهي أم سينتهي قبلها؟!

توقفت أسفل البوابة، عند الخط الوهمي الفاصل بين أرض المعسكر وما

خارجه، أتأمل الأفق في قلق، ذلك العالم المجهول الذي ينتظرني هناك، ذلك العالم المجهول الذي كان الأشد ألفة لي في حين كان المعسكر هو المجهول الأشد ظلمة.. أصبح عالماً معكوساً، أصبح كل شيء الآن عكس ما كان، لقد ذهب ذلك الطفل بمشاعره وعالمه وأمنياته مع إحدى ليالي الصحراء التي شهد فيها نور القمر على دموعه وخوفه، وكأنه قد استجاب له وأخذه إليه.

***

كان يجب عليّ أن أسير عدة ساعات حتى أقرب معسكر للخدمات كي أؤجر عربة خيول منه، وكنت أسير في الصحراء بكل شجاعة، فبعد كل ما رأيته في المعسكر لسنوات وما تعرضت له، لا أخشى إن خرج إليّ حيوان أو تعرض لطريقي أي وحش كان، ورغم شجاعتي وتحفزي وصلت أقرب مدينة دون أن يتعرض إليّ أي شيء.

دخلت المعسكر الأقرب للمدينة في شيء من الفخر بقلادتي التي تزين عنقي، وبسيفي الذي يتأرجح بجانب خصري، ومنظري الذي يدل على أنني نلت لقب (جندي محارب) بجدارة، وتوجهت إلى عربات الخيول وسط نظرات الحرس والمدنيون العاملون بالمعسكر، وعندما وصلت إلى مؤجر العربات، رفض أن يأخذ مني ثمن الأجرة، وأخبرني أن هناك مرسوم سابق من الملك بأن الجندي المحارب لا يدفع شيئاً مقابل العربات والخيول، وتسدد المملكة ثمن هذا للمؤجر، فأومأت له في شيء من الاعتزاز بالنفس، وركبت العربة تجاه مدينتي.. عاصمة المملكة الجنوبية.

﴿ الفصل الخامس ﴾

عبرت بوابة عاصمة المملكة الجنوبية وسط ترحيب كبير، ورأيت الكثيرين يحيونني من نوافذ المنازل وأبواب المتاجر، والكثير من الأطفال يجرون وراء العربة، فرفعت يدي في شيء من الخيلاء أرد تحيتهم...

" إلى أين نتجه يا سيدي؟ "

أخرجني صوت سائق العربة من الحالة التي كنت فيها، فأجبته في صرامة:

- اتجه يميناً عند متجر العطارة القادم، واقطع الطريق حتى آخره وسوف ترى داراً مكتوباً على بابها (دار ماثير).

- أمرك يا سيدي.

أنهيت حواري معه وعدت بنظري وبيدي المرفوعة إلى الناس الذين أخذوا يصيحون تحية لي، وما أن اقتربت العربة من الدار حتى بدأت تبطئ، فدرت ببصري عن الناس إلى الدار، ولكن.. ما هذا؟!

" أين الدار؟! "

تساءلت في صوت مسموع، فتنحنح السائق وقال:

- لا أعلم يا سيدي، هذا هو الدار الذي أرشدتني إليه بنفسك.

قمت ونزلت من العربة وتوجهت إلى باب المنزل الكبير متأملاً إياه ثم طرقته في ترقب، وما هي إلا لحظات وفُتح الباب...

- (كازان)؟!

- أبي!

تقدم أبي في سرعة وضمني ضمة شديدة إلى صدره وهو يقول:

- آه يا بني، كم افتقدتك!

أحطت أبي بذراعيّ وقلت:

- وأنت أيضاً يا أبي.

خبط أبي على ظهري بيده وهو ما زال يضمني، وقال:

- هل تشعر بالخجل من ضم أبيك أيها الشقي؟ هل أنساك المعسكر حنينك إلينا؟

ضممت أبي أكثر وأنا أقول:

- لا.. لا يا أبي.. ولكن...

لم أكمل حديثي عما تعرضنا إليه هناك، وصمتنا للحظات حتى ابتعد أبي عني في رفق وأخذ ينظر في عينيّ وفي ملامح وجهي، ثم بدا عليه القلق وقال:

- أشعر بتغير كبير في شخصيتك يا بني، كل شيء فيك قد تغير، حتى عينيك ونظراتك وملامح وجهك.

ضحكت ضحكة قصيرة في سخرية، ثم قلت:

- بالفعل يا أبي، وليس الظاهر فقط قد تغير.. بل الباطن أيضاً.

ضمني أبي بقوة مرة أخرى، هذه المرة بدأت استشعر بعض الدفء الذي استنكره صدري، وكأن قلبي يتذكر شيئاً منذ زمن بعيد أو عمر آخر، وظللنا

هكذا للحظات حتى ابتعد أبي برفق وخبط على كتفي مرتين وقال وهو يتوجه لباب الدار:

- ستحكي لي كل شيء، هيا فلتدخلوا.

أخذت أنظر لأبي للحظات وهو يدخل، وملت برأسي قليلاً كي أتأمل ملامح المنزل الجديدة من الداخل، ثم أدرت رأسي ناحية السائق وقلت له:

- هيا، أبي يدعوك للغداء.

ابتسم السائق في حرج، وقال:

- أشكرك يا سيدي، ولكني...

رفعت صوتي مقاطعاً بحزم:

- قلت لك أبي يدعوك للغداء، لا أطيق تكرار الكلام.

اهتز جسد السائق، ثم قفز من العربة إلى باب المنزل وهو يقول:

- حسناً حسناً، ها أنا يا سيدي.

أشحت نظري عنه بغضب ثم دخلت الدار، وما أن عبرت الباب حتى سمعت صياح أمي وأخوتي البنات، وسمعت صوت أقدامهن تركض في الطابق العلوي ثم تنزل الدرج، وتوجهت أمي إليّ فضمتني ضمة قوية وأخذت تبكي، فوضعت يدي على رأسها وأخذت أمسح عليها، ثم تأملت أوجه أخوتي بعدما أصبحن فتيات كبيرات، وبدأت أدور ببصري حولي أتأمل المنزل...

" ألم تشتق لأمك يا (كازان)؟! "

التفت إليّ أبي وهو ينزل الدرج قائلاً هذه الجملة بلهجة صارمة، فأجبته:

- بالطبع اشتقت لها.

وعدت بنظري إلى رأسها -حيث كنت أطول منها- وأخذت أربت عليها، وأنا أقول:

- كيف حالك يا أمي؟

قالت أمي وهي ما تزال تبكي:

- أصبحت في أفضل حال بعدما رأيتك يا بني، لم أصدق عندما قال أبوك أن رسائل المعسكر لديوان الملك قد ذكرت اسمك في الإجازة القادمة.

ثم اشتد بكاؤها، وبدأت أشعر بالضجر من طول ضمة أمي، فعدت بنظري إلى أخوتي وقلت لهن:

- كيف حالكن يا بنات؟

أجبنني في لهجة قلقة:

- نحن بخير.. حمداً للرب على سلامتك.

أومأت لهم برأسي، فتقدم أبي في غضب وقال لأمي:

- دعيه كي يستريح الآن يا (سيران)، وقدمي الغداء للسائق.

ثم نظر أبي في عينيّ بنظرة قاسية وقال:

- اتبعني.

فتبعت أبي إلى الدور العلوي حيث جلس على أريكة، ولم أكد أجلس بجواره حتى قال في صرامة:

- اجلس على الأرض.

التفتُ إليه في تعجب، فقال في صوت قوي غاضب:

- هل علمك المعسكر أن تطيع قائدك بلا تردد، وأن تتردد عند أوامر أبيك؟!

زفرت ثم جلست على الأرض وأنا أقول:

- لا.. لا يا أبي.

جلست ونظرت إليه، بينما أخذ ينظر إلى عينيّ بدوره، وظللنا لحظات هكذا، حتى قطع أبي الصمت قائلاً:

- ما الذي حل بك يا (كازارشان)؟

مسحت وجهي بيدي في قوة وأنا أقول:

- الكثير، لقد كنت في الجحيم بعينه.

- احك لي كل شيء.

- الآن؟

- نعم، الآن.. فلا أظن بعد اعتيادك على جو المعسكر أنك ستتعب من مجرد الكلام.

- أمرك يا أبي...

وأخذت أذكر لأبي ما مررت به من تدريبات ومواقف بقدر ما أستطيع السرد، وأبي تتسع عيناه من الدهشة مرة، وينعقد حاجباه من الاستنكار مرة أخرى، وعندما انتهيت دعاني أبي برفق كي اجلس بجانبه، فقمت وفعلت، حيث قال لي:

– أنظر يا (كازان)، أنت تعلم أني لم أدخل الجيش لأني والد بجانب عملي في الديوان الملكي، ولكن أن أجدك يا بني بهذه القسوة مع أهلك وحتى والدتك!.. هذا شيء لا أرضاه، أنت جندي يا (كازان)، والجندية لابد أن يكون لها أخلاق ومقومات وضوابط، وبدونها تصبح مجرد همجي لا جندي، ويبدو أنهم لم يعلموك إلا طاعتهم هم فقط، وأنا أقدّر تمام التقدير الحالة التي تعيشها الآن، فالظروف التي تعرضت لها لابد أن تنتج وحشاً، ويبرز ظهوره واختلافه بالذات في جو خفيف مثل جو المدينة، ويبدو أني لم أر الكثير من تصرفاتك إلى الآن، لكني أعلم بقلبي أنك تكبت الكثير من القسوة خلف ما رأيت من تصرفاتك القليلة إلى الآن.

– أمرك يا أبي.

– (كازان).

– نعم.

– أريدك أن تقتنع بكلامي.

– أمرك يا أبي.

زفر أبي في احباط، ثم قال:

– اسمعني يا بني، أعلم أن تدريبات طويلة كتلك بدأت منذ نشأتك قد أثرت كثيراً عليك، وصعب أن أغير بك شيئاً من خلال كلمات قليلة، ورغم فخري بما أنجزت إلا أني أخشى عليك يا بني...

– لا تخشى عليّ، فلقد تغلبت على أقوى الوحوش ولا أهاب شيئاً.

– لا يا (كازان)، إني أخشى عليك من نفسك.

- من نفسي؟!

- نعم، من نفسك، وكما أقول.. لن أستطيع أن أغير ما فعلته سنوات بك في لحظات، ولا أطلب منك حالياً أن تزيل قسوة قلبك، ولا أطلب أن تستخدم قلبك، ولكن على الأقل استخدم عقلك يا بني.

أومأت مطيعاً وقلت:

- حسناً.

ربت أبي في كتفي في رفق، وقال:

- عودٌ حميدٌ يا بني.

ابتسمت في وجهه، ثم قلت:

- أشكرك يا أبي.

ثم تحولت ببصري أتأمل الحجرة التي نحن فيها، ثم قلت:

- لقد تغير الدار كثيراً، لقد أنكرته في البداية حتى خرجت لي من الباب.

- نعم، لقد كانت تتدفق الهدايا علينا من القصر بكل إنجاز تنجزه أنت في المعسكر.

رفعت حاجبي في دهشة، ثم قلت متهكماً:

- يبدو أن معاناتي جلبت النفع عليكم.

وضع أبي يده على ركبتي ونظر لي قائلاً بجدية:

- بنيّ، استمع لي، لم نكن ننعم بمعاناتك.. أبداً، ولكن كنا نسعد بهذا من الفخر بك.

أومأت متفهماً، فربت أبي على ركبتي وقال:

– هيا فالغداء ينتظرك.

– إني لا أشعر بالجوع.

ضحك أبي ثم قال:

– لابد أن تعتاد على طعام المدينة، وأن تنسى مؤقتاً طعام المعسكر ونظامه، كما لابد أن تأكل جيداً حتى تستعد لرحلتك.

– رحلتي؟!

– نعم، إني أرى من المناسب لك أن تقضي إجازتك في منزل اشتريته لك في واحة (باكور)، فالطبيعة هناك جميلة وستساهم كثيراً في تحسن حالتك وروحك، أترى؟.. أنت من يجب أن ينعم بعد معاناتك.

ابتسمت في سعادة لأول مرة، فتهلل وجه أبي واقترب مني وضمنيّ قائلاً:

– مهما حدث ستظل بني، وسيظل هناك لك مكانة كبيرة في قلبي.

ضممت أبي في قوة بدوري، فقال:

– هيا، حتى تستعد وتقوى لتحمل الرحلة.

ابتسمت في شيء من الفخر وأنا أجيبه بحماسة:

– لا تقلق يا أبي، فأنا يمكنني السفر أسبوعاً دون طعام، وحتى إن جعت أستطيع أن أقتل وحشاً حتى وأتناول لحمه.

ذابت ابتسامة أبي قائلاً في قلق:

- قلت لك فلتنس جو المعسكر ولتستمتع بإجازتك.

رفعت يدي محاولة تهدئة أبي، وقلت:

- حسناً حسناً.

- هيا لتتناول غدائك حتى أستعد.

نزلت مع أبي إلى الدور السفلي، ووجدت أمي قد أعدت لي وجبة كبيرة، وعلمت منها أن سائق العربة قد تناول طعامه وانصرف منذ لحظات، فجلست كي أتناول الطعام، وبدأت أشعر بالحرج، وظهر هذا عليّ.. فقالت أمي في حنان:

- أنت في بيتك يا حبيبي، خذ راحتك واستمتع.

ابتسمت لها، ثم مددت يدي إلى الطعام وبدأت آكل، ولأول مرة منذ ما يقرب من خمسة عشر سنة تصيبني التخمة من الطعام والشراب، فعندما بدأت كنت أتناوله بقدر كبير من الحرج، ولكن ما أن بدأت أعتاد عليه وعلى طعمه حتى بدأت آكل في سرعة وشراهة، وشعرت بأن لعابي يسيل داخل فمي بكثرة، وأنه أخيراً هناك فائدة لأسناني ولساني في الشعور بلذة الطعام، وجاء أبي وأنا أتناول طعامي فابتسم في رضا، وكان يبدو أنه قد انتهى من إعداد نفسه، فنفضت يدي كي أقوم، فقال لي:

- أكمل طعامك حتى تشبع تماماً يا بني، أنت في بيتك وليس المعسكر.

ابتسمت له ابتسامة قصيرة ومددت يدي إلى الطعام مجدداً وبدأت آكل من جديد، لا أستطيع أن أصف مدى السعادة التي بدأت تنبت داخلي بسبب أني آكل ما أريد وكما أريد، وعندما انتهيت أحسست بأني أحمل صخرة في بطني من ثقل ما أكلت، وما أن توجهت بنظري إلى أبي وأمي الجالسان على

الأريكة أمامي وجدتهما يبتسمان في حنان ورضا، فابتسمت بدوري وقمت من مجلسي قائلاً:

- هيا يا أبي.. أنا مستعد.

❋❋❋

امتلأت السماء بالسحب في ظهر ذلك اليوم مما لطف كثيراً من حرارة الجو، كنت أركب بجوار أبي في عربة تجرها الخيول، مارين في طريقنا بما تبقى من عاصمة المملكة الجنوبية نحو الصحراء...

" هذه العربة هدية أخرى من الملك بفضلك يا (كازان) "

التفت إلى أبي بعدما انتهى من جملته، وقلت:

- إنها جميلة، أرجو أن يساوي جمالها ما عانيت لأجله.

- هوّن على نفسك يا بني.

صمتُّ ونظرت إلى الأفق في تفكير، وبعد لحظات التفت إلى أبي وقلت:

- ألم يخبرك (كابارشان) أو (كاسارشان) أو (كادارشان) بما عانوه في المعسكر؟

ضم أبي شفتيه وقال:

- لا، لا يا بني.. أنت أول من يخبرني بهذا، فلقد عادوا أقسى منك بكثير، وتكتموا على الأمر بدرجة كبيرة.

- وأين هم الآن؟.. لِمَ لم يكونوا بالبيت؟

- هناك من عاد للمعسكر ومنهم من يقضي إجازته بمنزل له بعيداً عن

هنا، إن لهم الآن منازلهم الخاصة يا (كازان)، فلقد اشتريت لكل منكم منزلاً بعيداً عن الضوضاء وأحاديث المدينة والمعسكر، كي يساهم هذا في التهوين عليهم.

- لهذه الدرجة؟!

- وأكثر يا بني، فأنت لم تخض مثلهم تدريبات القوات الخاصة بكثافة.

عقدت حاجبيّ في شدة وقلت:

- كلامك هذا غير مريح.

زفر أبي في احباط ثم قال:

- لا أعلم ما قد أقوله يا بني، إننا نعيش في مملكة ذات جو جاف، أصبح كل أب وأم من كثرة ما يموت لهم أبناء بسبب تدريبات المعسكر اللعين لا يشعرون بقيمة الأبناء، ولا يشعرون بألم أن يموت لهم طفل، إننا نعيش في زمن أصبح الطفل مجرد مسمار يساهم في بناء سفينة، فإن انثنى أحدهم لا تصبح فائدة له ويُلقى في الرمال، كمثل آلاف الجثث التي حوتها رمال الصحراء.

ضحكت في سخرية وقلت:

- جثث؟!.. لا توجد جثث يا أبي، بل قل بقايا.

غطى أبي جبهته بيده قائلاً:

- لا تذكّرني يا بني.

لا أعلم لمَ أثارتني جملة أبي، فصحت في صوت عال:

- لا أذكرك؟!.. أنت لم تر ما يتعرض له أحدنا بعينيك، لا تتصور أن كل

هذا يحدث لأطفال!

صمت أبي ولم يجبني، ولعله أراد ألا يثيرني أكثر فأخرج ما أكبت من قسوة، فشد لجام الخيل كي يسرعوا.. وظل صامتاً.

***

ظللت أنا وأبي صامتين وكلانا ينظر إلى الأفق، وعندما لاحت بعض أشجار النخيل من بعيد، علمت أننا قد اقتربنا، فتنحنح أبي وقال:

- ها هي الواحة.

رددت عليه في اقتضاب وضيق:

- هذا ما ظننت.

عاد أبي إلى الصمت مجدداً، وظلت العربة تسير حتى دخلنا الواحة، كانت رائعة بحق، هناك الكثير من النخيل وأشجار الثمار، وأصوات الطيور والحيوانات الصغيرة في كل مكان، كما هناك بحيرة خلف الأشجار يكفي منظرها لشرح الصدور، ولكن مع قدر القساوة التي تغلب قلبي لم أتأثر كثيراً.

استدارت العربة إلى مساكن الواحة، وقطعنا شارعاً تراصت على جانبيه منازل صغيرة غاية في البساطة والجمال في نفس الوقت، وبينما أتأمل البيوت والنقوش والرسوم التي تغطي جدرانها لاحظت أن سرعة العربة تقل، فاستدرت برأسي إلى يد أبي التي قبضت على لجام الخيل كي توقف العربة...

" ها هو بيتك "

قالها أبي في شيء من الخفوت، فالتفت انظر إلى وجهه فرأيت كماً من

الحزن على وجهه...

" لم أرد أن أخبرك بمكانه قبل أن نصل إليه كي لا أزعجك بحديثي "

ظللت أنظر إليه ولم أقل شيئاً بعد جملته هذه، فنزل من العربة فنزلت وراءه وتبعته إلى باب المنزل، وبينما يفتح بابه أخذت أنظر إلى داري من الخارج، كان بسيط البناء من الخارج، بنقوش متنوعة الزخارف والألوان تزين جدرانه، وكان يتكون من طابقين بغير سطح المنزل، فعدت بنظري إلى أبي حين سمعت صوت انفتاح الباب، ودخلت وراءه هابطين درجتين.. ويا لروعة المكان من الداخل!

كان كل شيء ينطق بالجمال في المنزل، من الأثاث إلى الأرضيات والسجاد إلى المصابيح.. كل شيء، فتوجهت إلى أبي وقلت في سعادة ورضا:

- إنه جميل.

- فلتنعم به يا ولدي، فلأتركك الآن.

نطقها أبي بنفس اللهجة الحزينة، فأومأت له برأسي ثم قلت:

- أشكرك يا أبي.

- العفو يا بني، كله بفضلك.

قالها أبي وتوجه إلى الباب كي ينصرف، فذهبت إليه مسرعاً وقبضت على ذراعه وأنا أقول:

- انتظر يا أبي، فلترتح قليلاً من الرحلة ولتأكل شيئاً.

أشاح أبي بوجهه عني ورفض أن ينظر إليّ، وكلما أحاول أن أنظر إلى وجهه يشيح بوجهه أكثر، فناديته متعجباً:

- أبي!

تنحنح أبي ولم ينطق شيئاً، وحاول أن يفلت من قبضتي كي يفتح الباب، فقبضت في قوة على ذراعه وأدرته في سرعة وأنا أقول:

- رد عليّ يا أبي.

لم أكد أكملها حتى تفاجأت بوجه أبي الذي تنحدر الدموع عليه، فسألته في استنكار:

- ماذا بك يا أبي؟!

قال أبي في صوت خافت كي لا يظهر أثر البكاء في صوته:

- لا شيء يا (كازان)، لا شيء يا بني.

أرخيت قبضتي عند جملته تلك، فانتهز أبي الفرصة وسحب يده من قبضتي وتوجه إلى الباب وفتحه، فقلت له صائحاً:

- هل ستتركني في حيرتي هذه؟!

استدار أبي إليّ وهو يضع يده على قلبه، وقال في هيبته المعهودة رغم أثر الحزن في صوته:

- (كازان)، لقد فقدت الحياة مع أبنائي بعدما أخذهم المعسكر مني، ولم يعودوا كما هم، يبدو أني أخسر جميع أولادي يا (كازان)، لدي خمسة أولاد ولا أشعر بوجودهم، وكأني لم أنجبهم أبداً، وأنت الذي فخرت بك منذ ولادتك.. يبدو أني أخسرك الآن...

أخذت أنظر لأبي بوجه لا ينطق بأي شعور، فتابع أبي بينما يكاد يقبض على قلبه:

- لا تجعلني أخسرك يا (كازان).

أتم أبي الجملة والتفت راكباً العربة في سرعة وانصرف دون حتى نظرة إليّ.

❋ ❋ ❋

ظل (كازان) صامتاً بعد هذه الجملة منكس الرأس، فأخذ الجميع من حوله يتأملونه، فرغم تأكدهم أنه يشعر بحزن شديد ولربما على وشك البكاء، إلا أن ما سمعوه عنه كان يكفي أن تمتلئ قلوبهم بالرهبة منه وإن كان كثير البكاء أمامهم.

وبينما هم كذلك قال الملك:

- دموع الرجل يا (كازان) قد تكون معبرة أكثر عن قوته، لا ضعفه.. قل له يا (تاسيرون).

قام (تاسيرون) من مقعده وتوجه إلى (كازان) وقال:

- الملك هو أكثرنا حكمة يا بني، ورغم ما مررت به إلا أنك في داخلك شخص عظيم الشأن كاسمك.

لم يجب (كازان) بشيء ولم يرفع رأسه، كاد أن يزفر لكنه منع نفسه مجدداً، كانت ملامحه ممتعضة وكأنه يلوك كلاماً مراً لم يستطع نطقه، وصوت شهقاته المكتومة تصل إلى (تاسيرون) الذي رفع رأسه إلى الملك، فأومأ له الملك برأسه، فعاد (تاسيرون) بوجهه إلى (كازان) وقال:

- لترتح الآن يا (كازان)، فلقد اقتربنا من منتصف الليل ولنكمل غداً.

قام (كازان) في بطء وقامت معه زوجته، وقال (كازان) مومئاً برأسه

للملك:

– أشكرك يا جلالة الملك.

ثم توجه برأسه إلى (تاسيرون) مومئاً وقال:

– شكراً لك يا سيدي.

ابتسم (تاسيرون) في عطف، وصاحب (كازان) حتى باب حجرة العرش، ثم عاد إلى الملك وقال:

– يبدو أن (كازان) يعاني ألماً داخلياً شديداً يا سيدي.

– بالفعل، لكن لا يُصنع الرجال بسهولة.

– نعم، ولكن يبدو الأمر أكثر من ذلك جلالة الملك!

﴿ الفصل السادس ﴾

قضيت يومي الأول في داري الجديد أتناول الطعام والفاكهة بكثرة، كنت أريد أن أعوض ما فاتني بسبب المعسكر، كما أخذت أدور في أنحاء البيت لاكتشف غرفاته وكل ركن فيه، وعندما هممت أن استلقي على فراشي في نعاس لذيذ دون ازعاج المشرفين الحمقى، سمعت دقاً على باب المنزل، فقمت والسخط يملأ صدري، ونزلت إلى الطابق السفلي وفتحت الباب، فوجدت أن من دق الباب فتاة شابة، كانت جميلة سمراء الوجه، ذات شعر أسود ناعم وطويل، ترتدي ملابس مزينة يدوياً تعكس انتماءها لسكان الواحة، وكانت طويلة القامة.. لكن ليست أطول مني بالطبع، وتمسك في يدها سلة من الفاكهة وتبتسم لي...

" ما هذا الإزعاج؟! "

قلت لها هذه الجملة في غلظة، وبدا أن أسلوبي قد دهس ابتسامتها، فارتبكت قائلة:

- آسفة يا سيدي، جئت لأنظر إن كنت تحتاج طعاماً أو فاكهة.

- ومن تكونين؟

- اسمي (راسيا) يا سيدي، وأنا ابنة شيخ الواحة وكبير مزارعيها الشيخ (شوهان).

- وبعد!

ارتبكت الفتاة أكثر، فقالت في تردد:

- لقد جئت لأنظر إن كنت تحتاج...

صحت مقاطعاً:

- أعلم هذا، لمَ تأتين في هذا الوقت بالذات؟

تراجعت (راسيا) في خوف، ثم قالت:

- آسفة يا سيدي لإزعاجك في هذا الوقت.. سأنصرف.

- أبعد أن ذهب النوم من عيني تنصرفين هكذا؟!

- أعتذر لهذا يا سيدي.

ثم التفتت في سرعة ووضعت سلة الفاكهة على عربة خشبية صغيرة كانت وراءها، وكان يجر العربة مُهر بني اللون، وأخذت أنظر إليها وهي تركب عربتها وتنظر لي بطرف عينها في قلق كل لحظة، ثم شدت لجام المهر في حركة خفيفة وقالت:

- هيا يا (مابير).

وأخذت أتأملها في حنق حتى ابتعدت، ثم تراجعت إلى داخل المنزل وأغلقت الباب في غضب قائلاً:

- (مابير)؟!.. يا له من اسم سخيف!

ثم صعدت إلى حجرتي لعل النوم يعود لي، وقد عاد لي بصعوبة.

❋❋❋

دق الباب مرة أخرى، فنهضت عن الفراش في غضب، وتناولت عصا

قوية ونزلت إلى الطابق السفلي وأنا أكشر عن أنيابي، ورفعت العصا وأنا أفتح الباب صائحاً:

- هيا من هنا أيتها...

قطعت جملتي.. لم يكن هناك أحد أمام الباب...

" (كازان)! "

التفت يميناً ويساراً ولم أجد أحداً...

" بنيّ "

جاءني الصوت من أسفل، فنظرت إلى الأرض.. ويا لصدمتي!.. وجدت رأس أبي أمام قدمي تناديني، وكانت تغوص ببطء في الأرض، فصرخت:

- أبي!

انهارت ركبتيّ وسقطت على الأرض في سرعة واضعاً رأس أبي بين كفيّ وحاولت أن أرفعها، فتأوه أبي وقال:

- لا يا بني، أنت تؤلمني.

فصرخت:

- تحمل يا أبي، ستموت هكذا.

- وأنت بهذه الطريقة ستنزع رأسي.

وأخذت رأسه تهبط أكثر، حتى أصبح فمه أسفل سطح الأرض، وأنا أصرخ:

- أبي!

فأخذت أحفر أمام رأسه كي أكشف عن فمه، ولكن الأرض كانت صلبة، فتعجبت كيف تغوص رأسه في هذه الأرض؟!.. وأخذت ملامح وجهي تتحول من الصدمة إلى الحزن وأنا أصرخ وأصرخ بينما أضرب الأرض وأحفر، ثم بدأت الأرض تتجاوب مع يدي، فأخذت أحفر أسرع، وما أن ظهر فمه حتى قال:

- (كازان)!

أجبته وصوتي قد غلبت عليه اللوعة:

- نعم يا أبي.

- لا تخسر نفسك يا (كازان) فأخسرك.

ثم هبطت رأسه في الأرض واختفت قبل أن أعي ما حدث، فاتسعت عيناي في رعب وانتفض جسدي إلى الخلف، ثم تقدمت وأخذت أحفر الأرض بسرعة كي أكشف رأس أبي مجدداً، ولكن لا شيء يظهر، فأخذت أحفر في سرعة أكبر والحفرة تصبح أعمق وأعمق، ولكن رأسه لم تظهر قط، فصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- أبي!

انتفضت جالساً على الفراش صارخاً:

- أبي!

وأخذ صدري يعلو ويهبط بعنف، ثم تلفتُّ حولي.. إنها غرفتي، ولأول مرة منذ أزمان يصيبني هذا القدر من الألم في صدري، فقلت لنفسي في صوت مسموع:

- يا لك من كابوس لعين!

تنفست بعمق عدة مرات بينما ألعن وأسب هذا الكابوس، وقمت إلى نافذة حجرتي وفتحتها، فوجدت أن الشروق قد اقترب، فتعجبت كيف نمت كل هذه المدة؟!.. ورغم هذا ذهبت إلى حوض الماء في الدور السفلي واغتسلت، ثم أخذت صحناً مليئاً بالفاكهة إلى سطح الدار كي أتأمل الشروق.

❋❋❋

بينما الشمس تظهر في الأفق، أخذت أتأملها في تعجب وإعجاب...

" كيف غاب عني هذا الجمال في المعسكر؟! "

قلتها لنفسي، فعلاً.. ففي المعسكر كنا نستيقظ فجراً، ولكن كان اهتمامنا بالأوامر والتدريبات، وأعيننا مسلطة دائماً إما على القائد والمشرف وإما على وحش أثناء مصارعته، كان كل هذا يعزلنا عما يحيطنا من طبيعة، فضحكت ضحكة قصيرة في تهكم، ثم قلت في صوت مسموع:

- وحتى إن راقبت شروق الشمس في المعسكر، كيف يمكن أن يكون جميلاً والأفق هناك تلال رملية تعلوها العواميد اللعينة التي يقيد إليها كل جبان أو متمرد؟!

ثم عدت بتفكيري إلى الكابوس الذي رأيته، وتعجبت كيف أثر بي كل هذا التأثير؟!.. إني لا أكاد أشعر بأن هناك قلباً ينبض داخلي، ولا أتأكد من وجوده إلا عندما أضع يدي عليه كي يوقنني نبضه أنه ما زال هنا، ولا أعلم ما الذي دفع أبي لقول ما قاله لي قبل أن ينصرف بالأمس؟ ولمَ كرر نفس الجملة في هذا الكابوس؟ هل أنا سيء لهذه الدرجة؟!

أصابني الضيق عند هذه الجملة، فتناولت ثمرة فاكهة من صحني وأنا أقول:

- بالطبع لست سيئاً لهذه الدرجة.

وتناولت قضمة من الثمرة، ثم أصدرت صوتاً دليلاً على إعجابي بطعمها، فقلت:

- يبدو أن كل ما بالواحة هنا جميل.

وما أن تذكرت الواحة والجمال حتى تذكرت البائعة بالأمس، فسألت نفسي:

- هل كان الموقف يستحق كل هذا الغضب؟!

- نعم، لقد كنت على وشك النوم أخيراً دون ازعاج، ولأول مرة منذ سنوات.

- لا يا (كازان)، إنها لم تكن تعلم.

- هذا لا يمنع أني قد تعرضت للإزعاج.

- وما ذنبها كي تصب عليها الغضب الذي كنت تشعر به؟

- إنها تستحق.

- لمَ؟

- لأنها أزعجتني.

- إنها التي ستأتيك بالفاكهة التي تحبها أيها الأحمق.

ابتسمت في سخرية عندما سببت نفسي، فقمت إلى سور السطح كي

أتأمل الواحة، ومرت لحظات وإذ بعربة (راسيا) تقترب من بداية المساكن، وكانت هذه المرة تحمل أوعية كانت تبدو من شكلها المميز أنها تحوي حليباً، وأخذت أتأمل (راسيا) وهي تمر أمام كل منزل وتدق على الأبواب كي تبيعهم الحليب، فعدت اسأل نفسي:

- هل هذا الدق الرقيق هو ما أزعجني بالأمس؟!

بدأت أشعر بأني قد قسوت عليها، وتابعت تأملي لها وهي تتنقل من دار إلى آخر، وفي كل تصرف لها أجد بأني ألوم نفسي أكثر على ما فعلته لها، وبدأت أترقب وصولها لبيتي كي أتعامل معها بأسلوب أفضل يعوضها عما أصابها من معاملتي بالأمس.

وعندما انتهت من بيع الحليب للمنزل الذي بجواري مرت على داري ونظرت له للحظة، ثم ذهبت إلى العربة وتناولت وعاءً من الحليب وتركته أمام الباب وانصرفت إلى البيت الذي يليني...

" ما هذا؟! "

قلتها في نفسي باستنكار وأنا أتأملها تتابع سيرها وبيعها، هل قسوت عليها لهذه الدرجة حتى لا تدق بابي؟!.. وكيف تترك الحليب أمام بيتي دون أن تأخذ ثمنه؟!.. كدت أن أنزل كي أتفاهم معها لولا أن سمعت صوتها يعلو فقطعت حديثي لنفسي والتفت برأسي يميناً ونظرت، فرأيت رجلاً بديناً يسكن في البيت الثالث يسار المنزل الذي أمامي يمسك بيدها ويقول:

- ما بالك يا (راسيا)؟ إني أدعوك للفطور.

فصاحت فيه:

- قلت لك دعني وشأني.

- ألم أتقدم لوالدك؟

- وأبي قد رفضك، ألم تدرك هذا إلى الآن؟!

تجهم وجهه، وقال في غلظة:

- أنا لا يرفضني أحد، وأنتِ خطيبتي.

خرج أحد الرجال من نافذة البيت المجاور له وقال:

- دعها يا (بيبور)، ألم تكتف من إزعاجها كل يوم؟

صاح به:

- (بيبور) هكذا دون احترام؟.. لا دخل لك أيها المتطفل، فلتهتم بشؤونك، أم تريد أن أفعل بك ما فعلته بجارك؟

تردد الرجل ثم تراجع وأغلق نافذته، والتفت (بيبور) إلى (راسيا) وقال غاضباً:

- هيا، فلتدخلي.

حاولت (راسيا) بجهد أن تنزع يدها من قبضته وهي تقول:

- دعني وشأني كي أكمل بيعي.

- بيعك؟!

ترك يدها وتوجه إلى عربتها وأمالها على جانبها فوقعت كل أواني الحليب وانسكب ما بها على الأرض، ثم ضرب المهر في بطنه بقوة صرخ لها...

" (مابير)! "

صرخت بها (راسيا)، فالتفت إليها قائلاً بغلظة:

- لا بيع اليوم، ستتناولين معي الفطور.

وقبض على يدها وحاول أن يجرها داخل المنزل، وعلى حين غرة.. اندفعت ثمرة فاكهة إلى رأس (بيبور) فأصابته ولطخت وجهه، فمسح وجهه بيده وصاح:

- من القذر الذي فعل هذا؟

وأخذ يتلفت حوله وينظر إلى نوافذ المنازل، حتى وقع بصره عليّ، فصاح:

- هل رأيت من فعل هذا؟

أجبته في برود:

- نعم.

- من هو؟

أجبته بنفس برود:

- أنا.

رفع (بيبور) حاجبيه في تعجب من جرأتي وبرودي، ثم عقد حاجبيه وصرخ:

- كيف تجرؤ أيها القذر؟

- لقد جرؤت، والآن دعها أيها البغل.

ارتفع حاجباه مرة أخرى، ثم عاد يصرخ:

- إن كنت أمامي لحطمت ضلوعك على فعلتك هذه.

فضحكت في سخرية وقلت:

- وما الذي يمنعك؟

ضغط (بيبور) على أسنانه، فأفلت يد (راسيا) وتقدم حتى وقف أمام داري صائحاً:

- ما يمنعني أيها المتبجح أنك تحدثني من فوق طابقين، فإن كنت شجاعاً هكذا فلتنزل إليّ، أم تحب أن أحطم بابك وأصعد إليك بنفسي؟

ابتسمت في سخرية ثم قلت:

- لا.. لا داع لتحطيم الباب.

دون مقدمات، وكما تعلمنا خلال سنوات من التدريب، قفزت من شرفة سطح المنزل إلى أرض الشارع، ثم انتصبت واقفاً أمامه مبتسماً في سخرية، وقلت:

- ها قد نزلت إليك.

سقط فك (بيبور) من الدهشة، فقطعت دهشته بقولي:

- ماذا حل بك أيها البغل؟

هز (بيبور) رأسه بقوة كي يتخلص من دهشته، وعقد حاجبيه قائلاً:

- الآن سأريك ماذا سأفعل بك أيها المهرج.

قالها وأعاد يده إلى الخلف استعداداً للكمي، فتنحيت برأسي جانباً في سرعة وتركت يده تخترق الهواء بجانب أذني، ثم أمسكت معصمه بيد ومددت يدي الأخرى أسفل كتفه، ولففته بكامل جسده نصف دورة فاصطدم بقوة بحائط داري، ثم تراجع بظهره خطوة إلى الوراء وسقط على ظهره، فرأيت وجهه غارقاً في الدماء وأنفه محطمة، فابتسمت ساخراً وقلت:

- ما هذا الذي يملأ وجهك؟ هل جرحت حائط داري؟

فأمسكت قدمه وجررته إلى منزله، ثم تناولت رأسه بيدي ورغم مقاومته صدمت وجهه بأنفه المكسورة حائط منزله في قوة، فصرخ في صوت عالٍ، فصحت فيه متهكماً:

- لا تجرح جدار بيتي مرة أخرى، هناك جدار لك كي تجرحه.

لم يلتفت لكلامي وظل يصرخ من الألم، ونظرت إلى (راسيا) وقلت لها:

- أرأيتي؟ إن بقعة الدماء على جدار بيته أجمل من البقعة التي تركها على جداري، هل أجره إلى داري مرة أخرى؟

فصرخت:

- لا.

أومأت لها، وعدت التفت إلى (بيبور) الذي ما زال يصرخ وقلت في حدة:

- إن مسستها مرة أخرى سوف أجعل منك تمثالاً أمام بيتي، هل تفهم؟

ظل يصرخ ويتحسس أنفه، فصحت فيه:

- هل تفهم؟

سكت للحظة وأومأ لي برأسه في خوف، ثم عاد إلى الصراخ، فقلت:

- هذا جيد.

وكدت إن التفت وأذهب إلى عربة (راسيا)، لكني تراجعت واستدرت إلى (بيبور) هذا، ثم ركلته في بطنه، فعاد يصرخ وتعالى صوته، فقلت له:

- هذه من أجل المهر أيها البغل الكبير.

ثم التفت وذهبت نحو الأوعية الملقاة على الأرض وأخذت أضعها فوق العربة، ثم تقدمت إلى المهر كي أتحسس بطنه وصدره، فالتفت إلى (راسيا) قائلاً:

- لا أستشعر أي كسر في عظامه، اذهبي به إلى طبيب ما وإن أخبرك بأن هناك كسر ولو بسيط به...

التفت إلى (بيبور) الملقى على الأرض في حدة وكان ينظر لي في ترقب، وتابعت:

- أخبريني.

ارتجفت ملامحه، لكني لم أعبأ وعدت أنظر (لراسيا) فوجدتها تنظر إليّ متوجسة كما هي، فقلت لها بابتسامة بسيطة:

- أعتذر عن أسلوبي معك بالأمس.

فأومأت برأسها في حركة قصيرة، فعدت أقول:

- ما ثمن الحليب؟

- خمسة.. خمس روزات.

فأجبتها في ابتسامة أكبر:

- لا، اسأل عن ثمن الحليب المنسكب أيضاً.

أومأت برأسها بالنفي، فنظرت إلى العربة وأخذت أحصي عدد الأوعية، ثم عدت بنظري إليها وقلت:

- سبعون.. حسناً.. مري عليّ عند بيعك للفاكهة وسأعطيك الثمن.

عادت تومئ لي برأسها دون معنى واضح، ثم تقدمت إلى المهر وقادته من لجامه كي لا تزيد آلامه بركوبها وعادت من حيث أتت، فأخذت أتأملها بوجه لا ملامح له حتى اختفت، ثم تنهدت بشيء من الرضا وعدت إلى داري دون أن التفت إلى البغل الملقى على الأرض.

الفصل السابع

جلست في الطابق السفلي بعدما انتهيت من إصلاح باب داري الذي اضطررت لكسر قفله كي أستطع الدخول، وخلدت إلى نفسي أفكر في أمري وعما فعلته حتى المساء، فقد فقدت شهيتي من كثرة الحيرة، وركزت في تفكيري على (راسيا) التي لم تأت وقت العصر كما كنت أنتظر، وهناك البغل (بيبور).. أهذا الشخص أيضاً يستحق أن أحطم أنفه وعظام وجهه لهذه الدرجة؟!.. نعم، لقد استقوى على فتاة ضعيفة.. ولكن ألم يكن من الممكن أن أضربه فقط دون أن أؤذه لهذه الدرجة؟!.. أم هذا ما استحقه؟!

" ما الذي فعلته بي يا أبي؟! "

تساءلت في حيرة بصوت مسموع، كيف استطاع أن يؤثر بي أمر أبي لهذه الدرجة وأطيعه بهذه السرعة عندما قال:

" لا أطلب منك أن تستخدم قلبك، ولكن على الأقل استخدم عقلك يا بني "

هل أنا مطيع للأوامر لهذه الدرجة؟.. أم أني تأثرت أيضاً بقول أبي عندما صاح فيّ:

" هل علمك المعسكر أن تطيع قائدك بلا تردد، وأن تتردد عند أوامر أبيك؟! "

لا أنكر أن هذه الجملة قد هزتني، كأني عدت طفلاً مرة أخرى واقفاً

أمام أبي ولدي سبع سنوات من العمر كي يعاتبني وينصحني، فوضعت رأسي بين يدي وعدت أسأل نفسي كيف تصدع تأثير كل تلك السنوات بهذه السرعة لقول أبي؟!.. أعلم أن أوامر أبي هي الأولى بالطاعة عندما أكون خارج المعسكر، أم هي الأولى أيضاً وإن كنت داخل المعسكر؟

وإن يكن.. هل أطعت أمره بهذه السرعة؟ هل أثر بي؟ أم أني ما زلت (كازان) الطفل؟

انتصبت واقفاً عند هذا السؤال وصحت:

- لا، لست طفلاً.. لقد قال أبي "مهما حدث ستظل بني، وسيظل هناك لك مكانة كبيرة في قلبي".. فلأفعل ما بدا لي.

وما أن قلتها حتى جاء سؤال في عقلي:

- وإن قال هذا فلماذا حزن وتركك والدموع تملأ وجهه؟ ونصحك أيضاً بألا تخسر نفسك!

ضغطت على رأسي بكلتا يديّ ثم صرخت:

- ماذا فعلت بي يا أبي؟!

ما أن قلتها حتى دق الباب بعنف، فقمت وأنا لم أتخلص من حيرتي كي أفتحه، ولم أكد أفعل حتى دفعني رجل قوي إلى الداخل، فسقطت على ظهري من المفاجأة، ورأيته يدخل وكان طويل القامة مصقول العضلات بشكل يكاد يجعلها تعكس إضاءة المنزل، وتبعه من وراءه أربعة من حاملي السيوف، فنظرت إليهم في استنكار وأنا أرى آخر من دخل فيهم قد استدار وأغلق باب المنزل، فقمت واقفاً متسائلاً:

- من أنتم؟

ضرب الرجل الطويل قبضتيه في بعضهما ثم قال في غلظة:

- نحن هنا لنعاقبك لإيذائك السيد (بيبور).

عقدت حاجبيّ وأنا أجيبه بتهكم:

- هل أتيتم كي تفعلوا بي كمثل ما فعلتم بجاره؟

ضحك الرجل القوي متهكماً بدوره، ثم أجاب:

- كمثله؟! نحن كسرنا ذراعه فقط لأنه حاول أن يفلت يد البائعة من قبضة السيد (بيبور)، أما أنت.. سوف نقطع ذراعيك وساقيك تماماً.

تراجعت للوراء وأنا أقول:

- أنا أحذركم، أنتم لا تعلمون مع من تتحدثون.

ضحك الرجل نفس الضحكة البشعة، ثم جرد سيفه وتقدم ناحيتي هو والذين معه، وأعينهم تعكس مدى الغضب والشر اللذان يدخرونهما لي، فأخذت أتراجع حتى أوقفني الحائط، وما أن لمسته حتى جريت إلى يميني وصعدت الدرج، فركضوا ورائي وأقدامهم تكاد تحطمه، فتابعت حتى وصلت إلى حجرتي وتناولت عصا غليظة واستدرت للرجل القوي وضربته بها، فجاءت الضربة على كتفه ولم تؤثر به، فرفع سيفه وهبط به نحو كتفي، فتراجعت وأملت السيف بعصاي بينما أتراجع إلى وسط الحجرة.

ابتسم في شر وتقدم نحوي بسيفه الذي لم أجد مفراً من أن أبارزه، وكم لعنت هذه الحجرة والجدران التي شعرت أنها تقيدني بجانب هذه المبارزة غير العادلة، واستمرت المبارزة لثوانٍ بينما الأشياء تتحطم في الحجرة يميناً

ويساراً، حتى أملت سيفه.. وفي حركة مباغتة ضربت مقدمة رأسه بكل قوتي، فتراجع للوراء خطوة وهو يزمجر، وبينما يتراجع تقدم حاملي السيوف من وراءه.

وبقدر ما أستطيع أخذت أبارزهم في سرعة تناسب مدى ما أستطيع استيعابه من حركات أحدهم تلو الآخر، ولكن خلال ثوانٍ أصاب سيف أحدهم جنبي، وسيف الآخر كتفي، وكاد الثالث أن يطعنَ صدري لولا أني تراجعت بسرعة للخلف، ورأيت أني تحملت ما يكفي، وساحة المبارزة تضيق بتقدمهم نحوي، فألقيت عصاي في ناحيتهم، وخلال اللحظة التي حاولوا تفاديها بها قفزت من نافذة حجرتي إلى الشارع، ولكن مع سرعة قفزي التي جاءت دون تخطيط سقطت على أرض الشارع بعنف.

تأخرت لحظات حتى بدأت أنهض عن الأرض، لكنها كانت كافية كي يخرج الرجل الطويل من باب الدار ويتوجه إليّ وهو رافع سيفه، فانتصبت واقفاً آخذاً في التراجع وأنا غير حامل لأي سلاح، واكتملت الكارثة بخروج حاملي السيوف من باب داري وتوجههم نحوي...

" اقتلوه "

دون أن التفت إلى مصدر الصوت، كنت أعلم أنه (بيبور) يصيح بهم من نافذة داره، ولكنهم بعكسي قد التفتوا إليه للحظة، وهي نفس اللحظة التي جريت فيها إلى الطويل وبكلتا قبضتيّ ضربته بصدره في قوة، ثم بحركة سريعة لويت كفه نازعاً سيفه وتراجعت بينما أنظر إليه متحفزاً، فنظر الرجل في استنكار لما حدث له خلال لحظة، لكني لم أمهله، فتقدمت مجدداً بينما يحاول تفاديّ فضربته بالسيف في يده وذراعه ضربات وصلت حتى عظامه.. لم يكن عندي استعداد للتنازل عن ضربة واحدة يمكن أن توقفهم تماماً عما

ينوون فعله لي، خاصة وقد تغير ميزان المبارزة ولدي سيف الآن بيدي.

ثم أدرت كوعي وضربته بقبضة السيف في وجهه فكسرت أنفه، فسقط الرجل على الأرض، ولم اتأخر لحظة ولم التفت إليه، فتوجهت من خلفه إلى حاملي السيوف الذين تقدموا ناحيتي، فقابلت أولهم الذي رفع السيف ليضربني به بينما يصيح صيحة حمقاء، لكني تنحيت بسرعة وركلته في جنبه بركبتي ثم بقدمي فألقيته على الأرض وتخطيته، وبارزت الاثنين الذين يتبعونه في ثلاث حركات، أبعدت فيها سيف الرجل الأيمن عني، ثم انخفضت بجسدي ودفعت بكتفي الرجل الأيسر بقوة فطرحته على الأرض، ثم عدت للرجل الأيمن فضربته بالسيف ضربة فصلت بها عظام ساعده الأيمن عن جسده.

ثم استقبلت الرجل الأخير بضربة أملت فيها سيفه، ثم استدرت ودفعته بكوعي للأمام تجاه الرجل الأول الذي كان يركض نحونا، فاصطدما ببعضهما، واستغللت هذه الفرصة فضربت بسيفي يد الأقرب لي ففصلتها بالسيف الذي تقبض عليه، ثم ركلته فألقيته على بعد خطوات بينما يصيح متألماً، ثم طعنت الرجل الآخر في صدره فقتلته.

نظرت إلى عينيه في قسوة بينما السيف يخترقه إلى ظهره، كانت تلك اللحظة التي قتلت فيها لأول مرة شخص خارج المعسكر، وخارج نطاق التدريبات، وما أن سقط أمامي حتى تسارعت أنفاسي كأني عدت أو تحولت إلى شخص آخر بدأ يعي ما يحدث، ونظرت إلى الرجل الطويل فوجدت أعينه مسلطة عليّ بكل تعجب وإعجاب، فكدت أن أنطق لولا أن سبقني صائحاً:

- إنك مقاتل رائع بحق!

عقدت حاجبيّ ثم أنزلت يدي التي تحمل السيف، فتابع الرجل قائلاً:

- لم أر في حياتي من يقاتل مثلك، لَمَ لا تنضم لي؟

تقدمت بخطواتي إلى الرجل في بطء، وعندما وصلت في طريقي إلى الرجل الذي قطعت يده، وكان قابضاً بيده الأخرى عليها بينما ينظر إليّ في ألم، فسألته متهكماً:

- هل تؤلمك يدك؟

ارتجفت شفتاه ولم يدر بأي رد يرد، فدفعت سيفي إلى صدره فأنهيت حياته هو الآخر، ثم نظرت إلى الرجل الذي يليه الذي قطعت ساعده، فأخذ يتراجع وهو جالس على الأرض، فتقدمت إليه بكل بطء وثقة حتى استدار في هلع وبدأ يزحف على بطنه، فدست بقدمي على طرف ثوبه فلم يستطع التقدم أكثر، فاستدار مستسلماً برأسه إليّ وملامحه المهتزة في رعب، فسألته في برود:

- هل يؤلمك ذراعك؟

رد عليّ في سرعة:

- لا.. لا يا سيدي.

رددت عليه بنفس البرود:

- هذا جيد...

فرفعت سيفي وضربت عنقه في قوة أطارت رأسه فاصطدمت بجدار أحد المنازل وسقطت على الأرض بينما تزال حاملة لملامحه المرتعبة، فنظرت للرأس المقطوعة وصحت:

- كيف هو شعور أن تكون ممزقاً أو مقتولاً أيها الحمقى؟!

قلتها وعدت برأسي إلى الرجل الطويل وعدت أتقدم نحوه ببطء وأنا أقول:

- لم يعد غيري وغيرك!

ضحك الرجل في تردد، ثم قال:

- نعم، إنهم ضعفاء، ما رأيك أن تنضم لي؟

ابتسمت في سخرية وأنا ما زلت أتقدم، حتى وقفت أمامه وهو ممدد على الأرض ينزف، ومستند على يديه خلفه، فنظرت إلى عينيه مباشرة للحظة، ثم قلت:

- إذاً.. أنت الذي ستقطع يديّ وساقيّ!

صاح الرجل:

- لا، لا.. لقد كنت أقوم بعملي فقط.

- أنت تقوم بعملك.. وأنا أدافع عن نفسي.

" أرجوك، لن أتعرض لك مرة أخرى "

قالها وكأنه يحاول بجسده الهروب في الأرض، فأجبته في برود:

- أنت بالفعل لن تتعرض لي مرة أخرى.

ارتجف فك الرجل، لكني لم أعبأ به، فرفعت سيفي في نفس الوقت الذي نطق فيه بكلمة مرتجفة:

- أرجوك!

وهبط السيف على كتفه الأيسر ففصل ذراعه كاملة عن جسده، فصرخ

الرجل في جزع صرخة طويلة، وظللت أتأمله بلا مبالاة، وذلك حتى بدأ صراخه يتقطع، فرفعت سيفي وهبطت به على كتفه الأيمن ففصلته هو الآخر، فسقط الرجل على ظهره وعاد يصرخ عالياً، بينما صدره يتشنج من قوة صرخته، وعضلات وجهه وعنقه مشدودة، لكني ظللت أتأمله في برود، ثم قلت:

- ستموت هكذا قبل أن أنتهي منك.

ثم رفعت السيف وهبطت به في قوة أكثر على ساقه اليمنى ففصلتها، فانقطع صراخه وعويله إذ ذهب عن الوعي، لكني لم أهتم وفصلت ساقه اليسرى كذلك، ثم تقدمت وقبضت على شعر رأسه وأخذت أجر جسده المكون من رأسه وجذعه فقط حتى باب (بيبور) وتركته، ثم أخذت أتأمل في الجسد ما كنت لأصبح عليه بالضبط لو تمكنوا مني.. ومرت لحظات أخرى حتى همد تماماً.

***

" توقف هنا يا (كازارشان) "

صاح الملك بهذه الجملة، فانتبه (كازان) إلى الملك فوجد وجهه يتصبب عرقاً وصدره يعلو ويهبط من التوتر، فأدار رأسه في الحضور فرأى منهم من يلتقط أنفاسه عميقاً عدة مرات، وكأن أمر الملك قد أعطاهم فرصة للراحة مما يُقال، فزفر في احباط وهمس إلى (راسيا):

- إنهم لم يروا شيئاً.

ربتت (راسيا) بيدها على كتفه، كانت تعلم أنه سيشعر وسط كل هذا النفور أنه وحيد في هذه الحجرة، ولربما في كل العالم، فهبطت بيدها إلى كفه

الأيسر وحوته بين كفيها، فلاحظت تلك التنهيدة الذي أخذها بطء، لكنٍ الملك تنحنح في قوة فرفع (كازان) نظره إليه فوجد أن التوتر لا يزال بادياً في ملامحه، ولكن يبدو أنه تمالك نفسه بسرعة من تدافع كلمات حكايته على صدره، فقال (كازان) في شيء من التردد:

- أعتذر يا سيدي، لكنك تعلم أنك قد طلبت من محارب أن يقص روايته عن معسكره وحياته وحربه بكل صدق، ولا أظن أن الجمع الكبير هنا قد توقع شيئاً لطيفاً من ماضٍ محارب نشأ بالجنوب، وإلا سيكون الأمر كطلب سماع قصة مخيفة ثم الشكوى من أنها تحوي أشباحاً.

ابتسم الملك لقول (كازان) وطرافة المثل الذي ذكره، ثم قال:

- أنا أتفهم يا (كازان)، فلتكمل.

تنهد (كازان) في شيء من الاحباط لأنه سيعود لتلك الذكريات، وبدأ يكمل.

❋❋❋

بعد لحظات من تأمل جثة الرجل الطويل -الذي لم يعد طويلاً- خرج إليّ صوت (بيبور) من وراء نافذة منزله بالطابق العلوي:

- إن تقدمت إلى باب بيتي فسأقتل (راسيا).

أجبته صائحاً في استنكار:

- كيف تحب فتاة وتهدد بقتلها كي تدافع عن حياتك أيها الأحمق؟!

- لا شأن لك، سأتزوجها ولن تستطيع فعل شيء لي، وإلا سأقتلها.

انعقد حاجبيّ أكثر وأنا أقول:

– فلتتزوجها أيها البغل فلا شأن لي بهذا، ولكن إياك أن تقول أني لن أستطيع فعل شيء لك.

– نعم، لن تستطيع أن تفعل أي شيء لي.. وإلا سأقتلها.

صحت في غضب:

– قلت لك أني لا أعبأ بكما يا ذا عقل النملة، ولكن لا تكرر قولك بأني لا أستطيع فعل شيء.

– نعم لا تستطيع.. وإلا سأقتلها.

أصابني غباء هذا البدين بالضيق الشديد، فكشرت عن أنيابي ثم صحت:

– تباً لاستخدام عقلي يا أبي.

ثم ألقيت بالسيف إلى الأرض، وتقدمت إلى الباب فحطمته بركلتي، وصعدت إلى الطابق الثاني وتقدمت إلى غرفة البدين، فرأيته ينظر إليّ في خوف وهو يضع نصلاً على رقبة (راسيا) المقيدة على كرسي أمامه، وقال:

– إن تقدمت خطوة فسوف...

لم أتوقف، فتقدمت إليه وقبضت على تلابيب ثيابه ودفعته حتى النافذة المغلقة، وصحت في غضب:

– قلت لك لا أعبأ.

ثم دفعته بقوة فحطم النافذة وسقط إلى الشارع، ثم استدرت إلى (راسيا) وحللت عقدة قيدها، ثم تركتها في لا مبالاة ونزلت إلى الشارع لأجد (بيبور) مستلقياً على جنبه الأيمن ويده اليسرى ملتوية خلفه، وكانت الدماء تتساقط من فمه، فقال لي في صوت متقطع:

- لقد.. لقد تحطم.. صدري.

تأملته في غضب، ثم قلت:

- أهذا الذي لا أستطيع فعل شيء لك؟

سعل (بيبور) دماً ثم قال:

- أعتذر.. آ.. أنا آسف.. انقذني أرجوك.

اعتذارات ورجاءات عديدة خلال هذه الساعة، لقد أصبح الأمر مملاً، فتقدمت إليه وهبطت على ركبتي قائلاً:

- والخطر الذي مثلته على أهل الواحة؟

- لن أكرره.

- والمُهر.. والحليب؟

زفر (بيبور) بصعوبة، ثم قال في ضيق:

- قلت لك آسف.

ظللت اسأله بنفس البرود وكأني أنتقم من غبائه:

- والرجال الذين أرسلتهم لي؟

- لقد قتلتهم!

- والرجال الذين أرسلتهم لي؟

- لقد...

قاطعته في إلحاح:

- والرجال الذين أرسلتهم لي؟

- آسف.

- وتهديدك (لراسيا)؟

علا صوت (بيبور) في ضيق رغم ألمه قائلاً:

- أعتذر.. أقسم لك أني أعتذر عن كل شيء.

- قلت لك إن مسستها مجدداً سأجعل منك تمثالاً أمام بيتي.

- حقاً أنا آسف.. ساعدني.

أدرت رأسي إلى جثث حاملي السيوف بينما أقول:

- لقد تعهدت بثمن اللبن المهدور من مالي، ودافعت عن نفسي ضد هؤلاء وقتلتهم، ولكن هناك قراراً أنت أخلفته بأنك قد مسستها.

صاح (بيبور):

- ألم تقل أنك لا تعبأ بها؟

- نعم قلت.. لكني اتخذت قراراً وسمعته مني ولن أتراجع عنه.

بدأ (بيبور) يتباكى، فسألته:

- كم مرة أرسلت هؤلاء القتلة لتنتقم من أحدهم أو تعاقبه؟

انقطع تصنعه فجأة، ونظر إليّ، فتنهدت في ضيق وعدت اسأله:

- سألتك كم مرة أرسلت هؤلاء القتلة لتنتقم من أحدهم أو تعاقبه؟

بلع (بيبور) ريقه في صوت مسموع، ثم أجابني متردداً:

- لا أذكر.

- طفح الكيل.

ثم قبضت يدي ولكمته بقوة في صدره، ففتح فمه ولكن لم تنطلق أي صرخة، حاول جاهداً أن يصرخ ولكن الضربة على صدره المحطم بالفعل كانت كفيلة أن تشل صوته من الألم ومن صعوبة تنفسه، ثم امسكت بعباءته وبدأت أجره إلى داري، فخرجت (راسيا) من باب الدار وصاحت:

- أرجوك يا سيدي دعه.

لم أرد عليها، فأخذت تصرخ عالياً وتستنجد بالناس، وحاولت أن تجري ورائي فتعثرت وسقطت على الأرض، وتنبهت تلك اللحظة للجثث والأشلاء المنتشرة بالشارع، فعلى صوتها في الصراخ ثم فقدت الوعي.

وصلت إلى داري راكلاً الباب بينما أجر (بيبور) ورائي على الأرض، وصعدت السلم وهو بوضعه هذا، لا يكاد يكمل صرخة أو صيحة من كثرة تخبطه، حتى وصلت إلى حجرتي حيث تركته وذهبت إلى جوار سريري وتناولت حبلاً...

" ماذا تفعل؟! "

صرخ (بيبور) ببقايا طاقته بهذه الجملة ثم أخذ يسعل، فالتفتُّ إليه وأنا عاقد الحبل على شكل حلقة، فاتسعت عيناه صائحاً:

- هل ستشنقني؟

- لا، سأعلقك من رقبتك فقط.

بدت الحيرة في عينيه، فتقدمت إليه وجلست على ركبتي وأنا أقول

ساخراً:

- بالطبع تتساءل ما الفرق بين أن أشنقك وبين أن أعلقك من رقبتك!.. إن الفرق بسيط جداً...

عقدت حاجبيّ وأنا أتابع:

- فالشنق للأحياء فقط.

صرخ (بيبور) في هلع:

- هل ستقتـ...

لم يكملها، فلقد هبطت بضربة على عنقه بقبضتي، فاتسعت عيناه وانفتح فمه وظل مفتوحاً يخرج أصواتاً متحشرجة.. حتى هدأت تماماً، فأجبت سؤاله الذي لم يكتمل:

- أنت لم تظل حياً حتى اللحظة إلا لأملك في انقاذي لك، إن سذاجتك مثيرة للاشمئزاز حقاً!

ثم أدخلت حلقة الحبل إلى عنقه وجررته بالحبل إلى النافذة وألقيته منها فتعلق، ثم نفضت يديّ ونزلت إلى الشارع ونظرت إليه ممتعضاً، ثم قلت في صوت مسموع:

- لم تكن تتوقع وأنت تصفني بالقذر صباحاً أنه أخر صباح بحياتك، أليس كذلك؟

ظللت أتأمله للحظة، ثم استدرت إلى جسد (راسيا) الغائبة عن الوعي، فذهبت إليها وحملتها إلى داري حتى الأريكة الكبيرة في الدور السفلي، وأغلقت باب المنزل.

الفصل الثامن

ظللت ساهراً حتى الصباح لم يقترب النوم من عينيّ، فتارة أفكر بما فعلته بالرجال، وأحياناً أتأمل (راسيا) وهي نائمة أمامي مفكراً بما سببته لها من ألم نفسي منذ أول حديث بيننا وإلى الآن، من صراخ في وجهها والاحراج الذي سببته لها، ثم خطفها وتهديدها على يد البغل (بيبور) بسبب ضربي له، وها هي الآن مغشيّ عليها بسبب الرعب الذي نال منها من منظر الرجال الذين مزقتهم بالخارج، لكني قتلتهم دفاعاً عن نفسي لأني دافعت عنها.

وبينما أنا كذلك كنت أتأمل طريقة تفكيري، واتساءل كيف يمكن أن أفكر بهذا الهدوء ويأتي تصرفي بهذه الصورة؟ أنا لست نادماً على قتلهم وما فعلت بهم.. أم أنا نادم؟.. لربما نادم ولا أعي ذلك بسبب تلك الصلابة التي تغلف قلبي!

نعم.. إنه القلب.. تباً له.. يكفي عقلي وفقط، بما أن المعسكر قد أزال قلبي فإنه لم يدمر أبداً عقلي وكيفية تفكيري.

طال حديثي لنفسي حتى انتبهت إلى عدة أصوات خافتة خارج المنزل، وتعجبت كيف يكون هناك أصوات كهذه ونحن في وقت الفجر؟!.. فأخذت انصت أكثر حتى وعِيت أن هناك خطوات والكثير من الهمس، وهناك أيضاً أصوات لأشياء تُجر على الأرض، وببعض التركيز خمنت أن هناك ما يقرب من ستة رجال بالخارج يقومون بتنظيف الشارع من أشلاء القتلى، وهناك من وقفوا يهمسون عن البغل المتدلي من نافذتي، وظللت

أنصت إليهم حتى انتهوا وانصرفوا.

***

مع بداية تفتح لون السماء بدأت (راسيا) تتقلب في مكانها، فانتبهت إليها وأخذت أتأملها في ثبات حتى فتحت عينيها، وفجأة نهضت جالسة على الأريكة ناظرةً إليّ بخوف، فقلت لها في هدوء:

- اطمئني.. لن يصيبك أي سوء، فأنتِ في داري.

ظلت تحدق بي بنفس الملامح، فزفرت في احباط ثم قلت:

- لا تخافي.. إن كنت أريد أن أضرك لكنت فعلت، والذين رأيتهم في الشارع كانوا يريدون قطع أطرافي بتحريض من (بيبور) لأني دافعت عنك، بالتأكيد قد سمعتي الكثير عن هذا وأنتِ رهينة لديه.

- مـ.. من أنت؟

شعرت براحة على أنها أخيراً قد ردت عليّ، فأجبتها في هدوء:

- أنا (كازارشان).. يمكن أن تدعيني (كازان) إن أردتي، وأنا جندي محارب من...

عاد الخوف إلى ملامحها أكثر مما سبق، فأشرت لها بيدي الاثنين أن تهدأ وألا تخاف، وتابعت:

- أنا لن أمسك بسوء.. هذا وعد من شخص قلما يعد.

- وعد؟

- نعم.. وعد.. إن كلمتي سيف دائم على عنقي.

أخذت تتلفت حولها، ثم قالت في تردد:

- هل يمكنني العودة إلى أبي؟

أومأت لها برأسي وقلت:

- بالتأكيد، أنتِ حرة.

فقامت في هدوء وأخذت تنظر لي في ترقب، ثم توجهت إلى الباب، وما أن فتحته حتى قلت لها:

- نصيحة مني، لا تنظري إلى نافذة داري بالأعلى واستمري في طريقك حتى البيت دون أن تلتفتي وراءك.

ارتجف جسدها، وما أن عبرت باب داري بخطوة حتى أخذت تركض في اتجاه منزلها وتركت باب المنزل مفتوحاً، فاستغليت هذه الفرصة وخرجت إلى الشارع لأجد أن الجثث والأشلاء قد أزيلت، وأن آثار الدماء قد مُحيت قدر الإمكان، ثم نظرت إلى (راسيا) وهي تركض بعيداً بجسدها الرقيق وقدماها التي لا تكادان تلمسان الأرض، كنت أرجح أنها قد تركت لبكائها العنان الآن فزاد ذلك من شفقتي عليها.

من الغريب أن أشعر بالشفقة، لكن خلال يوم أو يومٍ ونصف مررت بالكثير من التجارب التي استثارت كل مشاعري تقريباً.. من أبي لأسرتي لأبي مجدداً لهذه الفتاة ثم الكابوس وهؤلاء العصابة ثم هذه الفتاة مرة أخرى.. هل الحياة المدنية بهذا العبث والفوضى؟ أم أنه فقط حظي السيء؟!

أخذت أتأملها ولا أعلم ماذا كانت تعني ملامح وجهي حينها، ولكن ما أن اختفت عن نظري حتى بدأت الشمس في الظهور في الأفق، فقررت أن أصعد إلى سطح الدار وأتأمل الشروق مرة أخرى، ولكن ما أن عزمت

على هذا حتى تذكرت شيئاً.. فتقدمت إلى وسط الشارع والتفت إلى جسد (بيبور) المعلق.. كان منظره بشعاً تحت ضوء الشروق الوليد.

فلقد أظهر الضوء ما كان يخفيه ظلام الليل، وما أعماه عني غضبي بالأمس، فلقد كانت عباءته غارقة في الدماء خاصة عند صدره، ووجهه قاتم اللون، وملامح وجهه ما تزال حاملة بكل وضوح لأثار الخوف والاختناق رغم مرور ما يقرب من ثلث يوم على موته، فنظرت إليه في اشمئزاز وغضب، ثم صعدت إلى غرفتي كي أحل الحبل، لكني كرهت أن أعيده إلى حجرتي ميتاً وبهذا المنظر القبيح، فألقيته بالحبل إلى الشارع فسقط في صوت يشبه سقوط مائدة خشبية قديمة، فشعرت بقدر أكبر من الاشمئزاز.

نزلت إلى الأسفل مع ملاءة كي ألفه بها، فرأيته عبر الباب واقعاً على وجهه وقد تكسرت المزيد من عظامه، ووجدت بعض الناس قد بدأوا يخرجون من منازلهم كعادة أهل الواحة في هذا الوقت، وأخذوا ينظرون بقلق عندما يقتربون من الجثة، ويسيرون قرب الدور التي تقابل داري مبتعدين عنها قدر الإمكان، وكان هناك شخصان تظهر عليهما بعض القوة وقفا عندها وهما يتأملانها ويتهكمان عليها، فخرجت إليهما حيث نظرا إليّ في استغراب، فقلت لهما في حدة:

- ماذا تريدان؟

قال أحدهما:

- أأنت من فعل هذا به؟

تقدمت إلى الجثة ورميت الملاءة عليها وأنا أجيب:

- نعم، وبالآخرين أيضاً.

ارتفعت حواجبهما من الدهشة، وقال نفس الرجل:

- رغم أنك قد بالغت في انقاذ الواحة من شرهم، إلا أن شكلك لا يوحي بالقوة التي تكفي لهذا.

لم أرد عليهما وهبطت مرتكزاً على ركبتي، وأخذت في تغطية الجثة بالملاءة ثم لففتها وغطيت ما تبقي من جسده، ثم انتصبت واقفاً وقلت لهما:

- وأنتما شكلكما يوحي بالقوة ولم تفعلا أي شيء لهم.

ثم بدأت أجر الجثة ورائي وتركتهما ينظران إليّ دون أدنى اعتبار لملامحهما أياً كانت.

❊ ❊ ❊

عندما انتهيت من دفن جثة (بيبور) بعيداً في الصحراء، عدت إلى الواحة أطوف بها بينما أتأمل طبيعتها وتفاصيلها لأول مرة، فرغم القسوة التي تملأني.. أشعر بشيء من الانجذاب نحو الجمال، وعندما وصلت إلى البحيرة جلست على طرفها متأملاً سطح المياه الذي يعكس ضوء الشمس المتلألئ عليها، ثم زفرت وقلت لنفسي:

- لِمَ لا تقضي هنا بقية حياتك يا (كازان)؟

نكست رأسي في احباط وبدأت أشعر بشيء من التهكم على حالي، لكنني هززت رأسي بقوة قائلاً بحدة:

- أفق أيها الأحمق.. أنت جندي محارب.

❊ ❊ ❊

" (راسيا)؟! "

صاح بها الشيخ (شوهان) بمجرد أن دخل داره، ثم جرى إلى (راسيا) وضمها إليه بشدة سائلاً إياها:

- أين كنتي يا ابنتي؟

ثم أخذ يبكي، فبكت (راسيا) لبكائه وقالت:

- لا تقلق يا أبي، لقد مرت ليلة عصيبة، لكني كنت في حماية شخص قوي.

ضمها والدها لصدره أكثر ولفترة حتى يقتنع قلبه أن ابنته الحبيبة بين يديه، ثم ابتعد عنها في رفق وقال:

- أين كنتي يا حبيبتي؟ لقد ظننتك أنك قد عزمتي البيات عند صديقتك، ولكن عندما أشرقت الشمس ولم تعودي ذهبت إلى أهلها وأخبروني أنك قد انصرفتِ بعد الغروب.. لقد كاد قلبي أن يتوقف من الخوف عليكِ.

- لقد اختطفني (بيبور).

- ماذا؟!

صاح والدها في صدمة، فقالت له في سرعة:

- لا تقلق يا أبي، فلم يستطع أن يمسني بسوء.

- وكيف استطعتي أن تفلتي منه؟

- لم أفلت منه، لقد أنقذني شاب قوي.. إنه الوافد الجديد على الواحة.

- (كازان)؟

- نعم.. هذا هو اسمه، لا أعلم لمَ أوصيتني عليه!

تنهد والدها، ثم دعا ابنته إلى الجلوس على الأريكة كي يريح ركبتيه المرتجفة من التوتر، وما أن جلسا حتى قال:

- إنه (كازارشان ماثير).

سألت (راسيا) في دهشة:

- أهو ابن العم (ماثير)؟

ابتسم والدها وقال:

- نعم.. نعم يا (راسيا).

ولكن فجأة تجهم وجهه وانتصب واقفاً في غضب:

- لن أرحم (بيبور).. سيرى مني ما لم يره أحد طوال حياتي، وما لم يره هو من أحد على الإطلاق!

اكتسى وجه (راسيا) بالتوتر وهي تتذكر ليلة أمس، ثم قالت:

- لقد مات يا أبي.

التفت إليها والدها مندهشاً وتساءل:

- أقلتِ مات؟!

- نعم، لقد قتله (كازان).

- قتله؟!

نكست (راسيا) وجهها وقالت:

- نعم، لقد قتله هو ورجاله.

حدق والدها فيها من المفاجأة، وظل صامتاً للحظات، ثم انفجر ضاحكاً، فنظرت (راسيا) في قلق إليه، وسألته:

- ماذا بك يا أبي؟

أجابها والدها:

- قتلهم؟!.. جميعاً؟!.. آه يا حبيبتي، لا تعلمين كم أراحنا منهم!.. لم أكن أتخيل أنه سيأتي يوم على الواحة تعيش فيه دون قلق من هذا المتجبر وعصابته، ربما كان سيحدث هذا اليوم لو فعلت به ما نويت أن أفعل.

مسحت (راسيا) وجهها بيدها ثم أراحت رأسها للخلف على الحائط، فنظر لها والدها في قلق متسائلاً:

- ما بالك يا ابنتي؟.. أراكِ غير سعيدة على مقتل هذا الذي ذقنا الخوف بسببه، وقد اختطفك منذ ساعات!

- بالتأكيد سعيدة يا أبي، ولا تعلم قدر الراحة التي ما زلت سأشعر بها، لكنك لم تر كيف قتلهم هذا الشاب.

- كيف؟

بدأت (راسيا) تحكي له ما حدث منذ مغرب أمس عند صديقتها وحتى عودتها الآن، وكل لحظة تمر كانت الدهشة تغمر وجه والدها أكثر وأكثر، وما أن انتهت (راسيا) ونظرت إليه في انتظار رده.. وجدته يحدق فيها دون رد، ثم قام من مجلسه وذهب إلى باب الدار، ونادى على أحد الخدم وقال له بضع كلمات، فأومأ له الخادم وانصرف مسرعاً، وعاد الوالد جالساً بجانب ابنته في صمت، فسألته بقلق:

- هل هناك شيء يا أبي؟

- لا أعلم يا ابنتي.. ولكني سأفعل.

أمالت (راسيا) رأسها في استفهام، فأجابها والدها:

- انتظري وسنعلم معاً.

❋ ❋ ❋

بينما كنت سائراً في شارعي أثناء عودتي، لمحت أحدهم يقف أمام داري يتلفت يميناً ويساراً، فظللت سائراً وأنا أنظر للرجل في ترقب، حتى وصلت إليه ثم سألته بحدة:

- من أنت؟

تقدم الرجل إليّ ثم أحنى رأسه في احترام قائلاً:

- سيد (كازارشان)!.. إن سيدي الشيخ (شوهان) يطلب رؤيتك.

- شيخ الواحة؟!

- نعم يا سيدي.

صمتُّ للحظة أفكر في شيء ما، ثم قلت للرجل:

- متى؟

- الآن يا سيدي إن كنت تسمح.

- حسناً.

أشار الرجل بيده لي في احترام كي أتقدمه، فتقدمت في السير وأخذ يسير بجانبي، واتجهنا شمال الواحة، حيث دار والد (راسيا).

***

عندما لاح بيت الشيخ (شوهان) من بعيد أخذت أفكر كيف تسير (راسيا) كل هذه المسافة مرتين يومياً ذهاباً وإياباً دون أن تخاف أن يتعرض لها أحد؟ ولَمِ لم يعين والدها حراسة لها؟ فتاة في جمالها ورقتها يمكن أن يختطفها أحدهم بسهولة.

بدأت أشعر عند هذه النقطة بالرضا عن نفسي لأني أنقذتها بالأمس أكثر من مرة، لا أعلم.. هل أدافع عنها لأني أريد أن أدافع عنها؟ أم أن اعتداء (بيبور) عليها بالأمس أكثر من مرة جعلني أشبع رغبتي بأن أفرغ بعض ما أحمل من شراستي المكبوتة؟ أو لربما كانت (راسيا) سبباً في شعوري بأنني الأقوى في الواحة، لأني فعلت ما لم يفعله أي شخص هنا.. كم أتمنى رؤيتها عندما...

" اخرس أيها الأحمق "

اندفعت أقولها لنفسي في صوت مسموع، فاهتز جسد الرجل السائر، فتوقف ونظر إليّ في توتر، فزفرت في ضيق قائلاً:

- لا تقلق، كنت أفكر بصوت عال.

عدت أسير وبدأ يسير بترقب خلفي، وذلك حتى وصلنا إلى البيت، فتقدم الرجل وطرق الباب، ففتح لنا الشيخ (شوهان)، وما أن رأيته حتى اتسعت عيناي من دهشة لم تبلغني منذ سنوات، لربما لم تبلغني مطلقاً حتى اللحظة، فضحك الشيخ وقال:

- أعلم.. أعلم يا (كازان)، تفضل بالدخول.

تقدمت ببطء نحوه فصافحني بحرارة وقادني إلى داخل الدار، حيث

دعاني للجلوس على أريكة قريبة، فجلست قبله وأخذت أتأمله وهو يغلق الباب ويتقدم إليّ حتى جلس بجانبي، فسألته:

– من أنت؟

ابتسم الشيخ ثم قال:

– أنا الشيخ (شوهان) يا بني.

– أنا أعلم اسمك، ولكن من أنت حتى تعرفني؟

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يجيبني:

– لقد أوصاني والدك برعاية كافة أمورك، والسعي في جميع احتياجاتك.

نظرت للشيخ في تعجب، فسألته في شيء من اللهفة للمعرفة:

– والدي؟!.. هل تعرف والدي؟.. أأنتما أصدقاء؟.. أم أخوة؟

ربت الشيخ في كتفي وهو يكاد يعود للضحك، ثم قال:

– لا يا بني، فرغم الشبه الشديد بيني وبين والدك، ورغم الصداقة الطويلة والقوية بيننا حد الأخوة، إلا أننا لسنا بأشقاء، ولك أن تعلم أننا كنا أكثر تشابهاً في الصغر، واختلفت ملامحنا قليلاً بينما نكبر.

أخذت أنظر إلى وجه الشيخ أتأمله، فهو شديد الشبه بوالدي، ولكن لحيته أكثر غزارة وأكثر بياضاً، وهناك بعض الاختلافات البسيطة في الملامح وخاصة حول العينين، وأعلى جبهته، فأحسست ببعض الألفة وأنا جالس بجواره، لقد راودني شعور بأنه والدي بحنانه الذي يحتوي مَن أمامه، فقلت له:

– منذ متى وأنت تعرف والدي؟

تنهد الشيخ في هدوء وقال:

– منذ ما يقرب من أربعين عاماً، كان يبلغ حينئذ ثلاثة عشر عاماً وأنا أكبره بعامين، وكان يتردد على الواحة كل فترة هرباً من قسوة والده، وفي يوم أتى إلى البحيرة هنا وجلس يبكي.. كنا قرب العصر، وكنت حينئذ أمر بعربة الفاكهة، فذهبت إلى هذا الغلام ببعض الثمار، وما أن رفع عينه إليّ حتى تفاجأ كلانا، ومن يومئذ ونحن صديقان.

نظرت للشيخ في استنكار وأنا اسأله:

– هل قلت أن والدي كان يهرب من قسوة والده؟

– نعم.. نعم يا بني، رغم أن جدك كان ثرياً وذو مقام رفيع، إلا إنه كان قاسياً على والدك كثيراً بدافع التربية، كان يريد أن يجعل من ابنه الذي كان يتدرب في ديوان الملك شخصية قوية لعله يصبح ذو شأن أكبر لدى الملك، وأراد أن يعوض عدم التحاق ابنه بالجيش بأن يكون قاسياً عليه حتى ينشأ صلباً، ولكن ما أنقذ والدك هو ذكائه وخطه الجميل الذي أهّله للتدرب منذ الصغر ثم العمل بديوان الملك، ولذلك لم يلتحق بالجيش.

– وكيف تعلم كل هذا؟

– أنا أعلم الكثير عن والدك ما لا تعلمه يا بني، إن والدك رغم ما عاناه من قسوة إلا أنه قد نشأ حكيماً عادلاً وحنوناً أيضاً، وما دعم هذا أن جدك قد مات بعد أن تعرفت على والدك بعامين، فلم تطل فترات القسوة على والدك، ولهذا استغل سنيناً حتى يتخلص من أثارها على روحه وشخصه.

صمتُّ بعدما أنهى الشيخ هذه الجملة، وأخذت أنظر في الأرض في تفكير، فقال الشيخ:

– إن والدك شخص عظيم يا بني، لقد كنت معه حين أتيت إلى الدنيا طفلاً رضيعاً، ولا يمكنني أن أصف لك مدى سعادة والدك بك، إن لديك مكانة كبيرة في قلبه منذ أول لحظة لك في هذه الحياة.

ارتجف فكي عند قول الشيخ، لكني تمالكت نفسي وعقدت حاجبي، فابتسم الشيخ قائلاً:

– صدقني يا بني، إن الشعور بالقوة شيء جميل، وأنا أعلم ما الذي رأيته وعانيته في المعسكر...

التفت إلى الشيخ في حدة، فتابع مبتسماً:

– أعلم أنك ستقول غالباً أن العلم لا يضاهي التجربة والمعاناة، ولكن لي ابن قد قتلوه في المعسكر، وحينئذ أقسمت ألا أدع ابن من ابنائي تموت روحه ضحية لأطماع الملك رغم ما اضطررنا إليه، وحالياً.. هناك ابن لي بالمعسكر يُدعى (رازام)، إنه الآن بالتدريبات النهائية للقوات الخاصة، وفي فترة إجازته السابقة أخبرني بكل شيء كما أخبرت أنت والدك، لكن الفرق أني قد أنشأت (رازام) في محيط مختلف عن المحيط الذي نشأت فيه، وعلمته ألا يخسر عقله وقلبه مهما كانت الظروف التي وضِع فيها، ومهما شعر بالقوة وسحرها على العقل.

أشحت بنظري إلى الأرض قائلاً في تهكم:

– لقد تأخر الوقت على هذا الكلام أيها الشيخ.

أومأ الشيخ برأسه نافياً ثم قال:

– لا يا بني.. لن يغيب الإنسان داخلك مهما حييت، ربما هناك ظروف وأجواء تقتل الإنسان داخل الإنسان، وهو موت ليس نهائي، ولكني متأكد

يا بني أن الإنسان داخلك لا يزال حياً، ويظهر هذا في كثير من تصرفاتك كما ذكر والدك بزيارته بالأمس، وابنتي اليوم.

- أنت لا تعلم إلا القليل.

- إن كنت بخبرتي الطويلة في الحياة أعلم القليل، فأقول لك أنك لا تعلم شيئاً بالمقارنة، وإن كنت بالفعل لم أقابلك إلا الآن منذ أن فطمتك والدتك، ولكن يكفيني شعور والدك تجاهك وثقته في أنك لا زلت إنساناً من الداخل يا بني، والدك يفهمك تمام الفهم، وأنا أفهم والدك تمام الفهم.

عقدت حاجبيّ في ضيق لقول الشيخ، فلم أرد أن يتغير شعوري بالقوة التي أملكها، ولا أريد أن تهتز الهيبة والرهبة التي أكنها للمعسكر، كما لا أود أن يهتز تقديري لكوني جندياً محارباً، أنا الذي هزمت الوحوش وتخطيت أقسى الاختبارات وقتلت عصابة كاملة بالأمس وحدي، إن اعترفت بأن هناك إنساناً يعيش داخلي.. سيضيع كل ما أنجزت مقابل مشاعر لا دور لها إلا إيقاظ آلام في ظلمات يصعُب الوصول لها...

التفت إلى الشيخ بينما أفكر، فرأيته ينظر إليّ بإمعان جعلني أخشى أن يكون قد قرأ في وجهي ما أفكر به، فقطعت تفكيري وكدت أن أقول شيئاً لولا أن سبقني قائلاً:

- هيا يا بني، فلابد إن (راسيا) قد أعدت الإفطار.

أومأت برأسي نافياً في قوة وقلت:

- لست جائعاً يا شيخ (شوهان).

ابتسم الشيخ لي قائلاً:

- فلتعتبرني شقيقاً لوالدك ولتدعوني بالعم (شوهان)...

أومأت له برأسي موافقاً، فتابع:

- هيا يا بني لتفطر.

حاولت أن أرسم ابتسامة على وجهي بينما أقول:

- حقاً لست جائعاً.

فمد الشيخ يده إليّ وأمسك بيدي جاذباً إياها في رفق ذكرني بوالدي، بينما يقول مبتسماً:

- لا ترد دعوتي يا بني، هيا (فراسيا) تنتظرنا.

فجأة أحسست بأن دقة قد دقت داخلي.. لا أعلم أين.. لكني شعرت بها، ووجدت يدي تستجيب لجذب العم (شوهان).. فقمت معه.

الفصل التاسع

كنت أعلم وأنا أسير خلف العم (شوهان) أني سأجلس بكل الاحراج على مائدة الطعام، فلقد تناولت طعامي أمام أبي وأمي والحرج يملأني، فكيف وأنا اجلس مع غرباء؟!.. وكيف وأنا اجلس أمام (راسيا)؟!.. لكن لم يكن بيدي شيء لأفعله حتى قادني العم حتى غرفة الطعام، وإذ (براسيا) تقف أمام المائدة تنتظرنا وتبتسم، فهل ترى تبتسم لنا أم لأبيها فقط؟

تقدم العم وجلس إلى المائدة، ثم أشار لي و(لراسيا) بالجلوس، وعندما جلست قال لي:

- خذ راحتك يا (كازان).. لن أقول لك تصرف كأنك في بيتك، فأنت في بيتك بالفعل.

أومأت برأسي مع ابتسامة مترددة، ثم بدأت في تناول الطعام ببطء، ولم آكل كثيراً، فقمت بعد فترة قصيرة ولم ينجح إلحاح العم في أن أتناول المزيد، لكنه قال (لراسيا):

- عندما تنتهي يا ابنتي اصحبي (كازان) في نزهة قصيرة إلى الحقول.

- حسناً يا أبي.

خرجت من الحجرة بعد حديثهما هذا وذهبت إلى باب الدار وفتحته، ثم تقدمت بضع خطوات وأخذت أنظر حولي أتأمل الأرض المحيطة بالدار القائم فوق ربوة مرتفعة، كانت المزارع على يمين المنزل تمتد إلى مدى بعيد،

وكان يفصل بين الحقول طرق طينية مرتفعة عن أرض الحقل، طرق مستوية كأنها شوارع صغيرة، وكان يحد كل حقل الكثير من الأشجار جعلت مساحة من الظل تنتشر على الأطراف مناسبة لمن أراد الراحة من العمل أو التمدد هناك.

لمحت كذلك خمسة آبار، وثلاث سواق كانت تمد الحقول بالمياه خلال قنوات صغيرة، فتصدر المياه صوتاً رقيقاً يتغلغل وسط هذه الأجواء فيبعث على الاسترخاء، كان كل شيء هنا يبعث على الراحة والطمأنينة، شعرت بأن هذه هي الجنة التي حدثونا عنها عندما كنا أطفالاً، ثم كبرت قليلاً ما يكفي لأن أرى الجحيم ولا شيء سواه، حتى اللحظة التي بصرت بها هذه الجنة.. لأيام قليلة ربما!

تنهدت ثم التفت إلى يساري وإذ بمزارع الحيوانات، يتخللها طرق رملية أيضاً مثل الشوارع الصغيرة، والتي كان صوت الحيوانات المنبعث منها ليس عالياً ولا مزعجاً كمثل حيوانات المدينة، كان الجو هنا هادئاً جداً كأنه عالم يسير ببطء، فأغلقت عيني لثانية كي أستشعر جمال المكان أكثر، ثم فتحتها مرة أخرى وكدت أن أقول لنفسي شيئاً لولا أن سمعت خطوات (راسيا) الخفيفة تقترب، فلم التفت إليها وظللت أنظر إلام أنظر إليه، حتى وصلت إليّ واقفة بجواري قائلة:

- الأجواء جميلة هنا، أليس كذلك؟

- إنها حقيقة لا يمكن أن أجادل بها.

- إذاً هيا، لنتمشى قليلاً.

ثم تخطتني وسبقتني متجهة إلى أسفل الربوة، بينما ظللت واقفاً مكاني

أتأملها وكأني لم أسمع كلماتها، فالتفتت إليّ في ابتسامة وأشارت لي بيدها وبحركة قصيرة من رأسها كي أتبعها، فنزلت الربوة في بطء حتى وصلت إليها وبدأنا نسير جنباً إلى جنب.

توجهنا إلى الحقول وهي تذكر لي أسماء بعض النباتات والثمار التي كان البعض منها أراه لأول مرة، ربما لم أكن مهتماً من داخلي سوى بالمنظر الجميل، لكني وجدت نفسي متحمساً وسعيداً لأي كلمات تأتي من (راسيا).

بعد لحظات ساد الصمت بيننا حتى وصلنا إلى شجرة قصيرة، كان لون أوراقها بين الأصفر والأخضر، كأن أوراقها تشع ضوءً أو تعكس ضوء الشمس بلون يميل إلى الخضرة، فقلت:

- إنها جميلة.

- نعم، بالفعل.

ثم بدت منها زفرة ساخرة، فقلت لها:

- لِمَ فعلتِ هذا؟

- ليتك رأيت شجرتي السابقة.

- وماذا حدث لها؟

- لقد اقتلعها رجال (بيبور).

عقدت حاجبيّ في ضيق لذكرى ذلك البدين الذي كدت أنساه بعد ساعات من موته، فسألتها:

- وماذا فعل هذا البغل؟

- وماذا ستفعل به؟ أستقتله مرة أخرى؟

بدأت أتكلم بشيء من الحدة وأنا أجيب:

– تتكلمين وكأنك تلومينني على الدفاع عن نفسي، وكأن قتلهم لم يرح الواحة من أذاهم!

– لم يكن هناك داع لفعل كل هذا، كان يكفي قتلهم فقط لو تطلب الأمر.

– لقد أرسلهم هذا البغل ليمزقونني حياً، ثم زاد على هذا بكرم منه وأمرهم بقتلي، أي أن ما لاقوه مني كدت أن ألاقيه لولا أني استطعت هزيمتهم.

– ولِمَ لم تختر الطريقة الأسهل لموتهم ما دام الاختيار قتلهم؟

– وهل كانوا يدخرون الخيار الأسهل لي عندما أمرهم هذا البدين بتمزيقي؟ أم جاؤوا بقدر من الرحمة بينما كانوا يركضون ورائي شاهرين سيوفهم؟!

صمتت (راسيا) بحثاً عن رد، فقاطعت تفكيرها قائلاً:

– لا تتحدثي عن هذا الأمر مرة أخرى، فأنا الذي واجهتهم ورأيت ما ينوونه لي في أعينهم وفي كل أفعالهم.. لا أقول أنك ساذجة، ولكن الناس لا يجب أن يتساووا في طريقة الموت، وهذا الشيء يعلمه المجرمون أفضل من الأخيار.

ربما ترين أني قد بالغت في فعل ما فعلت، ولكن عندما توشكين على الموت ثم تتغير الموازين فتكوني حاملة للسيف والقتلة على الأرض، ستشعرين بالرضا لتلك الفرصة أنك لست في موضعهم، ورأيتِ بجثثهم بشاعة ما كانوا ينوونه لك...

أشارت لي (راسيا) بيدها كي أهدأ وهي تقاطعني بلطف:

- لقد فهمت يا (كازان)، آخر ما أرجوه أن تنفعل وتقتلني أيضاً.

كان يمكن أن تغضبني هذه الكلمات وتجعلني أثور في وجهها، لكنها عندما خرجت من (راسيا) وجدت ملامح وجهي الغاضبة قد ذابت ولم أستطع الرد بشيء، فتابعت هي بينما الابتسامة تتمدد في ملامحها كي تلطف الأجواء:

- حسناً، بالنسبة إلى شجرتي السابقة، فقد كانت نادرة، أتى بها والدي من واحة (ساقا)، التي أخبرني عنها أنه لا صحراء بعدها، حيث تمتد الأراضي الخضراء بعدها أياماً، تخيل!.. مسافات شاسعة كالصحراء حولنا لكنها خضراء!

أومأت لها متفهماً وإن لم أستطع تخيل هذا لأني لم أر شيئاً في حياتي حتى الأفق سوى اللون الأصفر الجاف الكئيب في الرمال، فتابعت:

- تلك الشجرة تعبت في رعايتها ومراقبة نموها لأكثر من أربعة سنوات حتى صارت بارتفاع يتعدى العشرون ذراعاً، ثم أتى (بيبور) منذ شهر ثائراً عندما رفض أبي أن يزوجني به وهجم بعصابته على مزارعنا، وكانت شجرتي إحدى خسائرنا من ذلك الهجوم.

تصاعد بي الضيق والغضب، خاصة عندما سكتت (راسيا) ووجدت الحزن يغزو ابتسامتها التي كانت منذ لحظات، كدت أن أقول شيئاً لولا أن سبقتني وقالت:

- لا يمكن أن تتصور ألم القلب عندما ترى تعبه لسنوات في شيء يحبه يضيع في لحظات، وبسبب أناس همجيين.

شعرت بأن بركاناً انفجر داخلي، وتمنيت لو أن (بيبور) حياً فأقطعه إرباً وأقتلع عينيه وأفصل رأسه وأعلق أجزائه على باب داري، فلو كنت أعلم هذا وأنا أحطم عنقه ما اكتفيت بما فعلت به، ورغم ثورتي إلا أني قلت (لراسيا) في صرامة مكبوتة:

- لا تحزني، لن يستطع أحدهم أن يقطع شجرة أو شيء أحببتِه مرة أخرى.

ظهرت ابتسامة صغيرة على وجه (راسيا)، فكدت أن ابتسم لولا أن تمالكت نفسي قائلاً:

- هيا لنتابع.

سرنا حتى نهاية الحقول حيث ظهرت الصحراء والجبال البعيدة تخفي الأفق، فاستدرت (لراسيا) قائلاً:

- بمناسبة الصحراء.. كيف تسيرين من منزلك إلى قلب الواحة وتطوفين بها وحدك دون حراسة؟

- لا أحتاج إليها فأهل الواحة طيبون ولا يكنون شراً لأحد.

- و(بيبور)؟ وعصابته؟

- إن (بيبور) قد جاء للواحة تاجراً من عاصمة الجنوب منذ شهرين، أعجبته الواحة ففضل العيش بها، وقد غرّته طيبة الناس هنا مع الوقت ففرض سيطرته عليهم بواسطة عصابة (رافعو الرؤوس)، التي اسميناها عصابة (بيبور) لأنه أول من فرض سيطرته عليها بماله وبضائعه.

ضحكت ضحكة قصيرة ساخراً، ثم قلت:

- (رافعو الرؤوس)؟!.. يا له من اسم سخيف!

لم تضحك (راسيا) ولم تبتسم حتى، وتابعت:

– أنت لا تعلم قدر خطورتهم، لقد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لأنهم مجردين من المشاعر ولا يخفضون رأساً شفقة ولا رحمة على أحد، ومما علمته من أبي أنهم كانوا جنوداً قدامى في المعسكر، استغلوا إجازتهم أثناء تدريبات القوات الخاصة وهربوا إلى الصحراء منذ عدة أشهر، وكوّنوا عصابة كي لا يستطع أحد أن يعيدهم مرة أخرى أو يحاكمهم على هروبهم، وبالتأكيد تجاهلهم المعسكر كي لا ينتشر أمرهم فيحذوا آخرين حذوهم، كما أن المعسكر لن ينفق عدداً من جنوده من أجل القضاء عليهم.. ومن ملامح دهشتك الآن يمكنني أن أؤكد أن قصتهم هذه ليست معروفة إلا في واحتنا فقط التي تعاني من تجبرهم.

كانت بالفعل مفاجأة لي، فأملت رأسي وأنا أقول:

– قد يكون لديهم حجة للهروب، فجو المعسكر قاس على الكثيرين، ربما لم يتحملوه أو يتحملوا رسالته...

قاطعتني (راسيا) قائلة:

– لكنهم بالهروب لم يستغلوا عصابتهم للدفاع عن أنفسهم وكفى، بل كانوا يهجمون على القرية كي ينالوا ما يكفيهم كل فترة من ثمار وحيوانات وملابس.

سألتها متعجباً:

– ملابس؟!.. كيف هذا؟!.. هل تضعون ملابسكم في الحقول؟

أومأت برأسها نفياً، وأجابت:

- بالطبع لا، بل كانوا يقتحمون المنازل...

كدت أن أرد، إلا أنها تابعت:

- لا تتعجب، فلم يكن هناك أحد يستطيع إيقافهم، لقد أخذوا الكثير والكثير، خاصة من منزلنا حيث أنه الأبرز، وأخذوا الكثير من أشيائي التي لا أعلم كيف ستفيدهم، حتى أسورتي التي نقشتها بيدي لا أعلم ماذا يمكن أن يفعل بها أحد هؤلاء الهمج أو كيف يستفيد منها؟

ثم زفرت في تهكم، وقالت:

- يبدو أن كل ما أتعب فيه يضيع هباءً.

أعجبني تهكمها على خسائرها وتمالكها لنفسها، حتى وإن بدت تلك الخسائر قليلة أو حتى سخيفة في نظر شخص مثلي، فقلت في صرامة:

- فلتفعلي ما يحلو لك، فلن يتعرض لكم أحد مرة أخرى بعدما تخلصت منهم.

رفعت (راسيا) رأسها إليّ وقالت مستنكرة:

- ماذا؟!.. لا يا (كازان)، إن العصابة ما زال هناك أفراد منها موجودون في مخبأهم، أنت قد قتلت كبيرهم وأربعة منهم، ورغم أن كبيرهم قد سقط، إلا أني لا أتوقع أن يلزموا أماكنهم، خاصة وإن احتاجوا للطعام والشراب، أو افتقدوا بضائع (بيبور).

- أهم كثير؟

- لا أعلم كيف تعني لك الأعداد!.. لكنهم ثلاثون الآن بعدما كانوا خمس وثلاثون.

- لا أصدق أن يهرب هذا العدد أثناء إجازته، بالتأكيد قد أقنعوا آخرين بالانضمام إليهم من خارج المعسكر نظراً لهجميتهم وفوضويتهم أثناء قتالهم لي.. أين مكانهم؟

عكست ملامح (راسيا) قلقها، فقلت لها:

- لا تقلقي، للفضول فقط.

هزت رأسها في قلة حيلة وأشارت إلى ما فوق كتفي، فاستدرت إلى حيث تشير فلمحت بعيداً ما يشبه الصدع الكبير وسط الجبال، وقالت:

- هذا هو وادي (رافعو الرؤوس).

ضحكت في سخرية، ثم صمتُّ فجأة وقلت ناظراً إليها:

- بمناسبة اسمهم السخيف.. اعذريني فإني قد اعتقدت في نفسي أن اسم مُهرك سخيف، فلقد كنت غاضباً بعدما أيقظتني من النوم أول أمس.

ابتسمت (راسيا) وأجابت:

- أسامحك ما دمت قد اعترفت.

فجأة وجدت نفسي ابتسم دون إرادتي، وكادت ابتسامتي أن تتسع أكثر لولا أن قطعها صوت رجل يجري ناحيتنا من بعيد وينادي باسمي، فنظرت له حتى وصل إليّ وقلت في ضيق:

- ماذا حدث؟

بدأ الرجل يلتقط أنفاسه من الجري، فكررت سؤالي في حدة:

- ماذا حدث؟

اهتز الرجل من لهجتي، فأجاب:

- سيدي يطلبك.. لأمر ضروري.

ثم عاد يلتقط أنفاسه، فقالت (راسيا):

- لابد أن الأمر ضروري حقاً، لنعد الآن يا (كازان).

فأشرت لها بيدي كي تتقدم أمامي، وانتهزت هذه الفرصة حيث التفت إلى وادي (رافعو الرؤوس)، وقلت لنفسي بينما أرمق الوادي بنظرة تقلبت بين الحيرة والحدة:

- أسورة!.. منقوشة!

ثم زفرت متهكماً وقلت:

- ربما أحاول أن أقنعهم أنها حجة كافية!

***

عندما وصلنا لأسفل الربوة، كان العم (شوهان) يقف أمام الباب ينتظرنا، ظللت أتأمل وقفته التي أقلقتني حتى وصلت إليه ولمحت في يده رسالة مطوية، فعدت بنظري إلى وجهه فرأيت ملامحه كأنها ترجوني قبل أي شيء أن أهدأ.

" ماذا حدث؟! "

قلتها في قلق ونفاذ صبر، فتردد العم (شوهان) وهو يجيبني:

- إنها رسالة من أبيك.

سألته في لهفة:

- ماذا أرسل؟

بلع العم ريقه ثم قال:

- شقيقك الأصغر (كانارشان) قتلته اختبارات المصارعة بالمعسكر.

وبعكس المتوقع صدمني الخبر، ليس السبب هو موت أخي الذي لم أره إلا لأشهر خلال حياتي، فلقد قتلت اختبارات المعسكر ثلاثة أشقاء لي من قبل، ولكن كان همي الأكبر هو حزن أبي، وتذكرت قوله لي:

" يبدو أني أخسر جميع أولادي يا (كازان)، لدي خمسة أولاد ولا أشعر بوجودهم "

خشيت كثيراً على أبي، فنظرت إلى وجه العم لعله يطمئنني عليه، ولكني لمحت في عينيه المزيد، فقلت له في ترقب:

- أهناك شيء آخر؟

أومأ لي في تردد، وكدت أن أصرخ فيه لولا أن تدارك الأمر قائلاً:

- شقيقك (كادارشان).. حاول الانتقام من منافس (كانارشان) بالمصارعة، فعاقبوه باختبار ما، ويبدو أنه لم ينج.

أخذت أحملق في وجه العم ولم أنطق بشيء للحظات طويلة، كنت أعلم ما هو الاختبار.. العواميد.. نعم، حاولت تخيل أعين شقيقي المرتعبة بين فتحات الخوذة.. و.. حاولت كذلك تخيل كيف استقبل أبي هذه الأخبار، هذا ما طغى على خيالاتي كلها، بينما العم ينظر إليّ في خوف من ردة فعلي، حتى أخذ صدري يعلو ويهبط من الغضب، فتنحنح العم في خوف قائلاً:

- فلتبت عندي الليلة يا (كازان)، لا أود أن تبيت وحدك في هذه

الظروف.

انصرف نظري عن العم للحظة ثم عاد إليه في حدة، كدت أن أصيح بشيء لكني استدرت هابطاً الربوة بينما أخذوا ينادون عليّ في رجاء، واتخذت الطريق إلى داريّ بينما الخواطر السوداء تتدافع برأسي، فشددت على قبضتيّ بقوة مستديراً ببصري بينما أسير حيث يمكنني أن ألمح وادي (رافعو الرؤوس)، وقلت:

- يبدو أن كل الأسباب تؤدي بي إلى رؤوسكم يا ذوي الاسم السخيف.

﴿ الفصل العاشر ﴾

انقشعت الغيوم مساء ذلك اليوم عن القمر، فسقط نوره على سيفي فأعطى بريقاً اضطرني لإعادة سيفي إلى حافظته حتى لا يلفت انتباه أحد في الصحراء، خاصة من وادي (رافعو الرؤوس)، ثم ناولت يدي اليسرى السوط الطويل إلى يدي اليمني وأكملت سيري إلى الوادي، بسيفي وما أحمل من أسلحة أخرى استوليت عليها من منزل (بيبور).

بينما كنت أقترب كنت أفكر بما ذكرته لي (راسيا) بأنهم ثلاثون رجلاً، وليس هذا فقط.. بل أن بعضهم قد تلقى بعض تدريبات القوات الخاصة التي لم أتلقها حتى الآن، ورغم أنها كانت مهمة انتحارية لا يخوضها إلا مجنون، إلا أن ما بي من ثورة وغضب شديدين كانا كافيين كي لا أتراجع خطوة خطوتها تجاه الوادي، تتضارب الكثير من الدوافع داخلي لهذا، ولا أستطيع أن أؤكد لنفسي كيف ستنتهي هذه الليلة، وأي منا سيستقبل الشمس في الصباح!.. لكني على الأقل أستطيع تمييز دافعي من أجل تخدير تلك الآلام التي تجلبها عليّ المشاعر.. تلك المشاعر اللعينة التي تنجح بين حين وآخر في التحرر منذ وطأت قدمي منزل أبي.

اقتربت أكثر من الوادي حتى بدأت تظهر نيران معسكرهم، فدنوت بحذر أكثر حتى وصلت إلى بداية الوادي ووقفت عند الجانب الأيمن من بدايته آخذاً في تأمل أوضاعهم.

كان الجبل يحيط بهم من جميع الجوانب عدا الطريق الذي يشبه الصدع

ويؤدي إليهم، فكان مكان جيد لحمايتهم، وكان هناك في قلب المعسكر أربعة خيام كبيرة بينها كان ثمانية رجال يتجمعون حول نار مشتعلة للتدفئة، آخذين في التحدث بحركات عصبية، فرفعت رأسي إلى درجة صخرية ترتفع نحو عشرة أقدام ورائهم، فوجدت أن هناك خيمتان عليها، وستة رجال متفرقون حولها.. لا أعلم ما سبب تمركزهم، لكنني رجحت أنهم للمراقبة والحماية، ورغم ذلك يبدون غير منتبهين لقلة احتمال أن يهاجمهم أحد، ورجحت أيضاً أن باقي العصابة نائمون داخل الخيام، فأخذت أوزع عليهم نظراتي ونواياي بينما أفكر في خطة.. وقد جاءت بالفعل.

***

توقف (كازان) عن السرد عندما انطلق صوت الرعد عالياً، ووجد أن عدد من الأفراد الموجودون في الحجرة قد اهتزوا من المفاجأة، ويبدو أنه قد غمرهم التوتر بسبب ما تم سرده حتى الآن وما يترقبونه أثناء سرده، فسكت قليلاً بينما اشتد صوت المطر خارج القصر، فرفع رأسه إلى الملك قائلاً:

– سيدي، لِمَ لا أحكي أهم المعارك في الحرب وننتهي من هذا؟

ابتسم الملك وأجاب:

– لا يا (كازان)، فقد كنت محقاً في ذكرك بأن هناك تفاصيل مهمة قبل الحرب، فما عاصرته وتعلمته من الحرب له أهميته، لكن قصتك قبلها لها أهميتها أيضاً، فأنت لم تأت إلى الحياة جندياً، ولم تأت كي تكون جندياً، ولم تكن الحرب هي كل حياتك كإنسان، أريد أن أعلم كيف وبماذا تلونت رؤيتك وروحك قبل المعسكر، وأثناءه وبعده.

سكت (كازان) ولم يرد، فنظر إليه الملك لبرهة في انتظار رده لكنه ظل

صامتاً، فقال الملك:

- هل ستكمل؟

أجابه (كازان) بدون أن يرفع رأسه إليه:

- نعم أيها الملك.

وعاد يحكي.

***

بعدما وضعت خطتي أخيراً، أخذت أتسلق الجزء من الجبل الذي كنت أقف على طرفه، وبينما أتسلق عالياً أقترب رويداً نحو المعسكر من أعلى، كنت كل لحظات أتأكد من تغطية وتثبيت سيفي كي لا يصطدم بالصخور فيصدر صوتاً يكشفني، وعلقت السوط في حزامي، وتأكدت من تثبيت القوس والسهام المسمومة على ظهري، ثم أخذت أقترب أكثر بينما أحسب مكان كل خطوة قبل أن أخطوها، حتى أصبح الرجال الجالسون حول النار تحتي على اليمين قليلاً بمسافة تقترب من خمسين قدماً، والرجال على الدرجة الصخرية على أقصى اليمين بمسافة سبعين قدماً تقريباً.

تنهدت في بطء، ثم أخذت أتقدم بحذر أكثر حتى تخطيت الرجال حول النار، واقتربت من الذين فوق الدرجة الصخرية، حتى أصبحوا أسفلي بقليل على مسافة أربعين قدماً تقريباً، فالتقطت قوسي وثلاثة أسهم من فوق ظهري، وتأملت الرجال للحظات.

كانت أول خطوة بخطتي هي التخلص من أكبر عدد من أبعد مسافة ممكنة، ولا يمكن أن أرميهم بالسهام من مكان أفقي ضيق، حيث سيعلمون مكان الرامي من اتجاه السهام التي أصابت زملائهم، وعندها سأنشغل أكثر

بالانسحاب والفرار، أما إن أصبتهم من أعلى سيأخذون وقتاً أكثر قليلاً حتى يحددوا مكان الرامي، وإن حددوه فسيكون لي المكان الأفضل والوقت الأوفر لاصطيادهم، وبما أننا في الليل وأنا جالس في الظلام فسيستغرق ذلك لحظات إضافية تفيدني، كما أنه من الأفضل أن أصيب الرجال على المرتفعات أولاً لأنهم متفرقون، ولن يصل إليهم رفاقهم إلا بعدما يسقطون فلا يستطيعون تحديد مكان الرامي إلا متأخراً.

تناولت أول سهم وثبته في القوس، ثم جذبته ورميت أحد الرجال المتمركزين فوق المرتفعات، كان مرتخياً وشبه نائم.. فاخترق السهم صدره ولحسن الحظ لم يخرج منه أي صوت حتى خمد، التقطت أنفاسي، ثم رميت الذي بعده بصدره فخرجت منه شهقة تنبه لها الذي يليه، ولكنه لم يكد يغادر مكانه ليطمئن على رفيقه حتى أصاب سهم عنقه فخرجت منه حشرجة فسقط هو الآخر.

صاح أحد الرجال الموجودون حول النار بالأسفل:

- ما بالك يا (ساكار)؟.. هل أسرفت في الشراب؟

لم يجبه بالطبع، فاستغللت صياح هذا الرجل العالي فرميت اثنين آخرين وراء الخيام إلى عداد القتلى، قبل أن يتنبه الرجل الأخير على المرتفعات بأن هناك من سقط وسهم في صدره، فصاح كي ينبه من يتجمعون حول النار، فأصبته في سرعة قبل أن يشي باتجاه الرمي، وانهلت بدون حذر بعدد من الأسهم تجاه جدران الخيام كي أتخلص من أكبر عدد ممكن من النائمين داخلهم.

أثناء ذلك نهض الرجال بالأسفل وشهروا سيوفهم وبدأوا يتلفتون حولهم في ارتباك كي يرصدوا الرماة، وهذا ما أردته بالضبط، أن يظن هؤلاء

الحمقى ولو مؤقتاً أن الرمي يأتيهم من مستوى أفقي، ولربما من بداية الوادي حتى، فظللت ساكناً بالظلام دون أدنى حركة فوق الحائط الصخري.

بعد ثوان من التحاور بينهم بدأ الرجال ينقسمون.. أربعة منهم ركضوا نحو باب الوادي كي يرصدوا الرماة ويتخلصوا منهم، بينما الباقون ظلوا بأماكنهم يتلفتون حولهم ويصيحون، وبعضهم بدأ يصيح بصوت جهوري كي يوقظ النائمين بالخيام.

أملت بشدة ألا يخرج أحد من الخيام.. وقد كان، فشكرت في نفسي التدريبات التي تلقيتها، وصبرت على سكوني تلك اللحظات لأني أيقنت إن أصبت أحد الذين بالأسفل سيعلمون أن الرامي يرمي من أعلى، فتحركت بحذر كي أوجه سهامي نحو الذين ركضوا نحو باب الوادي، خاصة أنهم قد ابتعدوا عن نار المعسكر وصاروا في شبه الظلام، فأسقطت ظلّين منهم، فأسرع الباقيان من الخوف جاهلان من أين تأتي السهام، ولم يخاطرا بالوقوف ليطمئنا على رفاقهما.

عدت بنظري للرجال بالأسفل بينما يتلفتون حولهم، فأشهرت خنجري، وأخذت أسير فوق الحائط صخري حتى وصلت لارتفاع يسمح بالقفز للدرجة الصخرية العليا، فركضت منحنياً إلى أول خيمة ووجدت أن سهامي قد قتلت الثلاثة النائمين بها، ثم توجهت إلى التالية فوجدت ثلاثة قد قتلتهم أيضاً وهناك رابع اهتز من المفاجأة لدخولي بينما يقبض على يده اليمنى المصابة ويضغط على أسنانه متألماً، كاد أن يتحرك لكنني بعد لحظات خرجت من الخيمة وقد ألحقته بمصيرهم.

تقدمت إلى طرف الدرجة الصخرية ورميت أحد الرجال في الأسفل في عنقه فسقط، ولم يكد البقية يلتفتون إليه حتى أصبت آخر بآخر سهم معي،

فانتبهوا أخيراً لي...

" ها هو "

صرخ بها عدد منهم في نفس الوقت، ثم أخذوا يركضون جميعاً نحوي وكان عددهم اثنا عشر، فانتظرت حتى اقتربوا مسافة كافية فرميت خنجري نحو صدر أحدهم فسقط، ونزعت سوطي وضربت به أول اثنين من المتقدمين منهم فشق جلد صدورهم، ثم ضربت الثالث بعنقه.

ورغم عددهم الكبير الذي كان يكسبهم الثقة بينما يركضون سوياً ورائي، إلا إن ضرباتي السريعة كانت تصيب البعض بالتردد للحظات، كأن منهم مَن يركض ورائي مجاملة للآخرين، لاحظت ذلك خلال حركات أيديهم وأقدامهم.. ولم أنتظر للحظة أخرى، فركضت سريعاً بمجرد أن أصبت من أصبت بالسوط متوجهاً نحو الحائط الصخري.

أسرعت أتسلقه وسرت عليه بضع خطوات ثم نظرت خلفي فوجدت أن الذين أصبتهم بالسوط قد سقطوا بينما جسدهم ينتفض، وقد عنى لي أن مسح السوط بالسم كان سبباً مساعداً بدرجة مرضية، بينما باقي الرجال ينظرون لي بحذر ولم يتقدموا إلا بمسافة كافية لاتقاء سوطي.

صاح أحدهم بي:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

فصحت به:

- لديكم شيئاً يهمني.

تبادلوا النظرات في تردد، ثم عاد نفس الرجل يصيح:

- وما هذا الشيء؟

أجبته في سخرية:

- لا وقت لي للتحديد، ولكن فلنقل أسورة منقوشة يدوياً، قمتم بالسطو عليها أثناء هجومكم على الواحة.

كان ظهور انعكاس ضوء النار على أعينهم دليلاً على اتساعها من الصدمة، فسأل الرجل في استنكار:

- ماذا قلت؟

- قلت لك أسورة منقوشة يدو...

فصرخ رجل آخر مقاطعاً:

- أتمزح أيها القذر؟

فصحت بدوري:

- قذر؟!.. لقد نطقت بالكلمة التي من أجلها قتلت البغل (بيبور).

تحفز بعض الرجال في حركاتهم، بينما صاح الرجل غاضباً:

- أأنت من قتل (طاسار)؟

- من؟!

صرخ الرجل:

- (طاسار)، كبيرنا (طاسار).

- أتقصد الرجل الطويل؟.. نعم.

تأهب الرجال للهجوم، فقلت بصوت عال:

– أتحبون أن تلحقوا بهم؟

ترددوا، وعاد نفس الرجل يقول:

– أمقابل أسورة لعينة تقوم بقتل كل هؤلاء؟

أجبته في سخرية:

– لا.. بل لعدة أسباب لا وقت متبقٍ لديكم للاستماع لها، ولكن أولها أنكم قد هربتم من المعسكر.

– المعسكر؟!.. وما بالك أنت وسبب تركنا للمعسكر؟!

– كنتم ستصبحون جنوداً محاربين بدلاً من كونكم لصوصاً.

– أنت لا تعلم شيئاً عن المعسكر.

– وهل أبدو لك كشخص أتى من الشمال؟ إنك تتحدث إلى جندي محارب.

يبدو أن المفاجآت لن تنتهي الليلة بالنسبة لهم، فقال الرجل وقد هدأ صياحه إلى لهجة غاضبة:

– حسناً، من جندي إلى آخر.. هل أعجبتك أجواء المعسكر حتى تتمسك به هكذا وتأتي كي تقتل الهاربين منه؟.. أم أنك في مهمة خاصة قد كلفوك بها؟

– مهمة خاصة من أجل مهرجين مثلكم؟!.. أنا لم أسمع بكم إلا منذ ساعات، وبعيداً عن أجواء المعسكر فأن أكون جندياً محارباً خير لي من أن أصير لصاً يتهجم على النساء.

ضحك الرجل ضحكة مجلجلة، ثم قال بغلظة:

- يا للسذاجة!.. وماذا ستفعل بجنديتك أيها المحارب؟ إن الملك يعدكم كالحيوانات كي يستولي على الشمال، أليست هذه سرقة؟!

لم أرد عليه، فعاد يقول:

- هل تظن إن الجنود في مملكة الشمال يتدربون بتلك الوحشية؟

- لا أعلم.

- لا تعلم؟!

زفر الرجل متهكماً، بينما قال الذي بجواره وكان صوته رفيعاً يدعو للضحك:

- لو كان باستطاعتنا لهربنا إلى الشمال فنعيش بسلام دون تعرض لأحد أو من أحد، ولا ننشغل بأطماع ملوك ولا قادة.. فلتفق أيها الجندي.

- هل أفق من كوني جندياً كي أكون لصاً؟

صرخ الرجل الأول:

- لسنا لصوصاً بإرادتنا أيها القذر، فنحن غير مرحب بنا في الشمال بعدما وصلت إليهم سمعتنا السيئة.

- لقد جنيت على نفسك بسبب كلمة "القذر" هذه.

انكمشت ملامح وجهه في غضب وقال:

- أتهددني؟

فتقدم نحوي وتبعه البقية، فأخذت أخطو بحذر وهم خلفي، كانوا

يسيرون شخص وراء آخر فوق الحائط الرفيع، فتوقفت وضربت بسوطي إلى الخلف فأصاب ثاني رجل في عنقه، فصرخ قابضاً على عنقه في هلع وسقط إلى أرض الوادي.

نظر الباقون إليه في قلق، فلوحت بسوطي مجدداً كي أضرب الذي خلفي، فاستقبله الرجل بنصل سيفه كي يلتف طرف السوط حوله، ثم قبض عليه بيده وابتسم ابتسامة قبيحة علمت منها ما ينتويه، فتركت مقبض السوط في نفس اللحظة التي جذب فيها السوط بغل كي يوقعني، فاختل توازنه ولم يمد الذي خلفه يد المساعدة مخافة أن يجذبه معه، فسقط إلى أرض الوادي على رأسه فهمد تماماً، فصحت في باقي الرجال في سخرية:

- يبدو أني قد قتلت كبيرين لكما حتى الآن!

تردد البعض منهم في التقدم ورائي، لكن لاحظت أن هناك وجه كان يتملكه الغضب وقد يحرض الجميع على متابعتي مهما كلف الأمر، فشهرت سيفي وزمجرت في غضب صائحاً:

- أين الأسورة؟

قال أحد المترددين:

- هل تتركنا إن أعطيناها لك؟

- نعم، سأترككم وأترك واديكم بغير رجعة.

فصرخ أحد الغاضبين:

- أي سخافة تلك ستعوض عمن قتلته منا؟

أجبته في سخرية:

- وهل تفضلون أن تساوي تلك الأسورة حياة ثلاثون رجلاً؟

فصاح آخر رجل بالصف:

- اقتلوه.

أشهر أولهم سيفه بحذر كي لا يختل توازنه، ثم تقدم فأخذ يبارزني وأبارزه بينما كل منا مستنداً بظهره إلى الجبل، حتى تمكنت منه بضربة قطعت كفه ثم ضربته بالسيف في جنبه فشققته، وتركته يسقط نحو الأرض قتيلاً.

تقدم الذي يليه فأخذ دوره في المبارزة والذين من خلفه يحفزونه ويحرضونه، فضيق الحائط الذي يسمح بوجود رجل واحد في مواجهتي يدفع جميع من خلفه لتشجيعه كي يقاتلني في إصرار ويخلصهم مني، لكني نجحت بحركة سريعة أن أفلت السيف من يده، فنظر الرجل إليّ في قلق ثم صرخ:

- اعطوني سيفاً بسرعة.

ولكني لم أمهله وضربته عنقه ففصلته، ومال جسده كي يتبع رأسه إلى أرض الوادي، ولم يكد يميل حتى فاجأت الرجل الذي خلفه بطعنة في صدره، وتركته يسقط وراءه بلحظات، فنظر الرجل الذي يليه إليّ في قلق، فصحت فيه ضاحكاً كالمجنون:

- ما رأيك في المقايضة؟

- آآآ.. أ...

قطع جملته بعدما دفعه الذي خلفه ناحيتي، فاستقبلته بطعنة في بطنه ودفعته عني ليلحق بزملائه القتلى، وبدأت أشعر بشيء من الضجر، فصحت:

– يبدو أن القضاء عليكم أسهل مما توقعت، فأنتم أغبياء بدرجة كبيرة.

صاح الأقرب محتجاً:

– ماذا؟!

أجبته في سخرية:

– ألا تتدربون منذ هروبكم؟ أم أن السطو على الضعفاء لم يحتج منكم إلا الصياح مثل الحيوانات؟

صاح الرجل في غضب، لكن الغريب أنه لم يتقدم، فقلت في نفاذ صبر:

– ستقتلونني من الضجر بترددكم هذا، وكل وقت يمر عليّ يزداد غضبي، وما أسهل القضاء عليكم وأنتم بهذا الوضع!.. أين ما أبحث عنه؟

ثم كشرت عن أنيابي، ولوحت بالسيف في بطء تجاه أقرب رجل لي، فصاح بقلق:

– لا.. انتظر...

ثم نظر في عينيّ وتابع:

– سأعطيك إياها، ولكن اقسم أنك ستتركنا.

– سأترككم.

– فلتقسم.

– قلت لك سأترككم.

بدأت أنفاس الرجل تتسارع في خوف، لكنه عاد بقوله:

– أرجوك فلتقسم.

صرخت فيه:

- وماذا يعني لكم القسم أيها اللصوص؟

صاح الأخير:

- لا تقل لصوص أيها الـ...

ثم سكت، فصحت:

- فلتكمل كلمتك.. أيها الـ ماذا؟

أصبح الجو متشبعاً بالتوتر والغضب، خاصة بيني وبين الأبعد عني.. يا للسخرية!.. فقال الرجل الأقرب لي بخوف:

- أرجوك لا تستمع له، سأعطيك إياها.

أومأت برأسي قائلاً:

- حسناً، تقدموا أمامي.

فبدأ الثلاثة المتبقون يتراجعون، وأنا أتقدم حتى وصلنا إلى الدرجة الصخرية، فقال الرجل الذي كان الأخير بالصف للذي كان أمامي في غضب:

- ماذا تفعل أيها الغبي؟

فأجابه:

- أنقذ حياتنا جميعاً أيها الأحمق.

- أنستسلم جميعاً لرجل واحد؟

أجبته متهكماً:

- وماذا ستفعل أكثر مما فعل جميع زملائك أيها الشجاع؟

ضم الرجل شفتيه في غيظ، فرفعت سيفي ناحيتهم وقلت:

- أين هي؟

أجابني الأول:

- اتبعني.

- إلى أين؟

- إنها في تلك الخيمة سـ...

لم يكمل جملته إذ ضربت عنقه، مكتفياً بإشارة يده نحو الخيمة المطلوبة، فصاح فيّ الأخير:

- أيها المخادع، لقد قلت أنك ستتركنا.

- نعم، لكني لم آت كل هذه المسافة إلا لأترككم دون رؤوس.

- أيها القذر!

فتقدم إليّ بسيفه وأخذ يبارزني بكل عنف، كان يبدو أنه الأكثر مهارة ممن تبقوا، لكني بارزته بما أملك من قوة ومهارة كذلك، حتى أيقن أنه قد يخسر في أية لحظة فصاح بالرجل الثاني الذي وقف يتأملنا في قلق:

- ساعدني أيها الأحمق.

لكن ذلك الرجل تراجع خائفاً، ثم ألقى بسيفه وأخذ يركض نحو باب الوادي، فزمجر الذي أبارزه في غضب وصاح:

- أيها الجبان!

ثم في حركة مفاجئة رمى سيفه وقال لي:

- اقتلني، لا مفر من قتلي، فلمَ أتعب نفسي في مبارزتك؟

نظرت إليه للحظة متعجباً، ثم تقدمت وغرزت السيف بصدره، حاول أن يتحمل ألمه لكن مع ارتجاف فكه فرت من فمه عدة تأوهات، فاقتربت بينما أنظر إلى عينيه وقلت في خفوت:

- ليكن في سرك قبل أن ترحل.. أنا لا أعلم أي مستقبل ولا مصير أفضل هنا أو هناك.. لن أكون لصاً مثلك، لكني قد أحسدك يوماً ما على ما أنت عليه هذه اللحظة.

أغمض عينيه بينما يهبط جسده أمامي ببطء، وما إن سقط حتى أخذت أنظر إليه وأنا ألتقط أنفاسي أخيراً، فقدت للحظة إدراكي بمن انا أو ما يحدث.. أو حقيقة ما حدث بالفعل، نظرت حولي إلى الوادي المليء بالجثث، ثم قلت لنفسي في صوت مسموع:

- لقد قتلتهم!.. لقد قتلتهم حقاً!.. لقد قتلتهم وحدك يا (كازارشان)!

ثم صحت في قوةٍ صيحة ترددت في أنحاء الوادي.

﴿الفصل الحادي عشر﴾

أخذت أدق على باب العم (شوهان) قرب الشروق، فخرج وآثار النوم باقية على وجهه، وعندما وقع نظره عليّ بينما أنا حامل سيفي انتبه أكثر وسألني بقلق:

- أين كنت يا (كازان)؟ وكيف حالك الآن؟

- أفضل!

تنحى العم جانباً وأشار لي بالدخول قائلاً:

- تفضل يا بني فيبدو أنك مرهق.

- أشكرك ولكني...

" من بالباب يا أبي؟ "

كان صوت (راسيا) يأتي من الداخل، فأجابها العم بصوت عال قليلاً:

- إنه (كازان) يا ابنتي.

ظهرت (راسيا) خلف العم متسائلة:

- هل هناك شيء؟

أومأت برأسي وقلت:

- نعم...

ثم استدرت قليلاً وأشرت إلى خيمة ملفوفة على شيء ما كبير الحجم وتقبع أسفل الربوة، فقال العم متعجباً:

- ما هذا يا بني؟

- إنه شيء سيسعدك، ولكن فلتدخل (راسيا) وتغلق الباب.

- لماذا؟

- من خبرتي بالأيام القليلة الماضية أظن أنه شيء لن تتحمله.

سألتني (راسيا) بقلق:

- ما هذا يا (كازان)؟

نظرت لها ولم أرد، ترددت في الرد للحظات بينما ينظران إليّ، حتى أجبت ساخراً:

- لم تعد هناك رؤوس لعصابة (رافعو الرؤوس).

ظل العم (شوهان) و(راسيا) ينظران إليّ كأنهم لم يعوا ما أقصده، فعدت أقول:

- هذه الخيمة تحوي تسعة وعشرون رأساً لأفراد العصابة.

اتسعت عينا (راسيا) ولم تنطق، بينما حاول العم أن ينطق بشيء لكن يبدو أن عقله قد ذهب للحظات، وبعدها نطق:

- أأنت جاد؟

أجبته ساخراً:

- فلتذهب وتتأكد بنفسك.

تقدم العم في سرعة وضمني إلى صدره، قائلاً بسعادة:

– آه يا بني، لا أعلم ما قد أقوله لك.. أنت.. أنت وكأنك معجزة أتت استجابة لآمالنا!

ثم أخذ يربت على ظهري بيديه وهو يضمني، فابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت:

– فلتطمئن أهل الواحة.

ضمني العم بقوة أكثر ثم ابتعد عني وملامح وجهه تملؤها السعادة، وقال:

– لا أعلم كيف أشكرك يا بني!

ثم تركني برفق ونزل لأسفل الربوة، وأخذ يدور حول الخيمة الملفوفة، فعدت بنظري إلى (راسيا) التي تحول نظرها من والدها إليّ، فتقدمت لها في خطوات بطيئة ثم قلت:

– لقد أحضرت لكِ شيئاً أتمنى أن يسعدك كمثل ما أسعدت العم.

ظهر بعض القلق على وجهها، فلعلها تتصور أني قد جئتها بشيء يناسب طبيعتي الدموية كما تظن، لكني قبضت على شيء ما من حزامي وفتحت يدي لتجد (راسيا) أن يدي تحوي أسورتها، فأخذت تنظر لها متأملة إياها، ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت:

– لقد ظننت أن كل ما يسعدني يضيع للأبد.

أجبتها:

– لن يستطيع أحد أن يأخذ أي شيء منكِ بعد الآن.

فتحت قفل الأسورة في تردد ومددتها نحوها ببطء، فمدت معصمها نحوي كي أحيطه بالأسورة.. ففعلت بينما أحاول أن أتمالك يدي عن الاهتزاز، حتى أحطت معصمها ولم يتبق سوى الضغط على القفل و... تردد الصوت الذي صدر عن غلق القفل بداخلي، لقد تسارعت دقاتي وشعرت ببعض من الرضا أن قلبي متوارٍ بالداخل في الظلام.

رفعت (راسيا) رأسها إليّ وأخذت تتأمل في وجهي، فأشحت بنظري عن عينيها ناظراً إلى معصمها ثم إلى الأرض، فقالت:

- أفعلت هذا كي تستعيد أسورتي؟

لم أرد على سؤالها مباشرة، لكنني بعد لحظة أجبتها:

- لقد استطاع أحدهم الهرب مني.

علمت (راسيا) أني بهذا أجيبها على سؤالها بـ نعم، فابتسمت في تأثر وكادت أن تقول شيئاً، لكن أباها صعد الربوة وهو يهلل بسعادة، ثم اقترب مني قائلاً:

- كيف فعلت هذا يا بني؟

كدت أن أرد لكنه سبقني قائلاً:

- لا، ليس الآن.. فلتفطر ثم تخبرني بكل شيء.

وفعلاً، دخلت معه وأعدّت (راسيا) الإفطار ثم جلسنا نتناوله، وبعدما انتهينا أخذت أقص لهم كل شيء عن غضبي وقراري لإعدادي لنفسي كي أذهب للقضاء عليهم، حتى صيحتي في نهاية الأمر، واستعادتي لأسورة (راسيا)، وفصل رؤوسهم السبعة والعشرين كي تكون برهاناً على قتلهم

وعبرة لمن يتعدى على الواحة.

كما ذكرت كذلك أني أثناء فصلي للرؤوس إذ عاد الاثنان اللذان هربا من سهامي، لربما كانا يظنان أنهما سيعودان ليجدا أن العصابة قد تخلصت من الخطر وقتلت الرماة، وإذ بهما يتفاجآن برام واحد، فتقدمت إليهما مبارزاً فقاتلاً، ووضعت رؤوسهما مع الآخرين، فضحك العم وقال:

– لا مثيل لك يا (كازان)، لقد قلقت عليك يا بني أن تبيت وحدك بالأمس، لكن يبدو أنك أصلب مما تخيلت.

– أشكرك يا عم (شوهان).

– قل لي.. ألا يوجد قلق من الرجل الذي هرب؟

أومأت برأسي نفياً وأجبته:

– لا.. فيبدو أن ذلك الأحمق لم يتحمل ما حدث بينما يرى أن عصابته والحصن الذي آواهم يصبحان شيئاً من الماضي في لحظات، كما لم يهرب بسلاح يُذكر.

– إنه لغريب أن يكونوا بمثل هذا الضعف لدرجة أن تقتلهم وحدك.

– ربما لم يكونوا ضعافاً دائماً بل أصبحوا هكذا مع عدم الحاجة للحفاظ على مهارتهم، فانتشار خبر أنهم تلقوا تدريبات القوات الخاصة وتعميمه حتى على الذين انضموا لهم بعد ذلك لم يجعل أحد عنده استعداد للمخاطرة بأن يتعرض لهم أو يهاجمهم.. وبالتالي لم يحتاجوا إلا للصياح والتلويح بالأسلحة.

– أنت محق.

قاومت التثاؤب في حرج، فقال لي العم وهو يضحك:

- لتنم عندي اليوم يا بني، دليه على حجرته يا (راسيا).

***

" فلتقم لتنام كذلك يا (كازان) "

قالها الملك وهو يبتسم، فرفع (كازان) رأسه إليه وكان النوم يتقافز فوق عينيه، فتابع الملك:

- هيا، ولنكمل في الصباح.

أومأ (كازان) برأسه، ثم التقط يد زوجته وقاما واستأذنا الملك ثم ذهبا إلى حجرتهما، حيث توجه (كازان) للفراش بينما أغلقت (راسيا) باب الحجرة وقالت بينما تتوجه إليه:

- أرجو أن سردك يخفف عنك بالفعل كما أتمنى يا عزيزي.

تمدد (كازان) فوق الفراش في ارهاق وهو يقول:

- أظن هذا.. لكنه ليس كوجودك بجانبي.

ابتسمت وتمددت بجانبه بينما تنظر إلى عينيه، ثم قالت:

- وجودك بجانبي هو أكثر ما أتمناه.

ابتسم بدوره، ثم مد يده إلى يدها يتحسسها، وقال:

- أتعلمين؟ أظن أحياناً أن هؤلاء القوم لا يصدقون أن مَن يحكي ومَن يُحكى عنه هو شخص واحد.

- إنهم لم يعاصروك إلا منذ أيام، ولم يفهموك مثلي.

- لن يستطيع أحد أن يفهمني مثلك يا عزيزتي.

اتسعت ابتسامة (راسيا) لقوله، ثم أخذت تمسح على رأسه وهو يقبل يدها كلما اقتربت من شفتيه، وظلا يتهامسان قليلاً حتى ذهبا في النوم.

***

بعد ذلك اليوم الذي قضيته نائماً في بيت العم تغيرت حياتي كثيراً، أصبحت أحب وجودي هناك، أصبحت أشعر بالسعادة لمجرد رؤية وجه (راسيا)، لرؤيتها فقط حتى لو كانت مشغولة بشيء آخر، ومهما كنت أفعل.. كنت أتمنى رؤية وجهها يشاركني بملامحه ما أفعل، أو صوتها يتحدث في أي شيء.

إن تناولت الطعام أسعد لرؤية وجهها بينما تأكل أمامي، وبعدما أستيقظ أسرع بمغادرة الحجرة كي تقع عيني عليها، وعندما أخرج لأي مكان كنت أسرع للعودة كي أريح نظري وروحي برؤياها، ولا توجد أوقات أسعد عندي من تلك التي أخرج معها إلى الحقول سائراً بجوارها.

لقد حدث كل هذا دون مقدمات تُذكر، فهي لم تفعل أي شيء يستحق كل هذا، ولا كان بداخلي القابلية لأن أشعر بمثل هذه السعادة تجاه أي شخص، لكني أحسست أنها أكملت شيء لم يكن كاملاً عندي، وربما لم يكن موجوداً من الأساس، والغريب أيضاً أني بدأت أشعر بنبضات قلبي لهذه الدرجة لأول مرة بحياتي، رغم الجمود الذي أتعامل به والقسوة التي ما زالت غالبة عليّ، إلا أن قلبي أخذ ينبض بعنف يكاد يغلب عنفي، لم أستطع إيقافه مهما حاولت ومهما أجبرت نفسي على ذلك غصباً.

مرت الأيام.. بينما الابتسامة على وجهي تتمدد تدريجياً، حتى أصبحت

الابتسامة شئًا مألوفًا عليّ، ولقد سعد العم و(راسيا) بابتسامتي التي لم أعد أشعر بالحرج منها، وبدأت بحق أحب الحياة الطبيعية هنا، بدأت أتمنى أن أقضي بقية حياتي في الواحة، بجانب (راسيا) والعم (شوهان)، أصبحت أعشق الجمال والطبيعة والتنزه والطعام والعيش بحرية، تمنيت ألا تكون هناك حرب أو ألا أشترك بها إن قامت، وأن أستخدم قوتي وجنديتي في الدفاع عن (راسيا) وعن الواحة.

***

بعد أسبوعين بينما كنت أتنزه مع (راسيا) بين الحقول، قلت لها:

- (راسيا)!

ابتسمت لي وهي تجيب:

- نعم يا (كازان).

- هل هناك أمنية لك لم تتحقق إلى الآن؟.. أو أهناك شيء تحبين أن تحصلي عليه؟

صمتت (راسيا) قليلاً بينما تبتسم، ثم أجابت:

- في الحقيقة لا.. فأنا راضية بحياتي مع أبي وسط جمال الواحة وطيبة أهلها، حتى أبسط ما ضاع مني أحضرته لي يا (كازان).. أظن أن حياتي مكتملة الآن.

- هل ترين أني وحش كما يراني الناس؟

ضحكت (راسيا) ضحكة قصيرة وأجابتني:

- لا يا (كازان)، فبرغم قسوتك إلا أني قد تعلمت من أبي أن هناك

إنسان يعيش داخلك، وتظهر طيبتك وحتى أهدافك النبيلة في ذروة قسوتك أحياناً.

عقدت حاجبيّ عند سماعي جملة "إنسان يعيش داخلك" تلك، واستفزت رؤيتي لنفسي جندياً محارباً حتى بدأت أقلق، وبدأت اتراجع قليلاً قائلاً لنفسي:

" راجع نفسك يا (كازارشان).. لا تخاطر "

لكن نبضات قلبي غلبتني ووجدت نفسي أقول لها:

- (راسيا)!

- نعم يا (كازان).

- لقد فكرت بأن أتقدم لخطبة فتاة.

تفاجأت (راسيا) قليلاً ثم قالت بابتسامة:

- رائع!.. أتمنى لك التوفيق.

- لا.. آ.. أقصد هل تقبلينني إن تقدمت إليكِ؟

اندفعت الكلمات مني في سرعة كأن قلبي لم يرد أن أتراجع ولو للحظة، فصمتت (راسيا) وملامحها.. وفي تلك الثواني المتزايدة كان قلبي يدق بعنف لدرجة لم تحدث في حياتي كلها، لم أخجل في أن أعبر عن مشاعري تجاهها، ولم أشعر بالحرج في أن أظهر بمظهر الإنسان أمامها هي خاصةً.

بعد ثوان أخرى وجدت ابتسامة تغزو شفتي (راسيا) وتتسع في سعادة، فاتسعت ابتسامتي وتهلل وجهي، وأحسست بأني قد ولدت من جديد لأشعر لأول مرة بالسعادة.. ولأول مرة أشعر بعاطفة تسابق دمي في

العروق.. وشعرت بأني يمكن أن أخترق الأرض كلها من أجلها.. من أجل (راسيا)...

" أقسم لكِ إنها أسعد لحظة في عمري "

نطقتها بحق كل نبضة تهزني هزاً، أخرجت سعادتي كلها في تلك الجملة، سعادة لم تخرج من قبل، سعادة لم تكن موجودة من قبل...

" وأنا أيضاً "

قالتها.. لقد قالتها (راسيا)، لم أعرف كيف أتصرف في هذا الموقف مع كل هذه السعادة التي نبعت داخلي وأصبحت طوفاناً، ظللت ابتسم (لراسيا) والسعادة تملأ وجهي، انعدمت الكلمات عن لساني فنطقت بها عينيّ، وكنت على يقين من أن (راسيا) تقرأها، وتجيبني ببريق الابتسامة في عينيها.

إنها سعادة حركت ملامح وجهي نحو الابتسام، سعادة لا يمكن أن أدعو غيرها بسعادة، لقد تحرك التمثال أخيراً ليبتسم، تحرك الصخر أخيراً لينبض، لم يعد وجهي صلباً كما كان، لم يعد قلبي ضائعاً مثلما كان، لم أعد (كازارشان) الذي كان.

***

بعد هذا الموقف السعيد عدت مع (راسيا) إلى المنزل كي أخبر العم (شوهان) برغبتي في طلب ابنته منه، دخلت من باب الدار فوجدت العم ممدداً على الأريكة يتناول بعض الفاكهة، ولم يكد يرني حتى توقفت الثمرة على فمه وحملق فيّ...

" (كازان)؟! "

نطق بها العم بينما يعتدل إلى الجلوس كأنه يراني لأول مرة، فتقدمت إليه وجلست بجانبه، ظل يحملق فيّ بدهشة ولا يصدق أن هناك ما يمكن أن ينشر كم السعادة هذه في ملامحي -هذا لو كنت حقيقياً الآن بالنسبة إليه- وكأنه يتساءل "لمن هذا الوجه؟! من أنت؟!"، فقلت له:

- نعم يا عمي.

- عمي؟!

صاح بها العم متعجباً، فقد كنت دائماً أتحدث معه بلهجة شبه متحفظة وأناديه "بالعم"، ولم أدعوه "بعمي" من قبل كأي شخص يدعو عمه، فابتسم في سعادة وقال:

- أهذا أنت يا (كازان)؟!

اتسعت ابتسامتي وأنا أجيبه:

- نعم يا عمي.

اندفع عمي إليّ وضمني بشدة إلى صدره، قائلاً:

- من الذي فعل بك هذا يا بني؟.. آه يا بني.. سأظل شاكراً له ما دمت حياً.

- سأخبرك.

ابتعد عمي في رفق ثم أمسك بيدي وكأنه يتمنى أن يضم أي جزء مني من السعادة التي يشعر بها، فقلت له:

- إنها (راسيا).

رفع حاجبيه وكاد أن يقول شيئاً لكني سبقته وقلت مبتسماً:

- ولهذا أتقدم لك لأطلبها منك زوجة لي.

توقف عمي عن الحركة من المفاجأة، حتى ملامحه، لكن السعادة كانت ظاهرة في اتساع عينيه وهذا ما طمأنني، ويبدو أنه لم يتحمل كم السعادة التي تلاقاها في لحظات قليلة، فصاح في فرحة وقام مشيراً إليّ بأن أقوم، ولم أكد أفعل حتى تقدم إليّ في سرعة وضمني بقوة، شعرت بأنها ضمة والد لي وليس شخص عهدني وعهدته منذ أيام، كان قوة ضمته لا تناسب سنه الكبير، لكن يبدو أنه لم تمر عليه لحظات تلقى فيها كماً من الأحداث المتلاحقة تسابق نبضات قلبه.

وبعد أن ظللنا على هذا الوضع قالي لي:

- لن أجد لها أفضل منك يا بني.

- أشكرك يا عمي.

- بل أنا الذي أشكرك يا بني على كل ما فعلته لنا.

ثم نادى عمي على (راسيا) وهو ما زال يضمني، فدخلت (راسيا) وتهلل وجهها لرؤيتنا على هذا الوضع، وعلمت أن عمي قد وافق على زواجنا، فتركني عمي في رفق ثم تقدم لها بحركات كأنه يداعب طفلته الصغيرة ثم ضمها في قوة ظهرت على وجهها، فنظرت لها في ابتسامة امتلأت بالسعادة.. و.. والحب.

نعم.. الحب.. آخر شعور يمكن أن أتخيل أن يسكن قلباً لم يكن يسكن بداخلي.. لكن (راسيا) استطاعت أن تعيد إليّ قلبي.. وتعيد إليه نبضه، رأيت بسببها الدنيا غير الدنيا في أيام قليلة، ودون أن تأتي بفعل يستحق في نظر الناس، بدأت أراها هدية من السماء، تلك السماء التي كنت أنتظر هداياها

الرحيمة في أول سنين المعسكر حتى بدأت أؤمن أنها سماء جافة، أو ربما السماوات تتعدد.. فلا السماء هناك هي السماء هنا.

***

بعد أن تناولنا وجبة الغداء في أحاديث وضحكات، استأذنت عمي و(راسيا) في العودة لداري كي أعده وأنظفه وأرتدي ملابس جديدة، ثم ودعته وصحبتني (راسيا) إلى أسفل الربوة وقالت لي:

- لا تتأخر عليّ.

- أنا أحبك.

اندفعت أقولها لها بصدق فخرجت مني مع كل القلق الذي سبق النطق بها.. لأني.. حقيقة.. أشعر أن هذه الكلمة عندما ينطقها أحدهم من قلبه لا يصبح بعدها ما كان قبلها، أما (راسيا) فقد احمرت وجنتاها من الخجل وابتسمت في حرج شديد، وودت لو أضمها وأقبّل وجنتيها الخجلتين، لكني قلقت على رقة هذه الوردة التي أمامي، وتراجعت في بطء بينما أتأملها قائلاً:

- لن اتأخر.

ظللت أتراجع بظهري حتى أظل أراها لأطول وقت ممكن، وبعدما ابتعدت بعض الشيء لوحت لها بيدي ثم استدرت عائداً إلى داري.

***

عدت إلى شارعي كأني أراه لأول مرة، فرغم أني لم أغب عنه إلا أسبوعين تقريباً إلا أني شعرت بأن المكان غريب عليّ لأن (راسيا) بعيدة عنه، فدخلت داري لأرى أن الغبار قد غطى بعض أركانه وأثاثه، فشرعت على الفور

في تنظيفه كي يليق باستقبال (راسيا) وكأنها على وشك دخوله الآن، حتى انتهيت وذهبت للاغتسال ثم ارتديت أفضل أثوابي، ووضعت أزكى العطور عندي، ثم نظرت في المرآة وكنت راضياً عن مظهر (كازان) الجديد.. (كازان) السعيد.

بعدما انتهيت من جميع ما كنت أخطط لفعله في داري خرجت إلى الشارع، أخذت أتأمله يميناً ويساراً، والناس يعبرون أمامي وينظرون إليّ في عجب، كنت أعلم ما يفكرون به، أهذا هو الوحش الذي قتل (بيبور) وعصابة (رافعو الرؤوس) وحده؟!.. ولهم الحق أن يتعجبوا، وبعد لحظات من تأملهم تنهدت، ثم صحت بحماس:

- أيها الناس!

أهتز جميع من بالشارع من المفاجأة، كان منظرهم يدعو إلى الضحك لكني لم أضحك، فالتفت إليّ الجميع قلقاً أو مترقباً، فقلت رافعاً صوتي:

- لا أريد من أي منكم أن يقلق بعد الآن، من أي خطر كان.. أو حتى مني، وما دمت بينكم فلن يطولكم أي تهديد أو أذى، هذا إن تجرأ أحدهم على هذا.

ظل الناس ينظرون إليّ كما هم، فعدت أتابع:

- أظن أني قد خلصتكم من جميع الأخطار دون أن أؤذ أحدكم، فأتمنى بحق أن تطمئنوا تجاهي.

ابتسم بعضهم بينما أومأ البعض برأسه في تفهم، وظل القليل محتفظاً بالتردد على وجهه، بينما أدير بصري بوجوههم وأنا عازم على أن أترك الأيام تثبت لهم كلامي، فاستدرت وأغلقت باب داري وبدأت أسير إلى بيت

عمي، متشوقاً لرؤية.. حبيبتي.

❋❋❋

كان طريقي أجمل هذه المرة لأني أعود إلى حبيبتي، أخذت أتخيل وجهها أمامي من شوقي المتزايد لها، بينا قلبي ينبض بقوة وكأنه لم يكد يتحرر حتى عزم أن يحتفل للأبد، كما أخذت أتأمل الطبيعة من حولي وأرى الجمال في أي شيء أمر به، أي شيء يمكن أن يكون جميلاً في عالم به حبيبتي، لكني فجأة تذكرت المعسكر، كيف أتصرف وأنا عازم على الزواج من (راسيا)!.. إن هذا ممنوع بشدة في التعاليم التي تلقينها خلال سنين التدريب، لكني فضلت أن أترك الحل عندما أتحدث مع القائد، لعله يسمح لي بالزواج والابتعاد عن المعسكر، وطمأنت نفسي بأني شخص واحد، ولن يؤثر نقص جندي على جيش بأكمله، فكل أسبوع يموت ما يزيد عن مئة من المجندين في الاختبارات.

عندما لاحت دار (راسيا) طردت قلقي وبدأت الابتسامة تتسع على وجهي، لكن لفت نظري عربة خيول تقترب تجاهي من ناحية الربوة، فأخذت أنظر إليها كي أعرف مَن كان يزور عمي، وعندما اقترب لم أستطع تمالك نفسي، وصحت:

- (رادم)؟!

كان (رادم) هذا خادم ومربي عندنا بالبيت منذ طفولتي، وكان أبي يرسله كثيراً كي يحضر طلبات هامة نظراً لكونه أكثر الخدم المقربين من أبي لأمانته، يمكنني أن أميز ملامحه رغم مرور السنوات، لكنه تخطاني في سرعة ولم يلتفت إليّ، فاستنكرت هذا...

" كيف لم يرد عليّ؟!.. ألم يخبره أبي عن وجودي هنا؟! "

قلتها لنفسي مستنكراً بصوت مسموع، فبالفعل كيف لم يرد عليّ؟ ألم يتعرفني؟ أكان متعجلاً لهذه الدرجة؟ لقد صحت باسمه بصوت عالٍ وبالتأكيد قد سمعني!

" ربما لم ينتبه بسبب مظهري الجديد! "

مالت نفسي لهذا الاحتمال فهززت كتفي في عدم اكتراث، فأنا لن أستغرق سوى دقائق حتى أصل لدار عمي كي أعرف منه سبب زيارة (رادم)، لكنني لم أتحمل الانتظار لدقائق أخرى فأنا متشوق للاطمئنان على أخبار أبي، فأخذت أركض في سرعة، حتى وصلت إلى الربوة وصعدتها في ثوان، لكنني عندما اقتربت من البيت.. لا أعلم.. أحسست بأن هناك هدوءً غير معتاد، أحسست بأن الجو يحمل رائحة غريبة، أو كأن الهواء انعدم من الوجود.. فامتلأ صدري بالقلق.

اقتربت من الباب وطرقته في ترقب، وبعد لحظات لم أتوقع انتظارها فتح عمي الباب، اهتز جسده عندما رآني كأنه رأى شبحاً، فابتسمت له في تردد محاولاً تخفيف هذا الشعور البغيض، وقلت في هدوء:

- كيف حالك يا عمي؟.. هل تأخرت عليكم؟

ظل عمي ينظر لي في قلق، فتنهدت وقلت:

- ماذا بك يا عمي؟!

حاول عمي أن يرد بشيء، لكن شفتاه كانتا تهتزان في تلعثم، فضاق صدري وأنا أقول:

- لقد رأيت (رادم) في طريقي وكان متعجلاً كما يبدو ولم ينتبه لي، هل هناك أخبار سيئة من أبي؟

- آ.. إ.. إنـ...

تنهدت مرة أخرى كي لا أفقد أعصابي، ثم قلت:

- أخبرني يا عمي.

- إنها عـ.. عن أبيك.

ضغطت على أسناني وأنا أقول في قلق كبير ونفاذ صبر:

- ماذا به؟

ضم عمي شفتيه في قوة، ونزلت دمعة ثقيلة من عينه.. قبل أن يجيب:

- لقد مات أبوك يا (كازان).

***

أجهش (كازان) في البكاء دون أية مقدمات، فأخذت (راسيا) تربت عليه وتمسح على صدره في قلق محاولةً تهدئته، لكن بكاؤه لم يهدأ وأخذ يشهق بقوة، فقام (تاسيرون) في سرعة إليه وقال:

- اهدأ يا بني.

ثم أخذ يشارك (راسيا) في الربت على ظهره لعله يهدأ، لكن (كازان) ظل يبكي، ثم قال بمرارة:

- آه يا أبي.. آآآه يا أبي.

ثم عاد يبكي بشدة أكثر، وبدأ جسده يهتز من قوة شهقاته، فصاح الملك:

- الأطباء!

انتصب (تاسيرون) بحدة وصاح بقوة بعد الملك:

- الأطباء.. بسرعة.

فهرع المزيد من الجنود خارج الحجرة كي يأتوا بالأطباء، لكن انكتمت شهقات (كازان) فجأة، ثم مال بجسده وسقط من مقعده على الأرض هامداً، فصرخت (راسيا):

- (كازان)!

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

أضاء شروق الشمس غرفة (كازان) وزوجته بقصر الملك، كانت (راسيا) تمسح على رأس (كازان) بينما تنظر إليه بحزن على حالته التي صار إليها، فقد لزم الفراش ليومين بسبب تذكره لصدمة موت أبيه، وساءت ملامحه وذبل ما حول عينيه، ولم يتحدث منذ أن استعاد وعيه، كانت عيناه مفتوحتان وتنظران في اللا شيء.

ظلت (راسيا) تمسح على رأسه وصدره وتتمنى لو ينتهي هذا الأمر ويعودا لدارهما ويكملا حياتهما الطبيعية، ولكن...

" (راسيا) "

انتفضت (راسيا) من المفاجأة، قد نطق (كازان) أخيراً، فأجابته دامعة:

- نعم.. نعم يا (كازان).

لم يجب (كازان) وعاد إلى الصمت، فقالت في رجاء:

- (كازان)، أرجوك أجبني.. إني لم أكد أصدق أنك تحدثت أخيراً...

ثم أخذت دموعها تنهمر أكثر وتابعت:

- أرجوك!

- أ.. آر...

- قل يا (كازان)، أنا أسمعك.

- أريد أن أنتهي من هذا.

- وأنا مثلك.

حاول (كازان) جاهداً أن يتنفس بعمق، لكن من الواضح أن الحزن قد أنهكه، ورغم هذا قال:

- أريد الملك.

- ماذا؟!.. الملك؟!

- أريده أن يأتي ومعه الكتبة كي أنتهي من هذا الكتاب الـ...

سعل (كازان)، فقالت (راسيا) وهي تقوم:

- حسناً، فلتسترح أنت وسأذهب لمناداتهم.

- لا.

قالها (كازان) بقوة، فتعجبت من هذا رغم الضعف الذي حل به، وسألته متعجبة:

- ماذا!

- فلترسلي إحدى الخادمات لتقوم بهذا.

رغم تعجب (راسيا) من أن حب زوجها بلغ أن يغار عليها أو يحرص على راحتها أو حتى وجودها بجوراه وهو بقمة حزنه وضعفه، لكن قلبها سعد بهذا، فابتسمت وأجابته:

- حسناً يا عزيزي.

أراح (كازان) رأسه وترك (راسيا) تنادي إحدى الخادمات لتبلغها

بالأمر، ولم تمر ساعة حتى كان الملك ومستشاره وعدد قليل من كبار صفوة الملك وكذلك الكتبة موجودون في الحجرة.

بعد اطمئنان الملك على (كازان) قال:

- أرجو أن تكون مستريحاً لهذا الخيار يا بني.

أجابه (كازان) في لهجة حازمة رغم الإنهاك الواضح فيها:

- أريد أن أنتهي من هذا الكتاب.

- أتمنى ألا يزيدك هذا غماً.

- إنه يزيدني بالفعل، فما سيأتي هو أكبر.. وما خفيّ كان أعظم.

تساءل الملك متعجباً:

- ما خفيّ؟!.. لقد اتفقنا ألا تخفي شيئاً.

- نعم يا سيدي، لكن ما خفيّ عنكم هو تجربة هذا، إن كلماتي هذه تظل كلمات، وسطوركم تلك تظل سطوراً لا تحمل أي شعور مثلما حملت أنا.

اطمئن الملك لهذا الجواب، ثم استراح على كرسيه وقال (لكازان):

- هل أنت مستعد يا بني؟

***

وقفت أمام عمي جامداً للحظات طويلة محاولاً استيعاب ما قاله، بينما ينظر إليّ بكل القلق من ردة فعلي، يكاد أن يرد بشيء لكنه يتلعثم فيعود مجدداً إلى الصمت، هكذا وعدة مرات حتى نطقت أخيراً:

- مات أبي!

حاول عمي أن يرد، لكن خشيته من ردة فعلي أوقفته مجدداً، فقلت:

- مات ولم أره إلا ليوم.. بل أقل منذ أن دخلت المعسكر!

نطق العم في كلمات مرتجفة مرتعباً:

- لـ.. لقد أرسل رسالة.

حاول عمي أن يرفع يده القابضة على الرسالة في تردد، وما أن انتبهت إليها حتى اختطفتها في عنف وقبضتها في شدة، فلقد كانت شيء لمسه أبي بيده، ثم فتحتها في بطء مليء بالمهابة وكأني أكون تدريجياً في حضرة أبي، ويغزوني في نفس الوقت التردد من تلقي ما بها، لكني فتحتها وبدأت عيني بقراءتها:

- (كازارشان).. بنيّ.. يا أحب ابن لي.. إني أكتب هذه الرسالة لك وحدك، ولابد أنك تقرأها الآن وقد همد جسدي وفارقت روحي عالمكم، أشعر بأن موتي قد اقترب ولعله يكون رفيقاً بي، فلم أحد أحتمل هذه الحياة وما تجلبه عليّ من آلام، لقد فقدت كل أبنائي عدا ثلاثة، فقدتهم من أجل حاكم بغيض ظالم، مهما أكرمني وأغرقني بالهدايا والأموال، إلا أنه قد سلبني إياكم يا (كازان).

لهذا لم أطق العمل لديه وتركت الديوان منذ سنتين بقرار أراح بعض ضميري تجاه نفسي بعد أن تلقيت أخبار مقتل أشقائك، فبرغم صعوبة ما اضطررنا إليه لكني كنت أنتظر عودة كل واحد منكم يوماً دون نقصان، كنت أظن أن المعسكر فترة وستنتهي بعودتكم، لا أن ينتهي أشقائك ويبقى المعسكر، كنت أظن أن الهدايا محاولة لزيادة صبري بما أسمعه عن إنجازاتكم، ومحاولة لاحتواء شوقي إليكم.

كنت أستنكر أخبار مقتل أبناء الجيران وأعيد على نفسي أن أبنائي أفضل وأقوى ولا شك من عودتهم، لكني لم أرتح بعدها أبداً تجاهكم يا بني، وظللت أحاول الاطمئنان على أخباركم من خلال صديق لي يعمل بالديوان.

لقد أرسلت والدتك وشقيقاتك في قافلة إلى المملكة الشمالية، وأرسلت معهم ما يكفيهن للسكن والعيش هناك بكرامة، وهن الآن تحت حكم الملك العادل (جاسيرشونايير) وأنا مطمئن عليهن، لكني لست مطمئناً عليك يا (كازان).

أعلم أني لم أرك إلا لقليل منذ أن كنت صغيراً يا بني، كنت آمل أن أراك كل يوم وأسعد بوجودك أمامي وحولي، لكن المعسكر انتزعك مني حتى بعد عودتك ورؤياك، ولكنه لم ينتزع مني حبي لك وتعلقي بك بعكس آباء آخرين.

بنيّ.. لا يوجد لديّ ما يمكن أن أكتبه هنا إلا أن أعبر عن حبي لك، والآن بينما تقرأ الرسالة وقد همد قلبي.. لكن اعلم أنك تسكنه، وأحملك داخل روحي إلى ما أنا ذاهب إليه، بالرغم من أني حزين على ما أصبحت عليه يا بني، أرجوك.. كلي أمل.. إن كنت ما زلت تملك بعض المحبة لأبيك فلتكن كما تمنيتك وأسميتك به، لا تخسر نفسك يا (كازان) فأخسرك.

لا تخسر نفسك يا (كازان) فأخسرك.

لا تخسر نفسك يا (كازان) فأخسرك.

" أبي! "

لم أتمالك نفسي بعد هذا الخطاب وصرخت بهذه الكلمة، خاصة بعد هذه الجملة الأخيرة التي قالها لي سابقاً في الكابوس، أخذ صدري يهتز في عنف

ثم قلت:

- لقد تغيرت يا أبي.. لقد تغيرت يا أبي.

ثم انهارت ركبتاي وسقطت على الأرض، ثم تابعت:

- تعال لتراني الآن يا أبي.. لقد تغيرت.. أقسم لك أني قد تغيرت.

أخذت أرددها كأني فقدت عقلي، لقد مات أبي حزيناً عليّ دون أن يعلم أني قد تغيرت.. وأني قد أحببت.. وأني سأتزوج.. وأني فكرت في ترك المعسكر، لعل أبي كان سيموت سعيداً إن علم ما حل بي، لكنه قد مات.. مات الذي كان يحميني وأنا طفل صغير قبل أن أدخل المعسكر، مات الذي كانت طيبته تكاد تحل محل قلبي من كثرة امتلاؤه بها، وكانت صرامته تزيد مهابته في كياني، وكانت حكمته ونصائحه كلمات مقدسة بالنسبة لي، مات الشخص الذي لم يستطع المعسكر أن يقسي قلبي عليه.. مات...

" لقد ماااات "

صرخت بها وأنا أرفع رأسي للسماء، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، حدث ما كنت أظنه درباً من الخيال، لقد غطت عينيّ حتى لم أعد أرى بوضوح، ثم جرت على خدي بسرعة وسقطت في الرمال...

إنها دمعة...

وها هي قد تبعتها أخرى.. ثم...

بكيت...

أخذت أبكي كطفل يبلغ من العمر ثمانية سنوات، طفل لم يأته الجنود بعد كي يأخذوه إلى المعسكر، طفل كان يبكي وهو جالس أمام أبيه وهو ينصحه

ثم يقوم فيقبل يده، طفل كان يبكي بجانب رأس أبيه وهو راقد على الفراش عندما أصابته الحمى من قبل، طفل كان يخشى الدنيا بأكملها لأن أباه سافر بعيداً لأيام ولم يحتمل فراقه.

لقد مات الابن بينما الأب حي، ومات الأب عندما حيا الأبن...

" آآآه يا أبي "

قلتها بينما أبكي وأنا أخبط الأرض بقوة، وكان عمي و(راسيا) التي خرجت لتقف بجواره ينظران إليّ وكأنهما ينظران إلى شخص آخر، كانا يخافان أن يقتربا مني، وتركاني أعبر عما بداخلي من آلام تتفجر للمرة الأولى، وظللت هكذا ولا أعرف بالضبط كم ظللت هكذا، لكنني قمت بعد أن هدأ صراخي واستدرت نازلاً الربوة، فأخذ عمي يناديني هو و(راسيا) لكنني لم أجبهم بشيء، وأكملت سيري.. حتى الصحراء.

عندما توغلت كثيراً في الصحراء وجدت صخرة مرتفعة عن الرمال، فذهبت إليها وجلست فوقها أفكر.. أفكر في أمر لم أكن أنتظره ولا أتوقعه، لقد مات أبي.. مات من قبل أن يسعد بي وبحالي الذي تغير، كنت أريد أن أخبره على الأقل أني بدأت أعيش كمثلما أراد، فلم أعمل عقلي فقط كما نصحني، لكن قلبي أيضاً قد نبض.. وليس بمشاعر رحمة ولا شفقة، بل نبض بأكبر شيء تنبض له القلوب.. الحب، كنت أريده أن يعلم أني نويت وأملت في استخدام جنديتي لحماية الواحة لا في الحرب، لكنه قد مات.

" آآآآآه "

صحت بها في صوت عال، حاولت أن أخرج بها ما أشعر من ألم.. لكنني لم أفلح، لقد ظل الألم بالداخل يتعاظم.. حتى ليجعلني اتساءل بغضب،

أتسخر مني الدنيا؟ أيسخر مني هذا العالم؟ لِمَ انتظرت هذه الأحداث أن أغادر المعسكر حتى تنهال عليّ بلا انتظار؟ لِمَ انتظرت حتى لان قلبي واستيقظ شعوري حتى تأتي وتطعنني بكل هذا وكأنها تنتقم مني؟ ماذا فعلت؟!.. لعلي إن ظللت بالمعسكر وسط ضجيج المصارعات وصياح التدريبات وظلام الاختبارات لكنت تقبلت هذا الأمر بشكل أبسط بكثير عن الآن، مثلما تقبلت أنباء مقتل أشقائي من قبل!

أو.. ربما بشكل مختلف عن مقتل أشقائي، فلقد رحل أكثر الناس محبة عندي وتأثيراً فيّ منذ صغري، فرغم قوتي وقسوتي التي كانت بي.. إلا إني كنت أحبه وأهابه.

ما زال الألم يتزايد.. كنت أريد أن أصرخ أعلى وأعلى، لكن ما الفائدة؟.. نعم.. لا فائدة، فأخذت أحاول أن أعيد التفكير، لكن يبدو أن تفكيري قد توقف عند أنه لا فائدة، فضاق صدري وثقل تنفسي، فقمت واقفاً وصحت بغضب:

– يا ليت قلبي لم يلن.. اللعنة على الشعور.. اللعنة على القلوب.. اللعنة على كل...

كدت أن أكمل جملتي إلا أني قد سمعت صوت زمجرة خلفي، فاستدرت في حدة وإذ بوحش من وحوش الصحراء يحدق فيّ بينما يكشر عن أنيابه، ويبدو أن صياحي قد استقدمه إلى هنا، وأنا غير حامل لأي سلاح، فعقدت حاجبيّ في غضب قائلاً:

– هذا بالضبط ما كان ينقصني!

زمجر الوحش مرة أخرى، فصرخت في غضب:

- اخرس أيها المزعج.

ظل الوحش يزمجر وهو ينظر إليّ مترقباً، ويبدو أنه سيفقد صبره قريباً ويهاجمني، فقلت في حدة:

- يبدو أني قد ألحق بك يا أبي!

قلتها ثم كشرت عن أنيابي وصرخت في الوحش، فصرخ هو الآخر وتقدم نحوي بحذر، فصحت فيه:

- تقدم أيها الجبان.. أريدك أن تقتلني كما يستحق أن يُقتل محارب مثلي.

وقف الوحش ينظر إليّ في ترقب وغضب، فضاق صدري ونفذ صبري فجريت إليه ولكمته في رأسه بينما أصيح:

- اقتلني أيها الضعيف.

زمجر الوحش وهجم عليّ فطرحني أرضاً، لكني قبضت على عنقه كي أبعد أنيابه عني، فقام الوحش من فوقي كي يفلت من هذا الاختناق، لكني لم أمهله حيث نهضت واقفاً في سرعة هاجماً عليه وأنا أقول:

- هيا أيها الضعيف.

ثم جريت إليه وركلته في صدره، فزمجر وجرى إليّ وقفز مهاجماً صدري، لكني ملت للخلف واستقبلته بيديّ وقدميّ ثم ألقيته في الهواء خلفي، حتى سقطت على ظهري، لكني قمت واستدرت إليه بسرعة وأنا أقول لاهثاً:

- ألست قادراً على قتل من هو أعزل من السلاح؟

عاد الوحش يزمجر ثم استدار وبدأ يركض هارباً مني، فجريت وراءه بسرعة حتى اقتربت منه وقفزت على ظهره قابضاً على رقبته في اصرار

بساعديّ، ثم لويتها بحدة فمال الوحش على جانبه بينما يركض حتى وقع عليّ، فدفعته عني وقمت إليه صارخاً:

- أقتلني.. أقتلني أيها الجبان.

نهض الوحش واتجه ناحيتي، فجريت إليه ثم قفزت ولكمته بكلتا قبضتيّ فوق رأسه، ثم هبطت على الأرض خلفه، فجرى الوحش هارباً من جديد، لكني عدت أجري وراءه، كنت أريد إما أن يقتلني كما يستحق محارب هزم الكثير مثلي أن يُقتل، دون خضوع ولا استسلام، وإما أن أفرغ فيه ما أشعر من ألم وغضب، كأن تلك الأحداث قد تجسدت أمامي فيه وأريد أن أنتقم منها.

وبرغم أنها أول تجربة لي أن أقاتل وحشاً دون سلاح، إلا أني لم أخشاه خاصة وأنا بتلك الحالة، وظللت أجري ورائه حتى قبضت على ذيله وشددته منه كي يقف، فزمجر في ألم، واستدار لي وأعينه يتضح منهما كم الشراسة التي سيواجهني بها رداً على استفزازي، فزمجر عالياً وتقدم إليّ في سرعة وطرحني أرضاً، ثم حاول أن ينهشني بأنيابه لكني أخذت ألكم رأسه بكلتا يديّ، بينما يهز رأسه محاولاً تفادي ذراعيّ كي يطولني، فمسكت رأسه محاولاً ابعادها عني بأنيابها ولعابها الذي يتساقط، لكنه كان يحاول الفتك بي بإصرار، وكأنه أيقن أخيراً أنه لن يفلت من استفزازي إلا بقتلي.

وعندما اقتربت أنيابه من وجهي حركت إحدى يديّ في سرعة على وجهه فضغطت على عينه حتى فقأتها.. فزمجر الوحش في ألم، فاستغليت الفرصة وتمسكت برأسه أكثر حتى فقأت عينه الأخرى، ثم تدحرجت من تحته بسرعة ووقفت أنظر إليه بينما أقول في نفاذ صبر:

- يبدو أنك لن تستطيع قتلي.

أخذ الوِحش يصيح بصوت لم أسمعه من قبل، كان يشبه صوت العواء ولا أعلم لم؟.. هل يصرخ من الألم؟.. إني آلمته عدة مرات خلال معركتي معه!.. لكني لم أطل التفكير في هذه النقطة، فتقدمت إليه وبكل ما تحملٍ قبضتيّ من قوة ضربته على رأسه، فخر على الأرض، ثم اقتربت جالساً بجواره واضعاً رأسه بين ساقي وقمت بلويّها بعنف فقتلته.

أخذت أنظر إلى جثته بينما ألهث متمنياً لو كان استطاع قتلي، لكني فضلت أن أموت كمحارب لا مستسلم، وشعرت بقليل من الشفقة عليه، لكن لم تمر لحظات بعدها حتى سمعت خطوات ثقيلة من خلفي تجري ناحيتي، ولم أكد التفت حتى وجدت نفسي أطير عن الأرض بسبب دفعة قوية وسقطت على جنبي بعنف.. كان وحش آخر.. ويبدو أن عواء هذا الميت كان نداءً للآخرين، ولم أكد أعتدل حتى أقوم من سقطتي وأنظر إليه، حتى رأيته يجري إليّ دون انتظار كي يفتك بي.

***

أخذ (كازان) يسعل، فتقدم إليه أحد الأطباء وسقاه مشروباً، ثم أخذ يمسح على صدره بشيء دهني أخضر حتى بدأ يهدأ، ثم قال:

- هذا المشروب والدهان من نبتة خاصة، سيسكن السعال وآلام صدرك، وستشعر بشيء من الاسترخاء بعد قليل.

أومأ له (كازان)، فأكمل الطبيب دهان صدره بهذا الزيت، بينما زوجته تتأمل هذا والملك وبقية الحضور، حتى انتهى الطبيب وذهب إلى مكان جلوسه، فشكره الملك والتفت (لكازان) قائلاً:

- يبدو من كلامك أن هذا الوحش كان أكثر قوة وغضباً.

- نعم أيها الملك.. لكني تغلبت عليه.

- أيضاً؟!

ابتسم (كازان) بصعوبة في سخرية، وقال:

- بالطبع، وإلا فكيف أجلس بينكم الآن!

ابتسم الملك بدوره وأجاب:

- أنت محق، لكني تعجبت من تغلبك عليه لا من نجاتك منه، فأنت يمكن أن تنجو إن تدخل أحدهم لإنقاذك، أو أنه قد هرب منك أو انسحبت أنت لسبب ما، أو أي ظرف أخر، ولكن أن تتغلب عليه أيضاً؟!.. هذا ما تعجبت منه.

أومأ (كازان) برأسه، ثم قال:

- لقد تغلبت عليه.. وآخر عند الغروب، وعدت إلى بيتي منهكاً في المساء.

- ألم تذهب لبيت عمك كي يخفف عنك؟!

- لا، بكل أسف.. فبعد أن تغلبت على هذه الوحوش تغيرت أشياء داخلي.

- أذكرها لنا إذاً.

- حسناً يا سيدي.. حسناً.

***

بعدما انتهيت من قتل الأخير، أخذت أنظر إلى جثث الوحوش التي

تغلبت عليها دون سلاح وبيديّ العاريتين، لم أجد أن غضبي قد هدأ، كنت أريد أن أقاتل المزيد حتى يقتلني أحدهم أو يقتلني الإنهاك، لكن بعد انتظار طويل لم يأت أي وحش آخر، طفت بالصحراء صائحاً لعل أحدهم يتعرض لي.. لكن لم يحدث، فبدأت أقطع الصحراء عائداً إلى داري.

قطعت الطريق حتى شارعي أفكر في موت أبي، وفي حبي (لراسيا)، ولا أعلم ما الذي يتوجب عليّ فعله بعد الذي حدث، لكن غضبي الذي لم يهدأ وتذكري لقتلي هؤلاء الوحوش دون أي سلاح جعلني أقول لنفسي:

- إن المعسكر أولى بي.

نعم.. أحسست وقتئذ أن المعسكر هو المكان الأنسب، فالشعور كإنسان يؤلم كثيراً عند كل فاجعة، وأن أبي الذي كنت أريد أن أسعده بتغيري قد مات، مات ولن يعيده أي شيء إلى الحياة، فلا فائدة بعد الآن لتغيري، ولا أمل من تقبلي لأي ألم آخر قد تجلبه لي الأيام، كأنها تحاول أن تطردني من تأقلمي على أي عالم آخر غير المعسكر، فلأقطع إجازتي وأعود إليه وأخوض هذه الحرب، سأفرغ غضبي من كل شيء في أي شيء.

عندما اقتربت من داري وجدت عمي و(راسيا) يجلسان أمام الباب، وعندما رأوني وقفوا وتقدموا نحوي، قال عمي:

- حمداً للرب على عودتك يا بني، لقد قلقت كثيراً عليك، ورجحت أنك ستعود غالباً إلى دارك.

نظرت إلى عمي بنظرات جامدة، ثم سألته:

- هل كان أبي مريضاً؟

ضم العم شفتيه وهو يومئ برأسه بالإيجاب، فزفرت تهكماً على نفسي

وقلت:

- يا لحماقتي!.. وأنا الذي ظننت أن أبي يمسك بصدره تأثراً بحزنه عليّ عندما غادرني...

نكس العم رأسه في الأرض، فتابعت بعد لحظات:

- لقد قتلته بحزنه عليّ.

رفع العم رأسه إليّ قائلاً:

- لا تقل هذا يا (كازان).. أبداً.. إن مرض أبيك منذ سنوات طويلة، نتيجة الأخبار التي تصله عنكم، وقلقه المتزايد تجاهكم، وشعوره بالعجز عن أن يفعل أي شيء لإنهاء معاناتكم هذه، كل شيء هو السبب إلا أنت.. لا تكرر هذا أبداً ولو بينك وبين نفسك.

لم أجب، فقال عمي بقلق:

- (كازان)!.. بنيّ!.. أرجوك، أعلم أن الصدمة شديدة عليك، لكن اعلم إن والدك كان سيسعد إن رآك على حالك الجديد.

عقدت حاجبي في غضب ثم قلت محاولاً اخفاء انهاكي الشديد:

- لا تذكر موت أبي.. فلتدعوني وشأني.

شهقت (راسيا) ثم قالت:

- (كازان)، فلتعد معنا إلى البيت أرجوك.

صحت فيها:

- لا.. قلت لكم دعوني وشأني.

- لن نتركك وحدك يا (كازان).

نظرت إليها في غضب ثم قلت كأني أزمجر:

- لن أصبح وحيداً، سأعود إلى المعسكر.

صرخت (راسيا) في جزع، فتقدمت إليّ في سرعة وأمسكت بيدي قابضة عليها في رجاء وهي تقول:

- أرجوك يا (كازان)، لا تعد.

- سوف أعد.

- أنا أحبك يا (كازان).

هزتني كلمتها، وكاد قلبي أن ينبض مجدداً، لكني أسكته بصيحة:

- إن المعسكر هو مكاني.

صمتت (راسيا)، وأخذت عيناها تنظر إليّ برجاء وهي تدمع بغزارة، فقال عمي:

- سوف تحطم قلبها يا بنيّ.

قلوب! قلوب! قلوب!.. تضاربت الأفكار والقرارات في رأسي، وبدأ قلبي ينبض.. وكادت ملامحي أن تلين، لولا أن أمسكت رأسي بكلتا يدي كي أمنعها من التفكير، ثم صرخت:

- انصرفوا من هنا.

انفجرت (راسيا) في البكاء.. واشتد بكاؤها، فتقدم لها عمي ضاماً إياها، وأخذ يمسح على رأسها في عطف وهو ينظر إليّ تارة.. وينظر في الأرض تارة

أخرى، فتركتهما كما هما وفتحت باب داري، وصعدت إلى حجرتي فألقيت بملابسي الجديدة عني وارتديت ملابس المعسكر، ثم علقت سيفي وسوطي وخنجري، ونزلت إلى الشارع، فوجدت عمي و(راسيا) يبتعدان عن داري في طريقهما إلى دارهما، أخذت أنظر إليهما في ملامح ذائبة لم يطف عليها أي شعور، ثم التفتُّ إلى باب الدار للحظات كأني أنتظر منه رأياً فيما يحدث.. ثم تنهدت وذهبت إليه ببطء وأغلقته، وتوجهت إلى الصحراء تحت نور القمر.. عائداً إلى المعسكر.

الفصل الثالث عشر

عندما لاح المعسكر من بعيد توقفت عن سيري قليلاً كي ألتقط أنفاسي، خاصة وأنا أجر ورائي أربعة رؤوس لوحوش من وحوش الصحراء، قد تعرضوا لي على مسافات مختلفة فقضيت عليهم بسيفي هذه المرة، وبعد أن التقطت أنفاسي تابعت المسير، لكن عندما اقتربت من المعسكر إذ بصوت ارتفع من بعيد:

- (كازان)!

التفتُّ إلى مصدر الصوت، فوجدته أخي (كاسارشان) يجري نحوي من تلة بعيدة بعض الشيء، فأخذت أنظر إليه في انتظار أن يصل إليّ، وما أن وصل حتى قال لي في لهجة لم أتوقعها:

- لِمَ أتيت؟

كان يظهر في صوته الكثير من الغضب، فلقد توقِعت إما أن يكون قد سعد بعودتي المبكرة أو أنه قد تفاجأ، لكن لم أدرِ لِمَ الغضب!.. فأجبته في صرامة:

- أتيت إلى معسكري، مكاني الحقيقي.

- عد من حيث أتيت.

نظرت له في استنكار، فقال في صوت هادر:

- قلت لك عد من حيث أتيت يا (كازارشان).

- لماذا؟!

- لا أريدك أن تعود للمعسكر، وسأحاول التصرف كي يُعفى عنك من الجندية.

عقدت حاجبيّ في قوة، ثم قلت بتهكم:

- لابد أنك تمزح!

- أنا لا أمزح، ألا يكفي ما حدث لوالدنا؟

- أعلم ما حدث له، ولهذا لم أعد أفضّل الحياة.

زفر أخي في قوة وصمت، ثم لانت لهجته قليلاً وهو يقول:

- لابد أن تهتم بنفسك وحياتك يا (كازان)، من أجل أبيك.

- لقد مات أبي من قبل أن يعلم أني قد حققت أمنيته.

- أمنيته؟!

قالها أخي في عجب، فزفرت وقلت:

- نعم.. لقد لان هذا القلب الأحمق وأحببت وكنت على وشك الزواج.

رغم صدمة أخي إلا أن شبح ابتسامة ظهر على ثغره وهو يقول:

- حقاً؟!

- نعم، لكن هذا أصبح ماضياً.

اقترب مني أخي ووضع يده على كتفي قائلاً:

- لا يا (كازان)، عد واستعد حياتك.

- والمعسكر؟

صرخ أخي:

- اللعنة على المعسكر، قلت لك اذهب.

- لا.

- ماذا؟!

- قلت لا.

قبض أخي على كتفي بكلتا قبضتيه في قوة وهو يصرخ فيّ:

- قلت لك عد أيها الأحمق، أنت لا تعلم قدر ما قمت به، لو علموا بعودتك لن يتركوك وشأنك، خاصة وأن أنباء قتلك لعصابة (رافعو الرؤوس) وحدك وصلت إلى العاصمة وانتشرت بين الناس، حتى وصلتنا هنا نحن الذين حاولنا التكتم على أخبار تلك العصابة عن باق الناس، ولم تقف الأخبار عند هذا الحد بل وصلت حتى إلى المملكة الشمالية، ويبدو أنك لم تكتف بهذا أيها الأحمق.. بل تأتي اليوم إلى المعسكر وأنت تجر رؤوس وحوش للصحراء قد قتلتها وحدك!

أصابتني دهشة حقيقية من هذه الأخبار، لكني لويت شفتي في لا مبالاة وقلت:

- لا يهمني.

كشر أخي عن أنيابه ثم قبض على كتفيّ في قوة أكبر وقال:

- هل تعي ما أقول؟ لن يتركوك وشأنك، إن كونك جندياً قوياً قد لا يمثل مانعاً إن التمست عند القائد أن يعوض مكانك بجنود آخرين أكفاء،

رغم صعوبة هذا حد المستحيل لكني سأحاول، وأنت بما فعلته أثبتّ أنك مقاتل فوق العادة.. إن طالوك فلن يتركوك إلا وأنت في الجيش، ولربما تمثل واجهة ومصدراً للأساطير في تهديد جيوش الشمال.

دفعت يد أخي عن كتفي في حدة، وبدأت أسير ناحية المعسكر وأنا أقول:

- مجدداً، لا يهمني.

" هناك رسالة من أبي "

أوقفتني جملة أخي عن الحركة، فقلت له دون أن أستدير له:

- ماذا قلت؟

- قلت هناك رسالة من أبي.. لقد زرته قبل وفاته بأربعة أيام وعرفت منه أخباراً خطرة.

صمتُّ ولم أرد.. انتظرت أن يكمل أخي، والذي تابع بعد لحظة:

- إن الحرب تنتظرنا بعد أيام.

التفتُّ إلى أخي في حدة، فابتسم في تهكم قائلاً:

- نعم، نعم أيها المتعجرف.. إن الديوان الملكي وصلته رسالة من القائد الأكبر للجيش يُبلغ فيها الملك (كاسارشوناير) بأن الجيش وصل تعداده للعدد المطلوب لبدء الحرب، وهو ثلاثون ألف جندي، لقد جاءت الأخبار أبي من صديق مقرب له بالديوان.

عقدت حاجبيّ وقلت لأخي في صرامة:

- هل أنت جاد؟

– هل أبدو لك كشخص يمزح؟.. لهذا السبب وجدت أن الجيش بما أنه اكتمل عدده لن يضيره أن ينقصه محارب واحد، لهذا حاولت التوسط عند القائد كي يلتمس عند الملك أن يعفو عنك عندما وصلتنا الأخبار بوفاة أبي، لعل سنوات أبي السابقة في خدمة الملك تشفع عنده، لكن بعودتك تلك لن يتركوك أبداً إلا وأنت على الأقل قائداً لكتيبة، وليس مجرد جندي.

وقفت أنظر لأخي بوجه أشبه بقناع خشبي، لكن كانت هناك معارك تدور خلفه، فتابع أخي بشيء من اللين:

– أرجوك يا (كازان)، ما زالت هناك فرصة لعودتك وأن تنعم بحياتك كي تحقق أمنية أبي.

صرخت فيه:

– وما الفارق؟ إنه ميت الآن ولا يعلم بشيء، وقد مات حزيناً أيضاً.

– مات حزيناً علينا جميعاً يا (كازان)، لكن أن ينعم ولو أحدنا فقط بحياته شيء كان ليسعده حتى وإن لم يكن حي بيننا.

– لا.

اتسعت عينا أخي.. ثم ضغط على أسنانه وهو يقول:

– لا ماذا؟

– لن أعود.

اندفع أخي نحوي في قوة ثم دفعني صارخاً:

– هل تريد الهلاك لنفسك أيها الأحمق؟!

دفعت أخي بدوري بقوة وأنا أصيح:

- لا شأن لك بي، لا شأن لأحد بي بعد اليوم.

كاد أخي أن يتقدم نحوي مجدداً، فتوقفت يدي بحدة على مقبض سيفي، وثبت أخي مكانه ونظر إليّ مصدوماً، ثم قال:

- سترفع سيفك عليّ يا (كازان)؟!

- نعم، إياك أن تعترض طريقي.

- أتهدد أخاك؟

- أنا لعين هذا العالم.. لا أخوة لي بعد هذه اللحظة.

صمت أخي من شدة ما صدمته كلماتي، فاستدرت وبدأت أسير مكملاً طريقي إلى المعسكر.

***

دخلت إلى المعسكر وسط ترحيب حار وصيحات هنا وهناك، أخذ الكثير يجري ناحيتي ويحييني ويسألني عن كيفية تخلصي من الوحوش وحدي أو عن كيفية إبادتي لعصابة (رافعو الرؤوس)، لكني لم أجبهم سوى بإماءات وابتسامات بسيطة بينما أكمل طريقي تجاه غرفة قائد المعسكر، وما أن اقتربت حتى جرى إليّ أحد المشرفين وقال لي في ترحاب:

- مرحباً بك بيننا مجدداً يا (كازارشان).

أومأت له برأسي، فقال وهو يضع يده على كتفي:

- القائد طلب رؤيتك على الفور منذ أن علم بدخولك المعسكر أيها البطل.

- حسناً.

قلتها في اقتضاب ثم تركت رؤوس الوحوش التي كنت أجرها وسط الذين تجمعوا حولها متأملين إياها، وصعدت الدرج إلى غرفة القائد في حركات حازمة ومتزنة، ثم وصلت إلى باب الغرفة وطرقته، فقال القائد من الداخل:

- أدخل.

فتحت الباب، ولم أكد أدخل حتى قام القائد من مكانه وهو يقول في سرور:

- مرحباً بالبطل.

ابتسمت له في هدوء، ثم نظرت إلى جندي كان يجلس أمامه في الغرفة، فأومأت له مُحَيياً، فرد عليّ بابتسامة وهو يقول:

- مرحباً بك.

تقدم القائد إليّ وقبض على كتفي هازاً إياه بحماسة وهو يقول:

- لقد وصلتنا أساطير عنك يا (كازارشان)، أهي حقيقية؟

- أعتقد هذا أيها القائد.

اتسعت ابتسامة القائد ثم قال:

- سيكون لك شأن أكبر من أي وقت مضى أيها المحارب.

كان لكلمة "محارب" وقع جميل على أذني، فأومأت برأسي له في حماسة، فزادت حماسته بدوره وهو يشير لي ناحية مكتبه:

- تعال، اجلس يا (كازارشان).

وما أن جلس القائد مكانه، وجلست أنا أمام المكتب وفي مقابلة الجندي الآخر، حتى قال القائد:

- قل لي.. لمَ عدت مبكراً قبل انتهاء إجازتك؟

- لم أر أي فائدة من استكمال إجازتي، كما أني متعجل لخوض تدريبات القوات الخاصة.

ضحك القائد فجأة، وطالت قهقهته للحظات، كما اتسعت ابتسامة الجندي الذي أمامي لضحك القائد، فتساءلت في تعجب:

- ماذا؟

- أبعد كل ما فعلته في إجازتك ترى أنك ما زلت تحتاج لهذه التدريبات؟

- ولمَ لا؟

- لأن ما فعلته يفوق ما قد يتعرض له جندي في هذه التدريبات.

- حقاً؟

- بالطبع أيها البطل، لابد أن معسكر القوات الخاصة يشعر بالحسد منك الآن.

نظرت خلف القائد مفكراً للحظة، ثم عدت أقول له:

- وما دوري الآن؟

- ستذهب مباشرة لمعسكر الجيش، لا معسكرات تدريب بعد الآن، أنت مؤهل حالياً لأن تكون محارب بحق، وسأعطيك شهادة من المعسكر هنا بأنك قد حصلت على الدرجة العليا في التدريبات، أعلى من درجات التدريبات الخاصة، وسيؤهلك هذا لأن يضعوك في رتبة عالية في الجيش قبل

بدء الحرب.

كان ما يقوله يؤكد لي ما قاله (كاسارشان) بأنهم لن يتركوني ما إن طالوني، بل وسيضعوني في رتبة عالية قبل الحرب ويجعلونني واجهة كذلك، فابتسمت للقائد ابتسامة هادئة، ثم قلت:

– حسناً أيها القائد، ومتى سأذهب؟

– بعد قليل.

– بسرعة هكذا؟

أومأ القائد برأسه، ثم قال:

– ولِمَ الانتظار؟.. إنه من حظنا أنك قد أتيت اليوم، وسأكتب لك الشهادة الآن، وستذهب للمعسكر مع صديقك هذا.

كان يقصد الجندي الذي يجلس أمامي، فنظرت إليه ثم قلت:

– أأنهى التدريبات الخاصة هو أيضاً؟

– نعم، وبتفوق كبير كذلك.

أومأت للجندي برأسي في تحية بسيطة، فابتسم وأومأ لي بدوره، فعدت برأسي إلى القائد أتأمله وهو يكتب شهادتي، وانتظرته حتى أنهاها وقام بختمها، ثم ناولني إياها قائلاً:

– أنت منذ اللحظة محارب في جيش المملكة.. ومن الصفوة.

تناولت الشهادة منه في رهبة وقرأت فحواها وأنا أشعر بفخر داخلي، وعندما أنهيتها التفت إلى القائد مبتسماً، وقلت:

- شكراً لك يا سيدي.

أومأ القائد إليّ برأسه، ثم خبط على المكتب بقبضته في سعادة وهو يقول:

- هيا، فلتصحبه معك يا (رازام).

تصلب جسدي لأقل من لحظة بينما أقوم عندما سمعت الاسم الذي نادى به القائد هذا المحارب...

" (رازام)! "

قلتها في دهشة بعد أن تمالكت نفسي، فرفع القائد رأسه إليّ وتساءل:

- هل هناك شيء يا (كازارشان)؟

هززت رأسي نافياً ثم تداركت بسمة بسيطة بينما أجيب:

- لا.. لا أيها القائد.

- حسناً، مسموح لكما بالانصراف.

قمت أنا و(رازام) وأدينا التحية للقائد، ثم انصرفنا من الحجرة إلى الساحة في اتجاه الباب الرئيسي للمعسكر، دون أن أودعِ أياً من أخواي، وعندما خرجنا من الباب أشار (رازام) ناحية الغرب قائلاً:

- المعسكر الكبير في هذا الاتجاه.

أومأت برأسي له وبدأت أسير بجانبه صامتاً، لكني كنت أفكر وأقول في نفسي:

- (رازام)!.. أهو هو شقيق (راسيا)؟.. إن العم (شوهان) قد ذكر لي بأن ابنه (رازام) في تدريبات القوات الخاصة، أيمكن أن أكون أسير بجوار

ابن العم شوهان الآن وشقيق (راسيا)؟.. إن له ملامح شبيهة بملامح العم وغالباً...

" كيف حال أبي؟ "

خرجت من تفكيري إلى هذا السؤال الذي خرج منه، فنظرت إليه مندهشاً وإذ هو يبتسم، فقلت في تلقائية:

- بخير.

- وكيف حال (راسيا)؟

صمتُّ قليلاً وأنا أحاول أن أفهم المغزى من أسئلته، ثم قلت:

- أنت (رازام)!

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- نعم يا (كازان).

- وكيف تعرفني؟

- لقد أخبرني أبي عنك في أخر رسالة أرسلها لي.

- وماذا أخبرك بالضبط؟

- كل شيء أعتقد.

عقدت حاجبيّ وسألته:

- كل شيء؟

- أعتقد هذا.

لم أدر بأي رد أرد، فنظرت إلى الأفق وأكملنا سيرنا كما نحن، كنت أشعر أنه يريد إطالة الحديث لكنني لم أحب أن أتحدث عن (راسيا)، ولا عن أني كنت على وشك الزواج بها، كانت كل لحظة تمر أشعر أنه يريد السؤال عن شيء ما، وبما أنه من الواضح عازم على الحديث أحببت أن أتحدث في أمر أخر، فسألته:

- إذاً.. أنت محارب في القوات الخاصة!

- نعم، لقد أنهيت تدريباتي مبكراً.

نظرت إليه في وجه صلب:

- واضح أنك قد تفوقت كثيراً.

- أعتقد هذا، لقد أنجزت الكثير في مدة قصيرة، فأنا من أبناء الواحة كما تعلم ولا نبقى كثيراً في المعسكر كمثل أبناء المدن كي تستمر حركات الزراعة والتجارة، إلا أني قد تفوقت على الكثيرين رغم هذا.

أومأت له برأسي ثم عدت بنظري إلى الأفق مغمغماً:

- شيء رائع!

كانت هذه أخر جملة تحدثنا بها، فلقد أملت أني أوصلت إليه في أسلوبي أني لا أريد التحدث إلا عن المعسكر -هذا إن تحدثنا- وبما أنه لا يريد الحديث كثيراً عنه فليصمت، وظللنا صامتان حتى لاح لنا المعسكر الكبير بعد ما يزيد عن ساعة من السير.

كم كان مهيباً!.. لقد لفت نظرينا منذ أن كان بعيداً بتصميمه الذي يوحي بقوة غرضه وقوة من به، فمئات الخيام السوداء مخروطية الشكل منصوبة

على مساحة كبيرة، كانت ألوانها تعطي رسالة قوية بأن هذه ليست خيام لمحاربين عاديين، وكانت هناك آلات عديدة للحرب مثل عربات الخيول والمجانيق وأبراج يخرج منها عشرات الفتحات لرمي الحراب والسهام، كان بالتأكيد منظراً سيخيف ضعاف القلوب، كان مجرد النظر إلى صورة المعسكر يعكس وحشية الحرب التي تنتظرنا، أو بالأصح تنتظر كل من يقف في طريق هذا الجيش.

" هذا شيء مرعب "

لم أحتج لسماع تعليق من (رازام) في هذه اللحظة، لكني أجبته بصلابة:

- رائع.

نظر إليّ (رازام) ووجهه يعكس آثار الرهبة، فوجد وجهي يحمل مشاعر غير العابئ بكل هذا، فتساءل في توتر:

- يبدو أنك لا تهتم بما يعكسه المعسكر من وحشية!

أجبته بنفس الصلابة والبرود:

- نحن لم نتدرب إلا لحرب، وأشعر أني قد خُلقت لهذا.

- خلقت للوحشية؟

- خلقت للجندية والقتال.

زاد توتر (رازام) وهو يسألني:

- أتسمي ما ينتظرنا قتال؟

أجبته ساخراً:

- بالطبع.

- حاول أن تعود لسابق عهدك يا (كازان).. فأبوك...

قطع (رازام) جملته بعد أن استدرت إليه في حدة وقبضت على ملابسه قائلاً في غضب:

- إياك أن تذكر أبي في أي حديث مرة أخرى.

نظر (رازام) في عينيّ وقرأ فيها صدق تهديدي، فأومأ لي برأسه في هدوء ثم دفع قبضتيّ عنه في حزم، كان يبدو رغم لينه في الأسلوب أنه يكمن قوة لا يستخدمها، ورغم علمي أني قد أكون أقوى منه إلا أني احترمت شجاعته هذه واستدرت مكملاً طريقي إلى طرف المعسكر.

عندما وصلنا إلى طرف المعسكر سألنا عن خيمة القائد فأرشدنا أحد الجنود باتجاهها، فأكملنا سيرنا في هذا الاتجاه بينما نعبر بالعديد من الجنود والرتب الأعلى الذي أخذ البعض منهم يتأملنا بلا مبالاة، فقد رأوا هذا المشهد عشرات المرات بالتأكيد، كما عبرنا بالعديد من المحادثات الغاضبة والصيحات والضحكات وبعض المصارعات التي تقام للتسلية، حتى سألنا مجدداً عن خيمة القائد، فأشار جندي إليها، فاتخذنا طريقنا إليها بينما نعد أنفسنا معنوياً للقاء القائد الكبير لكل هذا.

وصلنا إلى خيمته وأخبرنا الحراس عليها بما جئنا به، فدخل أحدهم إلى القائد ليستأذنه، وبعد لحظات خرج إلينا الحارس مشيراً لنا بالدخول، فعبرنا مدخل الخيمة ووقفنا كي نؤدي التحية للقائد في حزم، فأومأ لنا بحركة من اعتاد على هذا وأشار لنا بالاقتراب، فتوجهنا إليه وسلمناه شهادتينا ثم تراجعنا بضع خطوات بينما شرع في قراءتها في اهتمام حقيقي، ثم أبدى

إعجابه بقدراتنا، والتفت إليّ وقال مبتسماً في رصانة:

- يبدو أن آخر ما أمدتنا به معسكرات التدريب قبل الحرب هم خير المحاربين كما أرى.

أومأت في احترام وأجبت:

- هذا شرف لي أيها القائد، أرجو أن أكون عند حسن ظنك بي.

- أثق بهذا يا (كازارشان)، ومن هذه الشهادات والتوصيات التي قرأتها، بالإضافة إلى ما وصلنا من أخبار، وما أراه أمامي من شخصيات محاربة حقيقية، فأنا سأجعل كل منكما قائداً لكتيبة من قوات الهجوم.

صمتنا في احترام للقائد، الذي تابع:

- بعض التعديلات في الرتب والمهمات المرتبطة بها ستتعدل خلال الأيام القليلة المقبلة، وبما أن جميع المحاربين قد تعلموا في معسكرات التدريب الطاعة لأي قائد يتم تعيينه، وعايشتم بأنفسكم الاختبارات التي تتضمن تغير شخص القائد بأسلوب مفاجئ أثناء المعركة لأي سبب كان، خاصة مقتل القائد الأسبق، فإن المحاربين تحت قيادتكم لن يمثل تعيينكم الجديد عليهم أية مشكلة، لكن عليكم بالاختلاط بهم قدر الإمكان كي يتم المزيد من التفاهم بينكم، مما سيفيد التواصل أثناء المعارك، وأهم شيء بالتأكيد.. هو أن ينزرع احترامكم داخلهم.

أومأنا بالطاعة والتفهم للقائد، الذي أبدى تفهمه من المسؤولية الكبيرة الملقاة علينا كقادة جدد، لكنه في ثقة كبيرة بنا كما تقول ملامحه وأفعاله.

أخبرنا كذلك بأن هناك في صباح الغد حديث للجيش بأكمله يجب أن نستعد نفسياً له، لأن الحرب قد يأتي الإعلان ببدئها خلال أيام قليلة،

وبرغم استعدادي لهذا بعد حديث (كاسارشان) إلا أني شعرت بشيء من عدم الراحة، كأن هناك شيئًا بداخلي يناديني، ورغم انخفاض صوته أعلم أنه ينادي، لكني عقدت حاجبيّ وملأت نفسي بالغضب كي لا أهتم، ثم انتبهت للقائد الذي نادى أحد الحراس وطلب منه أن يرشدنا إلى خيمتنا، ويا للحظ!.. سأكون مع (رازام) في خيمة واحدة.

شعرت بالغيظ، لكني رغم هذا فكرت أن هذا خير من أن يكون هناك غريب معي، (فرازام) يعرفني وقد علم للتو حدوده معي، أما الغريب قد يتمادى.. وقد أقتله، وهكذا ذهبنا إلى خيمتنا ودخلناها، فقال (رازام):

- الحرب خلال أيام!.. يا له من حظ!

نظرت إليه في ضيق ثم قلت متهكماً:

- بعد أيام أو أسابيع، إنها ستأتي على كل حال.

- هل تتقبل مسبقاً ما سيقع من أحداث بهذه الحرب؟

- بالتأكيد، أنا مستعد منذ زمن.

سألني في استنكار:

- ألا تتخيل ما يمكن أن يفعله جيش يتكون من ثلاثين ألف وحش كهؤلاء؟

لم أرد، وأخذت أعد فراشي كي أنام، فقال في ضيق:

- فلتتجاهل كلامي كما تريد، لكنك سترى بعينيك بعد أيام.

ابتسمت في تهكم وقلت:

- أنا منتظر.

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

استيقظت فجر اليوم التالي على صوت نفير مزعج، عالي الصوت كأنه الرعد، أيقظ صداه المتردد في فراغ الصحراء المعسكر بأكمله، وسمعت جنوداً ثقيلي الخطى يمرون بين الخيم يضربون الأرض بالعصيّ ويصيحون في النائمين، فجلست في مكاني والتفت إلى (رازام) الذي فتح عينيه وقال بابتسامة:

- صباح الخير يا (كازان).

نظرت إليه في امتعاض، ثم قلت:

- نحن لسنا في دارنا يا هذا، ما صباح الخير تلك؟

زفر (رازام) في مرارة، ثم قام ليعد نفسه، وقمت كذلك كي أعد نفسي لطابور الشروق، أول طابور بالجيش الحقيقي، وهذا اليوم الذي سنعلم فيه كل شيء تقريباً عن الحرب.

***

كان المنظر رهيباً في الطابور، كان الجيش حاضراً ومصطفاً، ثلاثون ألف جندي يحمل كل منهم كامل أسلحته من سيف ورمح، وقوس وسهام على ظهره، وجميعنا نرتدي درع أسود يغطي صدورنا وظهورنا، وخوذ معدنية ذات طلاء براق، لها أشواك حادة على قمتها ومؤخرتها كأنها ظهر قنفذ.

كانت الشمس تظهر في الأفق بينما الجميع يضربون الأرض بقدميهم

كأنهم يسيرون في أماكنهم، ويصدرون أصواتاً حماسية تتبعها صيحات هادرة، كان صداها المتردد في الأنحاء مع اهتزاز الأرض يبعث الرهبة في أنفسنا، فما بال من سنواجههم!

ظللنا هكذا لنصف ساعة حتى تقدم رجل ضخم إلى منتصف الساحة ثم رفع يده، فانطلقت الأبواق تأمر بالسكون، فتوقف الجميع وأخذوا ينظرون إلى هذا الرجل الذي تقدمت من خلفه عجلة حربية تجر منبراً يجلس عليه القائد الكبير للجيش.

عندما وصل إلى منتصف الساحة خيم الصمت أكثر، حتى الطيور اللي تطير فوقنا لم نعد نسمع لها صوتاً، ثم وقف القائد الكبير بهدوء وأخذ يتأمل في الجنود دون أن يدير وجهه كثيراً.

" أيها الجنود... "

صاح بها القائد.. فانتبه الجميع أكثر له، فتابع:

- أيها الجنود.. أنتم انجاز هذه المملكة.. أنتم فخر هذه المملكة.. أنتم من صارعتم الموت وخافتكم الوحوش ويتزلزل لوصفكم أعدائنا رغم المسافات التي تفصلنا.

أيها الجنود.. أنتم من اليوم لن تنظروا خلفكم، لن تنظروا إلى دياركم، بل ستكون أنظاركم وقلوبكم موجهة نحو الأفق، نحو نهاية الأرض التي من حق ملكنا (كاسارشونابر)، الذي أعدكم لتكونوا أفضل محاربين الأرض وأقواهم.

أيها المحاربون.. إن ما أعددناكم سنين من أجله أصبح على بعد ساعات من الآن.

سكت القائد قليلاً ليرى أثر كلامه فيمن ير من جنود، لكن الصفوف لم تضطرب ولم تتحرك، لم يصدر أي صوت، لكن هذا لا يعني الرضا أو السعادة بما قال، فإن تحدثت عن نفسي سأقول أني شعرت برهبة العلم أن الحرب يفصلنا عنها ساعات، لكني في نفس الوقت شعرت بانقباضة في صدري، ولست وحدي.. فأنا أعلم أن العديد من الجنود لا يرضون كثيراً بهذه الحرب.. وأقرب مثال أعرفه هو (رازام)، ولم يستمر تفكيري إلا لثوان وانتبهت للقائد الذي تناول مطوية بجانبه وفردها أمام نظره، ثم عاد يصيح:

- الملك (كاسارشوناير) رأفة بأعدائه أرسل لكل منهم رسالة تحذرهم من جيشه الكبير، ومن عواقب محاربته والوقوف ضد زحف محاربيه الشجعان، لكن جاء رد الجميع على ملكنا بالرفض.

حتى المدن التي كادت أن توافق على طلبنا، أرسل لها الملك الشمالي وعداً بحمايتها فرجعت عن قرارها وأعلنت تصديها التام لجيش ملكنا.. الملك الحقيقي لهذه الأرض، ولهذا...

صمت القائد ولم يكمل.. فانتبه الجميع إليه في توق لباقي حديثه، إن أي حدث بسيط سيؤثر علينا نحن الذين سنخوض كل هذا بحياتنا، حياتنا التي صارعنا الموت كما قال القائد كي ننجو بها وبأنفسنا، وإن لم تكن أنفسنا قد نجت على الأرجح.

لكنه ظل صامتاً.. وطال صمته، وانتبه الجميع أكثر لصمته الطويل حتى أن الرجل الضخم الذي يقف أسفل المنبر رفع رأسه إلى القائد في تعجب، وإذ فجأة صاح القائد:

- ولهذا قد أمر الملك بأننا لا نريد من الحرب استسلام مملكة الشمال.. بل إبادتها.

حاولت أن أتمالك أعصابي، لكني لم أستطع وفتحت فمي كأني سأقول شيئاً لا أعلم لمن، لكني لم أصطد كلمة سليمة من تلك التي افترسها الصراع داخلي، وسقطت فكوك العديد من الجنود بجواري وارتخت أذرع العديد منهم...

" إبادة؟! "

قلتها لنفسي في دهشة واستنكار، كيف يكون لنا أن نبيد آلاف الناس؟ بل عشرات الآلاف وأكثر!

" نعم أيها الجنود "

عدنا بأسماعنا وأبصارنا إلى القائد، لنعلم إن كانت هناك مفاجآت أخرى، حيث تابع قوله:

- نعم.. سنقوم بإبادة القرى والمدن ولن نبقي فيها على شخص، لا رجل.. لا امرأة.. لا كبير.. لا صغير.. لا أحد.

علت بعد الهمهمات في صفوف الجيش لأول مرة منذ بداية الطابور، ثم علت الهمهمة إلى صياح واشتعلت بعض المعارك بالأيدي وسط الصفوف، فصاح القائد:

- أهناك من يريد الخروج عن الأوامر؟

لكن المعارك استمرت، وسمعت بعض الكلمات التي دلت أن هناك من يعترض على الأوامر، وآخرون يرفضون التمرد، كانت كل لحظة تمر تزيد من حدة الكلام والدفعات بالأيدي، فنظرت إلى القائد فوجدت ملامح وجهه الرصينة أخذت تهتز من الغضب رغم المسافة بيننا، فصرخ فجأة:

- فلتقتلوا من يتطاول على الأوامر.. وكل من يجادل فيها فلتأتوني برأسه.

ارتفعت السيوف بانتهاء جملته، وما هي إلا لحظات وصمت الجيش مع هبوطها، ورفع بعض الجنود رؤوس من تمردوا على الأوامر، ورغم مفاجأتي مما سمعت من القائد إلا أني أعجبت بأمره هذا، فإنه يعلم أننا في الجيش لا نأتمن كثيراً بعضنا البعض، فلقد واجهنا بعضنا في صراعات حياة أو موت للنجاح في التدريبات، كما لا يعلم منا عن الآخر شيئاً، وإن علم فإنه لن يهتم، وسيخشى أي شخص بعد الآن أن يُظهر تمرده.. فهو لا يعلم عدد الذين لن يتأخروا في فصل رأسه عن جسده لأجل هذا.

" انتبهوا لي "

عاد الجميع منتبهين للقائد، الذي صمت للحظات أخرى ثم تابع مجدداً:

- نحن نعد لعالم جديد.. لأرض جديدة.. أرض قوية.. لن يأمن الملك بأن يكون في أرضه من أصروا على الخروج عن طاعته بعد كل مجهوداته تلك، وطموحاته العظيمة من أجل رعاياه، وبما أنكم ستصبحون بعد مدة ليست بطويلة حراس هذه الأرض، فلن يكون تحت سلطة ملكنا (كاسارشوناير) إلا رعاياه الذين أخلصوا له، وطمحوا معه لعالم أكبر وأقوى، وأكثر رخاءً.. لن تكون سلطة على هذه الأرض إلا لأبناء وجنود المملكة الجنوبية، لن يكون على هذه الأرض قلب ينبض بتمرد على ملكنا (كاسارشوناير).. لن يكون.

صاح الكثير من الجنود تأييداً لقول القائد، فعاد يتابع بحماسة:

- الحرب.. سيكون لكل منكم شرف المشاركة في هذه الحرب، وبعد انتصارنا الذي سيقوده طموحنا به سيصبح لكل منكم منزله وزوجته وأبنائه الذين ستفخرون أمامهم بأنكم قد شاركتم في تحقيق كل هذا، وسيفخر

الملك بكم أكثر مما سيفخر أبنائكم بكم.

عاد الجنود يصيحون مرة أخرى، وضرب العديد من الجنود برماحهم الأرض في حماسة، وظلوا يصيحون حتى رفع القائد يده يطالبهم بالصمت، وقال:

- ساعات.. ساعات أيها الجنود تفصلكم عن بداية الحرب التي انتظرناها لعقود، وسنبدأ الزحف بعد أربعة أيام، فاستعدوا.. استعدوا.. فلن نسمح لأنفسنا بأن نتأخر خطوة عن زحفنا.. إن انتصارنا ينتظرنا هناك.. خلف الأفق.

صاح الجنود مرة أخرى، وأشار القائد إلى الرجل الضخم إشارة خاصة، فأشار الضخم بدوره لحاملي الأبواق، فانطلقت الأبواق تعلن نهاية الطابور، وتحركت العجلة الحربية التي تحمل المنبر خارجة من الساحة، وبدأ الجنود ينصرفون إلى خيامهم.. بينما ظللت واقفاً مكاني في شرود حتى انفضت الساحة، كان أكثر ما يشغلني ردة فعل بعض الجنود تجاه أمر الملك مهما كان مفاجئاً وصادماً، وشعرت بأن ما حدث قد عزف على وتر خفي في الظلام لم يعلم أحد بوجوده من قبل، وأن المستقبل ربما لن يكون سهلاً وآمناً كما يتوقع الكثيرون هنا أو حتى هناك في العاصمة.. خاصة في القصر.. وبالأخص الملك.

بعد فترة لا أعلم كم استمرت.. هبطت يد فوق كتفي، فالتفت في حدة إلى صاحبها، فوجدته أخي (كابارشان)، الذي سألني:

- لِمَ تقف هكذا؟

- كنت أفكر.

- وفيم تفكر؟

- في الحرب بالطبع.

تأملٍ أخي في ملامحي لعله يستشف ما أشعر، لكني بعد ثوان تحركت منصرفاً وأنا أقول:

- سأذهب الآن.

قبض أخي على يدي قائلاً:

- انتظر.

استدرت إليه متسائلاً بضجر:

- ماذا؟

- ما هذا الذي فعلته مع أخيك؟

- أخي من؟

- لا تدع الغباء، أقصد (كاسارشان).

- دعني، فلا أخوة لي.

قبض أخي على يدي وهو يديرني نحوه، ثم قال في غلظة:

- أنت تعلم أني بعكس (كاسان)، قد أكسر عظامك على جملة كتلك.

- أرني ما لديك.

قبض أخي على عنقي وهو يقول:

- اتق شري يا (كازارشان).

دفعت يده عني وأجبته محتداً:

- دعك مني يا (كابارشان).

وكدت أن أنصرف لولا أن قبض على ذراعي مرة أخرى، وقام بلويها خلفي قائلاً:

- لا تنصرف وأخوك الأكبر يحدثك.

زمجرت في غضب، ثم قلت:

- ماذا تريد؟

- أريدك أن تحترم أخوتك.. أبناء أبيك.

- لا تذكر أبي.

ترك أخي ذراعي ثم دفعني بقوة قائلاً:

- أتظن أن ما تفعله كان سيرضي أبانا أيها الغبي؟

- سأفعل كل ما سيرضي أبي.

ارتفع حاجبه، وسألني مستنكراً:

- حقا؟!

- نعم، سأهزم كل ما يقف أمامي في الحرب.

ارتفع حاجبا أخي أكثر، ثم عقد ما بينهما وقال:

- أنت أحمق.

عقدت حاجبيّ بدوري ناظراً إليه بغضب، ثم استدرت وتوجهت نحو

خيام المعسكر، فصاح أخي من خلفي:

- أفعل ما بدا لك يا (كازارشان)، ولكن اعلم أنك لن ترضي أبي أبداً.

اهتز جسدي لكلام أخي، فتوقفت في مكاني، فصاح أخي في صوت أعلى وأكثر غضباً:

- أبداً.

نفضت رأسي في قوة، ثم كشرت عن أنيابي وأكملت طريقي إلى خيمتي.

***

دفعت باب الخيمة في حدة، فاهتز (رازام) من المفاجأة، وسألني في قلق:

- ماذا بك؟

ألقيت بأسلحتي وخوذتي، ونزعت القوسٍ والسهم عن ظهري وألقيتهم عليهم، والتفت (لرازام) ملوحاً بغضب قائلاً:

- لا تتحدث معي عما بي.

أومأ (رازام) متفهماً، ثم قال بعد لحظات:

- بما أنك تحب الحديث عن الحرب، ما رأيك في خطبة القائد؟

لا أعلم.. هل ثرثرة (رازام) هذه من طبيعته؟.. أم هو أسلوب خاص معي كي يصل بي إلى غرض ما؟.. لكن رغم غضبي من ثرثرته إلا أني أحسست أن التحدث أفضل من أن أكبت غضبي من حديث أخي، فألقيت نفسي جالساً فوق فراشي ونظرت إلى إليه مجيباً:

- لم أكن أتوقعه.

هز كتفيه وهو يقول:

– ولا أنا أيضاً.. إبادة؟!.. إن هذه الحرب تثبت لي كل مرة أنها لعنة أكثر من أي وقت مضى.

– لا أعلم.

التفت (رازام) إليّ في حدة، ثم صاح:

– لا تعلم؟!

صمت ولم أجبه، فصاح مرة أخرى:

– لا تعلم ماذا يا (كازارشان)؟

تنهدت في نفاذ صبر وبصوت مسموع يخبره عن ضيق صدري، فتابع (رازام) غاضباً:

– إن هذه الحرب لعنة، وأنت تعلم أنها لعنة.. وكذلك الجميع...

– لا تقل الجميع...

– بل الجميع، لا تقاطعني.

تأملت وجه (رازام) الذي أجده لأول مرة يعبر عن كل هذا الغضب، حيث تابع:

– لو كان الكل يعلم هذا لما سكت القائد عدة مرات كي يلحظ أثر كلامه على الجنود، هو يعلم أنها مصيبة، وأي ردة فعل غير متوقعة من الجيش تجاه هذه الأوامر قد تحطم مجهود عشرات السنوات في لحظة، لكنه دائماً ما استغل حرص الكثيرين على حياتهم لا أكثر للنجاة من اختبار لآخر، وذلك من أجل هدفه.. ولا يغرنك ما تحدث به عن فخر الملك والأبناء، فأنت نفسك

لن تفخر بما ستفعله.. هذا إن ذهبت إلى الحرب.

– ومن قال أني لن أذهب؟

نظر إليّ بصرامة وهو معقود الحاجبين، ثم قال:

– لن أتفاجأ منك بعد الآن.

اعتدلت في جلستي كي أستريح أكثر وأنا أتمتم:

– هذا جيد.

ضرب (رازام) كفيه ببعضها في يأس، ثم قال:

– لا أعلم من تعاند!.. ولا أعلم ماذا تريد اثباته من كل هذا!

حدقت فيه فاقداً للصبر ولم أرد، فعاد يقول:

– أتظن أنك مقتنع بما قال القائد؟.. إن الملك العظيم الذي يجله الجنود والقادة لن يعبأ بعد الحرب إلا بمن استطاع البقاء على قيد الحياة، إنه لو فكر في تكريم من سيموتون من أجل هذه الحرب لكان افتخر بمن ماتوا في التدريبات، وبالتأكيد قد رأيت ما حل بالأطفال والشباب بسنوات التدريب.. هل رأيت؟.. بالتأكيد قد رأيت.

– ولَمَ تذهب أنت للحرب؟

على غير المتوقع، لانت ملامح (رازام) وأجاب بعد لحظات:

– أعلم أنه لا قرار بأيدينا إلا محاولة النجاة، وأنا لا أريد أن أموت يا (كازان).. من أجل أبي وأختي (راسيا)...

خفقت نبضة داخلي دوناً عن باقي النبضات، وآلمني صدري لسماع اسم

(راسيا)، لكني لم أرد أن أظهر هذا له، فتابع:

– قد تتعجب أو تراه ضعفاً.. لكني أتمنى أن أخرج من هذه الحرب حياً كي أساعد أبي وأكرمه على ما بذله من أجلي، وكي أرى أختي زوجة في ظل رجل قوي.. و...

كنت أعلم سبب هذه السكتة في كلامه، هذا الثرثار يقصدني ويريد أن يحرك قلبي، لكني تحملت واستمعت إلى بقية حديثه:

– أريد كذلك أن أعيش حياتي التي حرمني المعسكر منها، أريد أن أحب وأتزوج وأنجب أبناءً أربيهم على أفضل نشأة وسلوك، فقد تكفر تربيتي الحسنة لهم ما اقترفت خلال كل هذه التدريبات، وما سأضطر إليه إجباراً خلال الحرب حرصاً على حياتي.. إني.. إني أشعر أحياناً وكأني أخوض هذه الحرب دفاعاً عن حياتي حتى ضد الذين سأواجههم.. فأنا لم أختر مكاني هنا بل وضعتني الظروف أمامهم.

نظرت إلى (رازام) نظرة لا تحمل أي معنى، لكن كلماته نفخت بعض الرماد عن جمرات الصراع داخلي، لأن كلامه قد ذكرني بأني كدت أن أكون زوجاً وأباً في جنة بعيدة عن جحيم المعسكر والحرب.

" نم.. نم يا (رازام) وارتح لطابور الظهيرة.. لدينا واجبات تجاه كتائبنا "

قلتها في خفوت، وأنا أؤكد لنفسي بأنه لا رجوع بعد كل هذا، وأن الحرب آتية لا محالة، فزفر (رازام) في يأس وقال:

– اللعنة!

***

قرب منتصف نهار ذلك اليوم انطلق النفير مرة أخرى ليجمعنا إلى الساحة، كان ذلك الجمع من أجل التدريبات الأخيرة لتكوين الصورة النهائية للجيش قبل الزحف، حيث تم التأكيد على تقسيمات الجنود المختارون لقوات المقدمة والقلب ومؤخرة الجيش، وكذلك الجناحان الأيمن والأيسر، وتتمركز أمام قوة المقدمة الكتائب الخاصة للهجوم، وتتمركز خلف المؤخرة قوات الإمداد والخدمات.

اجتمع كل قائد كتيبة وفرقة بجنوده يتعرف إليهم أكثر ويتعرفون على أسلوبه، ثم يؤكد لهم حرصه على حياتهم مع كل قرار يتخذه في المعارك، ويؤكدون له الطاعة، ثم يجتمع قادة الكتائب والفرق مع قادة القوى والأجنحة الرئيسة ويتحدثون عن الرؤية والأسلوب في المعارك وتنفيذها، واستغلال كل القدرات المتاحة للتمكن من النصر، ثم ينتهي هذا بتأكيد من القادة الكبار بالحرص على حياة الجميع أثناء تنفيذ الخطط التي سيتم اتباعها، وتأكيد من جانب القادة الصغار على الطاعة للأوامر مهما كانت.

ظل هذا الأمر حتى قرب منتصف الليل، وحتى اليوم السابق للزحف، واستغليت هذه الأيام القليلة لتأكيد مرتبتي في الجيش كقائد للكتيبة رقم عشرة من الكتائب الخاصة، المتمركزة ضمن كتائب الهجوم أمام قوة المقدمة، وتتمثل مهمة هذه الكتائب بتنفيذ خطط كسر قوة المدن كي تستسلم، أو لتسهيل العقبات أمام الجيش لاقتحام المدن، وقد سعدت بهذه الرتبة الرفيعة والمميزة قبل الحرب، والتي ذكرتني مجدداً بما قاله (كاسارشان) من قبل.

وفي اليوم السابق للزحف تم جمعنا بطابور الغروب، حيث تم تلقيننا جميعاً قسماً عاماً بطاعة أوامر الملك، وأننا لن نرضي لأنفسنا ولا لغيرنا من أفراد الجيش بتراجع ولا خذلان، ثم تبع هذا القسم قسم بطاعة القائد

الكبير، ومن هم أعلى منا رتبة في القوة أو الجناح أو الكتيبة الملحقين بها، ثم تم فض الطابور كي نعود إلى خيامنا كي ننعم بساعات قليلة من الراحة قبل الفجر المنتظر.

***

انطلق نفير المعسكر في الفجر، لكني لم أفزع هذه المرة من نومي.. حيث أني لم أنم، ظللت أفكر طوال الوقت في أمري، واستعدت ذكرياتي كلها حتى تلك اللحظة، فقمت من رقدتي في شيء بين الاحباط واللا مبالاة، والتفت إلى (رازام) الذي استيقظ وكان يمسح على وجهه في قوة كي يستفيق، فقلت له:

- صباح الخير يا (رازام).

فنظر إليّ بإحباط وقال:

- أي خير هذا؟

ابتسمت في سخرية، وقلت:

- أرأيت؟.. هذه التحية لا تليق بالمعسكر.

حك (رازام) رأسه في قوة، قائلاً:

- لم يكن من المناسب أن تصيبني بالغم بعد استيقاظي مباشرة.

أومأت له برأسي وما زالت ابتسامتي الساخرة على وجهي، فقمنا وارتدى كل منا درعه وخوذته، ثم حملنا أسلحتنا وخرجنا من الخيمة حيث نزعناها وطويناها وتركناها مكانها وتوجهنا إلى الساحة الكبيرة، حيث استقبلتنا رياح الفجر الباردة كي تحمل بقايا النوم والتفكير عنا، ثم انطلقنا مع الجنود

الآتين من كل مكان حيث انتظمنا في الصفوف والتقسيمات المخصصة لنا.

وعندما بدأ الجيش يتخذ صورته النهائية من الحشود التي تنضم له، بدأت قوات الإمداد والخدمات في نزع معدات المعسكر المختلفة وحمل الخيام كي تتحرك معنا خلف الجيش، ثم عم الصمت عندما ظهر القائد الكبير يتقدم نحونا يحيطه حراسه والأنظار التي لم تقاوم الالتفات له ومتابعته حتى تمركز بمكانه بقلب الجيش، ثم أشار إلى حاملي الأبواق فانطلقت تسكت الجميع حتى ينتهبوا إلى القائد الذي صاح:

- أسمعوني من أنتم.

فصاح الجميع عالياً صيحة تردد صداها في الصحراء، فعاد القائد يصيح:

- أخبروا الأرض من أنتم.

ضرب جميع الجنود الأرض بأقدامهم أربع مرات.. فاهتزت الأرض تحتنا، فتابع القائد صائحاً:

- اجعلوا الأرض تهتز بأقدامكم واصراركم حتى يأتي الأمر من الملك.

فظللنا جميعاً نضرب الأرض بأقدامنا، ثم نصيح معاً، كان صوتنا الهادر مع اهتزاز الأرض ومنظر المشاعل الكبيرة المنتشرة التي تنير أركان الجيش وسط ظلام الفجر.. كان هذا المنظر في اعتقادي كفيل لأن تعلن أي قوة على هذه الأرض استسلامها لنا في الحال، وكنت أظن أنهم في رحمة إذ لم يروا ذلك المنظر.

مرت لحظات طويلة حتى انطلقت الأبواق، فسكنت حركات الجميع في لحظة بينما يلتقطون أنفاسهم، وبدأنا نرهف السمع للأمر المنتظر من القائد الذي صاح:

- أيها المحاربون...

قالها وصمت، ثم صاح بحماس عالياً:

- لقد أمر الملك (كاسارشوناير) ببدء الزحف.

غزت الرهبة قلوب الجميع، وخفق قلبي.. وأنا متأكد أنه لم يكن الوحيد، كنت أشعر بهذا رغم الظلام الذي حجب عني رؤية آلاف الوجوه، وظللنا صامتين لنسمع باقي حديثه، ولكنه لم يقل بعدها إلا:

- فلنري شعوب هذه الأرض من نحن.. فليتحرك الجيش.

وبالفعل.. بدأ الجيش يتحرك...

وخطوت أول خطوة لي في تلك الحرب...

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

أضاء البرق حجرة العرش، وعلا صوت المطر الغزير خارج القصر، فقال الملك مبتسماً:

- يا له من حظ!.. أعتقد أن هذا الجو قد جاء ليتناسب مع الآتي من ذكرياتك.

وضع (كازان) الكأس على المائدة ومسح جانب شفتيه، ثم رفع رأسه إلى الملك قائلاً:

- إن رهبة هذا الجو ورهبة الشتاء بأكمله لا تساوي شيئاً بجانب ما كنت أشعر به في أول لحظة بالزحف، إنها اللحظة التي أخذونا من آبائنا وحجراتنا الدافئة لأجلها، كنا نتقدم وسط ظلام الفجر وظلام المجهول لا نرى شيئاً بالكاد، لكننا كنا نعلم أن حياة كل منا تتقدمه بخطوات أو أقدام.

أومأ الملك متفهماً، ثم عاد مستمعاً بانتباه أكثر.

***

كان الاحساس رهيباً بينما يزحف جيش مكون من ثلاثين ألف وحش في ليل الصحراء، يتخللهم عمالقة سود تزمجر بينما تتحرك.. المتمثلة في المجانيق، بينما أضواء المشاعل المحمولة بين أفراد أركان الجيش تضيف على هذا المنظر المهيب آلافاً من الظلال تتحرك مع تلك الأصوات والزمجرات، كنت أرى بعينيّ تحت ضوء المشاعل أو ضوء القمر بريق أعين وحوش الصحراء تفر

أمامنا من بعيد، وصوت الذئاب الذي كان يتردد في الأفق زاد الوضع رهبة.

ظللنا سائرين هكذا حتى أشرقت الشمس من ورائنا، حيث كنت نسير إلى الغرب، وعندما أصبح ظل كل منا يبلغ نصف طوله انطلقت أصوات النفير تعلن الاستراحة، فتباطأ سير الجيش وصاح أحد كبار القادة صيحة متعارف عليها فضرب الجنود الأرض بأقدامهم وتوقفوا، ثم بدأنا جميعاً في اعداد المعسكر للاستراحة.

وبعد أن نصبنا خيامنا التي أتى بها موزعو قوات الإمداد مع الطعام، جلست مع (رازام) بداخلها لنتناول الإفطار، بينما الجميع تقريباً غارق في أفكاره...

بالطبع، عدا (رازام)...

" يا لها من ليلة! "

لابد أنه يتغذى في حياته من أجل الحديث...

لم أرد عليه، لكنه بعد لحظات عاد ليقول:

- إن كانت أول ليلة بهذه الرهبة، فما بال ليالي الحرب؟!

زفرت في ضيق ثم قلت:

- إنك تحكي عن أشياء كلنا شعرنا بها، فلمَ هذه الثرثرة؟

ضحك (رازام) وقال:

- من حسن الحظ أننا قد دخلنا في المراحل الجدية حيث الزحف والمراحل الأولى للحرب، وإلا لكنت شعرت بالحرج منك أو الغضب، أما الآن فلا شيء يمكن أن يهز مشاعري بسهولة.

لم أجبه، فأخذ (رازام) يكمل طعامه سريعاً في صمت قبل أن أنطق بشيء أو آتي بفعل يفسد عليه شهيته، لكني بعد لحظات سألته:

- بما أن والدك شيخ لواحة.. والمعروف أن الواحات ترسل بقوافل تجارية إلى مدن عديدة حتى للمملكة الشمالية، فهل سافرت مع هذه القوافل من قبل؟

امتلأ صوت (رازام) بالحماسة وهو يجيبني:

- سافرت فقط؟.. بل تعلمت جميع أصول وأساليب التجارة أيضاً.

- وهل تعرف (غيرو) جيداً؟

بلع (رازام) ما كان يحويه فمه وأجاب في ابتسامة:

- بالطبع، إنها مدينة هادئة وأظن أننا لن نستغرق وقتاً حتى تقع تحت أيدينا.

- تحت أيدينا؟!

تنبه (رازام) لاستنكاري، وحدث ما كنت أتجنبه.. وهو أني قد أفسدت شهيته، حيث ذكرّه استنكاري أنه لا يمكن لمدينة أن تقع تحت أيدينا.. لأن مهمتنا هي الإبادة، فألقى (رازام) بإناء طعامه وقام خارجاً من الخيمة، لكني لم أتبعه لأني أعلم أن أي حديث مني عن الحرب غير مقبول عنده ولن يخفف عنه.

جلست في الخيمة وحدي أحاول أن أصل لأقصى مستوى من الراحة الجسدية قبل أن ينطلق النفير مرة أخرى لنسير ما تبقى من مسافة حتى مدينة (غيرو)، وكان ظل (رازام) يظهر جالساً خارج الخيمة، منكس الرأس،

لكني كنت أعلم أنه سيتجاوز الأمر بطريقة ما، فخلدت إلى الراحة حتى انطلق نفير التحرك.

***

أخذ الجيش في السير نحو الشمال الغربي تجاه مدينة (غيرو)، وكان نسيم البحر يصل إلينا من ناحية الغرب، مما خفف علينا حرارة الصحراء وقت ما بعد الظهيرة، وكان (رازام) يسير صامتاً بجواري، فقلت دون أن التفت إليه:

– أنت عالم بما سوف نفعله منذ أن أعلمونا به، فلمَ الضيق الآن؟

هز (رازام) رأسه بإحباط وأجاب:

– لا أعلم.. كان لدي أمل أحمق أننا قد نترك المدينة بسلام إن استسلموا لنا.

– لقد أخبرونا أنه لا فائدة من الاستسلام ما داموا قد رفضوا الوقوع تحت حكم (كاسارشوناير).

– عليه اللعنة.

اتسعت عيناي لقوله، ثم نهرته في غضب مكبوت:

– أخفض صوتك أيها الأحمق، أو الأفضل ألا تكررها.

زفر (رازام) بقوة ثم نظر إلى الأفق وقال:

– إن (غيرو) خلف تلك التلال.

توجهت بوجهي إلى ما يقصد وتوترت قليلاً، حيث أن أول معركة تفصل بيننا وبينها ساعتان تقريباً.. لا أعلم ساعتان على بدايتها.. أم نهايتها!

❋❋❋

" استرح يا (كازان) "

قالها الملك في هدوء، فرد عليه (كازان):

- لا أيها الملك أرجوك، فأنا في حالة تسمح لي أن أستمر ولا أدري لعلها لا تعود.

- حسناً، لكن دعني أستفسر عن عدة أشياء.

- تفضل يا سيدي.

- هل كان من المعتاد أن يتحدث الجنود أثناء زحف الجيش؟

- نعم، لقد أذنوا لنا بالحديث ما لم يعلو صوتنا أو ينتشر ضجيج تداخل أحاديثنا، وإن حدث هذا دون أن يفلح أمر أو تأثير من القادة الصغار بإيقافه، ينطلق النفير بأمر القادة الكبار ليصمت الجميع، حيث أن كثرة الأحاديث والضجيج قد تنشر مشادات أو ارتباكاً بين الصفوف.

- و(رازام)؟

- (رازام) كان قائداً لكتيبة الهجوم رقم تسعة، لهذا كنت أتحدث معه وهو بجواري.

مسح الملك بيده على لحيته في بطء، ثم قال:

- حسناً، سؤال لطالما شغل تفكيري.. لمَ توجه الجيش غرباً بدلاً من الشرق؟

اعتدل (كازان) أكثر في جلسته وأجاب:

- لقد أخبرنا أحد القادة أثناء التجهيزات النهائية أن (غيرو) ستكون فاتحة هذه الحرب، حيث أن ما يليها من مدن هي نقاط قوة تابعة للمملكة الشمالية ولابد من تحطيمها أولاً وإبادتها قبل الوصول لعرش الشمال.

- لكن الطريق من ناحية الشرق أيسر للجيش نحو قلب المملكة الوسطى، ومنها إلى العاصمة الشمالية، وإن كانت نفس المسافة تقريباً، فليس هناك من ناحية الشرق موانع طبيعية صعبة أو مدن كثيرة لفتحها.

- لقد علمنا أن مدن المملكة الوسطى هي مدن راقية وأهلها مترفون، حيث أنها تحتل الجزء الأجمل من الأرض، ولذلك فلا خطورة منها، كما سمعت من أحاديث القادة أنه من المنطقي أن يكون عرش المملكة الشمالية آخر مكان ندخله، حيث إن عجلنا بدخول العاصمة عن طريق الاتجاه شرقاً وجاءت الإمدادات من معسكر (ماجود) ومعسكر (مارير) الشماليين متحدين سيكون شيء كارثي في حق الجيش الذي بذل (كاسارشونابر) الكثير من أجله، وحق العاصمة التي يريدها الملك الجنوبي في أفضل حال ممكن عند جلوسه على عرشها.

ابتسم الملك بجانب فمه وظلت ابتسامته للحظات وهو يفكر، ثم قال:

- هذا رأي وتخطيط جدير بالاهتمام، فمن وضع هذا يعلم أن معسكر (ماجود) بعيد عن معسكر (مارير)، وإن اتجه غرباً كما اتجهتم سيحارب كلٍ معسكر على حدة، بينما إن اتجه شرقاً.. ستأتي الإمدادات من الجيشين معاً تقريباً أو متتاليين.. وستكون الغلبة لهم.

ابتسم (كازان) ابتسامة قصيرة، فقال له الملك:

- هل تفضل أن تكمل؟

أومأ له (كازان) موافقاً.

❋❋❋

عندما وصلت كتائب الهجوم إلى قمة التلال، ظهرت لنا مدينة (غيرو) الكبيرة على بعد ألف قدم تقريباً، كانت واسعة المساحة، ولم تكن تظهر من وراء التلال لأنها لا تحوي ما هو أعلى من ثلاث طوابق، أبنيتها حجرية، بسيطة البناء مع مظهر هرمي ناقص يوحي ببعض الفخامة، وكانت هناك حامية على بابها الكبير، فالتفتُّ إلى (رازام) قائلاً:

- أهم يعلمون بموعد الزحف؟

أومأ (رازام) نافياً وهو ينظر إلى المدينة، وأجاب:

- بالطبع لا، لكن رسائل (كاسارشوناير) كانت تنبئ بقرب موعده، فبالتأكيد كل المدن مستعدة بما لديها حتى تأتي الإمدادات من الشمال.

- ولكن حامية المدينة لا تتعدى المائتي جندي!

زفر (رازام) ثم رد متهكماً:

- نعم، ولست مندهشاً.. فهي مدينة مسالمة.

ثم نكس رأسه ولم ينطق بعدها، فالتفتُ إلى الحامية فوجدت عدة جنود ينفصلون عنها ويدخلون المدينة في سرعة، فأيقنت أنهم سينشرون خبر وصول جيش (كاسارشوناير) الكبير مبكراً، وكنت أتوقع أن يخرجوا برايات الاستسلام، لكن حدث ما لم أحسبه.

جاءني رسول من قائد الجيش يعطيني الإشارة ببدء الهجوم، فاستنكرت ذلك قائلاً:

- ماذا؟!

فأجابني بحدة:

- لابد أن تهجم الآن بكتيبتك، بلا أي تأخير.

فكرت في قول (رازام) عن أمله الأحمق، فقلت مسرعاً:

- ولكنهم سيستسلمون!

أجابني الرسول في غلظة:

- إنها إبادة أيها القائد، هيا.

وقال الكلمة الأخيرة صائحاً وسط الجنود، فاشتعلت ملامحي غضباً، لكن لم يكن الوقت مناسباً للرد عليه، فرفعت يدي صائحاً في كتيبتي:

- كتيبة البرق!

كان هذا الاسم الذي أطلقته على كتيبتي، أسوة بقادة الكتائب الذين أطلقوا أسماءً على كتائبهم كنوع من التشجيع، وبما أني عانيت بما يكفي من الأسماء السخيفة التي قابلتها فقد جاء اختياري لهذا الاسم، حيث أننا أول من يهاجم ويردع بما لدينا من قوة وسرعة تميزنا عن البقية.

وعندما استعد جنودي في لحظة بحماسهم وأسلحتهم، صحت:

- هجوم.

بدأنا في التقدم نحو الحامية، فاضطربت صفوفهم حيث أنهم لم يتوقعوا هجوماً الآن، ورأيت عدداً منهم يهرب إلى داخل المدينة، لكننا استمررنا في التقدم بخيولنا نحوهم، وكان اضطرابهم الشديد حائلاً دون أن يرفعوا سلاحهم حتى للدفاع عن أنفسهم، حتى وصلنا وأخذنا في القضاء عليهم

دون مجهود يذكر، كأن المعركة الأولى لنا في الحرب جاءت مناسبة لاختباراتنا الأولى في التدريب، حيث كنا نتدرب بالسيوف على دمى بالية لا تدافع عن نفسها.

كان الرجل منهم ينظر لنا فزعاً ولا يتحرك حتى يأتيه سيف أحدنا فينزع رأسه أو يشق صدره فيقع من فوق خيله، حتى قضينا على الحامية واقتحمنا باب المدينة بعدها لنجد آلافاً من الناس يهرعون من كل مكان إلى أي مكان.. صراخ نساء وبكاء أطفال.. كبار في السن يقعون على الأرض وهم يركضون ولا يجدون من يأخذ بأيديهم، والتجار يتركون بضاعتهم كما هي ويركضون جميعاً نحو الباب الشمالي للمدينة هرباً.

أشرت لأحد الجنود حاملي النفير، فخرج من باب المدينة وأطلق نفيره كي يستدعي الجيش للحصار، وبينما يستدعيهم انتشرت بكتيبتي في المدينة نقضي على من تطوله سيوفنا، إن كان شيخاً متعثراً، أو امرأة تركض بطفلها، أو طفل يبكي على الأرض قد تركه من كان يرعاه خوفاً على نفسه.

لم نرحم أحداً.. حقاً لم نرحم أحداً.. كانت الدماء تتفجر حولنا ولا تضطرب أيدينا ولا تترد إلا أن تطرد أرواح الناس من أجسادها، كان الآلاف الذين يركضون إلى الباب الشمالي يسترقون النظر ورائهم فيرون ما نصنعه بمن نطوله منهم فيزيدهم ذلك خوفاً وصراخاً، لكننا لم نعبأ.. وركضت بكتيبتي وراء الهاربين.

تحولت مع كتيبتي لأدوات حصد للأعضاء والرؤوس وحتى الصرخات، كان منظراً رهيباً أن ترى الآلاف من الوجوه يجرون حولك وأفواههم متسعة تصرخ كما لم تصرخ قبل اليوم، كان الرجال يصرخون كصراخ النساء، نعم كالنساء.. لم أر ولم أسمع شيء كهذا من قبل، كأن الموت غيوم قد حلت

عليهم فيحاولون الهرب من كل قطرة.

وبينما أنا كذلك إذ علا الصراخ عند الباب الشمالي، فوجدت مقدمة الجيش قد وصلت هناك موقفة تدفق الهاربين، وبهذا أصبح أغلب أهل المدينة محاصرون بيننا، وأخذ الناس يصيحون في رجاء أن ندعهم وشأنهم، وآخرون يرفعون أيديهم في استسلام وهم يصرخون وسط البكاء أن نتركهم يفرون، وركضت امرأة عجوز إلى جندي فوق خيله بكلمات لم أفهمها، كانت تشير إلى أربعة فتيات.. خمنت أنهن بناتها، فدفع الجندي العجوز بقدمه في صدرها بعيداً، فصرخت بناتها بهلع وجرين إليها كي يطمئنوا، لكنها كانت قد فارقت الحياة، فأخذوا يولولون وينتحبون.

لم ترحمهن دموعهن من أن يلاقوا مصير الباقين، حيث أخذ الجيش يقتل من كل اتجاه ممكن، والناس في المنتصف يرون الموت يقترب منهم ولا يجدون مهرباً، ورفع العديد منهم رؤوسهم للسماء.. لا أعلم أيحسدون الطير أم.. لا أعلم، بينما بدأ آخرون يهربون إلى غرب المدينة، أما من تبقى فأخذ يرفع يديه وهو يبكي ويصرخ في أملٍ أخير أن ندعه يفر، لكنه لا يجد إلا سيفاً يطيح برأسه وكفيه الراجيتين معاً.

وبينما كان القتال يكاد ينتهي شمال المدينة، أخذ الرماة يمطرون الفارين في الغرب بسهامهم، حتى انتهى القتال على هذا -أو القتل بأصح تعبير- بعد ساعة تقريباً امتلأت بالدماء والصراخ، أبدنا فيها ما يقرب من أربعة آلاف شخص كانوا على قيد الحياة منذ ساعة ونصف، كانوا قبلها يضحكون ويلهون.

جاء أمر القائد بأن يصطحب الجنود كل ما يستطيعون اصطحابه من طعام وماشية، وكنت أمر بشوارع المدينة وأجد الجنود يجرون أجولة الحبوب

وسلال الفاكهة، كان منها ما تلطخ بدماء مَن كان يوماً سيأكلها، كما أخذوا يجرون الماشية من حظائرهم، والماشية تدوس على أيادٍ ورؤوس أصحابها، وتنغمر حوافرها في أحشائهم.

حتى تركنا المدينة عند الغروب من بابها الشمالي وهي ساكنة كالمقابر، مليئة بالأشلاء والدماء، وأصوات الرياح التي تهز الستائر وتحرك الأبواب والنوافذ، لقد أصبحت (غيرو) مدينة للأموات، وكان الجيش يتحرك في هدوء تام، فأي حديث هذا يمكن أن يكون بعد الذي تم منذ ساعات؟!

بدأ الليل يخيم على الجيش الصامت وسط هدوء الصحراء المهيب.. الذي لا يقطعه إلا أصوات بعض الماشية، وأصوات جر المجانيق التي تجاهلناها كأنها غير موجودة، وقبل أن يحل الظلام كاملاً التفتُّ ورائي إلى (غيرو).. فوجدت بعض وحوش الصحراء قد بدأوا يتجهون إليها، والبعض منهم قد دخل أبوابها بالفعل.

***

" وقد كانت.. أول معركة لنا في الحرب أيها الملك "

قالها (كازان) في اضطراب فلم يرد الملك عليه، وأخذ ينظر له في ضيقٍ وغضب، فبلع (كازان) ريقه بتردد وقلق شديدين، وأشاح ببصره يميناً ويساراً في الأرض منتظراً لقول من الملك، لكن لم يأته الرد إلا بعد لحظات طوال، قطعها الملك قائلاً:

- لولا أنك قد ندمت على ما فعلت وتغيرت عما كنت يا (كازارشان)، لكنت أمرت بقتلك الآن.. ومن قبل أن تكمل قصتك.

لم يرفع (كازان) رأسه بينما يقول بمرارة:

- لقد ندمت بالفعل، وأنت تعلم أيها الملك أنه من شبه المستحيل أن ينشأ أحدهم في محيط مثل الذي نشأت فيه ويشعر بالندم بعدها ويلين قلبه، ولعل تهديد جلالتك لم يكن ليمثل لي بالماضي شيئاً هاماً بالضبط كما كانت حياتي تمثل لي في الماضي، إلا أني أجد لحياتي الآن هدفاً أفضل.

ضم الملك شفتيه في قوة، ثم قال بصرامة:

- نعم.. أعلم هذا.

صمت الملك للحظات ضم فيها شفتيه مفكراً.. ثم أومأ برأسه إشارة لانتهاء الحديث إلى وقت آخر، فقام (كازان) وزوجته في هدوء وانصرفا إلى حجرتهما.

***

تقدم (تاسيرون) من عرش الملك بعد انصراف الجميع وتساءل في هدوء:

- أرى أن بالك مشغول بشدة منذ حديث (كازارشان) أيها الملك!

أسند الملك رأسه على يمينه بينما ينظر إلى الأرض، ثم قال (لتاسيرون) دون أن ينظر إليه:

- إن حديثه عن جرائمه هذه ذكرتني بجرائمي التي ارتكبتها بالمقابل في نفس الوقت.

اندهش المستشار لهذا القول، فتساءل بينما يقترب أكثر من درجات العرش:

- جرائم؟!.. لم أشهدك أبداً مرتكباً لخطأ أيها الملك دون أن تتبعه بإصلاحه.. أي جرائم تلك؟!

– تقصيري في إمداد (غيرو) ومدن الغرب اللاتي تعهدت لهن بالحماية إن تصدوا بعناد أمام إغراء وتهديدات (كاسارشونا ير).. والآن أعلم من (كازارشان) تفاصيل مقتل هؤلاء الذين أملوا يوماً في النجاة.. لقد.. لقد خذلتهم.

بدأت الدموع تسيل من أعين الملك، فحاول أن يشيح بوجهه عن (تاسيرون)، لكن جلوسه على العرش بدا كأنه قد قيده عن الحركة، فقام في حدة وهبط عنه متخطياً مستشاره إلى وسط الغرفة، فتبعه الأخير في بطء وقد لانت لهجته قائلاً:

– أتراك تخجل بعد هذا العمر الطويل من إظهار دموعك أمام الذي تولى رعايتك منذ الصغر؟.. رعاك خلال عمر شهد فيه جميع تصرفاتك وتقلباتك وحتى تشتتك وضعفك.. وخبرتي معك تشهد أنك لم ترتكب جريمة في حقهم، أو ربما لم تكن مقصودة.

زفر الملك في تهكم، رأى (تاسيرون) أنه يلوم ذاته به، فتابع قائلاً:

– أنت تعلم أني لم أكن لأستمر في وجودي بجوارك إن خالفت جلالتك صالح الناس، الذي طالما رافقني حرصي عليه خلال آرائي وإجاباتي التي أبديها لك عند كل استشارة ممكنة.

وأتذكر ذلك اليوم الذي وصلتنا فيه أنباء متأخرة عن تلك المذابح بينما نحن لا نزال نتخبط في الآراء بسبب قلة الأخبار والرسل، لم نكن متأكدين إن كان (كاسارشونا ير) سيهجم بالثلاثين ألفاً من الشرق أم الغرب!.. وهل سيقسمهم أم سيحركهم ككتلة واحدة!.. لم يكن باستطاعتنا تلك الفترة أن نغامر بتحريك الآلاف من القوات عبر الأرض قبل أن نتيقن من أهمية وغرض هذا التحرك كي لا نتفاجأ بكارثة تنهي آخر أمل في صد هؤلاء

الوحوش!

التفت الملك من فوق كتفه إلى مستشاره، ثم عاد ينظر في الأرض مفكراً للحظات قطعها بحزن قائلاً:

- لطالما حمّلت نفسي مسؤولية هذا أمام الرب، وإيماني بعلمه بما كانت تكن نفسي ذلك اليوم يطمئنني أمامه، أكثر من الوقوف أمام نفسي ووساوسها، لكن.. لكن التفاصيل التي ذكرها (كازارشان) أوقدت بي سعيراً من عذاب الضمير، لقد رحلت الآلاف من الأمنيات والأحلام حتى بيوم سعيد لم يكتمل.

ربت المستشار على كتفه قائلاً في لين:

- بعكس ما أملنا دوماً.. كان من المستحيل على أرض الواقع أن تمر هذه الحرب دون ضحايا، وما يريح القلب قليلاً أن هؤلاء قد ماتوا أبطالاً مدافعين عن مدنهم، حتى الآباء والأمهات والأطفال والعجائز الذين تمنوا الاستسلام أو الفرار.. كانوا يريدون حماية حياة لعلها تزهر يوماً وتتغلب على تلك الوحوش التي أحاطت بهم.

لم يجب الملك ولم يستدر إلى (تاسيرون)، فتقدم الأخير ونظر في وجهه مبتسماً مطمئناً، ثم قال في ود بينما يشير بنظره حيث كان يجلس (كازان):

- أنت الآن تجعلني أعرف قيمة ما يذكره (كازان) أكثر من أي وقت، أرى أنه يقدم درساً حتى لي أنا لأني لم أر بخبرتي الطويلة ما رآه وشعر به، ولعل ما دفنه بداخله لسنوات بينما يقتل هنا وهناك دليل على أنه لابد أن ينبت شيء جميل في هذا العالم بالمقابل، مهما رحل عنه الكثير من الجمال.

أعلم أن هذا الدليل لم يأت بالطريقة السهلة التي يمكن أن نتحدث بها

في حديث طريف مليء بالشجون والذكريات.. بل بالكوابيس وعذاب النفس.. لكن على الأقل تلك العقود من الخوف والخراب قد انتهت وأنبتت ثمرة غير منتظرة ولا متوقعة مثل (كازارشان).. لم تنبت من التراب.. بل من الرماد.

لم تتغير ملامح الملك عن الحزن بينما يجيب:

– لعل تلك التفاصيل التي يراها غير مهمة للآخرين تُري الآخرين.. وتؤكد له مجدداً.. ما هو المهم فعلاً.

***

زفر (كازان) وهو مستند على سور الشرفة بغرفته قرب شروق الشمس، فقامت (راسيا) من مقعدها واقتربت منه في قلق مترجية:

– فلترتح قليلاً يا (كازان)، لقد قضيت الليل كله قلقاً.

زفر مرة أخرى وأجابها:

– إن صدري يضيق بشدة يا (راسيا)، ألم تسمعي الملك وكيف كان يحدثني؟.. لقد ذكر قتلي في رده عليّ.

هزت رأسها نفياً قائلة:

– كلا، إن الملك يقدّرك كثيراً، ولكنه تأثر كثيراً بما ذكرته، لم يتحمل تلك الـ...

فعقد (كازان) حاجبيه وقاطعها في ضيق:

– تأثر.. فيذكر قتلي؟.. إنه قد سمع من قبل وعاصر بشاعة هذه الحرب، وهو أيضاً من طلب مني أن أقص ذكرياتي وتجاربي اللعينة أثناء كل تلك

المصائب، فلمَ سيرة القتل؟.. ماذا توقع مني أن أذكر؟!

ربتت (راسيا) على كتفه وقالت في رجاء:

- لا تزد ضيقك وحزنك، إن الملك معروف عنه الحكمة ولن يقدم على شيء يضرك بعدما وعدك بالأمان، كما أنك أسديت شيئاً عظيماً في مقابل ما فعلته بك تلك الحرب، ولابد أن الملك يتذكر هذا.. وواجب عليه التذكر دوماً.

مسح وجهه في قوة وأجاب:

- أرجو حقاً أنه يتذكر.

الفصل السادس عشر

بعد تناول طعام الإفطار في حجرة العرش أذن الملك (لكازان) كي يكمل، فرفع الأخير رأسه إليه قائلاً:

- أرجو منك يا جلالة الملك أن تتحمل ولو قليلاً ما أقص، أعلم صعوبة تحمل كل هذا.. وعليّ أنا بالذات قبل أي أحد، لكن ذكرك لقتلي بالأمس آلمني وأسهرني الليل كله في قلق، ومشهود لجلالتكم الحكمة وحفظ الوعود، فقد أعطيتني الأمان قبل أن أقص عليك ما تطلبه، كما أن جلالتكم تذكرون ما قد أسديته من قبل.. وليس هذا ببعيد.

ابتسم الملك قائلاً:

- لا تقلق يا (كازان)، أعطيتك الأمان وأجدده لك الآن، لكني إنسان ولي الحق أن أتأثر بما تذكره من فظاعات.

- جلالتكم تعلم أن هذه حرب، لا يمكن أن يكون لها وجه حسن، ولا يمكن تجميل ولا تزيين أي شيء بها لأشخاص لا تريد لهم التحمس لها أو خوضها مرة أخرى، ولعلكم ترقبتم هذا من قبل، وتترقبون الأسوأ بلا شك.

- حسناً يا بني، أعطيك الأمان ولكني لن أعطيك وعداً كي أكبت تأثري.

قالها الملك وضحك ضحكة قصيرة محاولاً إزالة التوتر، فتنهد (كازان) مطمئناً وقال:

- حسناً أيها الملك.

***

أخذ الجيش يسير بعد الغروب حتى بلغنا ثلث المسافة حتى المدينة التالية، التي كما ذكر لي أحد جنودي أنها تُدعى (شاداسكيري)، وقرب منتصف الليل أعلنت الأبواق إعداد المعسكر للراحة، فأعددنا الخيام وجلست داخل خيمتنا مع (رازام) الذي قال لي متهكماً بمجرد الجلوس:

- لابد أنك فخور بما فعلت!

زمجرت في غضب وقلت بصوت شبه عال:

- (رازام)!.. إن كنت ستقضي فترة الحرب في النصائح والتهكم فأخبرني كي أقطع لسانك.

لم يتوقف (رازام) وتابع متهكماً:

- بالطبع، من يقتل شيوخاً وأطفالاً من السهل عليه قطع لسان أحدهم.

عقدت حاجبيّ لقوله، ثم كشرت عن أنيابي وقمت في حدة إليه، وقبضت على ملابسه بينما أقول مزمجراً:

- وأنت!.. ماذا كنت تفعل أيها البطل الهُمام؟!.. أكنت تداويهم؟.. أم تعيدهم للحياة؟

دفع (رازام) يديّ بحدة أكبر قائلاً:

- دعك عني، فإني ألعن نفسي أكثر ساعة بعد ساعة بسبب هذه المصيبة المسماة بالحرب.

- فلتقتل نفسك إذاً.

خبط (رازام) الأرض بقبضته في قوة، ثم قال محتجاً:

- قلت لك إن حياتي تهمني، أتمنى أن أعيش حياتي كزوج وأب.

أجبته متهكماً:

- إذاً ستظل كما هي أيها المحارب.. مجرد أمنية.

ارتجفت ملامح (رازام) في وضوح، أعلم أني قد قسوت عليه بدلاً من أن أخفف عنه، لكني حينها لم أعبأ، وقد أنجاني من هذا الموقف جندي جاء إلى الخيمة منادياً عليّ وأعلمني أن القائد الكبير يطلب رؤيتي، فتعجبت لهذا وقمت في سرعة معه إلى خيمة القائد الذي ما أن رآني حتى ابتسم ابتسامة عريضة لم تقلل من هيبته، وقال:

- مرحباً بالبطل الكبير.. أحسنت أيها القائد الصغير.

أومأت برأسي في هدوء احتراماً له ولكلامه، وقلت في حزم:

- إن هذا واجبي أيها القائد.

خبط على كتفي مشجعاً وقال:

- إن ظني بك لم يخب عندما فضلت أن تكون كتيبتك هي الأسبق في الهجوم.. ومن قبل ظني ظن قادتك بمعسكر التدريب الذين أخبروني عن قدراتك وراهنوا عليك، ورشحوك لهذه الرتبة المتميزة.. لقد أكدت لي اليوم أنك جدير بالثقة.. سأرسل بأخبار بطولتك وشجاعتك هذه إلى الملك.

أجبته بين الابتسامة والتعجب:

- وكيف هذا؟

- في رسالة بالطبع.

- أهناك إمكانية لمراسلة المدينة من هنا؟

ضحك القائد ضحكة قصيرة وأجاب:

- بالطبع يا (كازارشان)، يبدو إنك إما لا تكون صداقات داخل المعسكر، أو أن علاقتك سيئة بالجنود، وأنا أستبعد هذا، وإلا فبما تفسر غياب معلومة كهذه عنك؟

- ربما تأخري في الانضمام لمعسكر الجيش هو السبب، فقد كنا نقول بمعسكر التدريب أن الأخبار الجدية والأقرب إلى الحقيقة تصل هناك بينما لا تصلنا إلا الفتات، كما أني في الحقيقة لا أحب التعامل كثيراً كصديق وسط الجنود.

- تحب الرسميات إذاً؟

- ربما، ليس بالضبط.

أومأ لي القائد برأسه متفهماً، ثم تنهد وقال:

- حسناً، مهما يكن.. فلتعلم إن هناك نظام لمراسلة المدينة، يتم به تسليم الرسائل للخيمة التي أمام خيمتي، وبالطبع يتم مراجعتها كي لا يفشي أحدهم سراً أو يذكر أو يطلب شيئاً غير مقبول قد يلحق الضرر باتزان الجيش وتماسكه، وأنا أكتب تقريراً شبه يومي عن الحرب إلى الملك.

- ومن يقوم بإرسالها؟

- نحن لا نترك ورائنا نفايات الطعام وفقط يا (كازارشان)، فهناك رسل لنا نتركهم كل مسافة معينة، لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة، يكونون مثل خط مراسلة طويل، كي لا يتكلف أحدهم مشقة الرحلة الطويلة وحده حتى العاصمة الجنوبية، مهدداً سلامته وسلامة الرسالة، وكي يكونوا كدليل على خط سير الجيش بالنسبة لكتائب الغنائم.. ومن قبل أن تسأل فهي كتائب

تنطلق من معسكر الجيش إلى المدن التي نخلفها ورائنا كي تجمع الثروات إلى خزائن المملكة.

- وكيف يعلمون بأن مدينة ما قد تم القضاء عليها؟

- هذه الحرب ليست زحفاً وهجوماً كلما سمح الأمر يا (كازارشان)، إنها تسير حسب مخطط ونظام تم وضعه، ولا يجب أن نتأخر عنه مهما كانت الأسباب، إلا في حالة حدوث شيء مفاجئ لم يتم الإعداد له.

ابتسمت في إعجاب، فضحك القائد وقال:

- أغلب ما ذكرته لك يعلمه الكثير من الجنود، ويجب أن تكون أعلمهم بهذا أيها البطل.

- أشكرك كثيراً أيها القائد.

ربت القائد على كتفي مرة أخرى، ثم قال:

- حسناً، هيا أيها البطل.. فلتذهب لخيمتك الآن كي تنال وقتاً كافياً للراحة قبل الفجر.

ضربت الأرض بقدمي تحية له، ثم انسحبت من الخيمة في هدوء إلى خيمتي.

❋❋❋

عندما بدأنا السير في الفجر نحو (شاداسكيري) قابلتنا مفاجأة، فبعد ساعة بدأ يظهر تحت أضواء المشاعل جثث متفرقة في أنحاء الصحراء، كانت منها جثث غير مكتملة، وكانت هناك أيضاً عظاماً متفرقة يغطيها بعض اللحم والكثير من الدماء...

" وحوش الصحراء كانت هنا حتى فرت لاقترابنا "

قالها أحد جنود كتيبتي، فقلت وكأنني أحدث نفسي:

- أكل هؤلاء فروا من (غيرو)؟.. إنهم بالعشرات.. أو أكثر.

أجابني جندي أخر:

- بالطبع لم يتحملوا السير لمسافات طويلة بين حرارة الشمس والصحراء.

وتابع جندي آخر:

- ومن صمدت إرادته التهمتها وحوش الصحراء.

أخذنا نسير فوق الجثث هذه دون مبالاة، وأنا أسمع صوت تكسر العظام واعتصار الأجساد بينما أحذية الجنود من خلفي تدوس عليها، هكذا.. حتى قضينا الليل نسير بين وفوق الجثث المتفرقة حتى أشرقت الشمس علينا، وكان يفصلنا عن (شاداسكيري) ساعة أخرى من السير، فقلت موجهاً كلامي (لرازام) دون أن ألتفت إليه:

- أزرت مدينة (شاداسكيري) من قبل؟

- مدينة (شاداسكيري)؟!.. إنها إمارة كبيرة، أتظن أن جيش الوحوش الذي خلفنا هذا قد تم إعداده كي يبيد مدناً صغيرة ومسالمة (كغيرو)؟!

كانت لهجة التهكم واضحة وضوح الشمس في جملة (رازام)، فضغطت على أسناني كي لا أفقد أعصابي وأقطع لسانه...

" بسلوك هذا المنخفض واختراق هذه الهضبة.. لن يفصلنا عن أسوار (شاداسكيري) إلا ألف قدم تقريباً "

نظرت إلى ما أشار (رازام) بقوله في نظرات متأملة تفصّل كل جزء منه،

حيث كنا نسير في مسار واسع ومنخفض بمقدار قدم أو اثنين على الأكثر عن الأرض المحيطة، وكان المسار يسلك طريقه كممر في شق كبير بالهضبة أمامنا، فكانت جدران الشق أو الممر كحائطين عاليين ليسا متدرجين.

وعندما اقتربنا من هذا الممر سمعت جنوداً ينادون من قلب الجيش بجملة لم أعيها، لكن أخذ الجنود الأقرب فالأقرب يرددونها حتى وعيتها، حيث كانت جمل تقول:

" القائد يأمر بأخذ الحذر في كل خطوة داخل الممر "

" تأملوا كل ركن به "

أخذوا يكررونها حتى انتشرت في الجيش بأكمله، ثم بدأت تهدأ مع دخولنا بداية الممر مع ظله الكبير الذي حجب ضوء الشمس المباشر، عندها بدأ الجنود يسيرون بشيء من البطء ويتأملون كل ركن، يميناً ويساراً، والحواف العليا كذلك.

كنت أسير كما أنا في المقدمة حتى وجدت أن الممر ينحني بعد ما يقرب من مائة وخمسين قدماً إلى اليمين، فاتجهت يميناً مع كتائب المقدمة وورائنا الجيش يزحم مدخل الممر، وبعد أن اتجهت يميناً رأيت عند النهاية بعد ساحة صغيرة جزءًا من أسوار.. إنها (شاداسكيري)، كانت لها أسوار رمادية عالية، ويظهر من ورائها أبراج القلاع.

كان مشهداً جديداً لنسبة ساحقة من الجنود، لكن بينما نحن نسير ونتأمل ما يظهر لنا تدريجياً من الإمارة سمعت وسمع من حولي -رغم ضجيج الدروع وخطوات الجنود- أن هناك أصداء دخيلة تشبه صوت احتكاك عجلات خشبية أثناء سيرها، وإن كان تخميننا صحيحاً فإن صوتها ينبئ عن

أنها تجر شيئاً كبيراً، فرفعت يدي في توتر وقلت:

- توقفوا.

لم يكن صوتي عالياً نتيجة توتري، فصحت:

- فليتوقف الجميع.

أخذت كتيبتي تصيح معي، وكذلك الكتائب المجاورة، وبدأ الجيش يكرر صياحنا لمن وراءه حتى بدأ صوت الدروع والخطوات يهدأ قليلاً، فأشار إليّ (رازام) في قلق بينما يقترب مني، وقال لي في خفوت:

- إنها تأتي من أعلى الممر.

فنظرت إلى الأعلى لكن لم أرى شيئاً، فأخذت أتلفت هنا وهناك إلى الحواف العليا ولم أر أي شيءٍ أيضاً، ومع هدوء مقدمة الجيشٍ وتوقفها عن السير بدا صوت العجلات يعلو عن ذي قبل، وفجأة رأيت ظلاً لرجل يجري على أعلى الحائط الأيمن للممر حيث تسقط أشعة الشمس، فنزلت عن خيلي وركضت إلى الحائط الأيمن ونظرت إلى أعلى الحائط الأيسر لكني لم أره، فجرى إليّ (رازام) قائلاً:

- ماذا رأيت؟

- لا شيء.

توقف صوت العجلات، فجريت إلى الحائط المقابل كي أرى إن كانت هناك ظلال أخرى، عندها.. رأيت شيئاً صعقني.

لا أعلم حقيقة ما رأيت وقتها لكنها كانت ظلال لأشياء عملاقة، لا أرى لها تفاصيل كثيرة حيث أنها مجرد ظلال، وبقيت أنظر لها في قلق.. لا أدري

ماذا سأفعل أو ماذا ستفعل هذه الأشياء!.. فتبعني (رازام) متسائلاً:

- ماذا نفعل؟

أخذت أخبط رأسي بأصابعي في توتر، وقلت في خفوت:

- لا أعلم.. لا أعلم ما هذا.. المهم أن...

دون أية مقدمات.. سمعت شيئاً يشبه هزيم العاصفة، فرفعت رأسي وإذ بي أرى موجة كبيرة من سائل تخرج منه الأبخرة يسقط من أعلى الممر، فأخذ الجنود يصرخون في ألم، ثم بدأت النيران تظهر في ملابس البعض تحت الدروع، فأخذوا يركضون في أنحاء متفرقة ويتخبطون، وقد كان ازدحام الممر كارثة، حيث كانت مقدمة الجيش مقيدة الحركة ولا تستطيع الاستدارة بالخيول.

فأخذت أركض بجوار الحائط واضعاً درعي فوق ظهري ورأسي، واتجهت إلى ما وراء مقدمة الجيش المضطربة، وكلما اقتربت رأيت المزيد من المصابين ممن يركضون مشتعلين، أو الذين تذوب جلودهم، حتى وصل لي صوت القائد وهو يصرخ:

- تقدموا سريعاً.

فصحت من مكاني:

- لا.

وركضت بجانب الحائط إلى أقرب مكان إلى القائد، وأنا أصرخ في الجنود:

- لا تتقدموا.. لا تتقدموا.

لم يستجب لي أحد بينما يركضون في هلع، فأخذت أركض حذراً

وموجات هذا السائل ما زالت تنصب علينا، حتى وصلت لأقرب مكان من القائد وصرخت:

- أيها القائد!

لكنه كان يلتفت في كل مكان يصرخ في الجنود بالتقدم ويحرك الكتائب من حوله، فنزعت درعي من فوقي وأخذت أخبط به في صخر الممر، حتى تنبه القائد لي، فصاح:

- تقدم يا (كازارشان).

فأشرت له بيدي أن لا، فعقد حاجبيه وصرخ:

- تقدم أيها الجندي.

التفت يميناً ويساراً في قلق، ثم نظرت فوقي فوجدت أن موجات السائل هذا قد توقفت، فركضت إليه في سرعة وقلت له بينما ألهث:

- خطر.. خطر أيها القائد.

- أي خطر أيها الجندي؟!

- لا نعلم ما ينتظرنا في آخر الممر.. فقد يتسبب التقدم في حصار يطوق الجيش من الأمام والخلف، لابد من التراجع مؤقتاً.

هز القائد رأسه نافياً بغضب، قائلاً:

- لا تراجع أيها الجندي.

كان بجانب القائد نائبه، فقال:

- أعتقد أنه على حق يا حضرة القائد.

فصرخ القائد:

- قلت لا رجوع، تقدموا أيها الجنود.

وقال جملته الأخيرة في صوت أعلى كي يسمعه أكثر من حوله، فأهتز جسدي في غضب لعدم استجابة القائد لنصيحتي، فاستدرت في الجيش وراء القائد الذي لم يتخطاه بعد وبدأت أصرخ في الجنود:

- تراجعوا.. تراجعوا.

وأخذت ألوح بيدي وأصرخ بصوت عال كي يطغى على صوت القائد، وبالفعل بعد تردد طويل وصيحات متقطعة من هنا وهناك تكرر ندائي أنا الذي أبدو كمن خرج من الجحيم، بدأت أرى مؤخرة الجيش تستدير وتتراجع وتفسح مكاناً لمن أمامها للتراجع، وسمعت صراخ القائد من ورائي:

- سأعاقبك أيها المتمرد.. سأجعلك عبرة لمن يريد الخروج عن الأوامر أيها اللعين، سـ...

نظرت خلفي فوجدت القائد يسقط من فوق خيله ورأسه بها سهم طويل، ورأى عدد من الجنود هذا المنظر، لكن غضبي على القائد جعلني لا أشعر بأي شفقة تجعلني أركض إليه، وركزت على الصراخ في أجنحة الجيش كي يتراجعوا مثل المؤخرة، وكي لا يعلموا أيضاً بأن القائد قد سقط.

لم يكن السهم الذي قتل القائد إلا بداية لأمطار من السهام بدأت تسقط على الجنود الذين تقدموا في الممر، لكنني تابعت ما أفعله بحذر حتى نجحت في إخراج نصف قلب الجيش من الممر، وكلفت عدداً من جنودي المحيطين بي أن يتولوا مهمتي في إخراج ما تبقى من قلب الجيش، واستدرت أنا

راكضاً بجانب الحائط حيث التقطت درعاً واحتميت به حتى وصلت إلى نائب القائد، فوجدت أن خيله قد أصيب وسقط على الأرض، فجريت إليه ووضعت الدرع فوقنا صائحاً له:

- فلتنجو بنفسك أيها القائد وسأتولى أمر الذين تقدموا.

ثم أعطيته درعي كي يحتمي به، وركضت بحذر دون أية حماية نحو المقدمة، فوجدت الذين تقدموا من الجنود إما قد احترقوا أو سقطوا بالسهام أو أصيبوا إصابات بالغة، تناولت سهماً من الأرض وإذ به صلب العود برأس حديدي، يجعله يخترق الدروع إن كان يُرمى بقوة كبيرة، قوة بالتأكيد هي أكبر من قوة أي ذراعين على إطلاقها.

ألقيت السهم وأكملت ركضي حتى وصلت لكتائب الهجوم، حيث كانوا يقاتلون الحامية الكبيرة التي ظهرت عند نهاية الممر، لم يكن لدي خيل مثل بعضهم فقد تركت خيلي كي لا يعيقني، ومعظم مَن نجى من الخيول قد فر إلى نهاية الممر وحتى الأسوار، فتقدمت شاهراً سيفي معهم أقتل كل مَن يقع أمامه وتحته.

مع مرور لحظات بدأت أوقن أنه لا فائدة من قتالي لأني والجنود من حولي أقل عدداً بكثير من الحامية، لكن هدفي هنا هو إيجاد (رازام) وإنقاذه، ولم أستمر كثيراً حتى وجدته، يقاتل هناك قرب نهاية الحائط الأيسر للممر، كانت هذه أول مرة لي أراه وهو يقاتل.. وكم كان ماهراً حقاً!.. يتقدم بشجاعة بينما يُسقط من أمامه ولا يتراجع مثلما تراجع الجيش، فاقتربت من خيله بينما أصد كل من يهاجمني وأصرعه، ثم قلت له ضاغطاً على أسناني:

- لتركض فوراً إلى بداية الممر.

- ماذا؟!

- قلت لك فلتتراجع.

- وكتيبتي؟ والجيش؟

- الجيش قد تراجع، لا فائدة من القتال هنا، فلنتراجع الآن وإلا سنهلك إن قاتلنا أم انسحبنا متأخرين.

بدا عليه بعد التردد، فصرخت فيه:

- إنها حياتك أيها الأحمق، هيا.

عندها استدار (رازام) وتراجع ببعض التردد، ثم بدأ يركض إلى بداية الممر، فالتفت بعض الجنود نحوه متعجبين، فصحت لأمنعهم من التفكير:

- قاتلوا أيها الجنود.

تابعت القتال معهم، وأصيح كلما قتلت أحد جنود الحامية:

- إنهم لا قِبل لهم بمهارتنا.. هيا.. لنريهم مَن نحن.

فأخذوا يقاتلون بحماسة واندفاع أكبر، لكن مع تساقط الواحد منا تلو الآخر كان ضغط حامية المدينة يشتد، فاستدرت بسرعة مشيراً للجنود ثم بدأت أركض بكل طاقتي نحو بداية الممر، فتبعني العديد منسحبين يركضون ورائي، لكن كان فرسان الحامية يطولون بعضهم بالسهام أو الرماح.

أما أنا.. ولأني بدون خيل يعينني بسرعته الآن فبدأت أركض بخطوط متعرجة، حتى وصلت لمنحنى الممر ومنه إلى بداية الممر، وقد كان (رازام) ينتظرني هناك، فقفزت خلفه فوق خيله بينما تكاد تنقطع أنفاسي، وركض الخيل بنا ناحية الجيش.

***

أخذ الجنود عدة ساعات حتى أفاقوا من وقع الصدمة التي صعقتهم وأنهكتهم كثيراً بعكس المتوقع، استسلمنا جميعاً إلى أرض الصحراء ممددين دون أية خيام أو شيء يظلنا، لم تكن هناك طاقة تساعد على إعداد أي شيء، ولأن ما مررنا به لا يجعل من حرارة الشمس بالأمر الذي قد يشغل بالنا في هذه الظروف.

ارتميت مع (رازام) على الأرض بمجرد هبوطنا من فوق خيله محاولاً التقاط أنفاسي بمعاناة، كأن الهواء قد ازدحم أمام فمي كما فعل الجنود بالممر، وبدأت رؤيتي للسماء تضطرب، فشعرت أني على وشك الغياب عن الوعي، وأغمضت عيني كي تهدأ أنفاسي، لكن غزت الخيالات وأصوات السيوف والصراخ هذا الظلام، ففتحت عيني مجدداً، وظللت مضطرباً بين هاتين الحالتين حتى انتظمت أنفاسي أخيراً.

بعد فترة اعتدلت جالساً، وأخذت أدير رأسي أتأمل الجيش من حولي، كانوا مجهدين ويفترشون أرض الصحراء كالأموات لعلهم ينالون بعض راحتهم، بينما تبقى أغلب جنود الجيش السالمين والذين كانوا في المؤخرة للحراسة.

مرت ساعات بينما نحن كذلك حتى خرج نائب القائد -الذي أصبح قائدنا الآن- من خيمته ماراً بين الجنود، بينما يشير للعديد منهم ألا يقفوا ويظلوا كما هم، حتى وصل قرب منتصف الجيش المترامي وصاح عالياً:

- أحب في وسط هذه الظروف، وقبل أي حديث أعده لتفسير ما حدث، وقبل أن تشعروا بتمام الراحة فلا تشعروا بقيمة ما سأقول الآن، أحب أن أذكر للجميع أن هناك بطلاً قد أنقذنا جميعاً من الهلاك، وقد شهدت شخصياً

على بطولته وحسن تصرفه وسرعة بديهته.

غطيت وجهي بكلتا يديّ في شيء من الحرج وكثير من الضيق، لأني أعلم مَن يقصده القائد، كنت أرى أنه لا فائدة لما سيقول وما سيحدث، لكن لم يكن بيدي شيء لأفعله ولا طاقة لي لنطق كلمة، وقد نكزني (رازام) في مزاح، فدفعت يده في ضيق وأنا أقول:

- ألك روح تمزح الآن وقد كنت على وشك الموت منذ ساعة؟!

فضحك (رازام) في خفوت، وقال:

- ولأنك أنقذت حياتي لدي روح لتفعل أي شيء.

دفعت يده مرة أخرى قبل أن تمتد إليّ، ثم عدت أنصت للقائد وهو يتابع:

- بفضل هذا الشخص ما زال الجيش يحافظ على أغلب أعداده وعدته، لأنه وجد أن التراجع أرجح لحماية الجيش بعكس ما كان يرى قائدنا الكبير الذي سقط بسهام العدو، وعرّض هذا البطل نفسه للتهديد بالعقاب وأن يصفه القائد الكبير بالتمرد، وذلك من أجل حماية الجميع، هذا الشخص هو.. (كازارشان ماثير بوتابيرون)، قائد كتيبة الهجوم العاشرة.

التفتت جميع الرؤوس هنا وهناك حتى تركزت عليّ، فقلت في خفوت:

- يا للكارثة!

ضممت شفتيّ ولم أجد كلمة كي أرد فنكست رأسي، كنت أرجو أن الأمر قد انتهى، لكن العديد منهم صاحوا باسمي، وأخذ الكثير منهم يأتي إليّ ليحييني وينادينى بالبطل وكلمات مثل هذه، ولم يسمحوا لي بالوقوف كي استكمل راحتي، حتى أتاني القائد بنفسه مخترقاً الجميع، وقال لي:

- أريد أن أشكرك بشكل شخصي لإنقاذك حياتي يا (كازارشان).

اعتدلت واقفاً وأومأت برأسي احتراماً له، وقلت:

- عفواً أيها القائد.. إنه واجبي، كما أن لك فضل كبير في إنقاذ الجيش، حيث أن شهادتك بصواب رأيي أمام القائد زاد شعوري بضرورة إصراري على هذا الأمر.

ربت القائد على كتفي، ثم صاح في الجنود:

- هذا من أنقذ حياتكم اليوم، قدموا له خيمة وأطيب ما نحمل من طعام وشراب، ومَن يريد أن يزد على هذا فليفعل.

ثم ابتسم لي مشجعاً واستدار ذاهباً إلى خيمته ليتركني مع الحفل الذي بدأ للتو.

الفصل السابع عشر

ظللت حتى مغرب اليوم ألاقي التهاني والإشادة بما فعلت، واستقبلت كميات كبيرة من الطعام والشراب حولي، لم يكن أحد يستجيب لي عندما أطلب أن يكفوا عن جلب المزيد من طعامهم، وكان (رازام) يجلس بجواري يلتهم الكثير من الطعام والشراب كمن صام أسبوعاً.

عندما غربت الشمس انتشر في الجيش خبر يحث الجميع على الحضور حول خيمة القائد دون أي تشكيلات أو تقسيمات.. الجميع كما هم، فقام الكل مسرعين لما سوف يقوله القائد عن كارثة اليوم، وبعكس المعتاد.. توجهنا إلى الخيمة لنجد تحت أضواء المشاعل المحيطة أن القائد حاضر قبلنا ينتظرنا حتى حضر الكل، فأومأ برأسه في الجميع مشجعاً، وبدأ حديثه دون مقدمات:

- لن أطيل عليكم بحديثي وإن كنت أتمنى، لعلي أخفف أكثر أثر ما حدث اليوم، لكن ظني بكم أنكم أفضل في هذا.. لأنكم رجال.. لأنكم أبطال.. ربما أنا محظوظ لبقائي على قيد الحياة، لكني أجد نفسي سيء الحظ لأني حي في ظروف مثل هذه، ثم أعود وأفكر لأجد نفسي محظوظاً بالنجاة وسط كل هؤلاء الرجال الذين يحيطون بي، والذين يملكون الفرصة لإزالة احباط هذا اليوم من الوجود.

هز القائد رأسه في عدم رضا بينما ينظر في الأرض، وتابع:

- لا أعلم أهي الثقة الزائدة بعد انتصارنا في (غيرو) دون قطرة دم واحدة

سالت من أحدنا!.. والتي أدت للحماسة الكبيرة التي أراد بها قائدنا الراحل أن يدفع الجميع لانتصار مثلها!.. أظن هذا.. لم أتفق معه اليوم، وهذا شيء لم يظهر لي الأن، بل يشهد عليه المحارب (كازارشان) الذي أنقذنا اليوم.

ونظر نحوي فأومأت موافقاً دون أن تحمل ملامحي أي شعور، ثم عاد يتابع:

- أتقدم بالتعازي لنفسي ولكم، لنا جميعاً بنفس المقدار.. في تلك الخسارة التي خسرها جيشنا هذا اليوم، وأتمنى أن ثقتكم بأنفسكم هي أكبر عن ذي قبل، كما هي ثقتي بكم الآن، وأتمنى أن إرادتكم أقوى الآن للغد.. والذي يليه، والذي يليه، حتى نحقق انتصارنا والعالم الجديد الذي وعدنا ملكنا العظيم به، وإلى هنا ينتهي حديثي، فإن كان هناك من يود التعقيب على كلامي أو التعليق بأي شيء فليقل ما عنده.

صمت الجميع ولم يجب أحدنا بهمهمة حتى، فمن يود أن يتفق مع القائد ويقول كلمات حماسية بالتأكيد قد غابت لذتها عن الحضور، ومن يود أن يعارض ويصيح حتى ضد أخطاء القائد الراحل فلا يأمن أن يظل على قيد الحياة، أو يظل بأمان من معاملات الكثيرين حوله، لذا اكتفى الجميع بالصمت، ويبدو أن القائد قد اكتفى به أيضاً، فأشار في هدوء أنه يمكننا الانصراف.

وبينما أستدير مع (رازام) للانصراف جاءني أحد الحراس ليخبرني أن القائد يريد رؤيتي، فنظرت إلى (رازام) متعجباً وهززت كتفي في حيرة، ثم تحركت ورافقت الحارس حتى وصلت ودخلت خيمة القائد، فوجدت أنه لم يطلب رؤيتي وحدي، بل كان هناك كبار قادة الجيش وأجنحته قد اجتمعوا حول مائدة.

ابتسم القائد بمجرد رؤيتي وقال:

- تقدم يا (كازارشان).

تقدمت ببطء ناحية الجمع وضربت الأرض تحية لهم، فقال لي القائد:

- تفضل معنا يا (كازارشان).

تنحنحت في قوة وقلت:

- عفواً أيها القائد.

فأجابني في هدوء ورصانة:

- أنت من الآن يا (كازارشان) أحد أفراد مجلس التخطيط والحرب.. تقدم واجلس.

كانت مفاجأة لم أتوقعها أبداً، أن أترقى بهذه السرعة لأحصل على مكانة كهذه بسبب شيء أجدته رغم أني لم أخطط له!.. بل حدث بسبب تعنت القائد السابق وحماقته لا حماسته.

إن كوني قائداً لكتيبة من كتائب الهجوم لا يضعني ضمن مكانة القادة، لأني ما زلت جندياً بالنسبة إليهم، أنا فقط كبير الكتيبة مقاماً وآمرهم بأمر القائد الكبير تحت مسمى شرفي يُدعى (قائد صغير).

تقدمت في هدوء وأنا ما زلت غير مستوعب أن هذا يحدث بالفعل، فجلست على كرسيّ بينما يقول القائد:

- لقد اجتمعنا اليوم لندرس كيفية عبور الممر إلى (شاداسكيري) بأقرب وقت وأنسب حل، فلقد كانت حادثة اليوم كارثة بحق، ولا نريد أن نخسر معنويات الجنود، لهذا يجب علينا أن نسيطر على قمة جدران الممر حتى

يستطيع الجيش العبور.

كان الحديث موجهاً للجميع، لكن القائد كان يعود بنظره إليّ كل لحظات ولحظات كي يعلمني بدوري هنا، ولعله أيضاً يريد أن يخفف عني مفاجأة أني وكبار القادة على نفس المائدة، والتفت القائد إلى أحد الحاضرين قائلاً:

- هل أحصيت الخسائر يا (عادوف)؟

- نعم أيها القائد.

- كم بلغت؟

تنحنح القائد (عادوف) وقال:

- لقد خسرنا حتى الآن من قوة الجيش أربعمائة وواحد وعشرين جندياً، ومائة وعشر من الخيول، ولدينا من الجنود المصابين ثلاثمائة وسبع وتسعون، ومن الخيول سبع وثمانون.

مسح القائد وجهه في ضيق، ثم أخذ شهيقاً قصيراً وزفره في قوة، وقال:

- أعداد كبيرة ولم نقترب من أسوار الإمارة الأولى بعد.

تساءل أحد القادة:

- هل من خطة لديك يا حضرة القائد؟

ضم القائد شفتيه في قوة للحظات، ثم قال:

- نعم.. و(كازارشان) هو من سيقودها.

قلت في حزم:

- أمرك أيها القائد.

- ستذهب أنت وأفضل الجنود من كتيبتك وكتيبة أخرى تختارها بنفسك، بكامل أسلحتكم لكن بلا خيول، ستكون أنت قائد هذه المهمة، لكن لابد من وجود قائد وجنود من كتيبة أخرى إن استدعى الأمر انقسامكم، ولهذا سيكون من الأفضل وجود قائد فرعي للمهمة وجنود يطيعونه، حيث ستصعدون إلى سطح الهضبة للتخلص من كل مَن تجدونه، مع تدمير أي شيء بالأعلى وخاصة تلك الأشياء اللعينة التي صنعت بنا هذه الكارثة، لا أطلب تدميراً فوضوياً بل ما يكفي لأن تكون غير صالحة للعمل.

وبمجرد الانتهاء تذهبون إلى قمة الممر باتجاهنا وتلقوا ببعض الحطب المشتعل عند أول الممر من جهتنا دلالة على نجاح الأمر، لا نريد إشارات عالية كي لا نلفت نظر أحد عند الأسوار أو أي أحد أياً كان مكانه لا نود له الانتباه، وستظلون كما أنتم للمراقبة وتأمين العبور.

أعجبتني خطة القائد وتحمست لتنفيذها، فأجبته:

- ومتى التنفيذ؟

- متى تستعد؟

ابتسمت في ثقة مجيباً:

- الآن.

***

انطلقت بمن أخترت من كتيبتي وكتيبة (رازام) -التي وقع اختياري عليها- نحو الغرب لنبلغ بداية الهضبة التي يخترقها الممر، فالجانب الغربي هو الذي ترتكز عليه تلك الأشياء العملاقة، وبلغنا بداية الهضبة بعد ساعة من الهرولة في الصحراء، فبدأنا نصعدها في حذر وسرعة قدر الإمكان، وبعد

لحظات بدأت تظهر لنا قمم تلك الأشياء العملاقة، ومع استمرار تقدمنا كان المزيد من أجسام هذه الأشياء يظهر حتى رأيناها بأكملها.

لم أتبين أغلب تفاصيلها في الظلام، لكن إن قارنتها بالأبراج والمجانيق التي ترافقنا لقلت أنها أقل ارتفاعاً بقليل لكنها أكثر عرضاً، وهناك الكثير من التروس والحبال، ويتمركز في الوسط ما يمكنني أن أدعوه بإناء عملاق، ليس لقذف الحجارة، لكن لصب هذا السائل الذي أحرق مئات الجنود.

كانت تبدو أكثر تعقيداً بجانب ضخامتها، وكان يحول بيننا وبينها معسكر به ما يقرب من عشرين خيمة كبيرة، يتخللها اثنا عشر سائراً من الحرس الليليون...

" كيف سنهزم كل هؤلاء؟ "

سأل أحد الجنود في خفوت، فأجاب (رازام):

- لو حوت كل خيمة منهم عشرة على الأقل سيكونون أكثر من ضعف عددنا.

أخذت أفكر في صمت بينما يتحدثون، أتأمل المعسكر وأحاول وضع خطة لحل هذا الموقف، حتى قلت بعد لحظات:

- (عادور).. و(خاكان).. وأنت أيضاً.. ستتسللون إلى أقرب نقطة من المعسكر، أريد إسقاط الحرس بكل هدوء، أريد إصابات قاتلة على الفور، ومعرفة إن كان للخيام أكثر من منفذ، لا تتسللوا قرب المشاعل، وتأملوا جيداً الأرض التي تسيرون عليها فلا نريد إصدار أي صوت غريب.. هيا.

انطلق الجنود لتنفيذ الأمر، وظللت مع (رازام) والبقية نتأملهم في ترقب، فقال (رازام):

- هل لديك خطة؟

أجبته في اقتضاب بينما أتأمل المعسكر:

- أعتقد.

التزمنا الصمت متأملين سقوط الحرس بالخناجر والسهام واحداً تلو الآخر، ثم تحرك الجنود بين الخيام يتفحصونها بكل خفة حتى عادوا إلينا بالمعلومات، فقال لي (خاكان):

- جميع الخيم متشابهة.. وكلها بمنفذ واحد.

أجبته باقتضاب:

- رائع.

التفت إليّ (رازام) متسائلاً:

- ما هو الرائع؟

تنهدت بعمق ثم بدأت أشرح:

- سنحاصر جميع الخيم في المعسكر قبل المواجهة، ومن الجيد أن يكون لكلٍ خيمة مخرج وحيد، حيث أن هذا سيجعل المواجهة على جانب واحد تجنباً لهروب أي من هؤلاء الجنود، نحن ثمانون جندياً، سنتقدم إلى المعسكر ليقف كل أربعة منا عند باب كل خيمة في انتظار إشارة بدء المواجهة، أما بقيتنا سيتمركزون في أنحاء المعسكر تحسباً لأي فرار أو مفاجأة.

قال (رازام) في تعجب:

- مفاجأة؟!.. لا يوجد غيرنا وهذا المعسكر، فمن أين يمكن أن تأتينا مفاجأة؟!

- أتظن أن هذه الأبراج قد عبرت الممر الضيق بحجمها الضخم هذا ثم صعدت الهضبة من أقصى الغرب؟!

- من الممكن أنهم قد قاموا ببنائها هنا.

- ومن الممكن أن يكون هناك منحدر شمال الهضبة يصل إلى الإمارة، وإلا ستكون مهمة إمدادهم بالجنود والطعام وهذا السائل اللعين صعبة جداً وطويلة، خاصة في ظل هجوم معاد أو حصار.

صمت (رازام) مفكراً فيما أقول، ولم أنتظر حتى يقتنع أم لا، فقلت:

- عند إشارة البدء سيقتحم كل أربعة جنود الخيمة المحددة لهم في هدوء.. وأكرر في هدوء، سيتخلصون من الجميع بالداخل، ولابد أن أغلبهم نائم الآن بعد هذا اليوم المرهق وهذا ما سيسهل علينا مهمتنا بعض الشيء، أما عن المستيقظين فلن يتوقعوا هجوماً دون إنذار من الحرس، خاصة بعدما حل بجيشنا ما حل به وتراجع.

أجابني الجنود بالموافقة، ثم بدأنا التحرك في هدوء حتى وصلنا إلى بداية المعسكر، وأخذت أوزع الجنود لأماكنهم بإشارات من يدي، ثم توجهت بمن تبقى إلى مركز الساحة وسط الخيام، ورفعت يدي تحت ضوء المشاعل ثم أنزلتها بحدة في إشارة لبدء الهجوم.

بدأ الجنود يقتحمون الخيام ويتخلصون من جميع مَن بها دون جلبة تُذكر، ثم خرجوا جميعاً بعد لحظات وقد أتموا المهمة، فأومأت في رضا بما تم، لكنني فجأة سمعت صوت رفرفة!.. فرفعت رأسي لأرى بعض الطيور تخرج من فتحات بسقف بعض الخيم وتطير نحو أسوار الإمارة، فتقدمت في سرعة إلى بعض الجنود قائلاً:

- أكان هناك طيور بالداخل؟

أجابني أحدهم:

- نعم أيها القائد، كانت لها أقفاص معلقة في سقف الخيمة.

- وكيف خرجوا؟؟!

صمت للحظة حتى أجاب آخر متردداً:

- ر.. ربما كانت هناك فتحة للقفص من السقف مثل الـ...

خبط يدي على جبهتي ثم قاطعته بغلظة:

- اللعنة!

ركض إليّ (رازام) متسائلاً في قلق:

- ماذا هناك؟

التفتُّ إليه وقلت:

- لا وقت للشرح، فلندمر هذه الأشياء في أسرع وقت.

ثم ركضت نحو الأبراج، فركض ورائي الجنود، وأخذنا نخرب فيها قدر ما نستطيع، فنفصل كل مفصل نستطيع فصله، ونقطع كل حبل نستطيع قطعه، بينما أخذ بعض الجنود الأشداء في خلع بعض الألواح الخشبية الضخمة، وفصل الكثير من الأجزاء المعدنية عن الأبراج، ظللنا هكذا نعمل في سرعة لنصف ساعة تقريباً، بينما أتلفت حولي بقلق كل لحظات ثم أعود للعمل، وبعدما انتهينا أقترب مني (رازام) متسائلاً:

- ماذا بك يا (كازان)؟ ما الذي حدث؟

- أتوقع الهجوم علينا في أي وقت.

تساءل مستنكراً:

- هجوم؟!.. وكيف تنبأت بهذا؟.. هل للطيور دخل؟

- ما فائدة أن يضع هؤلاء أقفاصاً للطيور في خيامهم؟.. أتسليهم؟!.. أم أنها للطعام؟!.. ولو أنها للطعام، لماذا يجعلون للقفص فتحة في قماش سقف الخيمة؟

- لتهرب إن شعرت بالخطر!

- هذا هو.

- أتظن أنها مدربة على هذا؟

- بالتأكيد، وإلا لما كانت ذهبت كلها في مسار واحد نحو الأسوار.

خبط (رازام) جبهته بقبضة يده، ثم نظر نحو الإمارة سائلاً:

- وما العمل؟.. أننسحب؟.. أم نعجل بالهجوم؟

- نحن الآن نسيطر على الممر، أظن أنه من الأفضل أن نعجل بالهجوم على المدينة، لعلها فرصة لا تتكرر.

أومأ لي (رازام) ثم التفت وركض في سرعة بينما يأمر في الجنود بجمع بعض الحطب وإشعاله من مشاعل المعسكر، وبالفعل.. ما هي إلا مدة قصيرة وكان الحطب المشتعل يتساقط عند باب الممر، ورأيت المشاعل تضيء في الصحراء إيذاناً ببدء الزحف.

" كم هو مهيب منظر الجيش من أعلى! "

قالها (رازام) وهو بجانبي، فقلت في خفوت:

- أجل.

- هل من شيء لنفعله؟

- نعم، لترسل عشرين جندياً لبداية الهضبة لتأميننا من الخلف، وعشرة أقرب قليلاً منهم، وعشرة بيننا وبينهم.

- حسناً.

ثم تراجع وأخذ ينظم الجنود كي ينفذوا الأمر، بينما أنا أخذت أتأمل الجيش وهو يتقدم حتى اقترب من بداية الممر، فالتفت أنظر إلى نهاية الممر وإلى الجانب الآخر من قمة الهضبة كي ألحظ إن كان هناك أي حركة غريبة أو مفاجئة أخرى.

بدأ الجيش في دخول الممر، فأخذ التوتر يتسلل إلى نفسي حتى ضاق صدري وكدت أن أصرخ فيهم بأن يسرعوا أكثر، حتى بلغ الجيش منتصفه.. ثم ثلثيه.. ثم التقطت أذني بعض الأصوات البعيدة، فنظرت إلى الجهة المقابلة من الهضبة فرأيت تحركات كثيرة تنبئ عن أعداد ليست بقليلة من جنود الإمارة يتحركون في اتجاه قمة الممر، فصرخت في الأسفل:

- ليتقدم الجيش بسرعة.. هيا.. هيا...

أخذت أكررها عدة مرات، حتى ركض (رازام) وبقية الجنود إليّ ورأوا جنود الإمارة يتحركون على الجهة المقابلة للهضبة، فالتفتُّ إلى أحد الجنود آمراً:

- اذهب إلى جنودنا في الخلف وأخبرهم ألا يتركوا أماكنهم مهما حدث..

هيا.

قلتها ودفعته كي يسرع، ثم التفت إلى أقوى الجنود وصرخت:

- لتأتوا بأجزاء طويلة من هذه الأشياء وتجعلوا منها جسراً فوق الممر.

فشرعوا في تنفيذ الأمر بمجرد انتهاء جملتي، ثم أمرت بقية الجنود بأن يطلقوا كل ما يحملون من أسهم نحو الجنود الذين يقتربون أكثر في الجهة المقابلة، فبدأت السهام تنطلق من جانبنا كي نمنعهم من التقدم قدر ما نستطيع، بينما آخرون يدفعون بأقوى الألواح وأطولها فوق سطح الممر، وعندما اتصل أول لوح بالجانب الآخر صحت:

- ليلقي (رازام) و(عازوس) و(ماثير) و(خاكان) بسهامهم هنا ويتبعوني، وليرمي البقية عند طرفّي جنود المدينة ويتركوا القلب لنا، وليتبعونا عند انتهاء أسهمهم.

ألقيت بسهامي وجريت إلى الجسر الضيق وعبرته بحذر إلى الجهة المقابلة، وتحتي قد عبر ثلثي الجيش منتصف الممر، وبمجرد أن عبرت جريت نحو الجنود وأنا أصرخ بكل ما يحمل قلبي من ضيق وغضب، أخذت أبارز العديد منهم وأقتل في البقية، وحولي (رازام) والبقية يقاتلون ويقتلون في العشرات باندفاع كالمجانين، حتى أيقن هؤلاء أنه لا أمل لهم في التغلب علينا، فأخذوا ينسحبون في سرعة راكضين نحو طرف الهضبة البعيد، فقلت في الجنود مطمئناً نفسي معهم:

- سيأخذون وقتاً طويلاً حتى يصلوا للإمارة ولهذا تأخروا في المجيء، هيا إلى الجهة المقابلة فلا قلق منهم حالياً.

عبرنا الجسر الخشبي، وقد كانت مؤخرة الجيش قد تعدت نصف الممر،

بينما قوات المقدمة كانت تقاتل عند أسوار الإمارة بالسيوف والسهام وكرات النار، فناديت أحد جنودي قائلاً له:

- لتأخذ معك خمسة من الجنود ولتذهب إلى معسكر الجيش وتستأذن القائد باسمي لإحضار كتيبة المجانيق إلى هنا.

- أمرك أيها القائد.

ثم تراجع في سرعة لينفذ الأمر، وركضت إلى (رازام) جاذباً إياه وقائلاً له:

- هيا بنا.

- إلي أين؟

- لنذهب لنفتح طريقاً للجيش إلى أسوار المدينة من هنا.

- كيف هذا؟

صحت فاقداً للصبر:

- من الطريق الذي يأتون منه بالإمدادات، ألم أخبرك؟

- هل أصبحت متأكداً من وجوده؟

- لا يمكن ألا يكون موجوداً، هيا.

وركضت معه نحو بقية الجنود الذين كلفتهم بالرماية، حيث ركضنا جميعاً نحو الحافة الشمالية للهضبة، فقال (رازام) وهو يركض:

- يبدو أن الحافة الشمالية قائمة ولا توجد منحدرات.

- انتظر وسنرى جميعاً.

قلتها بحزم آملاً أن أكون على حق بينما نقترب من حافة الهضبة حتى وصلنا إليها، وبالفعل.. كانت قائمة ولا توجد منحدرات، كان أمراً محبطاً بشدة، فهبطت على ركبتيّ وأخذت أحدق إلى أسفل الحافة، فاقترب مني (رازام) وقال:

- أترى شيئاً؟

أجبته في هدوء:

- نعم، لقد كنا نحن الاثنان على حق.

هبط (رازام) بجواري متسائلاً:

- كيف هذا؟!

- لقد تم صنع الأبراج على الهضبة لا في المدينة، لكن أترى هذه القطع الخشبية الكبيرة بالأسفل؟.. أظن أنها كانت سلالم عالية إلى هنا، إذاً فقد كان هناك طريق للإمدادات.

- إذاً فقد حطموه بالتأكيد عندما وصلت إليهم الطيور.

- لا تفسير غير هذا.

- إذاً كيف سنهبط إلى البوابات؟

- لا أظن أن أحد منا يستطيع قفز خمسون قدماً.

- هل نأتي بحطام تلك الأشياء ونلقيها هنا لنستطيع قفز مسافة أقل؟

فكرت قليلاً، ثم قلت:

- فكرة جيدة، رغم أنها ستأخذ وقتاً طويلاً إلا أنه لا شيء أفضل لنفعله

حتى تصل المجانيق.. هيا بنا.

❊ ❊ ❊

" استرح يا (كازان) حتى تتناول الغداء "

قالها الملك وهو يشير للخدم كي يتقدموا بالطعام، فزفر (كازان) في بطء كي يستريح، والتفت إلى زوجته مبتسماً قائلاً بخفوت:

- من كثرة السرد افتقدتك.

ابتسمت (راسيا) وأجابته:

- لقد كنت بجوارك.

اتسعت ابتسامة (كازان) وهو يقول:

- لا أعلم، لكني حقاً شعرت بهذا.

❊ ❊ ❊

بعدما انتهى الجميع من تناول الغداء، قال الملك (لكازان):

- رغم أن تصرفاتك كانت أقرب للوحشية بقدر كبير، إلا أنك احتفظت بعقل منظم وذكي في أصعب المواقف.

أومأ (كازان) للملك شاكراً ولم يدر بم يرد، فتفهم الملك مبتسماً وتابع:

- وهل نجحت فكرة (رازام)؟

- بالفعل أيها الملك، ففي حملة واحدة ذهب أربعون جندياً وأتوا بقطع كبيرة من حطام الأبراج، وقد كان تراكمها فوق بعضها كفيلاً لتقليل مسافة القفز إلى خمسة عشر قدماً.

– هذا جيد.. وماذا فعل الجيش أثناء هذا كله؟

– عندما أمرت الجنود بالهبوط قبلي إلى أسفل الهضبة كانت قد مرت ساعة منذ عبور الجيش للممر، وقد رأيت من فوق الهضبة حينها بأن الجيش قد اقتحم باب الإمارة الكبير، وأستولى الكثير من جنودنا على عدة أبراج فوق السور، وهذا كان كافياً لتأمين دخول أغلب القوات.

– بالتأكيد وقع الكثير من الجنود عند أسوار (شاداسكيري).

– الكثير والكثير منهم، فلقد كان فتح باب الإمارة أمراً ضرورياً للنجاة من السهام التي أمطرها الرماة عليهم من فوق الأسوار والأبراج، هذا.. وإما الانسحاب والمحاولة مجدداً بخسائر لا نعلم قدرها.

– وكيف اقتحموا البوابة؟

– كانت هناك حرباً متبادلة بيننا وبينهم بالسهام، وأثناءها تم رفع أكثر من عشرين سلماً على أسوار الإمارة كانت كافية لتسلق أكثر من مائة جندي أعلى السور كل لحظات، وإن لم تنج بالكامل أولى الموجات منهم.

صمت الملك قليلاً وكان يبدو عليه التفكير، ثم قطع صمته قائلاً:

– أحترم التنظيم والذكاء في العدو وإن كنت لا أحترمه هو.. فلتكمل يا (كازان).

﴿ الفصل الثامن عشر ﴾

بقيت أنا وعدد من الجنود فوق الهضبة حتى منتصف الليل نتأمل ما تطوله أعيننا مما يحدث عند (شاداسكيريٍ)، لم يكن لدينا أي شيء لنفعله سوى انتظار المجانيق، والتي أخذت وقتاً طويلاً حتى بدأت تظهر عند بداية الهضبة بعد منتصف الليل، فمال عليّ (رازام) سائلاً إياي:

– كيف ستصل المجانيق إلى الأسوار؟

– لا أعلم حتى الآن، لكن بعد السيطرة عليها قد يقوم الجنود بمد جسر لها حتى تهبط من الهضبة إلى الأرض، وإلا فلن نستطع اصطحابها معنا فيما هو قادم.

أتممت جملتي وقمت لاستقبال المجانيق التي اقتربت منا، فقام الجنود كذلك واستعدوا معي، حتى وصلت المجانيق حيث أوقفها الساحبين لها والجارّين إياها بالقرب منا، وجاءني قائد كتيبتها قائلاً لي:

– ها هي المجانيق كما طلبت، ماذا بعد؟

– لا شيء، سننتظر حتى السيطرة الكاملة على الإمارة حتى نستطيع بناء جسر لها لتهبط إلى الأرض.

وافقني قائد الكتيبة على قولي وظل معنا بكتيبته نتأمل ما يحدث، حتى انطلقت أبواق الجيش أعلى الأسوار قرب الفجر تعلن السيطرة الكاملة، فتهللت وجوهنا وأخذ العديد من الجنود يصيحون فرحاً بما تم أخيراً،

والتفتُّ إلى قائد كتيبة المجانيق قائلاً له:

– فلتنتظر هنا مع كتيبتك، وسأذهب للمدينة كي أطلب من القائد قوة لبناء الجسر.

أومأ لي موافقاً، ثم استدرت إلى (رازام) وبقية الجنود مشيراً لهم بأن يتبعوني، فهبطنا من سطح الهضبة إلى الأرض وأخذنا الطريق ركضاً إلى الأسوار والبوابة الكبيرة، كنا نركض فوق عشرات الجثث، لكنها لم تكن تساوي شيئاً بجانب الذي رأيناه بمجرد عبورنا البوابة.

كانت هناك المئات من الجثث وآلاف الأشلاء، والكثير من الأسلحة متناثرة في كل مكان، كما كانت النيران تلتهم العديد من المباني والجدران، فأسرعت في سيري كي لا أفكر وتبعني الجنود إلى وسط المدينة حيث كان يظهر القصر العال لحاكم الإمارة، ووجدت القائد يهبط السلم الكبير للقصر، فانطلقت تجاهه حتى وصلت وأديت التحية له، فربت على كتفي مهنئاً:

– أحسنت يا (كازارشان).

أومأت له برأسي قائلاً:

– أمرك يا حضرة القائد.

– كيف حال جنودك؟

– جميعهم بخير، إلا بعض الإصابات أثناء القتال بيننا وبين بعض الذين جاؤوا لاحقاً لمهاجمة الجيش من أعلى الممر، لكن هناك أمر أظنه أهم أريد أن أقترحه لديك يا سيدي.

عقد القائد حاجبيه سائلاً في اهتمام:

– هل هناك مشكلة؟

– لا، لا أيها القائد.. لكن كتيبة المجانيق لا سبيل لها للوصول إلى هنا إلا من الطرف الشمالي الغربي للهضبة، وارتفاع تلك الحافة خمسون قدماً، فكنت أريد أن أقترح عليك يا سيدي أن تأمر قوة من الجنود ببناء جسر هابط لعبورها.

ابتسم القائد وأجاب:

– هذا فقط؟.. حسناً يا (كازارشان).

وبالفعل، أمر القائد بجمع أكثر من ألف جندي لبناء جسر يسمح بإنزال المجانيق، ولم تنتصف شمس اليوم التالي إلا والمجانيق تقف شامخة بساحة الإمارة الواسعة، لكني كنت حينها في اجتماع مجلس التخطيط والحرب بأحد حجرات قصر الحاكم، حيث كان القائد يناقش ما تم في المعركة، كما أثنى على اتمامي مهمتي بنجاح تام، واسهامي في إنقاذ الجيش من الحامية المفاجئة التي جاءت لتصيب العبور بخسائر لا داعي لها.. وبالطبع، اقتراحي الأخير الذي أدى إلى استمرار الاستفادة من خدمات المجانيق في المعارك القادمة.

ثم طلب القائد الكبير ذكر الخسائر، فقال القائد (عادوف):

– بإضافة خسائر الأمس لخسائر اليوم فإننا قد خسرنا حتى الآن ألف وثلاثمائة وسبع من الجنود، وثلاثمائة وثمانية وأربعين خيلاً، ولدينا من الجنود المصابين ألف وأربعة عشر، ومن الخيول مائة وثلاث وثمانون، لكننا قد استعضنا قليلاً عن هذه الخسائر بثلاثة وتسعون من خيول المدينة.

صمت القائد قليلاً في تفكير، كان يظهر على ملامحه الضيق والحيرة معاً،

وبعد لحظات أخذ يحك ذقنه ثم قال:

- لا يمنع انتصارنا حقيقة أننا قد خسرنا الكثير بما لم يكن متوقعاً.

أجابه (عادوف):

- لقد قلتها بنفسك يا حضرة القائد، لقد قابلتنا مفاجآت.

- ولكن بهذه الصورة كيف سنسيطر على مدن (شاداسكيري) الثلاثة المتبقية؟

- أقترح أن نبدأ بالسيطرة على المدينة الوسطى والغربية، فهما الأضعف مقارنة بالشمالية، وندع الشمالية للنهاية، ولعل سيطرتنا على ثلاثة مدن يدفعها للاستسلام لنا أو الفرار إلى البحر.

فكر القائد قليلاً ثم التفت إلى أحد القادة سائلاً:

- كم نسبة المصابين الذين يستطيعون متابعة القتال يا (تاركس)؟

- نسبتهم تقريباً من العُشر إلى العُشرين يا حضرة القائد، والبقية إصاباتهم خطرة ولا فائدة منهم، ونسبة كبيرة من الخيول المصابة تعاني الحروق ولا يمكن أن تسمح بامتطائها والقتال بها.

- حسناً، ليتم التخلص منهم.

عقدت حاجبيّ في استنكار، وظننت أني قد سمعت خطئاً، فتنحنحت وسألت القائد بحذر:

- هل ذكرت التخلص منهم يا حضرة القائد؟

- نعم يا (كازارشان).

- وكيف هذا؟

رفع القائد أحد حاجبيه وأجاب متعجباً:

- كيف يمكن أن يكون غير قتلهم؟

- نقتل جنوداً من جيشنا؟

عقد القائد حاجبيه وأجاب:

- لا فائدة منتظرة منهم في الحرب يا (كازارشان).

- إذاً فليعودوا إلى ديارهم يا حضرة القائد.

- وهل سيستطيعون تحمل جراحهم ونزيف دمائهم سيراً في الصحراء وسط الوحوش أسبوعاً حتى يبلغوا المعسكر أو العاصمة؟.. أظن إن ما نقدمه لهم من نهاية رحيمة أفضل كثيراً من عذاب الاستمرار على قيد الحياة.

أصابني بعض التوتر وأنا أجيب القائد:

- يسيرون في الصحراء؟.. ولِمَ لا يتم ارسالهم ببعض عربات الخيل؟

ظهر انفعال القائد وهو يرد عليّ بنفاذ صبر:

- وهل سنرسل قوة من الخيول ونحن في أمس الحاجة لكل شيء ندعم به الجيش بعد الكوارث التي حلت به؟

بدأ القادة بيني وبين القائد يصيبهم التوتر، فقال أحدهم:

- ماذا بك يا (كازارشان)؟.. هل رق قلبك؟

التفتُّ إليه في حدة وقلت:

- رق قلبي؟!.. أنا أتكلم يا سيدي عن كيفية أن يتخلص جنودنا من

جنود كان يقاتلون معهم جنباً إلى جنب!

- دع رقة القلب هذه لما بعد الحرب.

ضغطت على أسناني وقلت له:

- لا تذكر رقة القلب هذه أمامي يا سيدي.

ضحك أحد المستشارون الجالسون بالصف الثاني خلفنا متهكماً، وقال:

- لا تقس عليه يا (نابيروس)، فيبدو إن موت أبيه قد جعل منـ...

لم يكمل جملته، فقد قمت ودفعته عن كرسيه إلى الأرض وبكل ما أملك من غضب سددت قبضتي إلى صدره بقوة فحطمته حتى كدت اعتصر قلبه داخله، وانطلق الدم من فمه، فانتصب القادة واقفين في فزع، والتفتُّ إليهم قائلاً بانفعال:

- هل سنكمل الاجتماع؟

صرخ فيّ القائد (عادوف):

- هل جننت أيها الجندي؟!

وكاد أن ينزع سيفه إلا أن القائد الكبير قد استوقفه بغضب آمراً:

- توقف يا (عادوف)...

انتقل نظر القائد بيني وبين مستشاره الذي يجاهد كي يتنفس على الأرض، ثم صاح:

- لا يعبث أحدكم مع أحد من الجنود، نحن لم نعد هؤلاء الوحوش كي يعبث أحدنا معهم وإلا فليتحمل ردة الفعل.. خذوه إلى الطبيب.

ثم نظر إليّ وتابع في صرامة:

- تعال معي يا (كازارشان).

هززت رأسي كمن يستفيق وقمت إلى القائد، حيث تبعته إلى خارج الحجرة حتى أحد الشرفات، فالتفت لي بحدة قائلاً وسط غضب هادر:

- هل جننت أيها الجندي؟!.. أتتطاول على قادتك أيها الأحمق؟!.. ألا تملك ذرة احترام لوجودي أو وجودهم؟!

عقدت حاجبيّ في قوة وأنا أجيبه متوتراً:

- لم أقصد أيها القائد، لكن لا أحد يجمع بيني وبين رقة القلب، ويسخر مني ومن موت أبي.

- أتكون نتيجته أن تكاد تقتل أحد مستشاري القائد؟!.. ما دوري بهذا الاجتماع اللعين إذاً؟!

- إن كنت ترى يا سيدي أني أستحق العقاب لحرصي على حياة الجنود وإلتزامي بالقسم الذي أديته فأنا مستعد له.

ازداد تجهم القائد في وجهي، فأشحت بنظري جانباً كابتاً غضبي، تاركاً إياه يفكر بالتأكيد في عدم مقدرته على محاكمتي أمام الجنود، فبرغم الوحشية التي تتسم بها قلوب المحاربين إلا أني أعلم أن الكثير منهم سيميل لحجتي في الإبقاء على حياة زملائهم، والقسم الذي أداه كبار القادة حتى أصغرهم، والقائد هنا لن يغامر بحدوث أي خلافات واشتباكات أخرى بين الجنود بعد الذي حدث عند تلقيهم أمر الملك بإبادة الجميع، ويبدو أن الحيرة هي التي أطالت صمت القائد حتى قطعه بعد لحظات طوال قائلاً:

- لا يمكنني أن أعاقبك الآن لثلاثة أسباب.. أولهم أن الملك تصله أخبارك ولا أتصور أن يرضى بعقاب كبير لِمَن الجيش يحترم قدراته وذكائه وتفانيه من أجله ومن أجل قسمه، ثانياً.. بصفتي القائد لا يمكنني بعد ما فعلته أنت لأجل حماية الجيش أن أعاقبك على إصابة فرد واحد خاصة أنه لم يكن قائداً وإنما مستشاراً، ما لم يكن ذلك تمرداً على الأوامر، ثالثاً.. أن (خازاد) هذا الذي أصبته لم تكن استشاراته ذات فائدة كبيرة لي...

قالها وضحك متهكماً، فابتسمت ابتسامة قصيرة لم تدم لأكثر من لحظة، فنظر إليّ وتابع قوله:

- لم يتبق لي إلا أن أعاقبك لعدم احترامك وجودي، لكني سأتغاضى عنه هذه المرة بإرادتي.. تذكر هذا.. فلتعد إلى كتيبتك يا (كازارشان).

- وبقية الاجتماع؟

- دعني أتولى أنا البقية، وصدقني لا حل إلا التخلص منهم، فهم سيموتون خلال أيام بسبب حالتهم، وإن كنت تفضل.. فيمكنني أن أتركهم في المدينة أحياء حتى يأتيهم الموت دون تدخل منا.

زفرت في ضيق ثم قلت:

- فلتفعل ما بدا لك أيها القائد، لم أعد أهتم.

أومأ لي برأسه في هدوء، فاستأذنته وانصرفت إلى كتيبتي.

❋ ❋ ❋

بعدما انصرفت من قصر الحاكم جلست وحدي أفكر فيما فعلت، فلقد ذكرني هذا الملعون بموت أبي، وعرضني باستفزازه لأن أحرم مما أنجزته حتى

الآن، لكنه استحق هذا بوصفه إياي برقيق القلب لحرصي على حياة الجنود الذين حاربوا معنا، فمعنى أن يحدث هذا بهم ويتم معاملتهم كالقمامة.. أنه إن كنت مكانهم ستتم معاملتي بنفس الطريقة إن أصبت إصابة شديدة، وحينها لن يفيدني ما فعلت وأنجزت من أجل الجيش، لا مكانتي كقائد في القوات الخاصة، ولا كأحد أعضاء مجلس التخطيط والحرب، كل هذا لن يفيدني ولن يحول عن أن تتم معاملتي كالقمامة...

" كيف حالك يا (كازان)؟ "

التفتُ ورائي لأجد أخي الأكبر (كابارشان)، فأجبته باقتضاب:

- بخير.

- حقاً؟.. لا يبدو عليك.

أشحت بوجهي عنه ولم أرد، فجلس بجواري ثم قال:

- علمت ما فعلته لأجل الجيش بالأمس، أنا فخور بك.

- أشكرك يا (كابارشان).

شرد بصره بعيداً وهو يقول:

- يبدو أنك لست في مزاج جيد لتنادي أخيك ببعض التدليل!

لم أجبه، فصمت قليلاً ثم عاد يقول:

- إن كنت تشعر بالضيق لأني لم أهنئك مع الجنود بعد كارثة الممر فأعذرني، فلقد كنت حينئذ في صدمة وغم شديدين.

- أسقط أحد أصدقائك في الممر؟

صمت قليلاً وهو يتأملني بشيء من الضيق، ثم أجاب:

- يبدو أنك قد نسيت أن لك أخ يدعى (كاسان).. أو كان لك.

رفعت بصري إليه سائلاً إياه:

- هل سقط (كاسارشان) في الممر؟!

- نعم.. وهل تعلم؟.. لقد كان أثناء صراعه للنجاة من أمطار ذاك السائل يصيح بي كي أجدك...

صمتُّ مصدوماً ولم أجبه، لكنه تابع:

- لقد كان يحبك يا (كازان) رغم اساءتك له.

- كفى!

قلتها في حدة، فزفر في احباط وظل صامتاً بجواري، وبعد مدة قطعت هذا الصمت سائلاً إياه:

- أقمت بدفنه؟

بلع (كابان) ريقه ثم قال بصعوبة:

- لا.

- لماذا؟!

سألته في استنكار حاد، فأجابني:

- لم يكن مسموح لنا بعد الانسحاب من الممر أن نعود إليه إلا وقت الزحف.

اهتز فكي ثم قلت كأني أحدث نفسي:

- أيعني هذا أن الجيش قد سحق جثة (كاسان) أثناء زحفه؟.. وأنا الذي.. أمّنت الـ...

ثم انتصبت واقفاً وصرخت:

- اللعنة!

فاستدار إليّ العشرات من الجنود قلقين، لكني لم أعبأ بهم واستدرت مهرولاً نحو باب المدينة، فقام (كابان) ورائي لكني استدرت إليه قائلاً في وحشية:

- لا تتبعني.

- لكن الأوامر...

- سأقتل من يتبعني.

ثم تركته وهرولت إلى باب المدينة، ومنه خرجت إلى الساحة ثم دخلت الممر، لقد كان مشهد الجثث المسحوقة تحت أقدام الجنود والخيول التي مرت فوقهم يثير كل شيء يمكن أن يضيق له صدر ومعدة أي إنسان، لكني أخذت رغم هذا أبحث بين الجثث التي تغيرت ملامحها كثيراً.. أو تماماً.

بقيت مدة أبحث بين الكثير من الحشرات حتى وصلت قرب منحنى الممر حيث وجدت جثة (كاسان).. أخي.. كانت وكأنما قد سقطت عليها أمطار من الحجارة، كان الجلد محروقاً وممزقاً وجمجمته أعلاها قد تهشم، فسحبته من بين الجثث وأنا أنادي:

- (كاسان)!

تمنيت لو يجيبني بكلمة لكنه كان درباً من الخرف، فأجلسته مسنداً ظهره

إلى حائط الممر بصعوبة وجلست أمامه أتأمله...

" قلت لك عد من حيث أتيت يا (كازارشان) "

" عد واستعد حياتك "

" أرجوك يا (كازان) "

" هل تريد الهلاك لنفسك أيها الأحمق؟! "

ابتسمت وسط دموعي عندما تذكرت نعت أخي لي بالأحمق، وأخذت أنظر إلى هيئته وأنا أحاول تخيله بينما يصيح وسط الكارثة من أجلي، وتذكرت صيحته التي شجعني بها أثناء اختبارات قتال الوحوش...

" هيا يا (كازان) "

كانت الصرخة الوحيدة الصادقة حينئذ، لم أستطع بعدها تصور أن أحد كان ليصيح بي مشجعاً غيره، خاصة مع صوته ومشكلة نطقه لبعض الأحرف التي تجعله ينطق اسمي وكأنه اسمه، ثم عدت أتذكر آخر حوار بيني وبينه...

" أترفع سيفك عليّ يا (كازان)؟! "

" أتهدد أخاك؟ "

زفرت في حزن ثم مسحت وجهي قائلاً له:

- أنا أحمق يا (كاسان).

ثم اقتربت منه وحملته فوق كتفي، لم يهمني منظره ولا دمه ولا رائحته، وذهبت به إلى الساحة بين الممر والأسوار، خاصة عند ركن مائل في الصخر يصنع ظلاً، ثم وضعته على الأرض برفق وبدأت أحفر بجواره ما يكفي

لاحتوائه، ثم وضعته في الحفرة وأخذت أهيل الرمال عليه، ثم جئت بصخرة صغيرة حادة وحفرت قدر المستطاع بالجدار الصخري فوق مدفنه جملة:

" أخي.. الجندي المحارب (كاسارشان ماثير بوتابيرون) "

ثم قمت وألقيت بنظري على الممر، وخطر على ذهني القائد السابق وأخذت أتصور جثته وعدد أقدام الجنود والخيول التي سحقتها مكانها بالأمس!

زفرت متهكماً على هؤلاء الذين عارضوني في الاجتماع، ثم توجهت إلى المدينة لأجد (كابان) و(رازام) ينتظرانني عند البوابة، لكني تجاوزتهم ولم أحدِّث أحد منهم، وتوجهت للمكان الذي كنت أجلس به وألقيت نفسي عليه كما كنت مستسلماً لتفكيري.

***

عند منتصف الليل أتاني أحد الحرس وأيقظني من النوم مخبراً إياي بأن القائد يريد حضوري، فقمت ساخطاً والضيق يعتصر صدري، وتبعته حتى وصلت إلى حجرة المجلس، حيث كان الكل مجتمع بها ما عدا الذي أصبته، فقال القائد:

- تفضل يا (كازارشان).

فتقدمت وجلست على كرسيّ، وقلت:

- يبدو أنه لم يتم تعويض المجلس بالذي فقده.

ابتسم القائد قائلاً:

- كان من الممكن أن أعوضه بآخر، لكن وجود محارب مثلك يغنيني عن

شخص إضافي.

أومأت للقائد مقدراً كلماته، فأدار رأسه في الجميع قائلاً:

- حسناً أيها القادة، فلندرس خطة مناسبة للهجوم على المدينة الوسطى لإمارة (شاداسكيري).

سألت القائد بشيء من الدهشة:

- بهذه السرعة؟.. ألا يمكن أن ندع الجنود يستريحون يوماً آخر بعد الذي حل بهم؟

- الذي حل بنا يجبرنا على التقدم والإنجاز حتى نعوض الخسارة التي أصابتنا لأجل السيطرة على مدينة واحدة.

- وهل تحيط المدينة الوسطى تضاريس كمثل التي واجهناها؟

- لا، إنها تقع وسط أرض مستوية، يفصل بيننا وبينها ساحات وحدائق متفرقة.

- وما الصعوبة في هذا؟

أجابني (عادوف):

- القائد ذكر أننا لا نريد مواجهة مفاجآت أخرى، ولهذا لن نستسهل السيطرة على أي مدينة من مدن (شاداسكيري).

قال (نابيروس):

- أقترح أن نقوم بحرق جميع الحدائق التي تمثل إمداداً لهم كتهديد، وأن نحاصرهم حتى يستسلموا لنا.

أجابه القائد:

- لا بأس، لكن الحصار قد يطول ولا نريد أي تأخير عن المخطط.

فقلت للقائد:

- ولِمَ لا نقتحم بابها كما حدث هنا؟

- لقد ذكرت أنها وسط أرض مستوية لكن المدينة نفسها فوق ربوة، وبأسوار عالية، ولهذا لا يستطيع أحد أن يقترب كثيراً منها، ولا نستطيع أن نشتبك معهم بالسهام كما حدث هنا، لأن احتمال أن يصيب رماتنا رماتهم الذين يعلوهم بأكثر من مائة وعشرين قدماً سيكون شبه مستحيل.

قال (عادوف):

- إذاً الحل في المجانيق.

وتابعه (نابيروس):

- بالفعل، سنهدم جدرانهم عليهم وبهذا نحطم نقطة قوتهم ولن يصعب علينا فعل أي شيء بعدها.

رد عليه القائد:

- فكرة جيدة، لقد فكرت في المجانيق من أول الأمر، لكني أشعر بأن شيء ينقصنا في الخطة...

ثم التفت القائد إليّ وسألني:

- ما رأيك يا (كازارشان)؟

صمتُّ قليلاً متابعاً تفكيري في الحديث، ثم قلت:

– إن قمنا بقذف الأسوار، سنستغرق وقتاً حتى نتحرك بالجيش من خلف المجانيق حتى باب المدينة، وهذا الوقت كاف لأن يعود الرماة إلى الأسوار ويمطروننا بما لديهم.

تساءل (نابيروس) مستنكراً:

– كيف يعود الرماة إلى الأسوار التي سنكون قد حطمناها بالفعل؟!

فأجبته:

– أقصد بأسوار المدينة أسوار المدينة المتحطمة.

قال القائد:

– إن (كازارشان) يقصد إن الأسوار حتى وإن تم تحطيمها ستظل الكثير من الأحجار في أماكنها، وإن تم هدم سور بأكمله سوف تسقط أغلب الأحجار مكان السور أو خلفه وبهذا يظلون في مكان أعلى منا، ولن نستطيع أن نبعدهم بقذائف المجانيق بينما جنودنا يتقدمون.

عاد (نابيروس) يتساءل:

– وما الحل؟

أجبته في ثقة:

– إعادة بناء المجانيق.

أخذ الجميع ينظر إليّ متعجباً، لكني بدأت أشرح لهم خطتي.

الفصل التاسع عشر

كانت فكرتي بإعادة بناء المجانيق أن تكون منيعة حتى تقترب لأقرب نقطة ممكنة من المدينة، بجانب أن تكون غطاءً للجنود بينما يتقدمون، وكان تخطيطي أن يتكون المنجنيق من برجين من ثلاثة طوابق في المقدمة، كل طابق منها يكفي بالكاد قامة الجنود، وبكل طابق فتحات لرمي السهام والحراب، وبين البرجين فراغ يسمح للحجارة التي يرميها المنجنيق بالعبور، وأن تحمل الحجارة على المنجنيق كي يتحرك بها ولا يكن متوقفاً لتحميل الحجارة من الأرض، ويتم الشحن والضرب أثناء تحركه.

كما اقترحت ألا يكون هناك جنود في المقدمة لسحب المنجنيق، بل يكونون بضعف عددهم في الخلف يدفعونه للأمام لحمايتهم من سهام الأسوار، ويساعد في الدفع زيادة سمك العجلات كي لا تنحرف عن مسارها إلا لضرورة، بجانب أن يكون هناك جناحان مائلان من الخشب في المقدمة لتغطية كتائب الهجوم وعمال الجر من خلفهم.

أما خطتي للهجوم فهي أن تتقدم المجانيق بينما تضرب الأسوار، ولا تتوقف عن الضرب حتى لا يتجمع رماة المدينة عند الحطام.. كذلك حتى نصل لأسفل الربوة، وعندها تتحرك كتائب الرماة من تحت أجنحة المجانيق إلى الأسوار ثم يتبعها كتائب الهجوم مقتحمين المدينة، ومن ثم بقية الجيش.

" لابد أنك تمزح! "

قالها (نابيروس) بسخرية، فأجبته في تهكم نتيجة ثقتي بفكرتي:

- إن كان لديك ما هو أفضل فلتتفضل بطرحه أيها القائد.

أجابني بغضب:

- هل تسخر مني؟.. ألا تعلم كم يتطلب ما تقوله من وقت؟!

أشار القائد لنا بالصمت قائلاً:

- كفى...

ثم التفت إليّ وتابع:

- بالفعلِ يا (كازارشان)، مع أن خطتك ذكية، ولكن ألا ترى أنها ستكلفنا وقتاً؟

- أعلم هذا أيها القائد، ولكن إن شارك ألفان من الجنود على الأقل في هذا قد ننهي بناء خمس مجانيق في أسبوع على ما أعتقد.

- أسبوع وقت طويل، وسنحتاج لبضعة أيام أخرى كي يرتاح الجنود قبل الزحف.

- لكنه أفضل من حصار طويل، أو مفاجأة مع نصف هذه المدة لكن بضحايا منا قد يبلغون أضعاف ما إن استخدمنا هجوم المجانيق التقليدي الذي تم اقتراحه، هذا إن افترضنا أن المجانيق بحالتها الراهنة صالحة لتنفيذ أي خطة.

أخذ القائد يفكر لبرهة، ثم التفت للجميع وقال:

- ما رأيكم؟

صمت الجميع للحظة ثم أعلن أغلبهم موافقتهم، فشرعت في رسم شكل المنجنيق الذي أتصوره.

***

في تسعة أيام ومع أربعة آلاف جندي تم تفكيك المجانيق العشر القديمة وبناء ستة جديدة أكبر مع التزود بأخشاب المدينة، وتم شحنها بالأسلحة والحجارة، وتمكنت كتائب من الرماة على الرمي منها، كما تم إجراء عدة تجارب على دفعها وتوجهيها.

وقد أثنى عليّ القائد كثيراً لهذا وقال لي بحماس:

- أنت من الآن قائد بمعنى الكلمة والمنصب لكتيبتك، ولست مجرد كبير فوقهم بمسمى شرفي.

اتسعت ابتسامتي لحماسة القائد، وأومأت برأسي في تقدير قائلاً:

- أشكرك يا سيدي، أتمنى أن أكون عند حسن الظن دوماً.

- سيكون لك قريباً شأن أكبر يا (كازارشان)، أنا على يقين من هذا.

سعدت كثيراً لأن ألقى التقدير وأن أحصل على هذه المكانة الكبيرة التي بدأت بتمردي على القائد السابق، وكانت نتيجة هذا أفكار متتابعة لحماية الجيش وإنجاز الكثير له، شفعت لي عند القائد تهوري السابق، كما أن انهاء أول اثنين من المجانيق على أرض الواقع زاد من حماسة القائد لاستكمال البقية حتى وإن طال عن الأسبوع المتوقع عدة أيام، وبدأت أنتظر بفارغ الصبر إشارة الزحف كي أرى المجانيق التي اقترحتها وهي تعمل وتؤدي مهمتها المرجوة.

مرت ثلاثة أيام أخرى للراحة، حتى أشرقت شمس اليوم الرابع والجميع يحتلون أماكنهم في حماسة خارج أسوار المدينة خلفنا في مواجهة أسوار المدينة الوسطى، فالرماة داخل أبراج المجانيق، وعمال شحن المنجنيق في المؤخرة،

وكتائب الدفع في الوراء، أما كتائب الرماة والهجوم فتحت الأجنحة الواقية، وبينما نحن كذلك قال لي أحد الجنود مازحاً:

- من الجيد وجودنا تحت الظل هكذا.

أجبته بابتسامة قصيرة وعدت أنتظر إشارة الهجوم من القائد، ولم تتأخر.. فبعد لحظات أنطلق صوت الأبواق إيذاناً ببدء الزحف، فعلت صيحات الجنود في الخلف استعداداً لدفع المنجنيق، وسمعنا أصوات الاحتكاك بين أجزاء المنجنيق تصدر حتى بدأ في التحرك ببطء شديد.. ثم أخذ يسرع قليلاً فقليلاً.. ونحن نخطو بجواره بينما يتقدم.

كان الوضع مزعجاً بسبب وقوفنا بجانب المنجنيق الذي يصدر أصواتاً مرتفعة بينما يتحرك، بالإضافة إلى صيحات الجنود الذين يدفعونه، بجانب ضوضاء شحن المنجنيق وقذف الحجارة الذي كان مزعجاً بدرجة أكبر، لكني تحملت لأنها فكرتي.. ولأنه الحل الأفضل في رأيي.

ثم أتى صوت مزعج هو الآخر.. وهو صوت رشق مقدمة المنجنيق وأجنحته بالسهام الغزيرة الآتية من الأسوار، والتي كان منها ما يصطدم بالمنجنيق وأجنحته فيسقط على الأرض فندوسه بالأقدام بينما نتقدم، وحقيقة.. كان منظر السهام مقلقاً لأن منها ما كان برأس حديدي يمكن أن يخترق خوذاتنا، وهذا ما جعلني أتجنب أن أطلب من أحد الجنود أن يطل برأسه للحظة كي يرى أسقطت أسوار المدينة أم لا.

توقف المنجنيق، فعلمنا أننا وصلنا إلى أسفل الربوة، فصحت في الجنود:

- هجوم.

فخرج رماة كتائب الهجوم من تحت الأجنحة وتبعناهم بعد لحظات

إلى أعلى الربوة، كانوا يؤَمنون لنا محيطنا كي نتقدم حتى وصلنا إلى حطام الأسوار، فتسلقناها في سرعة إلى داخل المدينة.. و...

" يا للهول! "

لأول مرة منذ بدء الحرب أتوقف للحظات أثناء القتال، وتوقف كذلك العديد من الجنود حولي يتأملون المدينة، كانت عبارة عن تحفة كبيرة، كان كل ركن فيها يشع بجمالها وفخامتها، كانت هناك جدران وتماثيل منحوتة كثيرة التفاصيل، وأسطح وأرصفة براقة ومغطاة بالزجاج الملون، وهناك نافورات معقدة بالتأكيد يأتيها الماء من البحر، وحدائق مزهرة وأخرى مثمرة، وميادين صغيرة مرصوفة بتدرجات رخامية...

" أسندمر كل هذا؟ "

قالها جندي في رهبة ولم أستطع الرد، لكن عندما لاحظت أن بقية الجنود بدأوا يتوقفون أفقت من حالتي وصحت:

- هجوم.

لم تخرج مني بكامل قوتي كما السابق، وبدأنا نتبع سكان المدينة للقضاء عليهم، ونقتحم البيوت ونسفك دم من فيها إن وجدوا، وتخطى معظم الجيش بعد مدة حطام الأسوار وأخذ يتبعنا وهو يدمر الشوارع ويحرق المبان بسكانها، وتقدمت مع كتيبتي إلى القصر الكبير لأمير المدينة، فاقتحمناه لنجد كتيبة من الجنود في انتظارنا.

تقدمنا إليهم ونشبت مبارزات بيننا، وبينما أبارز أحدهم إذ جاء آخر ليضربني بالسيف في ذراعي، فشق لحمي من أسفل الكتف حتى اصطدم سيفه بالعظام، فالتفت إليه وأنا أصرخ من الألم والغضب وطعنته بالسيف

في صدره، لكن في نفس اللحظة ضربني الآخر في جنبي الأيسر أسفل الدرع ففتح جزءً من بطني، فكتمت صرختي والتفتُّ إليه قاطعاً يده حاملة السيف وصحت:

- لن تجعلوني من القمامة أيها الملاعين.

ثم ألقيت سيفي وهجمت عليه بيديَ العاريتين فأسقطته على الأرض، وبكلتا قبضتيّ أخذت أحطم في جمجمته وصدره وأنا أصرخ بلا وعي بينما أنزف، فهرع إليّ بعض جنودي وهم يصيحون بي:

- كفى، كفى أيها القائد.

ثم جذبوني عنه وأحدهم يقول ويكرر:

- كفى، لقد مات أيها القائد.

أخذت أتنفس وأنظر حولي بلا وعي تقريباً، فقال أحد الجنود:

- فلتأخذوه لأحد أطباء المعسكر فهو ينزف بشدة.

امتدت يدهم نحوي لتساعدني على الوقوف، لكني دفعتهم عني وركضت إلى داخل القصر، فصاح فيهم الجندي:

- اتبعوه.

أخذت أركض إلى حجرة الأمير حتى وصلت إلى بابها، فاندفعت نحوه بكل قوتي وأنا أصرخ.. فاهتز الباب، ثم تراجعت واندفعت مرة أخرى وأنا أصرخ كالمجنون:

- لن أكون قمامة.

انخلع أحد مفاصل الباب، فدفعت إحدى درفتيه لأجد الأمير في حماية

جنديان يحاولان تهريبه، فاستدار أحدهما إليّ بسيفه فرفعت مائدة من الحجرة وضربته بها فسقط أرضاً، فضربته بطرفها على صدره، فاستدار الآخر إليّ بسيفه وأخذ يرمقني بترقب، فألقيت بالمائدة وصحت مشيراً إليه بالتقدم:

– هيا أيها الجبان.

رفع سيفه ثم وجهه نحو صدري وهو يندفع تجاهي، لكن السيف توقف عندما قبضت على نصله بكلتا يديّ، فحاول الجندي أن يسحبه أو يدفعه فلم يستطع، فقبضت أكثر على نصل السيف وسحبته لأسفل إبطي الأيمن فجأة فوصل الجندي باندفاعه إليّ فضربته بقبضتيّ في وجهه ثم صدره، ثم قبضت على وجهه فانغرزت أصابعي في عينيه وفي جانبي وجهه وهو يصرخ، وأخذت أضغط بكل قوتي حتى اعتصرت عينيه وحطمت جانبي فكه، ثم تركته ليسقط على الأرض لأرى الأمير من خلفه ينظر إليّ في رعب.

" أرجوك لا تقتلني "

صاح بها الأمير بينما أتقدم إليه...

" خذ كل ما تريد "

قالها وهو يتراجع في هلع، فقلت في انهاك متهكماً:

– لو كان يهمني المال لما أتعبت نفسي في الوصول إليك، فإن جمعت ربع ما في طريقي إليك لكونت ثروة.

وانتهت جملتي مع وصولي إليه، فدفعت قبضتي إلى عنقه وقبضت عليه قائلاً:

– جنودك كادوا يجعلون مني قمامة تُلقى في الممرات لأحقر حشرات

خارج أسوارك...

اقتربت برأسي محدقاً به وتابعت:

- لا تعلم تلك الحشرات القذرة أي شيء عن هذا الذي تتغذى عليه، وما الذي جاء به هنا ليموت!

جاهد الأمير كي ينطق وقال:

- أرجوك.. آ.. لا...

اعتصرت عنقه بشدة لم تمنعها ارتجافات يدي، ثم تركته ليسقط جثة بلا روح كالتماثيل حولي، واستدرت لأجد جنودي ينظرون إليّ ولا ينطقون، والجندي الذي ضربته بالمائدة ينظر لي بخوف، والآخر الذي اعتصرت وجهه يتأوه، فتقدمت إلى جنودي متخطياً إياهم إلى الباب، وقبل أن أخرج منه قلت:

- تخلصوا منهم.

خرجت من القصر للمدينة لأجدها قد دُمرت أجزاءً منها وحُرقت أجزاءً أخرى، فأخذت أسير في شوارعها بين الجنود مترنحاً حتى سمعت من ينادي عليّ، فالتفت وإذ هو (رازام) يركض ناحيتي قائلاً في فزع:

- ماذا حل بك؟

لم أجبه، فعاد يقول:

- لابد أن تذهب للطبيب.

لم أعد أتمالك قدماي، فاستندت على (رازام) وقلت:

- فلتأت بـ...

وملت فاقداً قوتي، فالتقطني (رازام) صارخاً بأعلى صوته في الجنود:

- فلتأتوا بالطبيب، بسرعة.

ثم أجلسني إلى حائط وجلس بجانبي بينما يحاول إيقاف نزيفي، لكني لا أعلم ماذا فعل بعد هذا، فلقد أخذت الدنيا تظلم من حولي والأصوات تبتعد حتى هدأ كل شيء.

***

بدأ اجتماع التخطيط والحرب في إحدى حجرات قصر الأمير، لكن بدوني هذه المرة، حيث قال القائد:

- ما هي خسائرنا يا (عادوف)؟

ابتسم (عادوف) في شيء من الرضا وأجاب:

- خسائرنا لا تكاد تُذكر يا حضرة القائد، فخسائرنا من الجنود اليوم تسع وأربعون بالإضافة لسبع وستون مصاباً، إصابات أغلبهم ليست خطيرة، ولم يُصب خيل واحد من خيولنا إصابة تبعده عن مسار الحرب.

ابتسم القائد وهو راضٍ بدوره قائلاً:

- هذا شيء عظيم، إن ما فعله (كازارشان) لا نستطيع إنكاره، فبعدما كنا نتوقع أن نسيطر على المدينة بحصار قد يصل لأسابيع، أنجزت فكرته هذه المدة إلى أيام في بناء المجانيق، وبضعة ساعات فقط في السيطرة على المدينة.

قال (عادوف):

- رغم اختلافي معه سابقاً، لكني أعترف بأنه لا يوجد جندي في الجيش يستطيع أن يعوضنا عنه.

- بكل تأكيد.

تنهد القائد عميقاً وزفر ببطء، ثم طرق بأصابعه على المائدة للحظات، وعاد يقول:

- منذ أسبوع أمرني الملك في رسالة أنه عند فتح مدينتين من إمارة (شاداسكيري) يجب أن نسترح قليلاً ما دام مخططنا الزمني يسمح، وبما أن فكرة (كازارشان) اختصرت علينا أسبوعاً أو اثنين ربما، فلا أجد ضرراً من أن نأخذ عشرة أيام من الراحة.. وحتى تنتهي هذه الفترة.. ما خطتنا لغزو المدينة الغربية؟

تنحنح (نابيروس) وقال:

- إن المدينة الغربية ليست منيعة كمثل هذه المدينة، سكانها من الحمقى الأغنياء، وبها الكثير من الريفيين الذين يعملون بزراعة الحقول والحدائق وصنع الخبز والطعام.

- وجيشها؟

- هذا هو خط دفاعها الوحيد، لأن أسوار المدينة ليست عالية بشكل ملحوظ حفاظاً على الرقي والفخامة، لذا فقوة جيشها ليست في الرماة كما هنا، بل قوته في عدده الكبير نسبياً من الفرسان.

أخذ القائد يفكر قليلاً، ثم تساءل مستنكراً:

- يتنازلون عن حماية المدينة بالأسوار والقلاع حفاظاً على جمالها!

تنحنح (عادوف) ثم تساءل:

- ألديك فكرة ما سيدي القائد؟

- هذا يعني أنهم لن يسمحوا بالقتال داخل المدينة، وأن جيشهم سيحميها من الخارج قدر المستطاع.

- هذا هو الأرجح.

اتسعت ابتسامة القائد في رضا، وقال:

- إذاً فالأمر سهل جداً...

ثم ضحك ضحكة قصيرة وتابع بينما يضرب المنضدة بقبضته:

- فلنسحقهم بالمجانيق إذاً ولا حاجة لإرهاق أنفسنا بمعارك ومبارزات.

ثم أخذ يضحك، فضحك الجميع في الاجتماع تأييداً له، وبعد أن هدأت الضحكات قليلاً تنحنح (نابيروس)، وقال في تردد:

- لي مقترح أيها القائد وأرجو ألا يُساء فهمي.

التفت له القائد قائلاً في اهتمام:

- تفضل يا (نابيروس).

- إن أغضبك مقترحي.. فكأني لم أقله.

ضحك القائد ضحكة قصيرة ورد عليه:

- فلتقل ما عندك يا هذا، لا تخرجني من سعادتي.

ارتبك (نابيروس) قليلاً وتابع:

- حسناً.. حسناً.. آ.. عندما سيطرنا على هذه المدينة وقضينا على مَن فيها، وجدت أن نسائها في الحقيقة.. غاية في الجمال، أو هكذا بدوا لي.. لا أعلم...

ضحك (نابيروس) ضحكة متصنعة في تردد، ثم تابع:

- فكنت أريد.. أقصد.. عندما نسيطر على المدينة التالية ألا نقتل نسائها.. أو.. لا نقضي عليهم على الأقل.

صمت القائد قليلاً، ثم رد بصرامة:

- أنت تعلم يا (نابيروس) أنه ممنوع علينا مثل هذه الممارسات في الحرب.

أجابه في ارتباك وتوتر:

- أعلم، أعلم أيها القائد.. لكننا لا ندري كم ستطول الحرب، وكم سنرى من نساء لن تطولها أيدينا حتى تنتهي جميع معاركنا ونجد أننا قد قتلنا الجميع.

صمت القائد للحظات، فعاد (نابيروس) يقول:

- إننا قد نأخذ راحة بعد فتح المدينة التالية، وقد اتفقنا أنها سهلة مقارنة بما عانيناه مع المدينتين السابقتين، فما الضرر الذي قد يصيبنا؟

أخذ القائد يفكر، كان يبدو عليه التردد، وبعد لحظات قال:

- ما رأيكم أيها القادة؟

بدا على بعضهم التردد والحرج، فيبدو أن (نابيروس) لم يكن الوحيد بتفكيره هنا، بل كان فقط الأكثر تبجحاً في التعبير عن رغبات هي مشتركة في الخفاء، لكن رغم هذا وافق أكثر من نصفهم على ذلك في هدوء بادعاء أنه لا ضرر، ولربما ساعد في رفع المعنويات كذلك، بينما التزم البقية الاعتراض بصمت لأنهم لم يروا أن هذا الخطأ يستحق أن يختلف أو يتشاجر من أجله المجلس، فقال القائد:

- حسناً، بعد القضاء على جيش المدينة التالية سنعلن في الجنود بأننا لن نقتل نسائها حتى الاستعداد لغزو المدينة الأخيرة من هذه الإمارة.. الجميلة!

ابتسم القادة في تردد كي يزيل الحرج، بينما العديد منهم يكتم ضحكة كبيرة.. وسعادة أكبر داخلهم.

***

" إنه يفيق الآن "

فتحت عيني في بطء لأجد (رازام) ورجل آخر ينظران إليّ في ترقب وسعادة، فقلت بشيء من الوهن:

- أين أنا؟

ابتسم (رازام) وربت على صدري في سعادة قائلاً:

- أنت في خيمة الطبيب يا عزيزي.

" بمَ تشعر الآن؟ "

التفتُّ للطبيب وأجبته:

- لا أشعر بشيء تقريباً.

ابتسم والتفت إلى (رازام) في تفاؤل قائلاً:

- رائع!

عقدت حاجبيّ في حيرة وسألته:

- ما هو الرائع؟

اتسعت ابتسامته بينما يجيب:

- إن (رازام) قد تولى كل شيء تقريباً في علاجك، وأنا لم أفعل شيء سوى أن خيطت جراحك.

التفتُّ إلى (رازام) متعجباً وتساءلت:

- حقاً؟!

فأجابني الطبيب:

- حقاً يا بني، لقد عالجك بأشياء لم أتعلمها في حياتي ولا المعسكر.

ابتسم (رازام) قائلاً:

- حياة الواحة أفادتني كثيراً، لقد علمني كل من أبي ورحلاتي الكثير من الطرق العلاجية.

أكمل الطبيب:

- لقد طهر جرحك بأسلوب خاص، وبعد أن خيطت جراحك وضع هو عليها عجينة ما صنعها من بعض الأعشاب، وأخبرني أنها ستسرع من التئام جروحك وشفائها.. وكان معدل تحسن حالتك مفاجئاً لي.

اعتدلت من رقدتي لأجلس، ثم قلت:

- هل ظللت هنا لفترة؟

أجابني (رازام):

- يومان بخلاف يوم إصابتك.

ارتفع حاجبيّ في تعجب وقلت:

- هذا كثير!.. وما أخبار الجيش؟

– الجيش مستقر في المدينة، ونحن الآن في راحة لمدة عشرة أيام كما أعلن القائد.

تقدم الطبيب لي بكأس من الشراب، فسألته:

– ما هذا؟

– إنه شراب أعده (رازام) كي يطهر دمك ويعوضك عما فقدته.

التقطت الكأس وصمتُّ قليلاً، ثم التفت إلى (رازام) قائلاً:

– لم أكن لأتصور هذا، ولكني مدين لك يا (رازام).

ابتسم في حرج وأجابني:

– لا عليك يا (كازان)، لقد قمت بواجبي، كما أني أعلم أنك تكره هذا الشعور.

ابتسمت بدوري قائلاً:

– نعم، لكن عليّ أن أعترف بهذا.

أتممت الجملة ثم رفعت الكأس لأتناول الشراب في صمت.

***

بعد ساعة تقريباً سرت مستنداً إلى (رازام) خارج الخيمة لأجد أننا بوسط ساحة المدينة، فنظرت إلى (رازام) متعجباً، فابتسم قائلاً:

– لم أكن أريد أن يتم علاجك إلا في خيمة فهي أفضل لي من الأماكن المغلقة.

– ومتى سيتم شفائي؟

- بعد خمسة أيام ستستعيد حيويتك مع تكثيف التداوي بما أعددته لك، لكن احذر الحركات العنيفة حتى تلتئم جروحك تماماً.

أومأت له، ثم التفتُّ أدير نظري في المدينة لأرى مدى الدمار الذي حل بها، فتمتم (رازام):

- دمروا سنيناً من التعب في بناء هذا الجمال.. إنها همجية، أليست كذلك؟

شعرت بأن كلمته ترددت داخلي، وتذكرت قول (راسيا):

- لا يمكن أن تتصور ألم القلب عندما ترى تعبه لسنوات في شيء يحبه يضيع في لحظات، وبسبب أناس همجيين.

" نعم "

قلتها في تلقائية كأني أجيب (راسيا)، فقال (رازام):

- ماذا؟!

انتبهت له وأجبت:

- لا شيء.

ضحك (رازام) قائلاً:

- ظننتك أخيراً ستوافقني على أمر ما.

انتبهت إلى مجموعة من الجنود بأحد الشوارع يحاولون انتزاع شجرة مثمرة ليسقطوها أرضاً، فصحت:

- أنتم!

التفتوا إليّ حيث توجهت إليهم مسرعاً وتبعني (رازام) قلقاً، فقلت لهم:

- ماذا تفعلون؟

قال لي أحدهم:

- نريد ثمار هذه الشجرة.

- ولِمَ لا يتسلقها أحدكم ويلقي بالثمار لكم؟

أجابني آخر في تهكم:

- وهل سننتظر حتى يتسلق أحدنا ويقذف لنا ثمرة تلو أخرى؟

أجبته في غضب:

- حقاً؟!.. وكأنكم لا تحاولون انتزاعها منذ مدة!.. بينما تسلق أحدكم لإلقاء الثمار لن يستغرق مثل هذا.

ثم استدرت غاضباً وأكملت سيري، فتبعني (رازام) قائلاً:

- رغم أن ما فعلته قد أعجبني، لكن الغضب ليس جيداً لك.

- دعني وشأني.

ضحك (رازام) وقال:

- وها قد عاد (كازان)!

﴿ الفصل العشرون ﴾

بينما أنا راقد بفراشي في خيمة الطبيب قرب الشروق دخل القائد علينا في هدوء، فابتسم وقال:

- من الجيد أن أجدك مستيقظاً يا (كازارشان)، سعيد بعودتك لنا.

اعتدلت وقمت إلى القائد أحييّه، فقال مبتسماً وهو يشير إليّ:

- اجلس، لا أطلب منك رسميات هنا.

ثم أمسك بذراعي وساعدني بالجلوس على الفراش ثم جلس بجواري، ربت على ركبتي مشجعاً وقال بحماسة:

- ثلاثون عاماً مروا عليّ في الحياة العسكرية ولم أجد داهية مثلك يا (كازارشان).

حاولت أن أخفي تهكمي وأنا أجيبه:

- وأنا أيضاً.

ضحك القائد وقال:

- لك حق، فلتنظر بفضلك إلى ما قد أنجزنا.

لم أرد أن أبين مقصدي من ردي عليه، لكني تجاوزت الأمر وسألته:

- متى الهجوم التالي يا حضرة القائد؟

نظر القائد إلى الطبيب، فقام الأخير مرتبكاً واستأذن خارجاً من الخيمة في

سرعة، ثم عاد إليّ القائد بنظره قائلاً بجدية:

– هذا ما جئت إليك من أجله، بعد الاطمئنان عليك بالطبع.. لقد عقدنا اجتماعاً يوم سيطرتنا على المدينة، اتفقنا فيه على أشياء عدة، وأريد أن أعرض عليك الخطة لتعلمها كأحد أعضاء المجلس، بالإضافة إن كان لديك أحد التعديلات أو الاقتراحات.

ثم أخذ يذكر لي معلومات عن المدينة وعن الخطة، بجانب آراء بعض القادة، حتى انتهى فقلت:

– يبدو أنها بسيطة بالفعل، ولا تحتاج لأية اقتراحات.

تنهد القائد براحة ثم قال مبتسماً:

– هذا جيد...

ثم قام قائلاً بحماس:

– أتركك لتستريح الآن.

تنحنحت في قوة وقلت:

– لقد شرفتني بزيارتك أيها القائد.

استدار إليّ قبل خروجه من باب الخيمة وتأملني للحظة ثم تساءل:

– هل تجعلك الحرب تفتقد شيئاً ما؟.. أي شيء؟

صمتُّ للحظة مفكراً، ثم أومأت برأسي نافياً وأجبت:

– لا أعتقد، الحرب هي حياتي الآن.

– هذا جيد.

قالها القائد مبتسماً في شيء من الرضا ثم خرج.

***

قضيت الأيام القليلة المتبقية قبل الزحف في التدريب لاستعادة مرونة حركتي قدر الإمكان، فبرغم معارضة (رازام) الشديدة لنشاطي الذي يتعارض مع الراحة التي نصحني بها، إلا أني لم يكن لدي استعداد للتخلف عن المعركة القادمة، لا أريد أن أشعر أني سأصبح احدى القمامات التي يخلفونها ورائهم، حتى لو جزئياً أو مؤقتاً.

عند شروق شمس اليوم المنتظر كان الجيش في أماكنه استعداداً لغزو المدينة الغربية، وكنت أتجه لأتخذ مكاني فقابلتني العديد من الصيحات والتحيات السعيدة لشفائي وحضوري المعركة، وذلك حتى وصلت إلى جانب (رازام)، فقلت له:

- بدأت أضيق من كثرة هذا.

ابتسم وتساءل:

- أكل هذا الضيق بسبب مئات الجنود فقط الذين رحبوا بعودتك للجيش؟!

قالها وضحك، فعقدت حاجبيّ قائلاً دون أن التفت له:

- لا أظنك ستسعد هكذا لو كنت مكاني.

- ومن قال لك؟.. أن أكون معجزة الجيش هذا شيء يسعدني.

- معجزة الجيش هذا كاد أن يُقتل منذ أيام ويصبح كالقمامة التي تركناها خلفنا في الممر.

- كنت أظن أن الموت في الحرب هو شرف كبير بالنسبة لك وللكثيرين هنا!

ضحكت متهكماً وأجبته:

- أن ترى الحالة التي ستصبح عليها بعدما تموت مهما كانت خدماتك بالجيش.. ستكره هذا الشرف اللعين أو حتى مجرد دعوته بالشرف.

- أنا أكره الموت في كل الحالات، لكني لم أتوقع أن أسمع هذا منك أنت.

زفرت في ضيق ولم أجبه، وعدت لانتظاري بدء الهجوم، فقد كان يقف أمامنا على مسافة شبه بعيدة ما يزيد عن خمسة آلاف جندي، ورأيت على أرض الواقع أن فكرة المجانيق هي أيسر السبل، فبرغم أن جيشنا يبلغ عدده ما يقرب من خمسة أضعاف ذلك الجيش، لكن يمكننا أن نتجاوز أي خسارة ولو بسيطة ما دام في استطاعتنا هذا باستخدام المجانيق.

وبينما أفكر سمعت أصوات المجانيق الستة تتقدم جميعها من الخلف وسط الصفوف حتى استقرت متجاورة قرب المقدمة، ولم تكد تستقر حتى انطلق صوت الأبواق، فيبدو أن القائد لم يُرد أن يعطي الجيش الذي أمامنا فرصة للتفكير لفعل أي شيء يمكن أن يربك خطتنا.

ومع انطلاق الأبواق انطلقت قذائف المجانيق، فوضع أغلب جنود المقدمة أياديهم على آذانهم وانكمشوا في شدة، فقد كانت الضوضاء عالية إلى حد كبير، والأرض تهتز تحت فعل ستة مجانيق عملاقة ومتجاورة تعمل في نفس الوقت، فأخذت أنظر بينما أضع يديّ على أذناي إلى الأحجار الثقيلة وهي تسقط وسط حامية المدينة فتسحقهم ثم تتقدم على الأرض لسرعتها فتصيب المزيد منهم.

وبعد لحظات رأينا جنود الحامية يبتعدون عن مجال القذائف، لكن بعكس المتوقع كانوا يتجهون نحونا صائحين، فانطلقت الأبواق مجدداً من خلفنا فتوقفت المجانيق، وعلمنا بأن هذا إيذاناً بالقتال، فانطلقت كتائب الهجوم مع مقدمة الجيش نحو جنود الحامية الذين يتقدمون نحونا، فبرغم أن أعدادهم لم تكن قليلة لكن القذائف قد فرقتهم وألغت تنظيمهم، وقد كان هذا في صالحنا لسهولة اختراقهم بالخيول، وتركهم يواجهون الجيش بأكمله خلفنا بينما نحن نتجه إلى باب المدينة ونقتل ما تبقى من شراذم الحامية هناك.

اقتحمنا باب المدينة لنجدها جميلة وراقية هي الأخرى، لكننا لم نكد ننتهي من السيطرة على مخارجها ومحاصرة سكانها حتى سمعنا الأبواق من بعيد تأمر بوقف القتال، فارتبك الجنود من حولي وأصابتني الحيرة، نظرت خلفي لأجد أن الجيش قد قضى على جنود الحامية، فتساءلت في صوت مسموع:

- لِمَ التوقف؟!

لم يجبني أحد.. فكلنا لا نعلم، ولم يكن لدينا إلا انتظار تقدم الجيش حتى باب المدينة، وبينما ننتظر سألني (رازام):

- أيمكن أن يأمرونا بعدم تدمير المدينة؟

بدا على وجهي عدم الاقتناع، فأجبته:

- ولِمَ هذه بالتحديد؟.. إنها أصغر من سابقتها، ولا أظن أنها أكثر جمالاً منها وغنى، وحتى إن كانت كذلك.. لا أفهم لِمَ؟!

أخذ جناحا الجيش الأيمن والأيسر ينفصلان عن القلب ليحاصرا المدينة من الخارج، فقلت في غضب:

- إن كان هناك تعديل في الخطة فلمَ لم يخبروني؟!

أجابني (رازام):

- ربما هو تعديل جديد صدر الآن.

- وما فائدته؟.. فالوقت الذي سيستغرقونه حتى يصلوا إلى هنا كافياً لكتائبنا في السيطرة تماماً على المدينة، والقضاء على من فيها إن لم يريدوا تدميرها.

أخذت أتأمل الجيش بينما يحاصر المدينة ورأسي تكاد تنفجر من محاولة الوصول إلى تفسير لكل هذا، وقررت الصبر حتى يتقدم قلب الجيش ومؤخرته حتى باب المدينة لأتحدث للقائد، ثم لمحت أحد القادة الذين أجدهم في اجتماع التخطيط، فتقدمت إليه صائحاً:

- ما الذي يحدث أيها القائد (سروجا)؟

- إنه أمر القائد.

قلت في ضيق:

- أعلم هذا، لكن ما الذي يحدث الآن بالضبط؟

- الجيش يحاصر المدينة لكي يمنع أي أحد من الهروب.

- ولِمَ لم يسمح لنا بإحكام السيطرة على المدينة والقضاء على من فيها؟

تردد (سروجا) قليلاً، ثم أجاب:

- القائد أمر بألا يتم قتل أحد حتى يصل.

ثم تقدم وتركني في حيرة تكاد تفتك برأسي، لكني تركت مكاني عائداً

لكتيبتي و(رازام) الذي ينتظرني بكتيبته، فأشرت له أن يتبعني بجنوده إلى حيث ينتشر الجيش داخل المدينة، حتى وصلنا لما كان بالتأكيد قلبها، حيث ساحة كبيرة من الرمال البيضاء يحيط بها من ثلاثة جهات حديقة يتمركز في أماكن منها العديد من المنازل الفخمة التي يتناثر حولها التماثيل الغريبة والنافورات.

وبينما أنا واقف مع (رازام) عند بداية الساحة في انتظار القائد، رأينا مجموعة من قوات قلب الجيش تتقدم في سرعة على الخيول وتأمر باسم القائد الكبير أن يتم جمع سكان المدينة بالساحة، وأن يتم التفريق بين الرجال والعجائز والأطفال في جانب.. والنساء الشابات في جانب.

لم أتحرك من مكاني لتنفيذ الأمر غضباً مما هو مخفي عني، وأخذت أتأمل مع (رازام) ما يحدث من جمع السكان بعنف من الطرقات والمنازل حتى الساحة الكبرى، ومحاصرتهم بالخيول والجنود، فتساءل أحد جنودي:

- إن كان هذا طقس لإعدام جماعي، فأين الرماة؟

فرد عليه جندي آخر متهكماً:

- إن كان إعداماً جماعياً فما فائدة التفريق بين النساء والبقية؟

فالتفتُّ إلى هذا الجندي وسألته:

- هل توصلت إلى شيء؟

- لا أيها القائد، لكن التفريق بين الرجال والنساء معروف، أما تمييز النساء الشابات عن جميع السكان!.. هذا شيء غريب.

أخذت أخبط على فكي بأصابعي ثم التفتُّ مستديراً إلى الساحة لأجد

القائد (نابيروس) قد وصل إليها، ثم أشار بيده إلى الجانب الذي جُمع فيه السكان دون النساء، قائلاً بأعلى صوته:

- خذوا هؤلاء إلى خلف الأسوار الغربية و...

ثم قبض بيده وكأنما يعصر شيئاً، فقلت في نفسي لهذا الفعل الغبي:

- أيتجنب أن يقولها مباشرة كي لا يُفزع النساء مثلاً؟!

فإن كان الأمر هكذا فقد أخذت النساء تصرخ بالفعل، وحاولن أن يتبعن الرجال والأطفال إلى مصيرهم، لكن أخذ الفرسان يمنعنهن ويعيدهن إلى أماكنهن تحت تهديد السلاح، فصاح أحد جنود (رازام):

- أين القائد من كل هذا؟

مسحت على وجهي في غضب وأنا أنتظر بترقب ما سوف يحدث، والقائد (نابيروس) يتفحص في النساء يميناً ويساراً.. أعلى وأسفل، حتى صاح مشيراً إلى احداهن:

- ائتوني بهذه.. ولتنعموا بالباقي.. لكن بنظام.. هه؟

ثم ضحك بصوت عال ضحكة اقترنت بصرخة (رازام)، ورأيت (رازام) يركض نحو الساحة شاهراً سيفه متوجهاً إلى الجنود الذين قبضوا على المرأة التي أرادها (نابيروس)، فانتبه إليه بعض الجنود وركضوا نحوه، ثم انقضوا عليه فأسقطوه نازعين منه سيفه، ثم انهالوا عليه ضرباً بأقدامهم، فأخذ يصرخ ويقول:

- دعوها.. ماذا نفعل هنا؟.. دعوها.

تذكرت ما حدث (لراسيا) بسبب (بيبور)، صراخها وضعفها وانهيارها

غائبة عن الوعي، انتهاءً بمشاعرنا وتورد وجنتيها وحتى بكائها بآخر مرة صحت في وجهها.

أخذت أنفاسي تتسارع، ثم رأيت أخي (كابان) يجري هو الآخر شاهراً سيفه نحو الجنود الذين أمسكوا بالمرأة، وأخذ يدفعهم عنها مهدداً إياهم، لكنهم تصدوا له بحدة فبدأ يبارزهم بجدية ويصيب منهم، فدبت الفوضى في رأسي لمرأى كل هذا.

وإذ بمجموعة أخرى من الجنود يركضون نحو أخي أخذين في اتقاء سيفه قدر المستطاع، حتى انقض عليه أحدهم من الخلف ولوى ذراعه حتى كسر مفصله، فصاح (كابان) متألماً، كما سمعت (رازام) يصرخ هو الآخر:

- آه.. صدري.. لا أتنفس.

تغيرت الألوان أمامي من الغضب.. أضاء تحذير داخلي كالشرر أنه لا عودة ما إن تقدمت، سيضيع كل شيء أنجزته، حتى حياتي التي صارعت كل شيءٍ لبقائها لا أضمن حضورها بعد لحظات، لكن أطفئت هذا التحذير شاهراً سيفي ونازعاً سوطي المسموم، وأنا لا أرى أمامي بهذه الفوضى إلا أخي و(رازام).

ركضت نحو الجمع ملوحاً بالسوط في الهواء ثم ضربت به الجنود الأربعة الذين تجمعوا فوق (رازام) فشققت وجوههم وأعناقهم، ثم أخذت أطيح برؤوس البعض وأطعن في الباقين كالمجنون دون توقف، بينما أيديهم لم تكد تلمس سيوفهم، حتى انتهيت منهم ومددت إليه يدي أساعده للنهوض قائلاً له:

- دافع عن نفسك واتبعني.

ثم ركضت إلى الجنود الثلاثة حول (كابان)، ودفعت بالسيف في ظهر أحدهم، ثم نزعته وأنا أصرخ:

- دعوه.

لم أمهلهم، ففصلت يد الثاني وطعنت الأخير بأحشائه حتى سقطوا عن أخي، فصحت فيه:

- دافع عن نفسك واتبعني.

تركته يلتقط سيفاً بيده السليمة، وركضت نحو الجندي الذي يمسك بالمرأة، فواجهني بسيفه إلا أني قد تجنبته وأصبت معصمه القابض على السيف، ثم دفعت بسيفي إلى صدره حتى نهايته وأنا أنظر بشراسة إلى عينيه، وبعد أن سقط قبضت على يد المرأة واستدرت صائحاً:

- أي حقير سيحاول الاقتراب من هنا سأقتله.

ثم التفت بحدة إلى (نابيروس) صائحاً بتحدٍ:

- إن هذا خروج عن الخطة التي أخبرني بها القائد، أيعلم القائد بمخالفتك خطته يا (نابيروس) أنت وجنودك؟

فصاح في غضب:

- أتناديني دون احترام أيها الجندي؟

- وهل منا مَن سيكن لك احتراماً بعد الذي حدث؟

ثم أدرت نظري في الجنود وصحت:

- أنا هنا أدافع عن خطة القائد كبير الجيش عن أي تمرد أو قذارة تلطخ حربنا.. ماذا بكم أيها الجنود؟.. أليس لديكم أخوات؟.. أمهات؟

زمجر (نابيروس) قائلاً:

- دع رقة القلب هذه أيها اليتيم.

اهتز فكي في انفعال، فصرخت في وحشية:

- سأقتلك يا (نابيروس).

صرخ بدوره مشيراً إليّ:

- تمرد أيها الجنود، أقتلوه.

وتحت إشارته ركض ما يقرب من عشرين جندياً نحوي، فتخطاني (رازام) و(كابان) إليهم يبارزونهم، فالتقطت أنفاسي وتقدمت إلى جانبهم أبارز معهم، لكن أحاط بنا جنود آخرين من الخلف، حيث قبضوا علينا وقيدوا حركتنا، فتقدم الذين أمامنا في حذر وانتزعوا أسلحتنا، فصاح (نابيروس):

- يبدو أنكم توافقونني أيها الجنود.. أروه أني على حق إذ أهتم بحاجاتنا ومعنوياتنا في الحرب.. يبدو أن الحرب قد أنست الكثير منكم كيف هي النساء.

ثم أشار إلى الجنود الذين قبضوا على المرأة فأخذوا يجذبونها من ملابسها فأخذت تصرخ، وصرخت بدوري عالياً:

- سأقتلك يا (نابيروس)، أقسم على هذا.

ثم لويت نفسي فجأة، ودفعت الجنديين الذين يمسكون بذراعيّ ولكمت الجندي الذي خلفي، وركضت نحو الذين يحيطون بالمرأة فتعلقت برأس الأقرب لي حتى لويت عنقه، ثم احتميت بجسده نازعاً سيفه ودفعته في بطن

الآخر، ثم استدرت ودفعت بالجثة التي أحتمي بها إلى الذي جاء من ورائي، ثم ركلتهما الاثنين لعدة خطوات على الأرض، فصرخت المرأة في وجهي:

- اقتلني؛ أرجوك.

أحسست بأن العالم قد صمت من حولي، هل تطلب مني أن أقتلها؟!.. لقد رأيت العديد ممن استسلموا لقتلهم علي يدي، لكني لم أواجه من قبل من يرجوني قتله، هل القتل أهون عليهن لهذه الدرجة؟!

" اقتلني! "

أحسست أن قبضتي على السيف قد ضعفت، وفجأة غزت (راسيا) تخيلاتي ولم أرد...

" اقتلني! "

صرخت بها المرأة في صوت أعلى وهي تبكي، كأن صوتها تحول من الرجاء إلى الأمر رغم ضعفها وقلة حيلتها.. اهتز جسدي داخلي، وإذ بجنديان ينقضان عليّ فسقط السيف مني، وأخذوا يسحبونني بعنف إلى الخلف، بينما المرأة تصرخ متلفتة حولها في الجنود الذين خرجوا عن الصفوف متقدمين نحوها، وتصورت ما قد يفعلوه بها أمام الجميع، فأخذت أقاوم الجنديان في إصرار وأدفع بيدي وقدمي للخلف محاولاً الإفلات من قبضتهم الشديدة عليّ، حتى استطعت بصعوبة أن أمد يدي اليسرى فنزعت بها خوذتي ذات الأشواك، وأدرتها بكامل طاقتي التي تكاد تنفذ نحو أسفل جانب الأحمق القابض على كتفي الأيسر حيث أن الدرع لا يغطي هذا الجزء.. فاهتز متألماً وأفلتني، فشعرت بقبضة الذي يقبض على كتفي الأيمن تتردد عندما أيقن أنه الوحيد الذي يمنعني الآن، فلكمته في فكه، ثم ركضت محاولاً الاحتفاظ

بتوازني نحو المرأة ملتقطاً السيف من الأرض وأطحت بعنقها ثم سقطت على ركبتيّ.

صرخت بقية النساء هلعاً، وتراجع الجنود من حولي، فقمت مستديراً إلى (نابيروس) ملوحاً بالسيف كالسكير وصحت:

- لو أقترب أحد مرة أخرى سأقتل العشرات منهن.

فأجابني في تهكم:

- إن مسست إحداهن سأقتل أخيك.

- لو مسسته بسوء سأقتلك.

ضحك (نابيروس) متهكماً، فنظرت إلى حيث قيد الجنود حركة (كابان) و(رازام)، وصحت بين الغضب والهلع:

- أين القائد؟.. أين القائد؟!

فقال (نابيروس) للجنود الذين يمسكون (بكابان):

- أيها الجنود، إن لم يستسلم خلال لحظات فاقتلوا أخيه.

فوضع جنديان سيوفهما على عنق (كابان)، ونظرت لأخي في قلق لكنه صاح فيّ:

- أبق على موقفك يا (كازان)...

ثم لانت لهجته في اضطراب:

- سوف أبلغ أبي عنه.

خفق قلبي بتلك اللحظة.. أعمتني كلمات (كابان) عن كل شيء إلا

ذكرى أبي، أتراه يراني الآن؟.. أتراه يرضى عني هذه اللحظة؟.. قبضت على سيفي ورفعته ووجهته في الهواء نحو (نابيروس) متحدياً إياه، فقال:

- اذبحوه.

فصرخت:

- لا.

لكنهم لم يتأخروا لحظة وقاموا بذبح أخي أمام عينيّ، فصرخ (رازام):

- أيها الحقير، أيها الـ...

أما أنا فلم أنطق.. ولم أسمع...

لقد ذبحوا أخي بالفعل...

ذبحوا آخر أخ لي...

وها هو يسقط على ركبتيه أمامي...

عيناه المثبتتان عليّ.. وهذا الدم المتدفق من عنقه...

من أجل ماذا؟!

" هل تستسلم؟.. أم نقتل صديقك أيضاً؟ "

نظرت إلى (رازام) الذي بادلني النظرة بقلق.. أعلم إنه يريد العيش، يحلم أن يكون زوجاً وأباً، واشتعلت الحيرة في رأسي.. هل أنقذ (رازام) الذي أنقذ حياتي؟.. أم أبقى على ما مات أخي من أجله؟!.. أكاد أفقد الوعي من الانهاك الجسدي والنفسي.. لم أجد أمامي إلا أن أقول:

- سأستسلم إن رأيت القائد.

كنت أعلم أن القائد إما لا يعلم شيئاً عما يحدث وهذا احتمال ضعيف، وإما لا يريد الظهور في هذا الموقف حفاظاً على مكانته وكرامته من هذه الحقارة، فقال (نابيروس):

- إن القائد ليس بمتفرغ لهذا.

فصحت أنظر في الجيش:

- أين قائدكم أيها الجنود؟.. لِمَ يغيب عن انتصارنا لأول مرة؟.. أتمرد أحد القادة وقتله؟

بدأ الجنود ينظرون لبعضهم ثم ينظرون (لنابيروس)، فصرخ:

- إن القائد حي.

فصرخت بدوري:

- هل اعتقلته؟

- إنه حر.

- أين هو إذا؟!

" أنا هنا يا (كازارشان) "

تقدم القائد بخيله من وسط الجنود حتى تخطى (نابيروس) ووقف، فصحت:

- أرضيت بما يحدث أيها القائد؟.. أم أنك على علم مسبق به؟

أجابني بثبات:

- بالطبع لا أرضى به.

ثم أشار حيث (نابيروس) آمراً بصرامة:

- اعتقلوه.

صاح (نابيروس):

- ماذا؟!.. ألم تـ...

قاطعه القائد بأعلى صوته:

- قلت اعتقلوه.

تركت القائد يلقي أوامره وتقدمت إلى الجنود الذين يمسكون (برازام) وقلت في هدوء:

- اتركوه.

فقام (رازام) وكاد أن يقول شيئاً لكني قاطعته قائلاً:

- ابتعد.. ولا تذهب بالقرب من القائد.

وظللت أراقبه حتى ابتعد قليلاً ثم ملأت صدري بالهواء، وقبضت على سيفي واستدرت للجنود فأطحت برأس أحدهم ثم طعنت آخر في بطنه، ثم أطحت برأس الثالث ونزعت سيفه في سرعة وطعنت اثنين آخرين في مقتل، فأخذ باقي الجنود يهربون.. فركضت ورائهم بينما أركز نظري على الذين ذبحوا أخي، فلحقت بأحدهم.. حتى اقتربت منه فضربته بطرف السيف في كتفه.. فتوقف عن الركض من المفاجأة والألم، فدفعته بركبتي مُسقطاً إياه على وجهه، وهبطت على ظهره بركبتي ثم دفعت بالسيف في ظهره حتى احتك طرفه بصخور الأرض تحته.

ثم تابعت الركض وراء الجندي الآخر الذي ركض نحو القائد، لكني

انتزعت خنجري ثم توقفت ورميته به في ظهره، فتصلب مكانه ثم خر على الأرض مستنجداً بالقائد، فتقدمت إليه وجلست على ركبتيّ وأدرت وجهه نحوي فرأيته يحدق فيّ بألم ورعب، فلكمت وجهه بكل قوتي، ثم لكمته بيدي الأخرى ثم بالأخرى حتى تحطم وجهه من تلاحق لكماتي ونزف الدم من كل جزء منه، ولا أتذكر إن كان القائد يصيح بي كي أتوقف أم أنها مجرد هلوسات من الجنون الذي أصابني، لكني لم أعبأ حتى تركته جثة هامدة.

ثم ذهبت إلى سوطي والتقطته ونظرت في الجنود، فبدا في وجوههم القلق بعدما كانوا يتأملون ما فعلت، لكني أخذت أدير نظري فيهم حتى وقعت عيني على أحدهم.. وبدأت أتجه ناحيته، فبدأ يركض فتبعته ثم دفعت السوط نحو عنقه فالتف حوله، فشددته نحوي فسقط أرضاً وقد انشق جلده، فبلغته والتقطت يده ثم دست على صدره قائلاً:

- إذاً.. أنت من كسر ذراع أخي؟

فصاح:

- لا.

فلويت ذراعه بحدة فانكسر كوعه في صوت مسموع فصرخ عالياً، فضربت فكه بقدمي في قوة بينما أقول:

- ألا تتوقفون عن الصراخ؟.. سوف أنال منك قبل أن يفعل السم.

ثم استدرت إلى الجيش وصحت فوق صراخه:

- هذا جزاء من اعتدى على أخي.

ثم استدرت إلى الجندي وضربت عنقه بقدمي فأسكتّه إلى الأبد، ثم

أخذت نفساً عميقاً وصرخت بأعلى صوتي.. طويلاً...

ثم...

لا شيء...

ظللت مكاني ساكناً لا أفعل أي شيء سوى التنفس، ولا أحد يتحرك حولي من الجيش، أطبق الصمت على الجميع والكل ينظر لي بقلق وترقب، لقد حلت مفاجآت وقرارات غريبة وصراعات وتمرد واقتتال بين جنود الجيش الواحد في أقل من ساعة، وفي نهاية كل هذا ينظرون إلى ما يشبه الجثة الواقفة هناك، التي كانت منذ لحظات كأنها أداة.. بل أدوات للقتل مجتمعة في جندي أشد فتكاً من المجانيق.

بعد مدة لا أعلم كم استغرقت بدأت أخطو فوق الساحة حتى وصلت لجثة أخي، فجثوت على ركبتيّ أتأمله في حزن، وآثار نظراته التي كانت معلقة عليّ منذ لحظات.. أظنها قريبة.. فمددت يداي نحو رقبته المغطاة بالدماء حيث ضغطت على جرحه ثم مسحت بدمائه وجهي، ثم مددتها مرة أخرى ومسحت بها عنقي، ثم مددت يدي إليه وحملته ثم بدأت السير به نحو الساحة حيث وضعته بمنتصفها في رفق، وبدأت أحفر في الرمال البيضاء بجوارها.

وبعدما انتهيت قمت بحمله ووضعه بالحفرة، وألقيت آخر نظرة إلى آخر أخ لي من أبي، ثم قلت في خفوت:

- أنت الآن بين جميع أبنائك يا أبي.. عدا ذلك المجنون المقيد بالحياة هنا.

بدأت عيناي تدمع رغم محاولتي التماسك أمام الجميع، فرفعت يدي كي أمسحها عن وجهي لعلها تتوقف، فخلع بعض الجنود خوذهم ووضعوها

على الأرض احتراماً لأخي، وتبعهم آخرون فآخرون، وبعض الجنود وضعوا حتى سيوفهم على الأرض وتجردوا من درع صدورهم، ثم تقدمت إلى أخي وبدأت أهيل عليه الرمال حتى غطيته، وخلعت الدرع عن صدري ووضعته فوق قبره.

تقدم إليّ (رازام) خالعاً درع صدره هو الآخر ووضعه بجانب درعي، فوقفت واستدرت إلى القائد ناظراً إليه بوجه لا يحمل أي مشاعر سوى دماء أخي، فنزل من فوق خيله وتقدم نحوي، وما أن وصل إليّ وكاد أن ينطق بشيء حتى سبقته قائلاً بصرامة رغم خفوت صوتي:

- هذه المدينة لن تُهدم أيها القائد.

نظر إليّ متعجباً، فتابعت بصوت أعلى:

- ولن يمس جندي امرأة واحدة هنا.. لا بقتل.. ولا بأي حقارة...

ثم صمتُّ للحظة مغمضاً عينيّ نتيجة انفعالي، ثم تابعت:

- والمذبحة التي كانت ستتم بباقي السكان لن تكتمل، وكل من مس أخي بسوء أو (رازام).. أو أي امرأة يتم قتله.

كان موقف القائد ليس قوياً وسط الجيش بعد ما حدث، مما اضطره أن يومئ لي برأسه موافقاً، فظهر الرضا في وجوه بعض الجنود بينما ظهر التوتر في وجوه آخرين خلف القائد، فتوجهت بنظري إليه وقلت في قوة:

- وأريد (نابيروس).

- لا تقلق، سأ...

- أريده لي أنا.

- لكن يا...

صحت:

- أرجوك يا حضرة القائد.

ضم القائد شفتيه ثم أومأ لي قائلاً في صرامة وعصبية:

- حسناً، حسناً يا (كازارشان)، ولكن هناك أمر أكثر أهمية.

- ما هو؟

- بينما كنت خارج المدينة آتتني رسالة من الملك.

- وبعد!

ملأ القائد صدره بالهواء ثم زفره قائلاً:

- الملك (كاسارشونير) يطلب رؤيتك.

﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

دخل القائد إلى غرفة بأحد منازل المدينة، وأشار بهدوء إلى الحرس الموجودينٍ بها بالانصراف، ثم أغلق الباب ورائهم واستدار إلى الشخص المقيد قائلا:

- أرأيت ماذا فعل اندفاعك بنا؟

رفع (نابيروس) رأسه إليه في حدة وقال:

- لقد وافقت عليه، والجميع فعل.

صاح القائد:

- لكننا لم نتفق على صنع مذبحة.

قبض (نابيروس) وجهه في غضب قائلاً بشراسة:

- إنه هذا الجندي، هو من فعل هذا بنا بعدما كاد أن يصنع انشقاقاً في الجيش، وهو أيضاً سبب هذه المذبحة، فبعدما دخلنا المدينة دون خسارة تُذكر، قتل هو وشقيقه ورفيقه هذا ما يقرب من ثلاثين جندياً.. ثلثاهم قتلهم بنفسه.

- إن لهذا اللعين قدرة للتلاعب بالمواقف والكلمات جعلته يظهر أثناء تمرده وكأنه يدافع عني وعن خطتي وعن الحرب وعن الملك ضد اندفاعك، لقد نجح في زرع الحيرة في كامل جنود الجيش وأصابهم بالشلل مكانهم بينما يرون قائدين يحاول كل منهما الدفاع عن شيء ما، واندفاعك دون تمهيد

جعل منه الأحق في نظر الجيش!

صرخ (نابيروس):

- أريد قتله.

ابتسم القائد متهكماً وقال:

- وهو يريد قتلك.

اتسعت عينا (نابيروس) في صدمة وقال في بطء:

- ماذا؟!.. أستسلمني له؟

هز القائد كتفيه وقال في تلقائية:

- لا هو.. ولا الجيش يطيقك.

ضغط (نابيروس) على أسنانه في غضب ثم صاح:

- لو بات كل فرد من هؤلاء وبين يديه امرأة لكنت أصبحت أنا بطل هذا الجيش الذي لا يطيقني الآن.. إن هؤلاء الملاعين يتصنعون البطولة والمثالية الآن لأن هذا الجندي قد انتصر عليّ.. أأقول لك؟.. افعلها.. افعلها يا (جاساك) وسيأتي عليك الدور يوماً.

رفع القائد أحد حاجبيه وتساءل مستنكراً:

- دور؟!

- أتتعجب؟.. وأنت من يسمح لجندي بأن يتطاول على قادته!

صمت القائد ولم يجب، فتابع (نابيروس) بعد لحظة وكأنه يحدث نفسه:

- مرة قام بتحطيم صدر أحد المستشارين لقائده الكبير في اجتماع يضم

أعلى قادة الجيش.. ثم يتطاول عليّ أمام الجنود ويريد قتلي ويصيح بك...

حدق (نابيروس) في عين القائد وتساءل:

- ماذا سيفعل إن عارضك يوماً؟.. أو على الأقل علم بأنك قد وافقتني على هذا؟

عقد القائد حاجبيه قائلاً:

- أنت لن تخبره.

ضحك (نابيروس) في مرارة وقال:

- يبدو أنك قد قررت بالفعل أن تسلمه عنقي.

لوح القائد بيديه في الهواء صائحاً:

- وماذا أفعل؟.. إنه قد أنقذ الجيش أكثر من مرة، وأنقذ حياتي، وأفادنا في المعارك بينما هناك قادة انشغلوا في مجلس التخطيط بالنساء!.. ولديه تأثير وشعبية داخل الصفوف لا ينافسه فيها شخص آخر، خاصة بعد الذي حدث اليوم.. والآن الملك يطلب رؤيته.

سقط فك (نابيروس) من المفاجأة.. ثم ضحك.. ثم اشتد ضحكه كالسكير وقال:

- إن استمر هكذا فلن أتعجب إن غلب تأثيره يوماً سطوة الملك وتمرد على العرش.

صمت القائد ولم يجب، فقال (نابيروس):

- اقتله يا (جاساك).

سأله القائد في صدمة:

– ماذا تقول؟!

– قلت لك اقتله، إنه خطر علينا.

– خطر على من؟.. علينا؟.. أم على الجيش؟

– علينا جميعاً.

– إنه قد يمثل لك خطراً علينا، ولكن كيف لمنقذ الجيش أن يكون خطراً عليه؟.. أحياناً يجعلني ذكائه أوقن بأن الملك قد عيّن العديد من الحمقى في مراكز قيادية، بينما هو كجندي أو كقائد كتيبة أكثر فائدة منهم!.. ثم كيف أقتله حتى إن أردت؟.. إنه معجزة وسط الجنود، وأسطورة أمام الأعداء الذين ينتظروننا بتوتر أينما كانوا.. حتى إن استطعت التخلص منه.. قد يسبب هذا انشقاقاً في الجيش وشك من الجنود تجاه القيادات.. ثم الملك.. ماذا سأخبر الملك؟

لم يجب (نابيروس) هذه المرة، فقال القائد:

– يبدو أنها آخر مرة سنرى فيها بعضنا.. وداعاً يا (نابيروس).

***

بعد منتصف الليل كنت أقف عند باب المدينة بجوار خيلي أنظر للجنود الذين يقودون (نابيروس) نحوي مقيداً من يديه، حتى وصل إليّ فابتسمت بتهكم قائلاً:

– مرحباً بالقائد الحقير.

ابتسم (نابيروس) متهكماً بدوره وأجاب:

- بالطبع، لك أن تسخر مني.. فأنا المقيد أيها الجندي الشجاع.

زفرت باحتقار وقلت:

- أنت تعلم بأنك إن كنت مقيداً أم لا فأنت لا تمثل لي تهديداً، لذا فلا حرج لدي أن أسخر منك كما أشاء.

هز (نابيروس) رأسه في لا مبالاة ثم قال:

- حسناً، ها أنا أمامك.. فلتنهي الأمر.

انقلبت ملامحي قائلاً في وحشية:

- ستنهي أنت أمر نفسك، وقتما يحين ذلك.

نظر إليّ (نابيروس) في قلق وحيرة، ودون سابق إنذار دفعته فوقع على ظهره، ثم التقطت عصاً غليظة كنت أضعها على الأرض بجانبي، فصرخ (نابيروس):

- ماذا ستفعل؟

لم أجبه وأنهلت على ساقيه ضرباً بها بينما هو أخذ يتلوى صارخاً في ألم، وظللت هكذا حتى انتفخت أجزاء منها وأصبح لونها داكناً، فألقيت العصا قائلاً في هدوء بينما هو قد بدأ يغيب عن الوعي:

- هكذا لن تستطيع الوقوف.

ثم تناولت حبلاً يمتد من سرج الخيل وقيدت قدميه، ثم امتطيت خيلي وبدأت أنطلق بينما أجر ذلك الحقير ورائي.

***

تجمع بعض الجنود حول النار وسط معسكر المبيت يتناولون طعامهم، فقال أحدهم في خفوت:

- هل رأيتم ما فعل (كازارشان)؟

أجابه الثاني:

- اخفض صوتك.

- ولَمَ؟

- لا أعلم، ولكن أخشى أن يسمعنا أحدهم فينقل حديثنا للقائد.

أومأ الأول نافياً وقال:

- لا أظن، فإن ما فعله اليوم قد أسر الجميع، لقد شهدت على هذا.

قال جندي ثالث بينما يمضغ طعامه:

- وأنا أيضاً.. إنه وحش.

فأجابه الثاني:

- لقد كان ينتقم لأخيه.

- لقد قلت هذا من الإعجاب به.

فقال الأول بحماسة:

- نعم إنه وحش، وبرغم هذا شعرت أني كجندي لي قيمة.

رد الثاني:

- نعم، هل رأيت كيف كان يدفن الجندي باحترام؟

أجابه رابع:

- إنه أخيه ولابد أن يحترمه، لا داع للمبالغة.

فرد عليه أولهم:

- لا أعتقد، أعتقد لو أي جندي تشجع ووقف للدفاع عن النساء لكان دافع عنه أيضاً.

انتهى الثاني من تناول طعامه، فألقى ببعض بقاياه في النار بينما يقول:

- لا أعرف شيئاً عن مدى شعوركم، لكنني شعرت بقيمة لي بفعلته هذه، حتى إن لم يدافع عني.

- لقد أشعر الكثيرين بقيمتهم اليوم.

قال ثالثهم بحذر:

- ليته كان القائد، أحياناً يبدو لي وكأنه الأكثر براً بقَسَم الحفاظ على حياة الجنود.

***

جلست أطهو بعض الطعام على نار أوقدتها وسط ظلام الصحراء الممتد حولي، وكان على مسافة مني (نابيروس) ما زال يتأوه بينما ساقاه مربوطتان إلى خيلي، ثم قال في صعوبة:

- أنت وحش يا هذا.

زفرت في تهكم متسائلاً:

- وأنت؟.. ماذا قد أسميك بما كنت تنوي فعله بنساء المدينة؟

علا صوت (نابيروس):

- ألم تر جمالهن أيها الجندي؟.. ألا تنجذب للجمال؟.. أم الحرب قد أنستك كرجل كيف تكون النساء؟

- إن لديّ أم وأخوات أيها الوضيع.

ضحك (نابيروس) في سخرية وقال:

- جميعنا لدينا، ولكن تصرفك هذا قد يدل على أنك واقع في حب فتاة ما.

أمسكت بأحد أعواد الحطب المشتعلة وقذفتها على صدره، فأخذ يتقلب في مكانه وهو يصيح:

- إني أحترق.

قمت من مكاني وذهبت إليه أتأمله وهو يتلوى كالثعبان في محاولة لتجنب النار التي أشعلت جزءً من قميصه ووصلت إلى جلده، فوضعت قدمي على صدره في قوة مطفئاً النار، فأخذ يسعل بصعوبة مع ضيق تنفسه، وقلت في صرامة محدقاً فيه:

- لسنا هنا للتحدث عني، أنت من سيتحدث.

ثم استدرت عائداً إلى النار وجلست كي أتناول طعامي وكأن شيئاً لا يحدث، بينما هو أخذ يشهق مسترداً أنفاسه، وبعدما هدأ.. خيم الصمت لفترة حتى قطعه متسائلاً:

- عما تريدني أن أتحدث؟

أجبته في هدوء دون أن أدير رأسي إليه:

- كل شيء.

- كل شيء عن ماذا؟

- عن آخر اجتماع للتخطيط وحتى تسلمتك.

تأخر رده للحظة ثم قال:

- لم يحدث شيء مهم.

تناولت سيفي من جانبي فمددته إلى النار وأخذت أقلّبه قائلاً:

- أأنت متأكد؟

رغم المسافة التي تفصله عني إلا أني قد سمعت صوت لعابه وهو يبتلعه قلقاً، ثم قال:

- صدقني لم يحدث شيء.

- ومن صاحب فكرة التعرض للنساء؟

- أ.. أنا.

- هذا يعني أن القائد قد وافق عليها.

صاح (نابيروس):

- ماذا؟!.. لا.

ضممت شفتيّ ثم سحبت السيف من النار، وقمت متوجهاً إليه حتى وقفت عند ساقه، وأخذت أقرّب نصل السيف من أطرافها المتورمة، فصرخ:

- أرجوك يا (كازارشان).

التفتُّ إليه في حدة صائحاً:

- هل وافق القائد؟

أخذ فكه يرتجف رغم ضغطه على أسنانه، فقلت:

- هذا يعني أنه قد وافق.

ثم ضغطت بطرف السيف على ساقه وأخذت أمسح عليها به، فأخذ يصرخ عالياً، فسحبت السيف وصحت فيه:

- ستخبرني بكل شيء؟

لم يجبني واستمر في صياحه، فغرزت السيف تحت جلده، فأخذ يتلوى ويهز ساقه في قوة، فصحت مجدداً:

- هل ستخبرني؟

- نعم، نعم، نعم.. أرجوووك.

فسحبت السيف وعدت إلى مكاني قائلاً:

- إني أستمع.

ورغم ألمه وتردده، بدأ (نابيروس) يسرد ما حدث في الاجتماع وحتى حديثه الأخير مع القائد، ثم ختم بقوله:

- ولم أرد أن أذكر لك هذا حتى لا تأخذ حذرك من أي تصرف قد يصدر ضدك إن أصبحت خطراً على الجيش.

- خطراً على الجيش؟!

قلتها ثم ضحكت، ثم ألقيت ببعض الرمال في النار وقلت ساخراً:

- أنا خطر على الجيش!.. أنا الذي عارض القائد السابق الذي خاطر

باندفاعه الأحمق بإلقاء آلاف الجنود بين فكيّ الممر.. وأنا الذي اقترح فكرة المجانيق التي مكنتكم من نصر دون خسارة تُذكر.. وأنا الذي عارضكم جميعاً في الحقارة التي اتفقتم عليها، ووقيت الجيش من انشقاق قد يصيبه بسبب تصرفاتكم خارج خطة الحرب، وسيعاقبكم الملك عليها لا أنا.. أنا بالفعل خطر على الجيش!

– أنت تتمرد على من هم أعلى منك رتبة وخبرة يا (كازارشان).

صمتُّ للحظات، ثم قلت:

– حاولت أن أنتقي بعض الألفاظ التي قد أرد بها على جملتك هذه، لكني لم أجد إلا كلمات لا تختلف قذارتها عنك، فخير لي السكوت بدلاً من أن أعجل بقتلك الآن.

صاح (نابيروس):

– فلتنهي هذا الأمر، لقد ضقت.

أومأت برأسي نافياً، وقلت محدقاً إليه في وعيد:

– أنا لم أنس أخي أيها القذر، لقد ذبحت أخي من أجل حقارتك ولم يقترف ذنباً.. إن كل ما عرّضت له الجيش بالأمس في كفة، وما فعلته لأخي وحده في كفة أخرى.

***

ظللت حتى الفجر أفكر في أمور عدة، خاصة فيما ذكره لي هذا القذر، وبينما أفكر إذ وصل إليّ صوت تنفسه العالي، فالتفتُّ إليه لأجده قد نام، فقمت إليه وركلته في جنبه، فصرخ في آلم لكني قاطعته صائحاً:

- لا نوم هنا.

أجابني في وهن:

- أرجوك، أرجوك يا (كازارشان) دعني أنام قليلاً، إني لم أنم منذ أمس.

- قلت لا نوم.

ضعف صوته أكثر وأخذ يرجوني:

- أرجوك، إن النوم ثقيل على عينيّ ولا أستطيع مقاومته، عذبني كما تشاء لكن دعني أنام ولو للشروق فقط.

عقدت حاجبيّ ثم قلت:

- حسناً.

وما أن أغمض عينيه حتى تناولت سيفي وقفزت فوق خيلي ولكزته بقدمي في بطنه كي يتحرك، وتحرك بالفعل موقظاً (نابيروس) الذي صرخ مصدوماً لكنني لم أعبأ به، وظللت أركض بفرسي حتى الشروق وأنا أجره خلفي بينما لا يتوقف عن الصياح والصراخ والتأوهات، ثم توقفت عندما لمحت مدينة (غيرو)، فصرخ (نابيروس):

- أيها الـ...

- اخرس أيها القذر.

قاطعته في صرامة فأخرسته، ثم عقدت حاجبيّ وأنا أتأمل المدينة من بعيد، أتصورها وقد كانت تعطي بالتأكيد نبضاً لهذه المنطقة وإذ هي الآن مقبرة كبيرة، وبعد تأملها لفترة بدأت أركض بخيلي مجدداً وصراخ (نابيروس) يتردد طوال الطريق.

***

مر يومان حتى وصلت إلى واحة (عاشب) فنزلت كي أتزود بالماء والطعام، وركض بعض سكان الواحة كي يطعموا (نابيروس) لكني منعتهم، كان حاله يجعل أي شخص باستثنائي يشفق عليه، فلقد تشوه جسده، واهترأت ملابسه من كثرة الجر على الرمال، وآثار الجروح والحروق تمتد من صدره وحتى ساقيه.. التي انخلع منها مفصل فخذه الأيمن بعد يومين من الجر.

وقد حاول الكثيرون التحدث معي لإقناعي كي أفرج عنه لكني رفضت، حتى أنه قد أخذ يبكي أمامهم كي يخلصوه مني، لكنهم يعلمون أنهم لا يستطيعون، وبعد أن تزودت بما أحتاجه تابعت رحلتي ليوم آخر حتى لم يعد يفصلني عن عاصمة المملكة الجنوبية إلا ساعات.

وبعد أن جلست للراحة وتناولت الطعام ناداني (نابيروس) بينما يبكي:

- أرجوك يا سيدي، إن فمي جاف وبطني تؤلمني.. شربة ماء أرجوك.

أجبته متهكماً:

- ألا تستطيع السيطرة على اشتهائك لأي شيء؟!

- أرجوك يا سيدي، سأكون خادماً لك إن أردت لكن اسقني.

- وأخي الذي ذبحته بسبب رغبتك القذرة؟

لم يجد (نابيروس) أي رد كي يجيبني فاستمر في النحيب، القائد الكبير الوقور يبكي من أجل شربة ماء وهو الذي كاد أن يضحي بأرواح كثيرة من أجل شهوته.

انتهيت من طعامي في سرعة وألقيت بقاياه في الرمال، ثم قمت إلى خيلي وبدأت أركض به كي لا أتأخر عن الوصول، ولكن بعد ساعة علا صراخ (نابيروس) وصاح:

- قميصي تمزق.

لكني لم أعبأ به، فعاد يصيح أعلى ببكاء:

- قميصي تمزق يا (كازارشان).

ثم أخذ يصرخ بأعلى صوته:

- ظهري يا سيدي.. آه.. سيدي.

وأخذ صراخه يعلو حتى شابه صراخ النساء، وبعد لحظات تحول صوته إلى ما يشبه العواء من كثرة الألم، وظل هكذا لثوان حتى انقطع صوته فجأة، فأوقفت خيلي والتفت إليه في حدة.. وكان ما رأيت.

كان هناك خط من الدماء يمتد إلى مسافة، و(نابيروس) لا يبدو على صدره أي حركة للتنفس، ولا أصبع واحد يتحرك لديه، فهبطت إلى الأرض وتوجهت إليه متأملاً قليلاً قبل أن أقلبه بقدمي على بطنه.. فوجدت أن قميصه الصوفي السميك قد تمزق واهترأ، وجلد ظهره قد ذهب تقريباً، وعظام ظهره التي خرجت عن نظامها بارزة، فنظرت له في اشمئزاز ثم ذهبت إلى خيلي وحللت عقدة الحبل، ثم تركته كما هو مكملاً طريقي.

****

وصلت إلى قصر الملك (كاسارشوناير) صباح اليوم التالي، فسلمت رسالة الملك إلى حرس القصر كي يعلموا بأني أحد محاربي الجيش وأنه قد

طلبني، فركض أحدهم بالرسالة إلى القصر كي يبلغ الملك، وبعد لحظات ظهر عند باب القصر مشيراً إليّ بالتقدم، فعبرت البوابة إلى سلم القصر حيث رافقني الحارس حتى غرفة العرش.

" مرحباً بك يا (كازارشان) العزيز "

قالها الملك بمجرد دخولي الحجرة، فتعجبت من هذا الترحاب خاصة وأنها المرة الأولى التي يراني فيها، فتقدمت إلى وسط الحجرة وأومأت برأسي بينما أؤدي التحية العسكرية له، وقلت:

- الجندي المحارب (كازارشان ماثير بوتابيرون) هنا بأمرك يا جلالة الملك.

زادت السعادة في لهجة الملك وهو يقول:

- أهلاً بك أيها العزيز، وابن العزيز.

زادتني لهجته تعجباً، كيف يكون هذا الشخص هو من أسس ودبر ويدير هذه الحرب!.. لكني أجبته في سرعة:

- أشكرك جزيل الشكر يا جلالة الملك.

- لابد أنك جائع بعد سفرك الطويل.

أومأت برأسي نافياً بهدوء، وقلت:

- أشكر كرمك يا جلالة الملك لكني قد تناولت طعامي منذ ساعات قليلة.

ضحك الملك ضحكة قصيرة ثم قال:

- لا، لا.. لابد أنك قد ضقت بطعام الجيش والصحراء، لابد أنك قد

افتقدت طعام المدينة.

لم أجد جواباً سوى أن أجيب بحرج:

- كما ترغب جلالتك.

ضحك الملك ثم صاح في الخدم آمراً:

- أعدوا مائدة الغداء.

الفصل الثاني والعشرون

جلست إلى مائدة الغداء الملكية وأنا أنظر للملك في تعجب، فقد كان يتعامل بتلقائية وود معي، وكان كل لحظات يطلب مني ألا أشعر بالحرج وأن أتناول الطعام جيداً، فأخذت أتناوله بروية بينما أختلس النظر إليه وهو يأكل واسأل نفسي.. أهذا من صنع هذه الحرب؟.. ذلك الودود المضياف هو من أمر بإقامة المعسكرات والتدريبات؟.. أهذا الذي يجلس ليتناول الغداء على مائدته الخاصة مع أحد جنود جيشه هو من يقود كل هذه المذابح؟!.. إني حتى لا أتناول الغداء مع قادتي!

استمر تعجبي منه وأنا أراه يتعامل معي كأننا أصدقاء، ولم أره يعامل أياً من الخدم أو الحرس بتطاول أو غطرسة، وفجأة رفع رأسه إليّ وقال بابتسامة:

- دع التفكير الآن وتناول طعامك.

تنحنحت في هدوء وأومأت برأسي مطيعاً في تردد، وتابعت تناولي الطعام، ثم أغراني أسلوبه بأن غزت رأسي فكرة ما، فأخذت أتناول ما بطبقي بشكلٍ أسرع قليلاً ثم دفعته عن المائدة فسقط وتحطم، فرفع الملك رأسه متفاجئاً وتساءل:

- ماذا حدث؟

أجبته في هدوء وكأن شيئاً لم يحدث:

- لقد أنهيت طبقي جلالتك.

حدق الملك في استغراب، ثم ابتسم قائلاً:

- هل تعلمت أن تحطم طبقك عندما تنتهي منه؟

- لا، لكن الحرب علمتني هذا جلالتك.

تعجب الملك أكثر وتساءل:

- حقاً؟!

- بالطبع، فنحن نحطم المدن عندما ننتهي منها.. ألا نحطم أطباقاً؟

صمت الملك وهو يتطلع إليّ، ثم رمقني بنظرة إعجاب وقال:

- ذكائك هو أكثر ما دفعني كي أطلب مقابلتك يا (كازارشان).

اندهشت أنه لم يغضب، وتنهدت بأنه تفهم مقصدي، بل وأعجب به، فنادى الخدم بأن يحملوا الطعام عن المائدة وينظفوا الأرضية، ثم نهض وأشار إليّ كي أتبعه، فقمت وتبعته حتى بلغنا شرفة القصر، فجلس على أحد المقاعد ودعاني للجلوس، وما إن جلست متردداً حتى نظر نحو الأفق وقال في شيء من الشرود:

- ها يا (كازارشان)، أخبرني عن الحرب.

- عن أي شيء بالضبط يا سيدي؟

- عن الأجواء.. الجنود.. القادة.. المصاعب.. وعنك أنت.

- عن الأجواء والجنود والمصاعب.. أظن أن القادة قد أخبروا جلالتك في رسائلهم، أما عن القادة وعن نفسي.. فالأمر واحد.. وهو أن لي بعض الملاحظات على القادة.

– جيد، وما هي؟

أخذت أذكر للملك الاندفاع الغريب للقائد السابق الذي كاد أن يلقي بالجيش إلى الهلاك لولا خروجي عن الأوامر منقذاً الجيش، والقائد الحالي الذي وافق على طلب قائد آخر وهو (نابيروس)، لفعل أشياء حقيرة بنساء إحدى مدن (شاداسكيري)، وأخبرته بما حدث في المدينة بعدها، من طلبي لدى القائد بالعفو عن سكان المدينة واستثناءها من التدمير، وجددت طلبي للملك لأني أعلم أنه أولاً وأخيراً مَن يقرر، ثم ذكرت له ما فعلته (بنابيروس)، فاندهش الملك في شدة وقال مستنكراً:

– هل قتلت (نابيروس)؟!

أجبته في هدوء شديد رغم صرامة لهجتي:

– لقد ذبح أخي أيها الملك.

– لك الحق أن تثأر لمقتل أخيك، ولكن فعل كهذا قد يزعزع وحدة الجيش، خاصة أنك قد قتلت قائداً لا جندياً.

نظرت إلى الملك ولم أجبه، فنظر لي بدوره ثم أومأ برأسه نافياً وقال:

– لا بأس.. فأنت أثبتّ لي بأن هناك من بين الجنود أو القادة الصغار من يتفوقون على القادة الكبار ذكاءً وحكمة، وأن الحرب قد أظهرت بالفعل أن هناك بعض القادة ما هم إلا حمقى كبار في السن، وبما أنك أفضل من (نابيروس) فلا خسارة هناك بالنسبة لي.

ابتسمت ابتسامة قصيرة ثم قلت:

– هذا جيد.

فضحك الملك وقال:

- ها أنت تبتسم يا عزيزي.

وما أن انتهى من ضحكته حتى تابع في هدوء:

- إعجابي بك يزيد كل لحظة يا (كازارشان)، وللعلم.. فإني لم أطلبك كي أراك فقط أو أثني عليك، لكن أردتك في أمر هام.

- وما هو جلالة الملك؟

- إن المواقف الصعبة التي مر بها الجيش أظهرت ما بك من ذكاء وسرعة بديهة.. وحكمة أيضاً رغم صغر سنك، وهذا ما أريده بالضبط فيمن يكون قائداً لقواتنا، لا أريد قوة وحسب بل أريد عبقرية، وأنت تعلم أهمية هذه الحرب بالنسبة لنا.. ولي أنا خاصة ولا يخفي عليك، ولقد تابعت أخبارك بعدما لفتت نظري في التقارير التي تصلني، فطلبت من القائد (جاساك) أن يأتيني بأخبار مفصلة عنك بعدما ذكر لي ما فعلته منذ حادثة الممر، وكلما أقرأ عنك أجد فيك ما قد يكون قوة لا يستهان بها للجيش.. عملياً ومعنوياً.

أومأت للملك في هدوء مُقدراً ما قاله، فنظر إليّ للحظة ثم قال:

- ولهذا أريد أن أعقد اتفاقاً معك.

- العفو يا جلالة الملك، نحن نأتمر بأمرك.

ابتسم قائلاً:

- لا، لا أريد أن يكون أمراً بالنسبة إليك، فخبرتي في الحياة علمتني بأنك لا تستطيع أن تسيطر على ذكي لمجرد أنك أعلى منه مكانة أو جاه، أو في منصب يتيح لك أمره ونهيه.

– سيدي...

قاطعني في هدوء:

– لا تشعر بالحرج، فأنا أقول حقيقة ولا أشعر بالحرج منها.

تنحنحت ثم صمتُّ ولم أجب، فعاد يقول:

– حسناً، منذ اللحظة فلك ثلاثة أيام راحة قبل أن تعود للجيش، والاتفاق هو أنك ستقود جيشاً جديداً من ألفي جندي وأربعة سفن كبيرة ذات مجانيق من مدينة (راواد) التي سيطر عليها ذلك الجيش الصغير مؤخراً، وستذهب بهم إلى مدينة (شاداسكيري) الشمالية، ولا أريد أن يستقل الجيش السفن إلا من مرسى (شاداسكيري)، حيث أن فرصة أن يقود هؤلاء المستجدون شخص مثلك في الصحراء سيرفع من معنوياتهم أكثر.

أومأت برأسي متفهماً ومقدراً لثناء الملك، فتابع:

– عندما ستصل إلى (شاداسكيري) الشمالية بعد ثلاثة أيام من رفقتهم سيكون الجيش الكبير قد سيطر عليها بالفعل حسب المخطط، متابعاً طريقه نحو مضيق (راسوم)، وستجد عندما تصل لمرسى (شاداسكيري) أن السفن قد سبقتكم، وعند هذه النقطة ستتركهم لقائدهم وتتابع طريقك حتى تلحق بجيشك عند المضيق، فهذا الجيش الصغير لديه مهمة بحرية لضرب مدينة (غيروزا) بالساحل المقابل والسيطرة عليها.

– ومن أين أتى هذه الجيش؟

– إن المعسكر كان ما زال يدرب وينتج محاربين يا (كازارشان) حتى وقت قريب.

رفعت حاجبيّ متعجباً، فقال الملك:

- أريد بهذا الجيش الجديد أن نختصر الحرب ونحارب على جبهتين.

أجبته بوجه لا يحمل أي مشاعر:

- حسناً أيها الملك.

أومأ الملك برأسه ثم تابع:

- بالنسبة لباقي الاتفاق.. فأنت من الآن قائداً لقلب الجيش الكبير.

لم أعلم بأي شيء أرد، ولم آت بردة فعل من المفاجأة، لكني بعد لحظات قلت:

- ولكن هذا منصب كبير بالنسبة لي يا جلالة الملك.. كبير جداً.

- أتعلم ما العيب الذي رأيته مؤخراً في معسكر التدريب؟ أنه أنتج لي الوحوش التي كنت أرغب أن ابني بها جيشي، لكن الذكاء والعبقرية تأتي من الشخص نفسه لا من المعسكر، وبكل التفاصيل التي علمتها عنك فأنا أرى أنك تستحق المنصب يا (كازارشان).. وكما قلت إنه اتفاق له مقابل.. حسناً؟

لم أجب، بل اكتفيت بأن أومأت له متردداً، فقال:

- جيد، لقد منحتك هذا المنصب في مقابل أن تعطي كل امكاناتك من ذكاء وتأثير في الجنود كي تقود الجيش للنصر الكبير، للسيطرة على العرش الشمالي.. وليس هذا فقط.. بل وبعد أن تحقق لي النصر ستكون أميراً للمملكة الوسطى.. وسأزوجك اثنين من بناتي.

كنت أستمع للملك وكأنه يُحدث شخصاً أخر، أو كأني أتلقى رسالة منه

لأحد القادة أو حتى للقائد الكبير، لم أتوقع ولم أع بأن هذا الحديث لي أنا، فقال الملك:

- ما رأيك؟

نظرت في وجه الملك ولم أجب، فابتسم ثم نهض من مكانه، فكدت أن أنهض لكنه أشار إليّ بالجلوس، ثم دخل وتركني بالشرفة في حيرة كبيرة جعلتني اسأل نفسي:

- هل هذا معقول؟.. قائداً لقلب الجيش الكبير؟.. الملك بذاته يعتمد عليّ للسيطرة على العرش الشمالي ويعدني بقصر الإمارة الوسطى!.. ألمجرد أفعال وخدمات قدمتها لحماية الجيش أصبحت في خلال شهر تقريباً في ثقة الملك؟.. وبعدما كنت على وشك أن أغضب على الحرب.. يأتيني اتفاق ينصبني قائداً وأميراً!

" ما قرارك يا (كازارشان)؟ "

انتبهت للملك الذي عاد للشرفة، لكني لم أكد التفت إليه حتى نظرت إلى مَن ورائه، فجلس الملك على مقعده وقال في ابتسامة عريضة:

- ها هن بناتيّ الاثنتان اللتان أعدك بزواجك منهن بعد النصر.

كانتا آيتان في الجمال بحق...

" ها.. ما رأيك؟ "

تنحنحت في قوة ثم قلت للملك:

- أرجو أن تعطني يوماً لأزن الأمور يا سيدي.

ضعفت ابتسامته وقال:

- لم أكن أتوقع بأنه عرض قابل للتفكير أو التردد.

أجبته في سرعة:

- لا، لا يا جلالة الملك.. أنا فقط أحتاج لتهيئة نفسي بعد ثقتك الكبيرة بي التي لم أتوقعها.

عادت ابتسامة الملك للاتساع في راحة وأجاب:

- حسناً يا (كازارشان).

نهضت واقفاً في هدوء وقلت:

- هل تسمح لي بالانصراف جلالة الملك؟

- أنت ضيفي في قصري يا (كازارشان).

- أشكرك جزيل الشكر جلالتك، ولكني أفتقد دار أبي.

- حسناً، كما تحب.

نهض الملك وسار معي حتى باب القصر ثم صافحني في حرارة قائلاً:

- باب قصري مفتوح لك في أي وقت.

أومأت برأسي له في احترام قائلاً:

- أشكرك جلالتكم.

ثم أومأت له برأسي في تحية، واستدرت أنزل سلم القصر، وما أن تجاوزت البوابة حتى سرت بلا أي هدف ورأسي تحاول أن تعي الموقف، وتحتوي كل هذه المفاجآت.

***

قادتني قدماي حتى خارج المدينة وأنا أحدث نفسي فيما سمعت من الملك، لم أكن لأتصور أن الاتفاق يمكن أن يكون كبيراً إلى هذا الحد.. بل عظيماً، ولم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة، بل تواضع الملك وأسلوبه الودود معي كانا مفاجأة أكبر لي، لقد تصورته قاسياً عنيفاً يتعامل بعجرفة وغطرسة مع الجميع، لكنه صدمني عدة صدمات.

وأخذت اسأل نفسي المحتارة:

- هل أقبل بهذا الاتفاق؟

- وماذا يمنع أن أقبل؟.. سيكون لي شأن عظيم.

- ولكن المقابل...

- أي مقابل؟!.. إن المقابل أن تقوم بواجبك فقط.. وليس فقط.. بل وأنت قائد لقلب الجيش.

- لكني بدأت أضيق بالحرب بعد مقتل أخي.

- تستطيع أن تشرّفه، وتشرّف عائلتك كلها بانتصارك.

- و.. و(راسيا)!.. أنا أحبها.

- تستطيع أن تتزوجها.. وتتزوج أيضاً بنات الملك.

- هل سترضى عن ذلك؟

- وهل سيرضى الملك برفضك بناته؟

لم أعلم بمَ أجيب، وأكملت سيري دون أن أشعر بأي تعب حتى واحة (باكور)، قطعت شارعي حتى وصلت إلى داري فتأملت حاله في لحظات ثم نظرت إلى نهاية الشارع، حيث تخيلت (راسيا) تعود إلى دارها كل مرة بعد

انتهاء عملها، وعندئذ.. أخذ قلبي.. نعم قلبي.. يخفق بقوة تتزايد، لا أعلم لَمَ الآن؟.. لقد مرت الكثير من الأيام والمواقف التي أخرجتني عن شعوري وأراحتني منه، لكني أحسست بشوق لها لم أكبته، وبدأت أسير باتجاه دارها.

لا أعلم كم قضيت من وقت حتى وصلت إلى بداية مزرعة العم (شوهان)، فقد كنت طوال الطريق لا أفكر إلا بها، ولا تقع عيني إلا على دارها من بعيد، وما أن وصلت إلى بداية المزرعة حتى وقفت أتأمل باب الدار، وقفت كالتمثال أتأمله في شوق لها ولا يتحرك مني سوى قلبي.

فجأة.. هززت رأسي في قوة وسألت نفسي في صرامة:

- ماذا أفعل هنا؟ هل أتوقع أن تقابلني بعد الذي حدث بيننا؟ كيف سيكون استقبال والدها لي؟ أو استقبالها هي؟.. لابد أن العم لا يطيقني الآن.. وهي؟.. أهي مثله؟ هل كنت أحمق حتى أعترف بحبي لها؟

كدت أن أستدير وأعود أدراجي لولا أن فُتح باب الدار.. ولا أعلم ماذا قد قيدني مكاني، رأيت (راسيا) تخرج منه وتنزل الربوة، فأخذ قلبي يخفق بشدة، وما زلت لم أعلم ماذا أفعل بعد، ظللت أتأملها بينما تسحب عربة من أسفل الربوة وتجرها ورائها بين الحقول، آخذة في جمع بعض الخضروات.

لم تمر سوى لحظات حتى انتبهت لوجودي، فانتصبت منتبهاً بينما تنظر لي وأنظر إليها، ورغم المسافة التي تفصل بيننا إلا أني قد رأيت الحزن ينتشر على ملامحها، فبدأت أتقدم نحوها.. ولم أعلم بعد ماذا سأفعل أو ماذا سأقول، لكن قلقي من حزنها دفعني كي أتقدم، وكدت أن أصل إليها لولا أن تركت ما تفعله فجأة واستدارت مسرعة كي تعود لدارها، لكني أسرعت حتى أمسكت بيدها راجياً:

- (راسيا)!

التفتت إليّ في حدة وقالت بحزن:

- لَمَ عدت؟

- (راسيا).. أنا هنا لأجلك.

- كيف لك أن تعود بعدما فعلت ما فعلت؟

- أعتذر لك يا (راسيا)، وأقسم أنها من قلبي.

- ألا يزال لك قلب بعدما حطمت قلبي؟

صمتُّ ولم أجب، فقالت:

- إنك لم تشعر كيف يكون تحطيم القلوب.

أمسكت بكفها ووضعته فوق قلبي الذي يخفق بشدة قائلاً:

- أنا أشعر به الآن.

اكتست ملامحها بالحزن أكثر ثم أخذت عيناها تدمع، فكدت أن أقول شيئاً لولا أن أفلتت يدي واتجهت إلى دارها في سرعة، وما أن أغلقت الباب حتى تردد صوت كالصاعقة في نفسي، وشعرت فجأة بضعف شديد استولى على كياني كله دون أية مقدمات، فأمسكت برأسي بكلتا يديّ سائلاً نفسي بصوت مسموع:

- ماذا يحدث؟

سمعت كأن صوتًا يناديني...

" (كازان)! "

فهززت رأسي في قوة، لكن الصوت عاد مجدداً...

" (كازان).. (كازان) "

سألت بينما أميل بجسدي من الدوار:

- من؟

" أين أنت يا عزيزي؟.. لقد أتيتك بمفاجأة "

- أبي؟!

استدرت يميناً ويساراً ولم أجد أبي...

" أين تختبئ أيها الشقي؟ "

إنه أبي.. يناديني بينما كنت في الرابعة كي يعطيني هدية جاء بها من سفره...

" هل علمك المعسكر أن تطيع قائدك بلا تردد، وأن تتردد عند أوامر أبيك؟! "

صحت:

- لا.. لا يا أبي.

" شقيقك الأصغر (كانارشان) قتلته اختبارات المصارعة بالمعسكر "

" شقيقك (كادارشان).. عاقبوه باختبار ما، ويبدو أنه لم ينج "

" لقد مات أبوك يا (كازان) "

خبطت رأسي في قوة بينما أترنح...

" يبدو أنك قد نسيت أن لك أخ يدعى (كاسان).. أو كان لك "

" اذبحوه "

سقطت على ركبتيّ ولا أعلم ماذا يحدث لي، فرفعت رأسي للسماء أنظر إليها فأحسست أن رأسي قد ثقل وزنها فمالت للوراء في حدة حتى سقطت على ظهري مغشياً عليّ.

***

" (كازان).. (كازان) "

ما أن وصل الصوت إلى مسامعي حتى فتحت عينيّ في سرعة وقلت:

- أبي!

قمت ونظرت إليه في سعادة، كدت أن أضمه لولا أن ما رأيته خلفه من جدران المنزل جعل ملامح السعادة تذوب على وجهي، فقال العم (شوهان):

- لا عليك يا بني، فأنا مثل والدك.

اعتدلت ثم ذهبت إلى طرف السرير جالساً، فقال العم:

- أعلم ما تمر به الآن، نحن بجانبك يا بني.

أومأت برأسي نافياً وقلت باقتضاب:

- أنت لا تشعر بما أشعر.

أجابني في هدوء:

- قد لا أشعر بقدر ما تشعر.. لكني أحاول.. وأقدّر ما تمر به الآن تمام

التقدير، فحرمانك من طفولتك ثم شبابك قضى على كثير داخلك، حتى جاء حرمانك من عائلتك فقضى على أملك الكبير، لكنني موجود يا بني.. أنا و(راسيا) و(رازام).

- لا أعلم ما أصابني!

- إنها نفسك يا بني، نفسك تصيح داخلك بعدما طفح بها الكيل.. وأنت ما زلت تكبتها.

قالها ومسح بيده على صدري في رفق، فقبضت على يده في سرعة راجياً:

- لا، لا تفعل...

لم أكمل الجملة.. فدمعت عيناي فجأة وأشحت بوجهي، فنظر لي العم في شفقة ولم ينطق، وأخذ يتأملني على حالتي هذه، ثم قال:

- دع نفسك يا بني، لا تستقوي عليها أكثر من هذا.

لم أجبه، وأخذت أضغط على فكي الذي أخذ يهتز بشدة...

" (كازان)! "

لم أستطع أن أتمالك نفسي بعد ذلك وانفجرت في البكاء، فأقترب العم مني وضمني إلى صدره وأخذ يمسح على ظهري، فأشتد بكائي أكثر، وقال لي:

- أخرج كل ما بك يا بني.. كل ما بك.

***

عند شروق الشمس كنت أجلس مع العم و(راسيا) في ساحة المنزل نتحدث، وقال العم:

- (رازام) ذكر لي الكثير في رسالته الوحيدة التي أرسلها لنا منذ بدء الحرب.

التفتُّ إليه في تعجب قائلاً:

- رسالته؟

فأجابت (راسيا):

- نعم، وصلتني أول أمس.. لم يذكر لنا مباشرة، لكني أعلم أسلوب أخي، وما كان يبدو في الرسالة كأنه حماسة وإشادة بما يتم، إلا أني أعلم بالضبط أنه يشعر بعكس هذا، فذكر لنا الكثير مما فعلته للجيش وصنعت بالناس.

أجبتها في الهدوء:

- وهو؟.. ألم يذكر ما كان يفعله هو أيضاً؟

- هناك فرق بين المضطر لهذا المؤمن به.

قال لها العم:

- كفى يا ابنتي.

- كفى ماذا يا أبي؟ أهذا الذي كان على وشك أن يتزوجني؟

- لا تنسي أنه منذ صغره قد نشأ في المعسكر وتربى على هذا.

سبقتُ (راسيا) في الرد على العم وقلت:

- أنتِ على حق يا (راسيا).

أشاحت (راسيا) بوجهها، والتفت إليّ العم متعجباً، فعدت أقول:

- ألم تسألوا لمَ قد عدت؟ برغم أن الحرب لم تنته بعد!

- لماذا يا بني؟

- لقد طلب الملك رؤيتي...

ارتفع حاجبا العم، فتابعت:

- نعم، ولقد عقد معي اتفاقاً لم أتخيله حتى.. لقد نصبني قائداً لقلب الجيش، ووعدني عند النصر بتنصيبي أميراً للمملكة الوسطى وسيزوجني اثنين من بناته، وخرجت من قصره إلى هنا كي أراكِ أنتِ يا (راسيا).

- وبماذا أجبته يا بني؟

- أجبته بأن يعطيني فرصة إلى اليوم كي أهيء نفسي لقبول عرضه.

- قبوله؟!

- نعم يا عمي، إن الملك يثق بي وبقدراتي، وما سيقدمه لي الملك عازم أن أنعم به أنا و(راسيا).

التفتت (راسيا) إليّ في حدة قائلة:

- لا.

نظرت لها مستنكراً وسألتها:

- لا؟!

قال لها العم:

- اهدأي يا ابنتي.

- لا يا أبي، لن أتزوج شخصاً مؤمن بجرائمه التي يفعلها.

قلت (لراسيا):

- أنتِ تعلمين أن الحرب ستكون هكذا، حتى من قبل أن تحبينني.

- نعم، أعلم.. وبرغم أني آمنت بك وأملت فيك إلا أنك آمنت بها.. وأجرمت بها.. وما زلت مصراً عليها.

- وإن تركت الحرب؟

هزت رأسها نفياً وقالت:

- وماذا سيعوض عمن قتلتهم؟

- وماذا سيعوض عمن فقدتهم أيضاً؟.. ألم يخبرك (رازام) بما فعلت في آخر معاركنا؟

- نعم.

وتابع العم:

- نعم يا بني، ولقد سعدت بهذا.. لكن...

قاطعته قائلاً:

- لكن ماذا؟

- من دافعت عنهم هنا.. قتلت أضعافهم وستقتل أضعافهم في الأيام القادمة.

- إنه أمر فُرض علينا، رضيت به إن لم أرض فهو مفروض، لقد فقدت أشقائي وسط هذا الأمر وما زلت به.. لا أجد مخرجاً.

- وأنت داخل نفسك.. راض أم لا؟

- بعدما فقدت عائلتي لم أعد أشعر بأي شيء تقريباً.

- لكنك قد قتلت عائلات مقابل هذا.

- لقد جعلنا المعسكر لا نشعر بقيمة الحياة لأي شخص.. ولا حتى لي أنا.

سكتا ولم يردا عليّ، فالتفتُّ إلى (راسيا) وقلت:

- (راسيا).. لقد دافعت عن تلك النساء لأني تذكرتك.

فرفعت رأسها إليّ وأجابتني في هدوء:

- وهل ستفيد ذكراي في حماية المدن الباقية؟

- وإن منعت تدميرها كمثل السابقة؟

- بأي حجة؟ وأي حجة ستعيد من قتلتهم؟

نظرت إليها بوجه لا يحمل أي ملامح، ثم نطقت بعد لحظات:

- برغم أن حياتي لا تساوي لي شيئاً لكني الآن أتفهم لمَ (رازام) حريص على حياته من أجل هدف يرغب به أشد الرغبة.. ليت انهائي لحياتي يغفر ما فعلته أمامك، لكني الآن حريص على حياتي كي أنعم بوجودك يا (راسيا).. هل.. هل هناك ما أفعله لأصلح به موقفي عندك؟

صمتت للحظات ثم قالت:

- عندما آتيتني بأسورتي شعرت بأنك قد تستطيع اختراق الأرض وفعل أي شيء لأجلي.. أما الآن...

تابعت متحسرة:

- لا أرى أمامي من يستطيع أن يفعل.

عقدت حاجبيّ في شدة ثم رفعت أحدهما قائلاً:

- هكذا؟.. حسناً.

***

عند غروب ذلك اليوم كنت أسير ناحية المدينة، عاقد حاجبيّ في اصرار، وعيني تطلع إلى مستقبل خططت له.. إلى الجيش والحرب وعرض الملك، كنت أخبط الأرض بقدميّ من فرط تعجلي وأتمنى أن أحطمها لعلي أهدأ، لكن لم يفد أي شيء، فكفى بعقلي الذي لا يكف عن التفكير وقوداً للسعير داخلي كي أظل هكذا طوال طريقي.

وصلت إلى بوابة القصر الملكي، فدخل أحد الحراس كي يُعلم الملك، ثم عاد وأذن لي بالدخول، فتقدمت واتجهت إلى غرفة العرش.. وبمجرد أن رأيت الملك قاطعت ابتسامته وفمه الذي كاد أن يرحب بي قائلاً:

- أوافق على عرضك الكريم يا جلالة الملك.

الفصل الثالث والعشرون

لم يكن لدي صبر لقضاء أيام الراحة التي منحني إياها الملك، لكنه أصر عليها لسبب آخر كي يسمح الوقت للجيش الصغير بأن يسيطر تماماً على مدينة (راواد) حسب المخطط، وطلب أن أنتظر للغد على الأقل إن أردت قطع إجازتي، فلم يكن لدي بالطبع إلا المثول لأمر الملك، والذي أصر كذلك بأن أبيت الليلة بالقصر ما دمت عدت من دار أبي.. وقد كان.

***

وقفت بشرفة القصر قرب منتصف الليل أتأمل المدينة من عل، مفكراً فيما يمكن أن يكون خلف كل تلك النوافذ والشرفات البعيدة، أتكون وراءها أسر سعيدة؟.. أم آباء وأمهات يعزون أنفسهم في أبنائهم الذين خسروهم بما أصابهم المعسكر به؟.. أو ربما هناك آباء وأمهات الآن في تلك الظلمات يحاولون جاهدين أن يأتوا بالمزيد من الأطفال لهذا العالم طمعاً في المال والهدايا التي يمنحها الملك مقابل هذه الأرواح...

بدأ صوت تفكيري يخفت عندما سمعت خطوات خفيفة تقترب من الخلف، فالتفتُّ وإذ بها إحدى البنتين اللاتي عرضهما الملك عليّ ضمن اتفاقه اليوم، ويبدو أنها الأكبر سناً من الأخرى، وقد اقتربت مبتسمة بمجرد التفاتي إليها، فاعتدلت في وقفتي لاستقبالها، وسألتني:

– أتمانع بعض الرفقة؟

أومأت برأسي نافياً وأجبت:

- لا بالطبع سمو الأميرة.

تقدمت بخفة إلى سور الشرفة بجواري، وأسندت مرفقيها عليه قائلة:

- لا داع للرسميات وهذه المجاملات، فيبدو أنك ستصبح أميراً قريباً.

نظرت إليها مفكراً فيما قالته ولم أجب، فالتفتت إليّ مبتسمة وقائلة:

- تقدم وتابع تأملاتك فلا أود أن أشعر أني أفسدت عليك ما كنت تفعل.. أم تود أن أنصرف؟

- لا بالطبع.

فاستدرت نحو المدينة وتقدمت للسور مجدداً أتأملها بنظري، بينما تفكيري قد انحصر في تلك الفتاة بجواري وفيما قالته، وهي بين اللحظة والأخرى تنظر للمدينة.. ثم السماء.. ثم تتنهد في رقة.. ثم تعود للصمت، حتى سألتني بعد لحظات:

- ما الذي كان يشغل رأس أمير الغد؟

ابتسمت وأنا أخفي تهكمي المعتاد، وأجبتها متسائلاً:

- أمير الغد؟.. يا لها من ثقة كبيرة لديكِ سمو الأميرة.

- فلتدعوني (ماناس) فقط.

تنحنحت في حرج وأجبت بابتسامة مترددة:

- حسناً.

والتزمت الصمت بعدها، فاتسعت ابتسامتها هي وقالت:

- ربما أنت الذي لا يرى بنفسه ما يراه الآخرون، أنت لا تعلم ما الذي

يُقال عنك بكل مكان، ولو كان حقيقياً ما أنجزته فأنا أرى أن ثقة أبي بك وتهلل وجهه عند كل رسالة تأتيه عنك لهي ثقة وأمل في محلهما.

– إن ما أنجزته حقيقي، لكني لا أرى سوى أني قد أديت واجبي تجاه الجيش.

– إن كان واجباً حقاً فلمَ لم يؤده هؤلاء القادة الحمقى الذين عينهم أبي؟.. أنا متأكدة أنهم يغارون منك الآن، مثلما يغار منك الأمراء الذين يتقدمون لزواجي فيردهم أبي لأن لا أحد منهم قد أرضاه مثلك.

ضحكت ضحكة قصيرة أظهرت بها تهكمي أخيراً، ثم نظرت إلى الأرض أسفل الشرفة، وأشرت متسائلاً:

– أيمكن لأحد أن يقفز من هنا إلى الأرض دون أن يصيبه شيء؟

حدقت في الأسفل ثم أجابت:

– إن المسافة بعيدة إلى الأرض.. بالطبع لا.

– ومن قال أنها بعيدة؟

– إنها عشرون قدماً تقريباً.

ابتسمت بينما أنظر إلى الأسفل مفكراً وقلت:

– الخوف من مجرد أرقام وكلمات هو ما جعل الناس يحيطونها بهذه الحواجز تحت ادعاء "لا أحد يستطيع".. لقد تدربنا في المعسكرات على قفز ارتفاعات قريبة من هذه، لكنها بدت كبيرة بذلك الحين، وهذا قد كشف لي أني قد أستطيع تخطي ما تحاول نفسي إبعادي عنه، وأن أصل بقدراتي الجسدية وحتى الذهنية إلى ما وراء تلك الحواجز...

ثم تنهدت ورفعت نظري إلى المدينة متابعاً قولي:

- أنا لم أكمل تعليمي بسبب المعسكر، لكني كنت خلال تلك السنوات أؤمن أن هناك عقلاً بداخلي يجب أن أستخدمه، وسط ضباب الدماء والصراخ والأوامر والطاعة.. وهذا بالضبط ما فعلت أثناء المعارك بينما الآخرون يرهبهم الالتزام بمخطط وجداول ورسائل يجب أن تصل بأخبار جيدة، أما أنا فلا شيء لدي لأخسره.. لذا لم أطمع ولم أطمح فيما تقولين بينما أتجاوز المحنة تلو الأخرى.

صدرت منها ضحكة رقيقة ثم نظرت إليّ قائلة:

- ألم أقل لك أنك لا ترى نفسك مثلما يراك الآخرون؟

نظرت إليها وكدت أن أجيب فرأيتها تحدق في عينيّ، فارتبكت قليلاً وترددت كلماتي، فأشحت بوجهي وكدت أن أجيب بشيء سريعاً لكنها قاطعتني قائلة:

- أتعلم؟.. أنا مقربة بشدة من أبي رغم أننا لا نتفق كثيراً حول رؤيته لتلك الحرب، وعندما كان يشاركنا الأخبار على مائدة الطعام كان يوجه معظم أحاديثه لي كوني الأكبر سناً بين شقيقاتي والأذكى كذلك، حتى بدأت أخبار الحرب تتحول إلى أخبار عن بطل فريد بين الصفوف، لا يرهبه الجحيم ذاته.. كان أبي يتحدث وكأنه قد وجد ما تمناه خلال كل هذه العقود التي مرت عليه، وقد كنت متشككة في بداية الأمر حتى تسللت إليّ أهميتك مع ذكر أبي لك في كل مناسبة وكل لقاء.. وإشادته بقوتك وثباتك أثناء اندفاع القادة الكبار وهلعهم.

ابتسمت وأومأت برأسي نافياً دون أن أنظر إليها، وكدت أن أرد لولا أنها

تابعت:

– تمر عليّ الأيام ويأتيني ذلك الأمير أو ابن الوزير كي يطلبني للزواج منه، فيحدثني عن قصره وعن ثرواته وعن حظه لأنه قد وُلِد أثناء قرارات أبي باستثناء ثاني الذكور فقط عن التجنيد، ثم يعدني بالسعادة معه وتلبية جميع مطالبي فأشعر بالاشمئزاز منه.. ويظل يثرثر ويتصنع اللباقة واللطف فينصرف عنه تفكيري إلى البطل الذي يخوض جحيماً حقيقياً الآن بينما ذلك الأحمق لا يزال يثرثر عن ثروته.. وكنت أظن أني أبالغ في خيالاتي بسبب أحاديث أبي.. حتى رأيتك يا (كازارشان)، فعلمت أنك حقيقة أعظم من الحقائق التي ذكرتها الأحاديث.

ابتسمت في تردد وقلت:

– صدقيني، أنا لست كما...

قاطعتني قائلة في رقة وخفوت:

– لا يهمني أي شيء يا (كازارشان)، أنت لست غنياً مثلهم ولا تعلمت ما تعلموا، ولربما هذا ما ميّزك بأفضلية عنهم لا العكس، أنت الثروة الحقيقية التي يمكن أن تحلم بها كل فتاة ذات قلب مثلي يا (كازارشان)، عندما حدثنا أبي أنا وشقيقاتي عن العرض الذي يخطط له، شعرت بسعادة التي استيقظت من أحلامها لتجد حقيقة تنافس الأحلام جمالها، حتى أني قد زاد طمعي بالسعادة فشعرت بالغيرة أن شقيقتي التي أحبها ستشاركني بك.

كنت أثناء هذه الكلمات يزداد ارتباكي وترددي، لم يفدني ما تصديت له خلال الأيام الماضية من كوارث في الثبات النفسي أمام كلماتها، والتي أشعرتني بالكثير من القيمة، وأنه لربما يوجد بالفعل ما يمكن أن يعيش مني،

لا أن ألقي بنفسي إلى الموت في كل فرصة غير عابئ بهذه الحياة، مثلما فعلت كلمات الملك لي منذ ساعات.

لكن برغم هذا.. لم ينبض لها قلبي نبضة واحدة مثلما نبض (لراسيا)، نعم.. (ماناس) هذه ابنة الملك.. جميلة ومتعلمة وذكية بالإضافة إلى ثقتها، ولربما صادقة في مشاعرها لكنّ قلبي لم يرض بأحد بعد (راسيا)، حتى وإن كانت صدتني وفقدت أملها فيّ.

حاولت أن آتي بأي كلمات مناسبة أجيب بها (ماناس) التي حاصرتني بكلماتها ونظراتها، حتى بدأ لساني يتحرك في تردد...

" (ماناس).. حبيبتي "

التفتُّ في حدة إلى الملك الذي تقدم نحونا من باب الشرفة متهللاً وجهه ونظراته بيننا، لقد أنجاني من هذا الحصار وقاطع تلك الكلمات المشوهة التي كاد أن ينطق بها لساني المتردد، فاستدرت واعتدلت في وقفتي محيياً إياه، حتى وصل لابنته وقبلها من وجنتها، ثم قال:

- أيمكن أن أتحدث قليلاً مع (كازارشان) يا عزيزتي؟

أجابته بابتسامة:

- بالتأكيد يا أبي.

ثم التفتت إليّ مودعة إياي بابتسامة عريضة وانصرفت في خفة حتى اختفت وراء باب الشرفة، فنظر إليّ الملك بمجرد انصرافها بينما الابتسامة لم تفارق وجهه وسألني:

- كيف حالك يا (كازارشان)؟

أومأت له برأسي مجيباً باحترام:

- بخير يا سيدي ما دمت في ضيافتكم.

تقدم نحوي وربت على كتفي موجهاً إياي نحو سور الشرفة مجدداً وقال:

- هناك بعض الأشياء التي جالت بخاطري وأود أن أشاركها معك.

- هذا شرف لي يا سيدي، وسيسعدني أن أستمع لها.

- لا أريد استماعاً وفقط، بل أريد مشاركة.

تعلمت من الملك هذا اليوم أنه لن يرضى بحرجي مجدداً فالتزمت الصمت، فتنهد وقال:

- عندما غزتني أول أحلامي لهذه الحرب، كنت أود إخراج جيش لا تقف الجبال أمامه، كنت أراها حرباً تتطلب قوة من أجل تحقيق هدفها، والإبقاء على هذا الهدف دون أي مقاوم أو متمرد، ولذلك اعتمدت هذه الأساليب التي رأيتها في التدريب بنفسك، من أجل إخراج محاربين مثلك إلى الوجود، يمكن أن يخترقوا جبلاً إن حال بينهم وبين أهدافهم، وفوقهم قادة.. لهم من الذكاء والقدرة ما يكفي للسيطرة على الآلاف من الوحوش في أحلك المواقف.

أثارت بي كلمات الملك عديداً من الذكريات البعيدة والقريبة، فتابعت الاستماع إليه:

- عالمنا هذا لم يختبر حرباً كهذه من قبل، ولا حتى أقل منها، لذلك لم يكن لدي قادة يمكن الاعتماد على خبرات سابقة لديهم لمواجهة مفاجآت وكوارث حربية حقيقية، وإيجاد حل سريع لها.. لم تكن لدي الثقة في توفر

لون ونوع الذكاء المطلوب لهذه المهمة لديهم، ولذلك كانت القوة الكاسحة هي الحل الآمن، وهذا ما جعلني استمع لاستشارات الوزراء والقادة حتى ارتضيت ما ارتضيت لهذه الحرب.. كنت أظن أننا في أصح طريق وأأمن سبيل لتحقيق رؤيتي لهذا العالم دون قلق من مقاوم أو متمرد ضدنا.. حتى أثبتَّ لي خطأهم يا (كازارشان).

- أنا يا سيدي؟

- نعم، أثناء عقود الاستعداد لهذه الحرب، كنت أعلم أن هناك مدن وإمارات تستعد هي الأخرى، وبالتأكيد تبني أسلحة وتستغل الأراضي المحيطة بها من أجل صد هجومنا، وكان أكثر ما يشغلني هو العثور على قائد لا يمكن أن تزعزعه أي مفاجأة تتعرض له، وعندما حدثت كارثة الممر.. سقط أكبر قادة الجيش بينما ظهر شاب ما زال في منتصف عشريناته كي ينقذ الجيش بأكمله في حل.. ربما ليست لدي الثقة لأؤكد أن نائب القائد أو باقي القادة كانوا ليفكروا به بهذا التخطيط والثبات الذي تمتعت به يومها.

تنحنحت، وقلت متردداً:

- لكني بالتأكيد يا سيدي ربما استحققت العقاب أكثر من مرة.

- لو عاقبتك يا (كازارشان) فيجب عليّ أن أعاقب آخرين قبلك، آخرين قد اعتمدت على آراؤهم وخبراتهم بهذه الحياة من أجل الحرب، لكنك حطمت هذا في مفاجأة كانت سارة لي، فطلبت من (جاساك) بعد كارثة الممر أن يأتيني بتفاصيل أكثر عنك، كنت أريد أن أتأكد أن تصرفك هذا لم يكن تصرفاً عَرَضياً.. وقد كنت عند حسن الظن كما أملت.

- هذا شرف كبير لي يا سيدي.

نظر الملك إليّ في رضا ثم ربت كتفي قائلاً:

– أثق أنه من الغد سيتغير مسار الحرب إلى الأفضل عندما تكون قائداً لقلب الجيش بصلاحياته، وهي صلاحيات مناسبة لشخص ذكي مثلك، وللعلم.. لقد فكرت كثيراً في القرار بعدم هدم (شاداسكيري) الغربية والقضاء على أهلها، ما دام هناك عقل مثلك قد أثر في الجيش بذكائه وفي الأعداء بنبله.. يمكنني أن آمل أنه قد يكون أسلوباً أفضل وأعطيه فرصة، لكن عليك بالتحدث مع قائدك عند كل قرار مثل هذا، وأي قرار خارج المُتبع يجب أن يُحال إليّ فأعطي الأمر فيه.

لم أرد أن أفضح سعادتي بقرار الملك، فاكتفيت بابتسامة عريضة وأومأت برأسي للملك تقديراً لأوامره، فابتسم بدوره قائلاً:

– سأدعك الآن لتسترح يا (كازارشان)، وأراك في الصباح بأفضل حال.

***

بعد شروق الشمس كنت أمام الملك بغرفة العرش، وقد استدعى بعض الحرس كي يرافقوني إلى مدينة (راواد)، وبرغم أني لم أجد ضرورة لهذا إلا أنه قد أصر حرصاً عليّ، كما أشار لرجل ضخم البنية قائلاً لي:

– هذا الشخص الذي سيحمل رسالتي بمنصبك الجديد إلى قائد الجيش.

أجبته متعجباً:

– إنها أول مرة أجد رسولاً بهذه القوة!

فابتسم قائلاً:

– إنه مجرد إجراء احتياطي، كي لا يظن أحدهم أنك قد تضغط على

رسول ضعيف كي تزور أو تغير الرسالة.

– أليست عليها الختم الملكي؟!

– عليها بالطبع، ولكن كما قلت.. إنه مجرد إجراء احتياطي، فما تفعله أجواء الحروب وأجواء الحقد الذي لا أستبعده يمكن أن تجعلهم يظنون أي ظن مجنون وخارج عن المنطق.

ابتسمت والسخرية بداخلي، ثم أومأت برأسي للملك متفهماً، فربت على كتفي وقال:

– يمكنك أن تنطلق الآن أيها البطل.

انطلقت إلى خارج القصر برفقة الرسول والحرس، كانت الحماسة تملأني لبدء المرحلة الجديدة بأسلوبي، فاستدرت أودع قصر الملك بنظرة لا أعلم متى ستتكرر، فوجدت (ماناس) واقفة بالشرفة حيث لم أكد استدر للقصر حتى رفعت يدها مودعة إياي بسعادة، فرفعت يدي إليها في ارتباك مودعاً إياها، والتفتُّ إلى طريقي متابعاً إياه ومتابعاً أفكاري.

***

مر يومان ونصف من الركض بالخيول في الصحراء، تتخللها معسكرات قصيرة للطعام والمبيت، حتى وصلنا إلى (راواد) على ساحل البحر، كانت هذه أول مرة أراها بالطبع، لذا لم أعلم كيف كانت قبل أن يخربها الجيش الصغير، وعندما اقتربنا من أسوارها أطلق أحد الحرس الذين معي بوقه ثلاث مرات متتالية ثم مرة، والتفت إليّ قائلاً:

– إنها إشارة للاطمئنان خاصة بهم.

لم أجبه وعدت بنظري لباب المدينة الذي أخذ الجنود يظهرون منه، فتقدمنا حتى وصلنا إليهم حيث برز إلينا أحدهم متقدماً نحونا، وقال بثقة شابها الغرور:

- مرحباً برسل الملك، أنا القائد (ريسان).

تأملت للحظة هذا القائد الذي يقترب بالكاد من العشرين من عمره، مثل بقية جنوده المتناثرون أمامنا، فأشار إليّ قائد الحرس قائلاً باحترام:

- القائد (كازارشان ماثير بوتابيرون).

ارتفع حاجبا (ريسان) في دهشة، وكاد أن ينطق بشيء لكني ربتُّ على كتفه في هدوء وتخطيته قائلاً:

- دعني أرى إعدادات الجيش والسفن.

ركض خلفي كي يلحقني هاتفاً بسعادة:

- إنه لشرف لي أن أقابلك يا سيدي.

أومأت برأسي وكدت أن أرد لولا أني لم أكد أتخط باب المدينة حتى رأيت ما فعل جنوده بأهلها، رأيت دماراً لا يختلف عما فعله الجيش الكبير بالمدن، لكني لاحظت أن بعض الجثث قد تم تمزيق ملابسها بما يشير أنه قد حدث تعذيب هنا، فالتفتُّ إلى (ريسان) هذا قائلاً بصرامة:

- ماذا حدث هنا؟

أجابني بتوتر:

- ما أمرنا به الملك.. الإبادة.

- أتم تعذيب أحدهم قبل قتله؟

- لا.

- هل تم التعدي على أي امرأة؟

- لا.

حدقت في عينيه بنظرة حادة، وفجأة صحت:

- يا قائد الحرس!

اهتز جسد قائد الجيش الصغير من صيحتي، وتقدم إليّ قائد الحرس مجيباً:

- نعم يا حضرة القائد.

- كم عدد سكان المدينة؟

- ماذا؟!

صحت فيه:

- كم عدد سكان المدينة؟.. ألم تسمع؟

أومأ قائد الحرس في سرعة ثم أخذ يفكر لثوان، بينما (ريسان) عيناه زائغتان بيننا ويتصبب عرقاً من الخوف...

" ألف وواحد وسبعون تقريباً أيها القائد حسب آخر الوثائق التي اطلعت عليها "

أومأت برأسي له بينما أتقدم، ثم قلت:

- فلتأمر الحرس بأن يحصوا عدد الجثث هنا.

اندفع (ريسان) خلفي سائلاً بارتباك:

- لماذا أيها القائد؟

شهرت سيفي واستدرت أوجهه نحو عنقه قائلاً:

- أنا أشعر بالضجر سريعاً من كثرة الحديث، لو نطقت بكلمة واحدة بعد أن أنهي جملتي لن تعيش لتكملها...

ثم صحت في قائد الحرس:

- هيا.

فصاح قائد الحرس في جنوده بما أمرت، ثم اقترب مني قائلاً في خفوت:

- قد تتسبب في مشكلة بما فعلت يا سيدي، فهم يرون أنك تهدد قائدهم.

نظرت إليه لثانية ثم صحت أمام المتناثرون حولي بالمدينة:

- أيها الجنود.. أنا القائد (كازارشان ماثير بوتابيرون).. قائد قلب الجيش الكبير، ولي صلاحيات بأمر من الملك.. هل من اعتراض هنا؟

لم أسمع رداً من أحد ولا حركة، فعدت أصيح:

- هذا جيد، الحرس هنا يقومون بمهمة بأمر مني، فمن يتجرأ ويعترضهم أو يشعرهم بالتهديد ستكون نهايته أسوأ من نهاية أهل هذه المدينة.

ثم عدت بنظري إلى وجه قائدهم قائلاً بصرامة:

- سنرى إن كنت على حق يا قائد جيش المراهقين.

***

استمر حصر الجثث ما يقرب من نصف ساعة، كان خلالها قائدهم يوشك على الانهيار من الخوف، وتجمع الحرس عندي في النهاية وأخبروني

بما حصروه، ولم يكن العدد ينقص واحداً، لكن تنحنح أحد الحرس وقال:

- سيدي، لقد وجدت بعض الجثث لنساء داخل بعض البيوت والمتاجر هناك، وقد تم.. آ.. تجريدهن...

كنت أشعر بحرج الجندي فقلت له متفهماً:

- حسناً.

ثم توجهت برأسي إلى (ريسان) مزمجراً:

- من فعل هذا؟

أجاب في هلع:

- أقسم لك أني لم أفعل.

- ومن فعل؟

- آ.. بعض الجنود.

- ومن هم؟

أخذ التردد يملأ كلماته، فتقدمت دافعاً إياه فأسقطته على الأرض، ودست بقدمي على صدره كيلا ينهض، وصحت في الجنود:

- من كان يظن أنه رجل بحق بما فعل في نساء المدينة فليرني شجاعته ويعلمني بنفسه.

لم يتحرك أحد، فصمتُّ قليلاً ثم صحت:

- أنا هنا القائد، ولا قائد غيري أيها المراهقون.. وأقسم إن لم يخرج من فعل هذا، وإن لم يكشف بقيتكم عمن فعل.. فسآتي ببضعة جنود فقط من

الجيش الكبير كفيلون بإبادتكم في لحظات.

أنهيت جملتي فألقى بعض الجنود أسلحتهم وركضوا نحوي، حيث قال كل منهم:

" أنا رأيت من فعل هذا "

فأشرت لقائد الحرس إشارة معلومة له، فأمر الحرس بأن يشهروا سيوفهم، فعدت إلى الجنود قائلاً:

- أخبروني عنهم فرداً فرداً وأشيروا لمكانه.

فقال أولهم اسم الجندي وأشار بيده حيث يقف، فصحت في الجنود الذين يقفون بجانبه:

- اقتلوه.

ولم يتأخروا للحظة، فشهروا سيوفهم وأجهزوا عليه، فقال لي الجندي اسم الثاني والثالث والرابع.. وهكذا، ثم تقدم الثاني وأخبرني بما يعرفه، فدب القلق في الجيش الصغير، حتى رفع بعض الجنود سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم، وركضوا إلى ساحة المدينة، فأشرت للحرس بيدي فتبعوهم حتى حاصروهم، فنظر نحوي هؤلاء الحمقى بين اليأس من بعضهم.. وبين ملامح المراهقين التي أكرهها من بعضهم الآخر، تلك الملامح التي يمكن أن تميز اعتداد صاحبها الأحمق بنفسه، وكأن لم يُخلق الذي ينافسه قوة ورجولة.. إن وجدت.

فبادلتهم بنظرة شامتة، وبلا مبالاة أشرت للحرس بأن يقضوا عليهم، فارتفعت سيوف ذوي الخبرة ولم تهبط إلا مع سقوط أجساد هؤلاء المراهقين صرعى في دمائهم، أنتهى الأمر في لحظات فنظرت إلى (ريسان) وهو تحت

قدمي قائلاً بتهكم:

- ما لهذا الجيش!.. بئس الذين يصطفوهم للقيادة.

ثم رفعت قدمي وضربت بها صدره قائلاً:

- قم أيها القذر.

سعل من قوة الضربة، ثم قام وهو يترنح وأدى التحية لي في صعوبة، فقلت بصرامة:

- هيا لترني السفن.

أشار نحو شمال المدينة فبدأنا نسير، ولحق بي قائد الحرس قائلاً في هدوء أقرب إلى الهمس:

- أرجو أن تسمح لي.. لا يصح ما فعلت أيها القائد.. فقوانين الجيش تحتم على عدم إهانة أي من القادة أمام جنوده كي لا تهتز صورته أمامهم فيتمردون عليه أو يسخرون منه.. لن يستطيع رفع رأسه أو إصدار أمر أمامهم بعد الآن.

صمتُّ قليلاً في تفكير، ثم أجبته:

- لك كل الحق.

وصحت:

- أين نائب القائد؟

فتوقف (ريسان) عن السير، وجرى إليّ أحد الجنود ثم أدى التحية لي قائلاً:

- أمرك أيها القائد.

فقلت له:

- أنت من الآن قائد هذا الجيش.

ثم رفعت سيفي وأطرت رأس (ريسان)، فتفاجئ الجميع واهتز قائدهم الجديد في وقفته بينما جسد قائده السابق يسقط عند قدمه دون رأس، فلم أعبأ وقلت:

- هيا لنرى السفن.

تمالك نفسه في سرعة وأشار إلى الشمال مجدداً، فتابعنا السير إلى البوابة الشمالية للمدينة، وعبرناها لنرى الميناء حيث ترسو السفن، ورأيت منظر المجانيق التي بُنيت عليها، كانت متطابقة مع فكرتي للمجانيق التي اقترحتها للجيش الكبير، فرجحت أن القائد قد أرسل رسومي إلى الملك برسائله.

أخذت أفكر قليلاً بينما أتأمل السفن، ثم قلت:

- أيها القائد.

تقدم إليّ في سرعة ملبياً:

- أمرك أيها القائد الكبير.

أعجبني للحظة ما قاله رغم علمي أنه قد نطق به نتيجة خوفه، فقلت له:

- تعال معي.

تبعني مبتعدين عن الجميع، فسألته:

- ما اسمك؟

تنحنح بقوة وأجاب:

- (تافاريون).. (تافاريون) أيها القائد.

- أنت من مدينة (تافار)!

- أجل أيها القائد.

نظرت فوق كتفه إلى السفن وقلت:

- هل ستتحمل هذه السفن الاهتزاز أثناء عمل المنجنيق؟

- بالتأكيد، لقد تدرب العشرات منا عليها شرق ساحل (راواد) بآلاف الأقدام، حيث تم نصبها فوق السفن، وبرغم غرق عدد منها، إلا أن هذه هي أكبر السفن وأفضلها مما تحمّل عمل المجانيق.

- هذا جيد، وكم تبقى من جنودك؟

- ربما ألف وتسعمائة وعشرة، سأقوم بحصر جديد بعد قراراتك الأخيرة يا سيدي.

- حسناً، سيتم شحن المتدربين على السفن الآن لقيادتها وإدارتها، أما عن البقية فسيتبعونني على الخيول في الصحراء حتى ساحل (شاداسكيري) كما طلب الملك.

أومأ بالموافقة وقال متحمساً:

- إنه لشرف كبير لنا أيها القائد أن تقودنا.

- وهناك أمر أخر.

- ما هو؟

- عندما تغزو مدينة (غيروزا).. لا أريد دماءً إلا بما يكفي لسيطرة كاملة بلا أي تعذيب ولا اعتداء ولو على حيوان حقير عابر، حسناً؟

- حسناً، أمرك أيها القائد.

- جيد.

❋ ❋ ❋

تم شحن السفن، ورأيتها وهي تبدأ الإبحار غرباً نحو (شاداسكيري)، ثم أمر (تافاريون) بإعداد وتنظيم الجنود بخيولهم للرحيل من هنا، ولم نستغرق أكثر من يوم ونصف من السير بالصحراء ومعسكر واحد للمبيت، حتى وصلنا إلى الممر المؤد لإمارة (شاداسكيري)، فاخترقته والجنود بينما يشعرون بالصدمة لمنظر الجثث التي لم تعد تدل على كونها كانت لجنود إلا بوجود الدروع التي تغطي أجسادها المشوهة والعفنة، ولم يجرؤ أحدهم على سؤالي أي شيء أو حتى كلمة يعبر بها عن صدمته، فماذا لو علموا أنهم يمرون كذلك فوق جثة القائد الأول للجيش؟!

ظل الصمت وصلنا إلى بوابة المدينة واخترقناها إلى المدينة الشمالية (لشاداسكيري) مباشرة، والتي يبدو أن الجيش الكبير قد سيطر عليها مبكراً.

وعندما مررت من بوابتها وجدت الخراب كالعادة في كل مكان، وآلافاً من الجثث كذلك، فهززت رأسي في عدم رضا وتمنيت لو كنت موجوداً كي أحول عنهم مثلما حدث في المدينة الغربية، ومع هذا.. تسلل إليّ بعض الحنين إلى القتال بعدما انقطعت عنه لأكثر من أسبوع، وظللت متأملاً الدمار والجثث حتى تخطينا باب المدينة الشمالي إلى ساحل البحر حيث وجدنا السفن هناك، وعندئذ قلت (لتافاريون):

– من الآن ستتولى أنت زمام الأمور.

أحنى رأسه في احترام وقال:

– لقد تشرفت بمقابلتك واتباعك أيها القائد الكبير، سنحتفظ جميعاً بهذا الفخر.

ابتسمت له ابتسامة قصيرة، ثم قلت مومئاً برأسي له:

– هيا.

فصاح في الجنود كي يتقدموا، وظللت أتأملهم حتى آخر جندي صعد إلى السفن، التي بدأت بعد لحظات في الإبحار متوجهة نحو الشمال، فظللت أتأمل البحر والأفق الذين يتجهون نحوه للحظات أخرى، ثم التفتُّ إلى قائد الحرس قائلاً:

– هيا بنا.

***

خرجنا من المدينة إلى الجنوب الغربي نحو واحة (ساقا) لنتزود بالماء والطعام، وفي منتصف الطريق إليها بدأ العشب يكثر من حولنا في الصحراء، وبدأت الأشجار تنتشر هنا وهناك بتقدمنا أكثر، فقال لي قائد الحرس:

– نحن الآن ندخل النطاق الأوسط للمملكة الكبرى حيث الأرض الأكثر خصوبة، فتنتشر الأراضي الطينية والخضرة بدلاً من صفرة الصحراء وجفافها، وبعد مغادرة واحة (ساقا) سندخل في نطاق الغابات.

ذكرني هذا بحديث (راسيا) السابق عن واحة (ساقا) والأراضي الخضراء هناك، والذي لم أستوعبه وقتها، فمنذ ولادتي اعتدت على الصحراء ولم أر

سواها حتى الأفق، محيطة بكل شيء، مدن كانت أو واحات أو معسكرات، لم أر غابة أو أراضٍ خضراء بهذه المساحة حتى اللحظة التي دخلنا فيها هذه المناطق.

بنهاية اليوم وصلنا إلى واحة (ساقا) وقضينا بها ساعات الليل للراحة والنوم، ثم تزودنا بالماء والطعام لنكمل سيرنا، وبالفعل لاح من بعيد منظر الأشجار الكثيفة، فقلت في صوت شبه مسموع:

- هذا منظر جميل.

فوافقني قائد الحرس قائلاً:

- نعم.. المنظر جميل، لكن الغابة ليست آمنة، فهي ليست مجرد أشجار وخضرة وثمار، بل يوجد بها مستنقعات ونباتات سامة وحيوانات شرسة حتى وإن كانت صغيرة الحجم، لذا يجب الحذر.

- هل تظن أن خطر الغابة قد أسقط بعض الجنود؟

- لا أستبعد هذا.

دخلنا الغابة شاهري السيوف، آخذين السير في هدوء وحذر كي نسمع أدق الأصوات التي يمكن أن تكون مصدراً للخطر، كنا نسير بعيداً عن الأشجار والنباتات كي لا يقفز علينا شيء أو تصيبنا أشواك سامة، لكن بينما نتقدم أكثر وجدنا طريقاً يتقاطع مع اتجاهنا قليلاً وبه آثار لقطع وتخريب للأشجار، فقلت في غضب:

- ألا يمكن أن يسيروا بمكان دون أن يخربوه؟!

أجابني قائد الحرس:

- لابد أنهم فعلوا هذا كي يفتحوا طريقاً واسعاً لعبور الجيش.

لم أجبه واتخذنا نفس الاتجاه الذي يؤدي إليه، حتى وجدنا بعد فترة قصيرة جثثاً للجنود متفرقة في أماكن مختلفة، ويتجمع عليها الكثير من الحشرات كبيرة الحجم، فقال القائد:

- لا تقتربوا منهم.. فلدغة هذه الحشرات قاتلة ولا يوجد لدينا ما يكفي من علاج للدغات بهذه الخطورة.

سأله رسول الملك:

- ما الذي حدث لهم؟

- لست متأكداً، لكن من المحتمل أنه أثناء ما كانوا يقطعون الأشجار ويفسحون الطريق للجيش أن أصابتهم شوكة نبات أو لدغة حشرة، ولربما إصابة الكثيرين منهم أدت للمزيد من الهلع فازداد عدد الضحايا...

صمت قائد الحرس متأملاً بعض الأغصان المحطمة، وتابع قوله:

- ولربما أثناء فتحهم الطريق أصابوا أعشاشاً للحشرات مما سبب هجوماً شديداً عليهم، وإن حدث هذا فلا أستبعد أن نجد المزيد من الجثث بعد قليل، حيث أن أعشاش الحشرات منتشرة واحتمال عدم اصابتها مع نشاط الجنود المندفع والأهوج ضعيف للغاية.

وبالفعل، مع كثرة التوغل وجدنا عشرات الجثث المنتشرة، فقلت في امتعاض:

- حتى وهو يموتون يؤذون ما حولهم، ألن تتعفن هذه الجثث وتلوث محيطها؟

أومأ لي مرجحاً الأمر، فشعرت بالمزيد من الغضب وأكملنا الطريق.

***

كان السير وسط الغابة أصعب من السير في الصحراء، ولقد سبب لنا هذا تأخيراً طويلاً حتى اقتربنا من ساحل مضيق (راسوم)، فقد استغرقنا بالغابات يومين بينما لو كنا نسير في الصحراء لاختصرنا هذا الوقت ليوم واحد أو أقل قليلاً.

وعندما لاح معسكر استراحة الجيش من بعيد أمر قائد الحرس بإطلاق البوق بإشارة الاطمئنان، ومع انطلاق الإشارة أخذنا نتقدم نحو القوات مترقبين، فبرز العديد من الجنود مهرولين لتحيتي، فاستقبلتهم محيياً بدوري، حتى لمحت (رازام) يركض نحوي، فتقدمت إليه في سرعة وضممنا بعضنا في شدة، حيث قال في سعادة:

- مرحباً بعودتك أيها الأسد.

خبطت على كتفه وأنا ما زلت أضمه، وقلت مازحاً:

- أنت تقلل مني بهذا الوصف أيها المحارب.

ابتعد عني في رفق وقال مازحاً بدوره:

- ما زلت كما أنت أيها المحارب.

صدرت مني ضحكة قصيرة وأجبته:

- لا، لقد تغيرت من الداخل ومن الخارج.

- من الخارج؟!

اتسعت ابتسامتي ثم قلت له فيما يشبه الهمس:

- لقد نصبني الملك قائداً لقلب الجيش.

اتسعت عيناه ثم كاد أن ينطق بشيء من سعادته، لكني قاطعته بهدوء وقلت له:

- ما زال الأمر سراً حتى الآن حتى يعلمه القائد.

ولم أكد أنطق بالكلمة الأخيرة بينما نتقدم أكثر داخل أرض المعسكر حتى ظهر القائد، وقال بصوت عال مُرحباً:

- مرحباً بك بيننا مجدداً يا (كازارشان).

أديت التحية للقائد قائلاً في ثقة:

- سعيد بعودتي إليكم حضرة القائد.

نظر القائد لي نظرة لم أعلم معناها، لكني أظن أنه كان يحاول أن يبحث عن معنى آخر لجملتي هذه يشعره بالتهديد مني، فبالتأكيد منذ آخر مرة رأيته فيها والوساوس تطارده عما إذا كان (نابيروس) قد اعترف لي قبل قتله أم لا، وإن اعترف -وهذا الأرجح عنده- فهل سأكون تهديداً صريحاً له أم خفياً!.. لكن قائد الحرس قطع هذه الأفكار حيث تقدم محيياً القائد الكبير، وقال له:

- معي رسالة من جلالة الملك (كاسارشونابر).

أومأ له القائد في هدوء ثم أشار لنا بإتباعه حتى خيمته، وعندما دخلناها تقدم القائد فجلس إلى مكتبه وأشار قائلاً:

- أين هي؟

أشار قائد الحرس للرسول بالتقدم، فتقدم الرسول وسلم الرسالة للقائد الكبير الذي رمقه بنظرة تعجب، وحينها علمت فعلاً أثر فكرة الملك على

القائد الكبير، فقبض القائد على الرسالة وفتحها وأخذت عيناه تمر على السطور، حتى رأيت حاجباه يرتفعان.. فابتسمت في داخلي لأني أعلم أنه قد وصل للقرار الخاص بمنصبي الجديد، ثم عادت ملامحه للهدوء مرة أخرى، وزادت حتى وصلت إلى الجمود، ثم قال في صرامة:

- شكراً لك يا قائد الحرس لمجهودك ومجهود مَن معك.

ثم تقدم القائد الكبير نحوي ووضع يده في كتفي ناظراً إلى عينيّ، ثم قال بعد لحظة:

- أهنئك يا (كازارشان)، لقد نصبك الملك قائداً لقلب الجيش.

رفعت حاجباي بعد جملته كي تعبر عن بعض الدهشة، لم أكن أتظاهر أو أدعي ردة فعلي، فلم تكن لدي دهشة من القرار حيث أني أعلمه، لكنني اندهشت من ردة فعل القائد، فلم أشعر بسعادة نابعة من تهنئته، وعلمت أني بالفعل قد أصبحت خطراً على صورته.. ولربما منصبه.. أو ربما أيضاً على غنائمه ومكاسبه الموعودة بعد الحرب.

أشار لي القائد بأن أتبعه خارج الخيمة، فتبعته.. وذلك حتى وصلنا لوسط المعسكر، فأشار القائد لأحد حاملي الأبواق على مقربة فأطلق بوقه في إشارة مترددة وغير عالية، وهي الإشارة التي تأمر الجميع في حذر بإبلاغ الآخرين للتجمع حالاً، فأسرع الجميع يحيطون بنا، حتى مرت لحظات وقبل اكتمال حضور الجميع صاح القائد كأنه نفذ صبره:

- أيها الجنود، بأمر من جلالة الملك (كاسارشوناير).. فإن قائد الكتيبة العاشرة للقوات الخاصة (كازارشان ماثير بوتابيرون)، هو من هذه اللحظة قائداً لقلب الجيش، ويخلفه في منصبه السابق نائبه، بينما القائد السابق للقلب

سيكون أحد مستشاريّ لشؤون الحرب، ويظل نائبه كما هو بمنصبه.

صاح الكثير من الجنود تحية لي، فالتفت إليّ القائد قائلاً بابتسامة قصيرة:

- فلتحتفل بمنصبك الجديد أيها القائد، وفي المساء أنتظرك لمجلس التخطيط.

أومأت له قائلاً بحماسة:

- أمرك يا حضرة القائد.

وبمجرد أن تركني عائداً لخيمته توجهت إلى (رازام) مخترقاً الكثير من الجنود الذين تجمعوا حولي لتهنئتي، وأنا أجيبهم بإشارة من يدي وابتسامات قصيرة، حتى وصلت إليه دافعاً إياه بمزاح إلى خيمتنا، فصاح في الجنود مازحاً بدوره:

- هيا من هنا.. القائد يريد الراحة.

ثم تركهم وتبعني إلى داخل الخيمة، ثم قال:

- يبدو أنها أخر ليلة لنا معاً يا هذا، وسيبحثون لي عن رفيق جديد في خيمتي بعد أن تذهب أنت لخيمة كبيرة تناسب منصبك.

جلست على الأرض، وأشرت أدعوه للجلوس وأنا أقول:

- لا تقلق، فلا أظن أن خيمة كبيرة أم صغيرة ستؤثر على منصبي.. سأظل معك.

- حقاً؟

سألني في سعادة، فأومأت له برأسي مؤكداً في ابتسامة وقلت:

- حقاً.. هيا اجلس وأخبرني بما فاتني.

جلس (رازام) بجانبي وأخذ يقص عليّ ما حدث من تخريب وقتل كالعادة في آخر مدن (شاداسكيري)، وأن نساء المدينة الغربية لا يزالون بخير ولم يتعرض لهن أحد، بجانب الآخرين الذين قاطع تمردنا استكمال المذبحة فيهم.

كما حدثني عما يتداوله الجنود عني من آراء وأحاديث وهمسات تعبر عن مدى إعجابهم بي وكبر مقامي عندهم، وتمني العديد منهم وجودي أثناء المذبحة الأخيرة كي أمنعها، وعن سعادته ورضاه بأن هناك من هؤلاء الوحوش قد بدأ يرى أن القتل دون اعتداء ولا تعذيب لا يمنع عنه نعته بالمذبحة غير المبررة.

كما علمت منه أنهم قد تركوا المجانيق خارج الغابات لأنهم لم يستطيعوا إيجاد ثغرة وسط كثافة الأشجار والمستنقعات، لأنهم إن أصروا فلن يستطيعوا الاختراق بها إلا بعد جهد كبير سينهك الجنود لأسابيع، حتى وإن أصروا على هذا أيضاً.. فلن يستطيعوا عبور المضيق المائي بها، فبرغم أنه ليس بهذا العمق لكن تربته غير المستقرة تجعل من عبور المجانيق الثقيلة والضخمة أمراً مستحيلاً.

وأن موعد بدء الهجوم على (راسوم) ينتظرنا عند منتصف الليل.. اليوم، وبرغم تعجبي من الموعد المبكر بعد عودتي بساعات، إلا أن (رازام) أخبرني بأنهم كانوا يتوقعون عودتي منذ يومين على الأقل، لكن بدا الأرجح للجميع أن الملك قد منحني إجازة أخرّت عودتي، لذا فالمخطط لا يزال قائماً لغزو المدينة في موعده.

***

الفصل الرابع والعشرون

بعد الغروب ذهبت إلى اجتماع التخطيط والحرب في شيء من القلق من ردة فعل القادة الآخرين، بالطبع لم أكن خائفاً، لكني الآن بكل تأكيد أمثل خطراً عليهم بمنصبي الجديد وبتأثيري المتنامي في الجنود، ومن قبل منصبي الجديد قد قتلت قائداً وكدت أن أقتل مستشاراً، وبرغم ذلك أظل على صورتي وسط الكثيرين بطلاً.. والأغرب أني بطل بالنسبة للملك!

وما أن دخلت إلى حجرة الاجتماع حتى صاح القائد الكبير مرحباً:

- مرحباً بالقائد الجديد.

التفت إليّ الجميع في الحجرة، بعضهم في ابتسامة وبعضهم في مفاجأة، وبعضهم دون أية حماسة، فقابلتهم جميعاً بابتسامة قصيرة ثم ذهبت إلى مقعدي وجلست عليه في انتظار بدء الاجتماع، فقال القائد:

- الإجازة التي أعطاها لك الملك والمنصب قد أخراك عن الاجتماع السابق، لذا سأخبرك بما قد فاتك...

لم يكن من الطبيعي من القائد أن يذكر منصبي الجديد ضمن أسباب تأخري، فالإجازة فقط التي كانت السبب، بجانب عدة مهمات لم يسمح لي الملك بإخبارها لهم ولو بأسلوب مبهم كي أفسر تأخري، لكني فهمت هذا الأسلوب، وقبل أن يكمل عبارته قاطعته:

- لا شيء سيؤخرني بعد ذلك أيها القائد.. إجازة كانت.. أو منصب.

وابتسمت في الكلمة الأخيرة، ويبدو أن القائد كان يريد أن يرد على ابتسامتي لكنها كانت مُرّة عليه حيث بدت ابتسامته مهتزة، فعاد يقول:

- عند منتصف الليل سيبدأ الهجوم على مدينة (راسوم)، وندرس جميعاً إمكانية غزوها مع عبور المضيق، فالمضيق ليس عميقاً في معظمه مما سيسهل على أي شخص لا يجيد السباحة عبوره، لكن قاعه طيني غير مستقر مما سيسبب لنا بطئاً كبيراً أثناء ذلك.. وهذا بالتالي قد يسبب لنا كارثة مع دفاع المدينة، حيث أن لديها كثير من الرماة أعلى الأسوار المواجهة للساحل، ونحن لا نحتمل أي خسارة حالياً بعد الخسارة الكبيرة غير المتوقعة أثناء عبور الغابة.

كنت أستمع في اهتمام ناظراً للخريطة أمامنا، بينما التفت القائد إلى (عادوف) سائلاً:

- كم خسائرنا مجدداً؟

- ألفان ومائة وثمان من الجنود، وأربعمائة وثلاث وستون من الخيول، شاملين ما تم إعدامه من جميع من أصيبوا في الغابة من الجنود والخيول كي لا تنتقل أي عدوى إلى الجيش، وهناك قرار نافذ الآن بين الجميع بإعدام كل من تظهر عليه أعراض غريبة.

قلت في هدوء:

- هذا جيد حتى الآن.

رد القائد:

- كما قلت.. حتى الآن.. وماذا عن معركة منتصف الليل؟.. الخطة التي وافق عليها أغلب القادة هي استغلال هذه الليلة حيث لا قمر في السماء،

فنعبر المضيق في هدوء، وبذلك ننقل أكبر عدد من الجنود للهجوم وفتح المدينة.

عقدت حاجبيّ قائلاً:

– هكذا؟.. فقط؟!.. والرماة المنتشرون على الأسوار؟

– الرماة يرون مقدمة جيشنا طوال اليوم ويعلمون أننا هنا للهجوم وليس للاحتفال، لذلك لا أمل في اقتحام المدينة إلا بهذه الخطة، فإن كان لديك اقتراح عليها أو أفضل منها فأعلمنا.

صمتُّ في حنق ولم أجب، وبعد لحظات قال أحد القادة:

– فلتلحظ يا (كازارشان) إنه لا سفن لدينا لتخطي هذه المدينة والذهاب لأخرى، ولا يجب تخطيها كي نلتزم بخطتنا وجدولنا الزمني.. كل ما يعوق طريقنا الآن هو هذه المدينة، وبعدها لا يوجد موانع مائية أخرى قد تعوقنا.

أجابه القائد الكبير:

– كما قلت يا (بيرزاد).. فما قولك يا (كازارشان)؟

أدرت بصري في جميع الموجودين، ثم تنهدت بعمق وقلت:

– من الجيد أنكم تعلمون قبلي رغم أنها الأفضل مما تم اقتراحه إلا أنها تظل خطة خطرة.

– لا يوجد غير هذا يا (كازارشان)، لا سفن لتخطي المدينة.. لا مجانيق يمكنها عبور الغابة.. سهامنا ورماحنا لا يمكنها أن تصل إلى ساحل (راسوم) من هنا.. فما بالك بأعلى الأسوار؟.. يجب علينا عبور المضيق، ونأمل أن يلحظ حرس الأسوار عبورنا متأخراً في الظلام، فالمضيق عرضه

ما يقرب أربعمائة قدم.

- نأمل؟!

سأل (تاركس) بتردد:

- ألم يمكننا الاعتماد على جاسوس؟

أجابه القائد بضجر:

- ماذا تقول؟!.. أي جاسوس هذا؟!.. لم يكن متوفراً لدينا الاعتماد على جواسيس مطلقاً، لك أن تعلم أنه لا توجد مدينة واحدة خضعت للملك، وبالتالي أي تصرف غريب من أحدهم سيهدد حياته أو حريته، وبالتالي سينهي استفادتنا منه، ومنذ الإنذار بقرب الحرب قلّت حركات التجارة كثيراً، ومنذ بدء الزحف انعدمت تقريباً الرسائل والرسل بين المدن بسبب الإبادات، فلا يوجد فرد ولا معلومة تفر وتتنقل بين المدن إلا نادراً.

صمت القائد، وكاد أن يكمل أمر الخطة لكنه عاد إلى (تاركس) قائلاً بمزيد من الضجر:

- ولتتخيل إن كان لدينا جاسوساً بالفعل داخل (راسوم) الآن.. فكيف كان سيبلغنا؟

ثم التفت إليّ قائلاً:

- ها يا (كازارشان)، نريد قولك.

اقتربت من المائدة بصدري وأخذت أدق عليها بسبابتي، ثم قلت:

- ربما لن نغزو المدينة الليلة.

ظهر الضيق على العديد من القادة، وزفر آخرين بينهم القائد أيضاً، الذي

قال كمَن أنهكه نفاذ صبره:

- إن كنا سنغزو المدينة فهذه الليلة المناسبة يا (كازارشان)، لقد أعددنا الجميع لهذا.

- لقد أعددتم الجميع لمخاطرة لا نعلم كم ستكلفنا من خسارة.

- لقد أعددناهم لأقل خسارة ممكنة، لهذا يجب الهجوم الليلة.

- ولكنها تظل خسارة لا نعلمها.

- ومتى سنهجم في رأيك؟.. عندما يكون البدر فوقنا مباشرة؟!

- إننا سنستغل عدم وجود القمر الليلة في التقدم، وليس في الهجوم.

صاح أحد القادة:

- فلتخبرنا ما تريد إخباره، لقد نفذ صبرنا أيها المتحذلق.

صاح القائد:

- اهدأ يا (عزاروس)، لا نريد ضغطاً أكثر مما هو علينا بهذه الليلة السوداء...

ثم التفت إليّ القائد في حدة قائلاً:

- وأنت يا (كازارشان)، فلتخبرنا بما لديك سريعاً، لقد ظللنا نناقش هذه الخطة لأيام وظلت هي الأفضل، وهي ما استعددنا نفسياً له، فلا صدور واسعة هنا لاستقبال أي تغييرات غير مقنعة.

أخذت نفساً عميقاً.. ثم زفرته في بطء.. والجميع ينظر إليّ بنظرات نارية، ثم قلت:

- الليلة سنستغل عدم وجود القمر في عبور المضيق، ولكن ليس إلى أسوار المدينة، بل سنسير بمحاذاة الساحل غرباً وشمالاً حتى (ساحوم)...

صرخ (عزاروس) مقاطعاً:

- أتمزح معنا أيها الجندي؟.. أتريد...

صاح القائد غاضباً:

- أمرتك بالهدوء يا (عزاروس)، وما دمت لم أسألك رأيك فلتصمت.

بدأت كلامي بمجرد انتهاء جملة القائد قائلاً بصرامة:

- أنا هنا القائد (كازارشان).. قائد قلب الجيش.. وصلاحيات قائد الجيش خاصة كما تعلمون، غير باقي أجنحة وقوات الجيش، فقوات القلب هي القوات الوحيدة المستثناة من أية خطط انتحارية، وقد لا آمر جندي واحد من جنودي بالتقدم إن استشعرت الخطر إلا بعد فتح المدينة، هذا إن نجحتم في فتحها بهذه الخطة الـ...

قاطعني القائد وهو يمسح وجهه في قوة:

- لتكمل ذكر خطتك يا (كازارشان).

أغمضت عيني للحظات ثم عدت أقول:

- سنعبر هذه الليلة إلى (ساحوم)، ونسيطر عليها بأقصر وقت ممكن، ونتخذ منها قاعدة آمنة بدلاً من الوجود في العراء والغابات، ثم نهاجم (راسوم) من الخلف بعدها، فنقطة قوة (راسوم) هي في الأسوار التي تواجه المضيق، حيث يُتوقع الهجوم.

قال (عادوف):

- ولكن بعد فتح (ساحوم) الذي قد يستغرق أياماً، وبعد الاستعداد لغزو (راسوم)، كل هذا الوقت قد يستغله أهل (راسوم) في نقل معداتهم وأسلحتهم إلى الجهة الأخرى.

- بالتأكيد.

- بالتأكيد؟!.. وما فائدة...

قاطعت استنكاره قائلاً:

- في هذه الحالة سنكون في مواجهتهم، ستكون الفرص متساوية على الأقل إن لم نكن الأفضل، لكن بوضعنا الآن لا توجد أي أفضلية لنا.

صمت الجميع طويلاً بعد انتهاء كلامي، حتى قال القائد:

- حسناً، يبدو أني قد اقتنعت تقريباً، ما رأيكم أيها القادة؟

قال (تاركس):

- الجنود جميعهم أعدوا أنفسهم لهجوم الليلة أيها القائد، لا يمكننا التراجع.

قلت في هدوء:

- التخلي عن هجوم الليلة أفضل من التخلي عن حياتهم.

- ولكن يمكننا أن ننجح في فتح المدينة الليلة، إنها فرصة.

- لكنها مخاطرة عمياء كظلام الليلة.

وتدخل (عزاروس) قائلاً:

- ولكن يمكن أن تنجح، حتى بأقل من الخسائر المتوقعة.

- هل تعي ما تقول أيها القائد؟

- هل تتهمني بالخرف أيها الجنـ...

- أنا قائد هنا.

صاح القائد الكبير:

- هدوء أيها القادة.

توجه (تاركس) إلى القائد بالسؤال:

- ما رأيك أيها القائد؟.. قد يأتي الصباح ونحن مسيطرون على (راسوم).

وقال (عادوف):

- ويمكن أن تمر أيام قليلة وقد سيطرنا عليها بعد سيطرتنا على (ساحوم).

توجه إليه القائد برأسه متسائلاً:

- هل توافق على خطة (كازارشان) إذاً؟

- لا أجد فيها ما يضرنا، وقد تفيدنا أكثر.

صمت بعض القادة دليلًا على موافقتهم بينما ظل أكثرهم يثرثرون ويصيحون بأن الليلة لا يوجد أنسب منها، ولا يمكن بعدما انتظروا وتحملوا عبور الغابة وهذا العراء والاستعداد النفسي لأيام أن آتي أنا فأغيّر خطتهم قبل الهجوم بساعات!

فأمر القائد الكبير القادة بالهدوء والصمت، ثم سألني:

- ما رأيك يا (كازارشان)؟.. العديد من القادة يجدون الليلة هي الأنسب.

– يمكننا أن نؤجل هذا الضغط لليلة أخرى لا نضطر فيها لانتظار غياب القمر.. أو...

صمتُّ قليلاً، فسألني القائد:

– أو ماذا؟

نظرت إلى الخريطة مفكراً للحظات، ثم رفعت رأسي إلى القائد قائلاً بهدوء:

– أو نعتبر خطتي خطة بديلة بعد فشل الخطة الموضوعة.

قال (تاركس):

– فشلها؟!.. أهذه سخرية منا أم ثقة زائدة بنفسك يا هذا؟

– لا أريد فشل خطتكم، لكن كل ما حولنا يؤكد عدم نجاحها.

قال (عزاروس):

– سنرى.

ابتسمت في سخرية ثم التفت إلى القائد قائلاً:

– أوافق على خطتكم مع اعتبار خطتي خطة بديلة أيها القائد.

قال (عادوف):

– انتظر يا (كازارشان)...

ثم التفت إلى القائد قائلاً:

– أنت تعلم أيها القائد إن خطة (كازارشان) مضمونة أكثر، فلا تضيّعها لمجرد أن الليلة قد تم الاستعداد لها جيداً بغض النظر عن خسائرنا.

- أكثر من نصف القادة يوافقون على الهجوم الليلة.

- وأنت أيها القائد، ما رأيك أنت؟

صمت القائد للحظة لم أجد لها فائدة، ثم قال بتردد:

- لا أستطيع تجاوز فرصة الهجوم الليلة وأخذل أغلب هذا المجلس.

ارتفع حاجبا (عادوف) في تعجب واستنكار، ثم نظر إليّ فأشرت له أن يهدأ وأنه لا يهم، ثم قلت للقائد:

- حسناً أيها القائد، سنهجم الليلة.

***

بعدما خرجت من الاجتماع ذهبت مباشرة إلى خيمة (رازام) وأخذت أقص عليه ما حدث، كانت أول مرة أذكر له ما يحدث في اجتماع القادة، لكنني أردت رأيه فيما يحدث الآن إن كان مبنياً على أشياء حدثت في غيابي، فقال لي:

- في مكان مغلق كجيشنا.. بعض ما ينقله الجنود من إشاعات يكون به شيء من الصحة، والجنود يتناقلون فيما بينهم أن العديد من قادة الجيش قد خفت بريق صورهم أثناء ما برقت أنت كبطل للجيش، وقد وصلت رؤية الجنود هذه إلى القادة والقائد الكبير نفسه، وأنت تعلم أن القائد إن فقدت صورته بريقها فلا فائدة منه، وقد يعتبره الجنود مجرد خيال مآتة، ولهذا قد يفعل القادة أي شيء كي يستعيدوا صورتهم كأبطال، وها هم يفعلون الآن.

- لقد شعرت أنهم يتعاملون مع الموقف كحزبين يتراهنان على مباراة مصارعة، فرفضوا خطتي وسيوقعون أنفسهم في موقف عصيب.

- صدقني، إن كنت قد أخبرتني كل شيء بالتفصيل، فسأخبرك أنه بكل

وضوح يرفضون خطتك كنوع من العناد ليس أكثر.

- لقد كرهت أن أصدق هذا، ولكن عناد؟.. إن حياة آلاف الجنود بين أيديهم، أهذا ما أقسموا وأقسمونا عليه قبل بدء الحرب؟!

- إنهم يريدون أن يجربوا خطتهم هم كي ينالوا فرصة للتفوق عليك ولو لمناسبة واحدة، فأنت منذ أن ضموك إليهم لم تنجح غالباً إلا خططك، وحتى من قبل ضمك قد أنقذت الجيش.

- وإن فشلت خطتهم.. وهم يخشون هذا.. فسيقللون من أنفسهم أكثر.

- بل سيضيعون.. صدقني، العديد من الجنود هنا يسألون أكثر ما يسألون: لماذا لا يكون (كازارشان) القائد الكبير للجيش؟

- إن كنت القائد للجيش كله كما يريد الجنود فلن أكمل هذه الحرب.

اتسعت عينا (رازام) في دهشة، وقال:

- أحقاً ما سمعته منك؟!

أجبته في هدوء:

- لن أكمل هذه الحرب على طريقتهم.

نظر إليّ (رازام) طويلاً، فقلت له:

- ماذا تريد الآن؟

ضحك (رازام) وقال:

- لا شيء، لا شيء.. والآن أخبرني عن سبب تنازلك الغريب مقابل خطتهم، ووضع خطتك كخطة بديلة.

– فقط أردتهم أن يفضحوا نتيجة عنادهم الطفولي هذا أمام الجميع.

نظر (رازام) إليّ مرة أخرى، فزفرت وأنا ابتسم قائلاً:

– أنت تضحكني يا هذا، ماذا تريد؟

اتسعت ابتسامة (رازام) ثم قال في هدوء غريب:

– لا أريد شيئاً، لكن نقطة العناد تلك قد ذكرتها لك لتوي.

– ماذا تقصد؟

ضحك (رازام) ضحكة قصيرة ثم قام قائلاً:

– سأذهب لكتيبتي كي أعدها للهجوم.

وخطا خارج الخيمة، فقلت له صائحاً:

– لم تجبني بعد.

فعاد برأسه إليّ وقال:

– لا أقصد شيئاً يا عزيزي.

ثم ابتعد عن الخيمة، فأخذت أفكر في حديثه للحظات حتى هززت رأسي كي أطرد أي تفكير عنها الآن، وحاولت أن أتمدد لساعة أرتاح فيها قبل للهجوم، لكنني ظللت هذه الساعة أتقلب في التفكير دون أن أذوق النعاس حتى، فقمت وأعددت نفسي ثم خرجت إلى مكاني بقلب الجيش.

***

كانت المسافة الخالية بين طرف الغابة ومياه المضيق كافية فقط لاحتواء كتائب الهجوم وبعض سرايا المقدمة، بينما كان باقي الجيش داخل نطاق

الغابة، وبصعوبة تحت أضواء النجوم وبين الأشجار المنتشرة بدأنا نرى كتائب الهجوم تدخل مياه المضيق وتتقدم في هدوء، بينما القلق يلتهم الجميع وهم ينقلون أبصارهم بين أشباح جنودنا في المياه، وبين الأشباح الصغيرة المتمركزة فوق الأسوار البعيدة وعند باب المدينة الذي يواجهنا.

تخطت الكتائب ربع المسافة.. ثم منتصف المسافة.. ثم توقفوا قليلاً.. وكم كان من حولي يتحركون بحركات عصبية، بينما أنا أتابع في هدوء تنفيذ خطتهم، ولا يساورني القلق إلا تجاه (رازام).

تحركت الكتائب مرة أخرى، وبدأت في التقدم قليلاً حتى بلغت ثلثي المسافة، ثم خفضوا رؤوسهم أكثر في المياه متابعين التقدم ببطء وحذر أكبر.. ثم توقفوا، فأخذ نائبي بجواري يقول في ضيق وهو يضغط على كلماته:

- هيااا.

فالتفتُّ إليه في غضب قائلاً:

- لا أريد سماع كلمة هنا، هل تفهم؟

اهتز جسده للهجتي الغاضبة التي لم تنم عن القلق أو التعاطف، والتزم الصمت بعدها بينما عدت ببصري إلى الرؤوس التي توقفت عن التقدم بينما يكادون على عبور المضيق بأكمله عكس المتوقع، فسألت نفسي:

- هل ينجحون؟!

ظلت الكتائب ثابتة في المياه للحظات طويلة، وبينما هم كذلك.. أمر قائد مقدمة الجيش جنوده بالتقدم وخوض المضيق، بينما كانت كتائب الهجوم واقفة حتى حان الوقت المناسب، فتقدموا مرة أخرى في هدوء حتى خرجوا من المياه منخفضين، فتقدموا بحذر حتى قطعوا نصف المسافة حتى الأسوار

فنهضوا راكضين إليها كي يحتموا بها بعيداً عن مرمى السهام إن انطلقت، ثم توجهوا إلى حرس البوابة وأخذوا يقاتلونهم.

أخذنا نتأمل تحت نيران إضاءة البوابة البعيدة كتائب الهجوم وهي تبارز وتقاتل وتُسقِط العديد منهم، فخرج الكثير من الجنود من البوابة لصد الهجوم، واستمر القتال للحظات حتى بدأ عدد ملحوظ من طرفنا يسقط، لكن كتائبنا ظلت تحاول الصمود قدر المستطاع حتى عبور قوات مقدمة الجيش المضيق بسرعة.

لكن لم تكن قوات المقدمة يواجهون ماء المضيق فقط، بل انطلقت مئات السهام من الأسوار تجاههم، فأخذوا يحتمون بدروعهم رغم أنها تعيق الحركة والتوازن أثناء السير وسط المياه وفوق قاع غير ثابت، فساهم ذلك في غوص الأقدام بها أكثر.

وجاء الأمر لقائد الجناح الأيمن الجيش بتقدم جنوده في المياه لتعويض الخسائر، ولسرعة عبور أكبر عدد ممكن إلى الجهة الأخرى لدعم الهجوم، وبعد فترة بدأ العشرات من جنود المقدمة يصلون للجهة المقابلة أخيراً، واحتدم القتال أمام البوابة، بينما كانت هناك مجزرة تتم داخل مياه المضيق، حيث بدأت أعداد الجثث تزداد داخل المياه من غزارة السهام فتعيق سرعة العبور، مما حول المضيق إلى مصيدة كبيرة للموت، فتحركت من مكاني راكضاً بخيلي حتى وصلت إلى القائد الكبير وصحت:

- أيها القائد.. إن الجنود يهلكون، فلتأمر بالانسحاب.

فصاح بدوره:

- كلا، فلنعطهم فرصة أخرى وسينجحون.

عقدت حاجبيّ مشيراً بحدة نحو المضيق صارخاً:

- فرصة أخرى؟!.. فلتعطهم أنت فرصة أخرى للنجاة.

ضغط القائد على أسنانه بشدة وهو ينظر إليّ، ثم قال في شراسة:

- كلا.

وما أن قالها حتى عكس وجهه ضوءً هائلاً، فنظرت ناحية المضيق فوجدت أن حرس الأسوار يطلقون بأشياء كبيرة إلى المياه ثم رماحاً نارية إليها فتنفجر مشعلة سطح المياه أكثر وأكثر، فاتسعت عيني من الصدمة، ثم قلت لنفسي:

- (رازام)!

فالتفتُّ إلى القائد صارخاً بين الغضب والفزع:

- لقد أصبح جنودك مكشوفين الآن، فلتأمر بالانسحاب وإلا تكررت كارثة القائد السابق...

اهتزت ملامحه بشكل ملحوظ، ثم نظر إليّ كأنه يرى حادثة الممر في وجهي، وبعد تردد رفع يده بحدة لحاملي الأبواق، فأطلقوا سريعاً إشارة الانسحاب والانتقال للخطة البديلة، ثم تركته وركضت نحو الشاطئ، فرأيت كتائب الهجوم والجنود الذين تبعوهم يركضون تحت الأسوار إلى الجانب البعيد من البوابة إلى الغرب، فقلت لنفسي في صوت مسموع:

- أتمنى أنك منهم يا (رازام).. وإلا...

ضممت شفتيّ في غضب بينما أكملها داخل نفسي:

- وإلا بيدي سأضع حداً لحياتك يا (جاساك).

﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

كانت ليلة فوضوية إلى درجة لم أرها من قبل.. ولا حتى في حادثة الممر، فلقد أمر القائد بالسير غرباً بمحاذاة ساحل المضيق لأجل تخطي (راسوم) إلى مدينة (ساحوم) كما اقترحت، ولم يكن هذا التحرك بالأمر الهين، أن يخوض الجيش بأكمله ذلك المضيق المائي وعلى عجل، بجنوده وأسلحته وخيوله مع القاع غير المستقر الذي يمثل فخاً كبيراً للموت.. مع ترقب الجميع لأي هجوم من المدينة وهم بهذا الموقف، حيث أن الساحل الغربي بين الأسوار ومياه المضيق لم يكن عريضاً بما يكفي، لذا فلن يتقدم الجيش إلى ما بعد (راسوم) بمسافة آمنة تماماً عن أسوارها، فكان لابد أن يتم العبور على عدة مرات تحسباً لعدم وقوع الجيش بأكمله في مصيدة.

عدت إلى القائد الكبير في سرعة، فوجدته يتناقش بصوت عال مع (عادوف) ويقول:

- لا يمكن.

وما أن سقط بصره عليّ حتى عقد حاجبيه واندفع بخيله مع الجيش المتحرك، بينما وقف (عادوف) ينظر في أثر القائد بحنق، فتقدمت بخيلي إليه وسألته:

- ماذا يحدث؟

زفر (عادوف)، ثم صاح فيّ:

- هذا العناد لا يمكن أن يكون في قائد لهذا الجيش الأخرق.

صدمني أن يأتي هذا الوصف من قائد كبير (كعادوف)، فقلت له:

- ماذا صدر من القائد؟

- إنه يريد العبور بالجيش الآن بينما الرماة فوق الأسوار في أشد درجات تحفزهم، وسيحسبون أي تحرك لنا هو هجوم على المدينة.. أشعر باقتراب مجزرة أخرى.

أجبته في لهجة هادئة:

- إن محاولة الهجوم الفاشلة على المدينة لن تجعل الرماة يهدأون حتى لو انسحبنا.

- لكن هذا الاندفاع سيزيد الأمر سوءاً.

- أي تأجيل في العبور لن يفيد، سيظل الرماة متحفزون أكثر من أي وقت.

ضغط (عادوف) على أسنانه وقال:

- ولهذا كانت خطتهم خطئاً منذ البداية يا (كازارشان).

قالها وهو ينظر في عينيّ، ثم هز رأسه واندفع بخيله خلف الجيش، فأخذت أتأمله وهو يبتعد بينما أفكر فيما قاله...

" ألن نتحرك أيها القائد؟ "

قطع السؤال تفكيري، فالتفتُّ إلى نائبي وأجبته:

- ليس الآن.

وهكذا، ظللت أنا وقواتي في أماكننا بالغابة نشاهد عبور الجيش للمضيق، ومن ورائي مؤخرة الجيش التي لا يمكن أن تتحرك بدون القلب، وبهذا ساهمت صلاحياتي وأوامري بتقسيم الجيش لهذه الصورة، فلم أكن لأدع من ورائي من الجنود يهلكون بسبب هذا العناد الأخرق.

ولم يكن الانتظار مريحاً لي.. بل تكلف الكثير من الوقت جعلني أحترق داخلي قلقاً على (رازام)، فقد مرت ساعات وأنا أنتظر أي خبر عنه، وأخذت التخيلات تغزو رأسي بين الحزن والقلق والغضب، بينما أقبض بيدي على لجام خيلي بشدة وأقسم على قتل القائد إن مات (رازام).

***

بعد الفجر كان الجيش بقيادة القائد الكبير قد عبر، ورأيت والجنود من ورائي معركة كبيرة تدور بين الرماة على الأسوار الغربية للمدينة وبين الجيش على الأرض، لم تكن عنيفة بدرجة كبيرة، حيث كانت المسافة بين أعلى الأسوار والجيش على طرف الساحل الغربي تقرب من مائتي قدم، ومع ذلك كنت أرى جنوداً من الجيش يتساقطون بينما الرماة فوق الأسوار لم يسقط منهم واحد حتى، ورأينا القائد يركض بجنوده بفوضى كبيرة على أطراف المياه حتى تخطى المدينة.

كنت أرى كل هذه المهانة بغضب وامتعاض، فمسحت وجهي في قوة ثم أدرت خيلي كي أنظر في الجيش القابع بين أشجار الغابة، فنظر الجنود إليّ في وجوه حملت الكثير من الأمل في قيادتي، فقد كانت فرصة كي أثبت لهم أني قائد بحق، ومخرجهم من هذه المحنة، وأني لن أضعهم بتلك المصائد والمهانات التي رأوها.. رأيت كل هذا رغم الوحشية الكامنة داخل كل هذه الدروع.

ثم أدرت فرسي مرة أخرى أتأمل أسوار (راسوم) والمضيق، وبعد مدة طويلة من التفكير صحت:

- سنعبر في الليل.

كانت هذه لحظة فارقة.. أكدت لي مدى عظم تأثيري في الجنود، فبعدما ألقيت بأمري لم أسمع ولو حتى الهمهمة والجدال الخافت الذي ينتشر بين الجنود بعد إعلان أمر من القائد الكبير هذا.. أو مَن سبقه.

وبعد لحظات تقدم نائبي واقفاً بجواري، فتنحنح قائلاً في هدوء:

- كلي ثقة في خطتك أيها القائد، لكني أذكرك بأن الجيش لن يتحرك إلى (ساحوم) وسيظل في انتظارنا على مقربة من أسوارها دون فعل شيء.

أجبته باقتضاب دون أن التفت إليه:

- هذا جيد.

لم يجد نائبي أي كلمة يرد بها عليّ، فالتفتُّ إليه قائلاً:

- فلتنشر في الجنود أخذ الحذر، لا أريد أن يُصاب أحدهم بلدغة تجلب تسمماً أو مرضاً، فليبقوا حتى الليل دون حركة إن أمكن، فوجودنا داخل الغابة قد أفادنا ولا نريد افساد الأمر.

- أي أمر؟!

رفعت أحد حاجبيّ، فارتبك قائلاً:

- حسناً، أمرك أيها القائد.

ثم تركني لتنفيذ الأمر بينما عدت لتأملي وتفكيري.

❋❋❋

جلس القائد الكبير في اجتماع التخطيط والحرب بأشد درجات توتره، فقال له (سروجا):

- يبدو أن (كازارشان) كان محقاً.

خبط القائد بيده على المائدة صائحاً:

- لا يذكر أحدكم اسمه أمامي حتى يعود.. هذا إن عاد، كما أني لا أعلم ماذا سيفعل بالجنود!

فقال (عادوف) في لهجة هادئة أراد بها أن يستفز القائد الذي تسبب بالكارثة:

- هل تظن أنه سينشق بالجيش؟ لا أعتقد أيها القائد، كما أنه لا يوجد أمامنا إلا انتظاره، فلا يمكننا أن نرسل بأحد الجنود إلى البر الآخر من المضيق، سيكون انتحاراً أن يمر عند أسوار (راسوم) مجدداً، خاصة وأن الرماة متأهبون أكثر فوق الأسوار التي في مواجهتنا.

ثم فلتخبرنا أيها القائد ماذا يغضبك؟ هل اثبات أنه كان على حق؟ أم أنه بما منحه الملك أصبح قائداً مطلقاً في هذا الوضع لقلب الجيش كأنه مشارك لك في القيادة الكبرى؟

صاح القائد عالياً وهو يشير (لعادوف):

- أحذرك يا (عادوف)، لا تستفزني.

- أنا لا أستفزك أيها القائد، بل أجدك أنت من يستفز نفسه.

- أنا؟!

- أنت لم تكن هكذا تجاه (كازارشان) بعد حادثة الممر، فماذا حدث؟

- أأنت من تخبرني هذا يا (عادوف)؟! ألم تخبرني من قبل أن هذا الجندي قد أصبح خطراً علينا بعد أن أوشك على قتل (خازاد) بيننا؟!

- نعم، أعترف بهذا.. لكن الملك على علم بكل شيء حدث، ورغم هذا يعترف (بكازارشان) بطلاً، فلم يعد خطراً علينا ما دام يخدم نفس الملك الذي نخدمه.

قال (عزاروس) بغضب:

- لكنه بذلك يتفوق علينا هذا الشاب!

التفت إليه (عادوف) راداً عليه:

- هذا قدره، وهذه قدراته.. وأياً ما يكون، فسيكرمنا الملك جميعاً بنهاية الحرب، فلا أجد مبرراً لهذه الأحقاد.

قال (سروجا):

- لا أعتقد أن أشخاص في خبرتنا وسننا سيحقدون على شاب، ماذا عنكم أيها القادة؟

صاح القائد:

- هل عقدنا هذا الاجتماع اللعين كي نتحدث عنه؟

فصمت الجميع في الخيمة، فالتفت القائد إلى (عادوف) قائلاً:

- ما قدر خسائرنا اللعينة؟

لوى (عادوف) رقبته في تردد، ثم أجاب:

– بالنسبة للقتلى المعلومون حتى الآن.. ألفان وتسعمائة وسبع وتسعون من الجنود، وستمائة وتسع وثلاثون من الخيول، أما عن المصابين فأربعمائة وثلاث من الجنود، وست ثمانون من الخيول.

ظل الجميع يحدقون في (عادوف) دون رد، فلقد كانت كارثة بسبب اندفاع القائد ومَن وافقوه، فتنحنح (عادوف) ثم قال:

– أظن أن استمرار الحقد على هذا الشاب سيدمر الجيش بأكمله.

قال القائد في صدمة:

– إنها كارثة.. إنها لعنة.. ماذا سأقول للملك؟ لقد خسرنا حتى الآن ما يقرب من سدس القوة المحاربة من الجنود في معاركنا أمام مدن، فماذا سنفعل أمام معسكرات الشمال؟ خسارة سدس الجنود حتى الآن أمر كارثي.

قال (سروجا):

– وتقريباً نفس النسبة عند الخيول.

فقال (عادوف):

– إن استمررنا على هذا النهج ستستمر الخسائر، وعندئذ...

صاح القائد:

– أخرج من هنا يا (عادوف).

عقد (عادوف) حاجبيه مستنكراً، بينما اعترض العديد من القادة على أمر القائد، فاشتعل غضباً وأمر بفض الاجتماع.

***

عندما اقترب الغروب أمرت نائبي أن يشدد على الجنود بعدم إشعال أية نيران، حتى حل الغروب فكنا كالأشباحٍ وسط الغابة، وسرت إلى وسط القوات بخيلي ثم قلت في صوت عال قليلاً:

- أريد أن يصل كلامي إلى جميع الجنود، وليبلغ مَن سمع مَن لم يسمع...

وصمتُّ للحظات، ثم تابعت:

- أريد أن أعلم كم نسبة من يقوى على السباحة لمسافات طويلة بيننا، فمن يجد في نفسه القدرة على هذا فليقل "أنا" بصوت يصلني.

بدأ العديدون يستجيبون لأمري، وبدأت أستمع وأنصت، حتى وجدت مع مرور الوقت من كثرة كلمة "أنا" التي انتشرت حولي أنهم قد تخطوا الثلاثمائة، فقلت بحماس:

- هذا جيد.

فتقدم إليّ نائبي قائلاً في خفوت:

- لِمَ لم تخبرني بأي تجهيزات قبل أن يحل الظلام كي نكون مستعدين؟ كيف سنخطط لشيء في هذا الظلام؟!

أجبته في هدوء:

- توصلت للملامح النهائية للخطة قبل الغروب بلحظات، وقد كان حرصي على عدم اصدار أية حركات غريبة داخل الغابة أن أخفى بذلك وجودنا فلا نلفت الأنظار، ما أتاح لي ساعات من التفكير والتخطيط وفقاً لوضعنا المستقر هذا.. فالعمل في الظلام أفضل.

- ولكنه سيكون أصعب.

لم أجبه، وعدت ملتفتاً بين الجنود صائحاً بصوت يصل للجميع قدر الإمكان:

- بعد الهجوم الفاشل الذي حدث صباح اليوم، وما تبعه من مهزلة ومهانة للجنود، نريد أن نستفيد من هذا الخطأ بأقصى درجة ممكنة، فوجود نسبة جيدة من الجيش داخل الغابة لم يُعلم رماة الأسوار بالعدد الحقيقي للجنود، ولعلهم الآن يظنون أن الجيش بأكمله قد عبر أمامهم، ولعلهم أيضاً قد نقلوا أغلب القوات إلى الجهة الأخرى من المدينة، فيجب أن نستغل هذا...

تنهدت بعمق، ثم تابعت:

- لن نتخطى المدينة، بل سنسيطر عليها الليلة، وقبل الفجر...

وكالمرة السابقة.. لم أسمع أي همهمات أو جدال، فبرغم أني لم أكن أرى أي وجوه للجنود، إلا أني كنت متأكداً من أنهم يتوجهون إليّ بكل انتباههم، فتابعت مجدداً:

- لا يوجد لدينا كتائب للهجوم، فبقاياهم في البر الآخر، ولذلك ستعبر مجموعة سأسميها (كتيبة السباحون) الأولى إلى الشرق، حيث لا يمكن اطلاقاً توقع الهجوم من هذه المنطقة المفتوحة على بحر قلب المملكة، وسينتظرون كتيبة ثانية من السباحين ستأتي من غرب المضيق وتهاجم البوابة، وما أن تهاجم المجموعة الغربية البوابة.. ستهاجم المجموعة الشرقية الرماة فوق الأسوار.. بالطبع ستتساءلون عن عمل بقية الجنود هنا...

صمتُّ للحظات كي لا أضغط على مقدار تركيزهم، ثم تابعت:

- بقية قوات قلب الجيش ستكون داخل المياه الضحلة في البحر غرب

(راسوم)، ولن يظهر منهم إلا رؤوسهم، وستسير بمحاذاة الساحل حتى أقرب نقطة من السور الشمالي للمدينة، وما أن يضغط السباحون على البوابة الجنوبية التي تقابلنا، سيحدث ارتباك عند جنود الشمال.. إما سيرسلون بالكثير من الجنود لصد الضغط المفاجئ في الجنوب، وإما سيتمسكون بأماكنهم حفاظاً على أمان البوابة الشمالية، وفي الحالة الأخيرة سنزيد الضغط بكتائب من قوات المؤخرة تجاه البوابة الجنوبية حتى يرجحون أن الخطر الأكبر من ناحية الجنوب، وعندها تضعف مناعة الأسوار الشمالية فتخرج قوات القلب من بحر (ساحوم) إلى البوابة الشمالية.. والباقي سنراه بأعيننا.

اقترب مني نائبي وقال:

- وماذا عن باقي قوات مؤخرة الجيش؟

أجبت في صوت يصل للجنود:

- أما عن باقي قوات مؤخرة الجيش.. فبعد مهاجمة رماة الأسوار الجنوبية وتقليل خطرهم، سنزيد الضغط كلما تطلب الأمر على البوابة الجنوبية من جنود المؤخرة الذين سيظلون هنا وسط الأشجار حتى اللحظة المناسبة، أما في حالة حدوث شيء غير متوقع.. سيحتفظون بأماكنهم كما هم حتى انسحابنا، فجنود (راسوم) ليسوا بالكثرة كما هو واضح التي تمكنهم من ارسال قوات للهجوم علينا، خاصة وأنهم لا يعلمون أعداد الجنود المختبئة في الغابة.

فكرت للحظات أخرى في صمت، ثم رأيت أنه يجب عليّ مصارحتهم، فعدت أقول:

- العديد منكم قد يتعجب ويتساءل.. لماذا لا نضغط على البوابة الجنوبية

مستغلين تمركزهم عند الشمال؟ فإنهم حتى لو هربوا من الشمال فحتماً سيواجهون قواتنا التي سبقتنا هناك، وسيقعون في حصار بيننا وبينهم!.. حسناً، أنا لا أريد أن يشاركنا مَن هناك الفضل في السيطرة على (راسوم)، وليس هذا بغرور ولا طمع بفضل شخصي، بل أريد أن أثبت لهم أننا هنا.. وبعددنا هذا.. نجحنا بالتخطيط الجيد مع الحرص على حياة كل منا في تحقيق الهدف الذي كان سيفشل فيه الجيش بكامل عدده إن اكتملت الخطة الأولى، وبخسائر كبيرة، وبمهانة أكبر.. لقد كنت منذ أيام جندياً مثلكم، وأريد أن ألقن أي قائد لا يلقي بالاً لنا درساً أو تذكيراً بأنه يمكننا تحقيق أي انتصار دون التخلي عن حياة الجنود.

ارتفعت العديد من الهمهمات في حماس مؤيدة لكلامي، حتى لجعلتني أرى أنهم لولا حرصهم على خطتي لصاحوا في حماس وتأييد لهذا الذي يصارحهم بحرصه على حياتهم، مع ثقته بهم لتحقيق النصر وحدهم.

***

" خطة غريبة يا (كازان)! "

رفع (كازان) رأسه إلى الملك الذي تابع قوله:

- إن كنت أعددت خطة محكمة كما أرى للسيطرة على المدينة، فلمَ لم تقترحها منذ البداية بمجلس التخطيط؟ لِمَ اقترحت أن يتخطوا المدينة؟

تنحنح (كازان)، ثم قال:

- فلنقل أن الأولويات تتغير حسب الموقف أيها الملك.

- بالطبع، لكني أشعر أنه كان يمكنك اقتراح هذه الخطة منذ البداية.

بدا على ثغر (كازان) شبح ابتسامة، فابتسم الملك قائلاً:

- وهل تمت خطتك؟

- على أكمل وجه يا سيدي، حدثت أمام عيني كأنها تجسيد فعلي لما سردته في خطتي، وليس قبل الفجر.. بل قبل منتصف الليل كنا قد سيطرنا على (راسوم)، بخسائر بلغت أربعة وستين قتيلاً من الجنود فقط...

اومأ الملك متأملاً (كازان) في إعجاب بينما يتابع:

- وعندما دخلت جميع القوات تحت قيادتي المدينة وأعلنوا السيطرة عليها، أخذوا يهتفون باسمي للمجد والحياة الطويلة، وقد وجدت (رازام) داخل المدينة أسيراً منذ الأمس، لم يصدق نفسه وما حدث في يوم واحد، فقد أصابه اليأس من محاولة إنقاذه بسبب الهجوم الأخرق الذي تم تحت قيادة القائد الكبير.

- وماذا فعل القائد عندما علم بما حدث؟

زفر (كازان) في تهكم، وقال:

- تركت جميع القوات داخل المدينة وامتطيت خيلي رافعاً راية قيادة قلب الجيش، وبعد نصف الساعة كنت قد وصلت حيث يعسكر الجيش، فنزلت متوجهاً بين جموع من المندهشين نحو خيمة القائد الكبير.. الذي خرج منها فور علمه بقدومي، وما أن وصلت إليه حتى تناولت يده ووضعت بها صولجان حاكم (راسوم)، فصاح الجميع من حولي بينما حدق القائد الكبير فيّ بين الدهشة والغيظ، فتركته ولا أعلم لمتى ظل على تلك الحالة...

تناول (كازان) من كأس الماء أمامه، ثم وضعه وأكمل:

– وقابلت (عادوف) الذي هنأني بحرارة، وأخبرني بما حدث في غيابي بالاجتماع الأخير، فأخبرته أنه "لا فائدة".. كلمتين فقط.. ولمست به بعض الحيرة من مقصدي لكنني لم أقل له غير هاتين الكلمتين.

وبعد ساعات قليلة وصلت قوات قلب الجيش ومؤخرته ملتحمة مجدداً إلى الجيش الكبير، وبرغم تعجب القائد إلا أني لم أرد أن نعد جميعاً إلى (راسوم)، وأن نظل هنا استعداداً للمعركة القادمة، لتجنب أي تهديد لحياة سكان (راسوم) باندفاع آخر من القادة.

وضع الملك الكأس من يده وسأل:

– ومتى هاجمتهم (ساحوم)؟

– بعدها بأربعة أيام.

– أعتقد أنه تمت السيطرة عليها بسهولة.

– ليس هذا المهم يا سيدي، المهم أن هذه المرة عدنا للحرب على البر مرة أخرى دون عوائق، ومع قائد ازداد غضبه عن ذي قبل.. لم أستطع منع كارثة حلت بهذه المدينة.

– كارثة؟!

صمت (كازان) وتأخر رده، فقال الملك متفهماً:

– حسناً يا (كازان)، دعنا نكمل غداً.

أحنى (كازان) رأسه في تقدير وقال:

– أشكرك أيها الملك.

ثم قام هو و(راسيا) إلى غرفتها، وما أن استقرا على الفراش حتى قالت

(راسيا) معاتبة:

- أرى أنك قد أخفيت الكثير عني.

أجابها بينما يضم كفها بين يديه:

- لم أرغب وقتها في تذكر المزيد، ألف أو ألفا ذكرى من ذلك الماضي الأسود ما الفارق بينهما؟ لقد اكتفيت أنك قد علمتِ أني قد أفعل أي شيء من أجلك، وأن تتأكدي أني أحببتك وأحبك بحق.

قبّلته (راسيا) ثم نظرن إلى عينيه بابتسامة:

- أنا متأكدة من هذا يا عزيزي.

﴿ الفصل السادس والعشرون ﴾

كان مجلس التخطيط والحرب في الليلة السابقة للزحف نحو (ساحوم) مختلفاً تماماً عن سابقيه، فقد كنت أجلس بثقة وبشيء من الزهو بين كبار القادة، كنت أستشعر أن العديد منهم يستعر غضباً داخله بسببي، فلقد أثبتُّ مرة أخرى أني على حق، وزاد تأثيري في الجيش بأكمله، وانتقلت محبتي أكثر من الذين كانوا معي للذين لم يكونوا، كما أنه قد وصل إليّ مما يتناقله الجنود أنهم قد رأوا فيّ القائد الأمثل لهذا الجيش، بدلاً من هؤلاء القادة الذين يلقون بالجنود في المهالك بسبب غضبهم وتهورهم، ومراهناتهم الخرقاء بصواب آرائهم.

لم يلتفت القائد الكبير إليّ ولم يهنأني، بل شرع في الحديث على الفور، قائلاً:

- (ساحوم).. مدينة زراعية.. تم انشاءها لإمداد معسكر (مارير) الشمالي بالطعام، ولهذا أظنها أضعف مدينة واجهناها حتى الآن، فبرغم اتساعها إلا أنها مزدحمة بالمساكن والمتاجر والورش والحظائر، ولا يوجد مكان مناسب لاحتواء أسلحة كبيرة أو خطيرة كالمجانيق داخلها.

لكن رغم هذا تمثل هذه المدينة أهمية كبيرة لنا، فهم يعلمون عدد جنود المعسكر بدقة بما أنهم من يصنع ويوصل كميات الطعام لهم، وبالتأكيد سنحصل منهم على معلومات عن أعداد ومعدات ذلك المعسكر.. لذا.. هل هناك من خطة معينة للهجوم أيها القادة؟

لم يلتفت القائد لي أيضاً، بينما أخذ القادة يفكرون في صمت للحظات،

كانوا يسترقون النظر إليّ بين لحظة وأخرى لعلي أنطق، لكنني لم أرد ولم آت برد فعل سوى النظر بعينين نصف مغمضتين إلى وسط مائدة الاجتماع.

لعل كان صمتي دليلاً لهم إلى أني ألحظ حقد القائد الكبير عليّ، وطال صمتي فصمت كذلك بقية من في الخيمة، حتى قال القائد في هدوء:

- حسناً، سنهجم بالخطة التقليدية في الفجر، سنحاصر كل مخارج المدينة، وستخترق كتائب الهجوم التلال الفاصلة بيننا وبين الساحة أمام الأسوار، سنهجم مباشرة دون انتظار يمكن أن يستغلوه لتحذير ما، أو يضعونا في مواجهة مبكرة مع معسكرات الشمال.

***

جاء الفجر وأنا أقف وسط جنودي بقلب الجيش، فأشار القائد لجناحي الجيش بحصار تام للمدينة من الخارج لمنع فرار أي أحد تجاه معسكر (مارير)، ومطاردة أي هارب والتخلص منه، ثم بدأت المشاعل تضيء من حولي وسط الصفوف، وتم اطلاق بوق الزحف، فتقدمت كتائب الهجوم مخترقة التلال التي أخفتنا عن أنظار حرس الأسوار، وتوجهوا مباشرة خلال الساحة لاقتحام باب المدينة والأسوار الأمامية.

كانت قوات الجيش تتقدم ببطء خلال التلال، وما أن وصلت قوات قلب الجيش إلى الساحة أمام الأسوار حتى أعلنت كتائب الهجوم والمقدمة السيطرة التامة على المدينة.

واخترق القائد باب المدينة تاركاً أغلب الجيش خارجها لعدم اتساع الطرقات لنا هناك، حيث قامت كتائبنا داخل الأسوار بجمع السكان إلى ما يمكن تسميته بأوسع ساحة ممكنة، فتقدم القائد فوق خيله ناظراً إليهم بأعين

متوعدة، ثم أشار لأحد قادة الكتائب الذي تقدم إليه مسرعاً، فسأله القائد:

- كم عددهم؟

- ألفان وأربعمائة واثنان وثمانون.

أومأ القائد بينما يحدق بهم وقال:

- هذا أكثر من كافٍ.

ثم تقدم بخيله أمامهم وصاح:

- أين حاكم المدينة؟

لم يجب أحد، وظهر التردد بأعينِ السكان، حتى تقدم رجل في بطء من وسط الجمع رافعاً يده في هدوء قائلاً:

- أنا الحاكم.

سأله القائد في صرامة بينما لا يزال يصيح:

- هل تحب أهل مدينتك أيها الحاكم؟

- بالتأكيد.

- فلترفع صوتك، هل تحب أهل مدينتك؟

فصاح الحاكم:

- نعم، أحبهم بالتأكيد.

- وهل تفتديهم بحياتك؟

- نعم، أفتديهم.

أشار القائد لجنديين.. فتقدما إلى الحاكم حيث قام أحدهما بركل ساقه من الخلف فسقط على ركبتيه، وضرب الآخر عنقه فأطار رأسه نحو أقدام خيل القائد، فصرخت نساء المدينة في جزع بينما صاح الرجال باستنكار، فقال القائد بصرامة:

- هذا ما حل بحاكمكم الذي يفتديكم بحياته، فماذا إن حدث هذا لوالد أو والدة أو طفل أحدكم؟

ظل الصياح وسط أهل المدينة بين الفزع والغضب، فصاح القائد:

- لقد جئنا هنا للإبادة ولا شيء غيرها، لكنني سأعطيكم فرصة أن تشتروا حياتكم مني.. أو أحدكم على الأقل من أجل الجميع، ويخبرني عن عدد الجنود والأسلحة بمعسكر (مارير)؟

لم يتوقف الصياح، لكن اخترق صوت الصياح قولاً:

- فلتذهب للجحيم أيها المعتوه.

التفت القائد بحدة نحو مصدر الصوت، وقلّب نظره سريعاً في السكان ثم صاح بشراسة:

- من قال هذا؟!

أجابه الصمت الذي خيم على الجميع فجأة، فصاح مجدداً:

- أكرر، من قال هذا؟

ارتجفت ملامحه غضباً عندما لم يتلق جواباً، فقال:

- هكذا؟!.. حسناً.

فأشار لمساعد له وقال مزمجراً:

- فلتحرقوا هذه المتاجر.

ثم حرك قدمه بحركة عصبية، وصاح:

- هيا.

فأمر المساعد في الجنود بإحراق المتاجر المحيطة بالساحة، فشرعوا في إشعال النيران بها، وإمدادها بالأخشاب والأوراق من كسر العربات ومحتويات المخازن، فصاح القائد:

- أريدها أكبر.. أريدها جحيماً.

أخذ الجنود يغذون النار حتى بدأت تتضخم وتنتشر ملتهمة كذلك المنازل المجاورة، فأشار القائد لمجموعة من السكان صائحاً:

- هؤلاء.. إلى الجحيم.

فتقدم جنود وقبضوا على بضعة رجال وامرأتين دافعين إياهم نحو النيران، بينما يصرخون ويتساقطون على الأرض في محاولة للتملص من الأيادي القابضة عليهم، فتقدم بضعة جنود آخرين فتعاونوا على حملهم حملاً وألقوهم داخل أحد المتاجر المشتعلة وأغلقوا عليهم الباب، وظل الجميع يستمعون للصراخ الآتي من وراء الجدران.

فصاح القائد:

- أكرر، من قال هذا؟

فصاح عدة رجال في صوت واحد:

- أنا.

أشار القائد لأحدهم وقال:

- أنت.. قل "أنا" مرة أخرى.

فصاح:

- أنا.

فتوجه القائد بوجهه إلى آخر مومئاً إليه، فصاح الرجل:

- أنا.

قال القائد في شر:

- إنه أنت.. فلتأتوني به، ولتلقوا بهؤلاء الكاذبين في النار.

ففعل الجنود ما أمر به، وتم جر الرجل حتى خيل القائد، فركله في وجهه بقوة قائلاً:

- أأذهب للجحيم أنا أيها اللقيط القذر؟ أأنا معتوه يا ابن الزنا؟

صاح الرجل وهو ملقى على الأرض:

- سيقتلونكم جميعاً، لا تبوحوا بشيء.

زمجر القائد في وحشية، ثم نزل من فوق خيله ونزع سيفه ودفعه في صدر الرجل، ثم وضع قدمه فوق رأس جثته ناظراً في أهل المدينة.. أشار لأحد الصبية.. فتقدم جندي ونزعه من يد والدته التي أخذت تولول في جزع، بينما جندي آخر حال بينها وبين أن تتقدم، فأخذت تتأمل صبيها في ارتياع وهي تعلم أنه لا فائدة لأي كلمة تنطقها ولا لأي رجاء ترجوه، حتى أوصل الجندي الصبي للقائد، جذب القائد الصبي من شعره الطويل ووضع السيف على عنقه، قائلاً:

- ألا يوجد من يشتري حياته وحياتكم جميعاً؟

أخذت والدة الطفل تصرخ وتولول وهي تنحني نحو الأرض في انهيار، حتى أخذت وضع السجود وهي تعلم أن ابنها سيُذبح خلال ثوان.

وبالفعل.. لم يرد أحد، ولم يتردد القائد في ذبح الصبي، وترك جسده يسقط على الأرض منتفضاً في دمه، ثم أخذ ينظر في وجوه أهل المدينة في صرامة للحظات، ثم قال بعدها وقد انهكه الغضب:

- لقد حفرتم قبوركم بأنفسكم.

ثم صاح:

- هل سمعتم؟ لقد حفرتكم قبوركم بأنفسكم بما فعلتموه، فليجث كل منكم على ركبتيه ويحفر قبره بيده.. الآن.

ثم استدار إلى خيله وامتطاه، واستمر ينظر في أهل المدينة الذين أخذوا يجثون على ركبهم في تردد ويحفرون الأرض أمامهم، فتقدم مساعده متسائلاً:

- هل ستقوم بقتلهم ودفنهم حقاً أيها القائد؟

ابتسم القائد في سخرية وقال دون أن يلتفت له:

- قتلهم؟

❋ ❋ ❋

ظللت بموقعي رامقاً وهج النيران التي بدأت تعلو ألسنتها من داخل المدينة حتى ظهرت للعيان فوق الأسوار، فقال أحد الجنود:

- هل سيشعلون المدينة والقائد بداخلها؟

بدرت مني ضحكة ساخرة قصيرة، فأخذ الجنود حولي ينظرون إليّ وإلى بعضهم ويبتسمون، ثم عدنا جميعاً للنظر إلى النيران الآخذة في الظهور أكثر..

ثم سمعنا صراخاً مفاجئاً ومتواصلاً لنساء ورجال لم يستمر طويلاً حتى أخذ يخفت بعد لحظات، فتساءلت في غضب:

- ماذا يفعل بالضبط؟

رأيت فارساً يتقدم في سرعة من باب المدينة نحونا، وعندما اقترب رأيت أنه القائد (عادوف) الذي صاح:

- القائد.. القائد يا (كازارشان).

فاندفعت بخيلي خارج الصفوف وهو بجواري حتى ابتعدنا عنهم، وسألته:

- ماذا يحدث؟

- لقد جُن القائد يا (كازارشان)، إن ملامحه وطريقة كلامه لا تُظهر أنه غاضب فحسب، بل يتحدث كالمجنون.. لا أعلم.. لقد بدأت أشعر بالخطر منه.

- ماذا فعل؟

- إنه يحرق أهل المدينة لأن أحدهم سبّه، وسيقوم بدفن الباقي.

- دفن الباقي؟!

- نعم، سيدفنهم أحياء.

حدقت في وجه (عادوف) بغضب للحظة، ثم نظرت نحو المدينة وقلت كأني أحدث نفسي:

- هذه الحرب قامت من أجل الإبادة، فما الذي يفاجئك؟

كاد أن يرد بشيء لكن ذابت كلماته فلم ينطق، فأومأت برأسي ثم استدرت منطلقاً بخيلي نحو المدينة، وعبرت بوابتها لأرى الجنود يركلون في أناس إلى حفر أمامهم ويهيلون على هؤلاء الباكين المترجين الرمال، وجنود آخرين يدفعون بأعداد في النار، ويمزقون من ينجح في التملص منهم، بينما القائد فوق خيله يتأمل كل هذا بابتسامة لم أرها عليه من قبل، فتقدمت في انفعال نحوه صائحاً:

– ماذا تفعل بالناس والجنود أيها القائد؟!

التفت لي محتداً وقال:

– لا دخل لك، عد إلى قواتك يا (كازارشان).

– لا دخل لي؟!.. لقد أخبرني الملك بأن أمر الإبادات يجب أن نتناقش فيها.

– لن تتم أي مناقشة عن هؤلاء الحثالة.

وأشاح ببصره ورأسه عني كأنما يطردني من الحديث، فتقدمت بخيلي لجانبه فارضاً وجودي عليه، وقلت:

– حضرة القائد، أن ما يتم الآن خارج عن القواعد التي أرساها الملك مؤخراً.

– وهل ستعلمني أنا قواعد الملك أيها الصغير؟!.. عد من حيث أتيت.

وقال الكلمة الأخيرة ودفعني بيده، فشعرت بالإهانة أمام الجميع، كدت أن أتقدم بخيلي إلى ساحة الأحداث لكنه قد قبض على يدي بقوة وأمالني فوق خيلي، فتمسكت بدرع صدره صائحاً:

- أنت تضغط على الجنود لفعل أشياء قد لا تكون عودة منها، يجب أن يتوقف هذا الجنون.

صُدم القائد وصُدم الجميع حولنا وهم يشاهدون صراع القادة هذا أمام أعينهم، وأحدهم يصرخ بكبيره وكبير الجيش قابضاً عليه من درع صدره وكأنه ينهر جندياً تحت قيادته، فدفع القائد يدي في قوة صارخاً:

- اقبضوا على المتمرد.

فصرخت في غضب بدوري:

- أنا؟!.. متمرد!.. الآن أنا متمرد أيها المجنون؟.. هل نسيت؟.. هل نسيت اليوم الذي...

لم أكمل جملتي حيث قبض عليّ بضعة جنود وأنزلوني من فوق خيلي، وأنا أدفعهم بقدر ما أستطيع صائحاً:

- دعوني أيها الحمقى، سيقضي عليكم بتوجيهاته هذه، دعوني.

سحبوني إلى خارج المدينة بينما أصيح:

- أنا قائد قلب الجيش بأمر من الملك.

فصاح القائد وهو يلوح بيده مودعاً:

- سننظر في هذا الأمر أيها الجندي.

كشرت عن أنيابي عند ذكره لكلمة "جندي"، فصحت بينما يرتجف جسدي وبغضب هادر:

- اللعنة!

***

تم تقييدي إلى جذع نخلة أمام المدينة، وعند شروق اليوم التالي كان القائد يلقي خطبة في الجيش على مقربة مني عن التمرد الذي حدث، فقال:

- بالأمس.. خذل القائد (كازارشان) الجنود، حيث لم يظهر كقدوة جيدة في طاعة أوامر الملك ومن بعده القائد كبير الجيش، فتمرد على أوامري واعتدى عليّ جسدياً ولفظياً أمام الجنود من حولي، هؤلاء الجنود الذين انتصروا بالسيطرة على هذه المدينة المهمة لنا، وبذلوا من أجل هذا كل جهد حتى قطعنا نصف طريقنا تجاه حلمنا بالعالم الجديد، وكانت طاعتهم للأوامر مثلاً وقدوة لكل محارب هنا.

والآن، يقف أمامكم هذا القائد المتمرد مقيداً، ليكون دليلاً على أن القوانين الحربية لا تسير على الجنود فقط، بل تسير على القادة أيضاً، مهما كان تاريخهم بهذا الجيش العظيم، ومهما كانت خدماتهم، فالجيش يرحب بكل من يخدم هدفه.

وأمامكم جميعاً.. لم أقم بالاعتداء عليه أو قتله للتخلص من تهديده، كي يكون عبرة لكل منكم.. حتى أنا.. نعم، حتى أنا.. وأجدد القسم أمامكم أني سأبذل حياتي من أجل طاعة الملك وخدمة هذا الجيش وهدف هذه الحرب.

وأشهدكم الآن بأني باعث بما حدث إلى الملك كي ينظر في أمره، كي لا يكون لي تصرف يظهر للبعض منكم كتحقيق لثأر شخصي.. فلتذهب أيها الرسول بأسرع ما يمكنك إلى الملك.

تحرك رسول الجيش مع كتيبة حراسته من جوار القائد واخترقوا الصفوف متابعين طريقهم نحو الجنوب، بينما صاح العديد من الجنود تحية

للقائد الكبير بينما لم يفعل آخرون، أما أنا فكنت أنظر إليه بغضب واحتقار شديدين، وأتمنى لو أنزع النخلة من ورائي وأسحق رأسه بها.

***

عندما حل الليل سمعت خطى تقترب، ففتحت عيني في تحفز، وإذ به القائد يبتسم في تهكم ويقول:

– ما هذا التحفز أيها الشجاع؟ ماذا كنت لتفعل؟

قلت له في شراسة:

– ماذا تريد مني أيها الـ...

ضحك في سخرية مقاطعاً جملتي وأجاب:

– لا أريد، بل أنت.. وماذا سيريد قائد حر؟.. من شخص مقيد!

– أتصدق بحق أنك تستحق القيادة بعد كل هذا؟ أصدّقت نفسك؟

ذابت ابتسامة القائد مجيباً في صرامة:

– بل أنت من صدّق نفسه أنه شخص عظيم، لقد دافعت عنك وأكرمتك بعدما أنقذت الجيش في حادثة الممر، جعلتك أحد المقربين مني ذوي الثقة، وأحد أفراد مجلس التخطيط، ولطالما أثنيت عليك في رسائلي للملك.. فلمَ تفعل كل هذا؟ أتريد التخلص مني لتحل مكاني؟ أم أن الغرور قد أعماك عن حقيقة أن هناك من هو أعلى مكانة منك ويأمرك.. وعليك طاعته.

– لو ركزت قليلاً فيما حدث سترى أن كل ما فعلته أنا كان في خدمة الملك والجيش.

– لا أرى هذا يا (كازارشان)، وعليك أن تعي أيضاً.. أنت ترى خلال

عينيك أنك على حق، بينما أنت لست كذلك.

أومأت نافياً في سخرية وقلت:

– يبدو أنك مَن أعماه الغرور عن رؤية الحقيقة، فأنا الشخص المؤثر بين الجنود عنك، وأنا الذي رغم أهميته للحرب طلب الملك حضوره على الفور.

– أنت مجرد ظاهرة أيها الجندي، فكل الجنود بما فيهم أنت قد خضعوا للتدريبات نفسها بلا تمييز، وهناك بالتأكيد من هم أقوى منك، لكن لم يقع تحت ضوء الشمس إلا أنت.

زفرت في تهكم قائلاً:

– أنظروا من يقول هذا؟

ثم حدقت بعين القائد وتابعت:

– أنا لا أنكر أن هناك من هو أقوى مني، لكني مَن يستخدم عقله لا جسده فقط كما رأيت، وإلا كنت سأتبع أمر القائد السابق يوم الممر، وأذهب إلى التهلكة مع القطيع الذي خضع لأمره.. هذا هو الفارق وإن تشابهت التدريبات، فالمعسكر يحتاج منك قدرة جسدية كبيرة ومقدار ما من الذكاء كي تحسن تنفيذ الأمر، لكن ما أدراهم بمستوى ذكاء مَن يدربونه؟ إنهم لا يستطيعون وضع حد للذكاء لا يُعلى عليه، ولهذا لم أنل منصبي من مجاملة ولا محاباة.

ربت القائد على كتفي قائلاً:

– سنرى.. سنري يا (كازارشان).. إن كان القدر يحبك فعلاً فقد يكتفي الملك بطردك من الجيش إلى الصحراء، تخطف طعامك من أفواه الوحوش

أو من بين ركام المدن.

ثم استدار ليعود إلى خيمته، فأومأت برأسي نافياً وقلت بلا مبالاة:

- أنت لا تعلم أي شيء...

فتوقف القائد عن السير واستدار لي ببطء، فتابعت ناظراً إلى عينيه:

- عليك أن تأمل أن يكون القدر يحبك أنت فعلاً.

***

دخل (عادوف) خيمة القائد فرآه جالساً إلى مكتبه منشغلاً في عدد من رسائل الملك السابقة، فقال في هدوء:

- طلبت رؤيتي أيها القائد!

رفع القائد نظره إلى (عادوف) متسائلاً:

- ماذا فعلت مع المتمرد؟

- أي متمرد؟

علا صوت القائد قليلاً وهو يقول:

- أنت تعلم مَن أقصد.. (كازارشان).

- أنا لا أراه متمرداً.

- لم يكن ليصبح متمرداً لولا أن هناك من أخبره بما فعلت في (ساحوم)، وبكل شيء يحدث تقريباً، لقد تسببت في كارثة يا قائد (عادوف).

صاح (عادوف):

- كارثة!.. أنا؟!

انتصب القائد مجيباً في صرامة:

- بالطبع أنت، هل أثر فيك (كازارشان) كأنك جندي تحت طوعه؟

- إن كان إعجابي وتأثري بشجاعته وذكائه سيجعلني تابعاً له.. فلتذكر أيضاً إعجابك به، وإعجاب الملك أيضاً.

صاح القائد:

- هل تتجرأ عليّ وعلى الملك؟

تمالك (عادوف) نفسه وأجاب في هدوء:

- الملك هو مَن أعجب به، ومَن اختاره لهذا المنصب، ولا أظنه سيراه متمرداً.

عقد القائد حاجبيه بشدة وقال:

- سنرى.. سنرى يا (عادوف).. هناك أسبوعان تقريباً إن أسرع الرسول حتى يصلنا رد الملك، وهذا وقت كاف لتحقيق بعض الانتصارات التي سينسى معها الجيش أمر هذا المتمرد.

أشاح (عادوف) بوجهه في حدة للحظة، ثم عاد ينظر للقائد متسائلاً:

- أتريد مني شيئاً آخر أيها القائد؟

فأجابه في صرامة:

- (عادوف).. أنت شخص كبير وذو حكمة، وذو مقام كبير لدى الملك ولديّ، لا تخسر كل هذا من أجل ذلك الشاب، فالجيش يحتاجك.

أجابه في هدوء:

– ويحتاجه أيضاً أيها القائد، سأنصرف الآن.

اهتز فك القائد في انفعال وهو ينظر في أثر (عادوف) الذي خرج من الخيمة، وأخذ ينظر إلى باب الخيمة للحظات ثم استدار وركل كرسياً في غضب.

***

في الصباح التالي تحرك الجيش شمالاً وتم تركي مقيداً كما أنا مع عشرة جنود للحراسة، تم أمرهم بألا يتم التحدث معي أو الاقتراب مني إلا عند تقديم الطعام، وبقيت هكذا لأكثر من يوم حتى فقدت صبري وصحت فيهم:

– أريد أن أجلس، لقد تورمت قدماي.

لم يرد عليّ أحدهم، فعدت أصيح:

– إن سمح لي الملك باستكمال الحرب لن أستطيع إكمالها بساقين متورمتين أيها الحمقى.

لاحظت الحيرة على وجوههم وتناقلهم لنظرات ما، حتى التفت لي أحدهم قائلاً في تردد وكأن القائد سيسمعه:

– غير مسموح.

أجبته في استنكار:

– ما هو غير المسموح؟ إن سمح لي الملك باستكمال الحرب وكنتم السبب في إعاقتي، فماذا تتوقعون أن يفعل بكم الملك؟

زادت حيرتهم، وأخذوا يتبادلون الهمهمات طويلاً، حتى فقدت صبري مرة أخرى وصحت:

- هيا أيها الحمقى، وإلا سأمزقكم بأسناني بعد فك قيدي حتى لو أصاب الشلل أطرافي جميعها.

ازداد ترددهم، ثم اندفع أحدهم لداخل المدينة وأتى لي بصندوق خشبي كي أثني ركبتي عليه، فأخذت أنفاسي بعمق أخيراً بينما أريح قدماي، وعدت أنظر في الأفق متعجلاً رد الملك.

الفصل السابع والعشرون

" هذا الأحمق! "

صاح بها الملك (كاسارشونايرِ) في غضب، ثم قبض على الرسالة واتجه إلى كرسي العرش ثم صاح مجدداً:

- سيدمر ما أخطط له بهذه العقلية.

تنحنح الرسول ثم قال متردداً:

- لقد كان القائد الكبير يطيع أوامرك يا جلالة الملك حتى تدخل القائد (كازارشان) واعترضه.

ضم الملك شفتيه بغضب، ثم قال في صرامة:

- بأمر مني أنا الملك (كاسارشونايرِ) يتم العفو عن القائد (كازارشان) ورد الاعتبار إليه.

أجابه قائد الرسل الملكيين بحذر:

- اسمح لي يا جلالة الملك حرصاً على الجيش.. هذا سيمثل خروجاً عن المتبع هناك، بعد تمرد القائد (كازارشان) وخطبة القائد الكبير وبثه للحماسة في الجميع بما قال.. كل هذا سيضيع هباءً، ولن يعجب هذا القرار كثيراً من الجنود قبل القائد، بافتراضهم أن الملك لا يعبأ لصورة القائد الكبير الذي تم التعدي عليه حتى لو أخطأ أو بالغ قليلاً.

مسح الملك بيده بقوة على جبهته وقال كأنه يحدث نفسه:

– لا يمكن أن يحدث هذا.. لا يمكن، سيخسر التخطيط ذكاء (كازارشان)، ولن يناسب معنويات الجنود أن أعيده مرة أخرى.. ما العمل؟.. ما العمل؟

نظر الملك إلى قائد الرسل مفكراً للحظات، ثم قال:

– حسناً، بقرار مني أنا الملك (كاسارشوناير) وبعد الأخذ في الاعتبار أن الجيش لا يمكن أن يغض النظر عن أقل الخدمات المبذولة من أجله، ومن جميع أفراده، سيتم رفع العقاب عن (كازارشان) نظراً لخدماته السابقة في انقاذ الجيش بمواقف عدة، والاكتفاء بفترة عقابه حتى وصول هذه الرسالة لقائد الجيش، وذلك بعد أن تم اعتبار ذلك التمرد الأخير كالتمرد المزعوم السابق، أي أنه قد تم في حرص على الجيش لا تبرأ منه، وفي انتماء لهدفه لا تنصل منه.

ولكن، تطبيقاً للقانون.. ولأجل الحفاظ على المنهج الأول في الجندية وهو طاعة الأوامر واحترام القادة، سيجرده الملك من صلاحيات قائد قلب الجيش، مع احتفاظ (كازارشان) بمنصبه وسلطاته على من هم أدنى منه رتبة في قوته، وذلك تحت إشراف وأوامر القائد الكبير بشكل مباشر، وتسير مدة هذا العقاب حتى يأتي بفعل بطولي يشفع له عند القائد ما اقترفه، حيث يملك قائده السلطة لإعادة صلاحياته إليه إن رأى منه استحقاقاً لذلك.

***

انتظرت أياماً طويلة، تناوب الملل والضجر على قتلي مرات ومرات، مقيد ظهري لنخلة صلبة حتى كاد أن يتخذ شكل تعرجاتها، وأغفو وأتناول طعامي جالساً في وضعية غير مريحة فوق صندوق بدا وكأنه يتحجر يوماً بعد يوم تحت سيقاني.

كنت على أمل أن يأتي رد الملك قبل أي نصر يتحقق للقائد الكبير، وقد زاد الأمل بداخلي عندما مرت خمسة أيام ولم أر أي رسل من القائد تأتي إلينا في طريقها للملك، وأيقنت أن المعركة عند معسكر (مارير) شديدة وصعبة، لكن أملي تصدع عندما رأيت بعد ثلاثة أيام أخرى رسولاً يأتي من بعيد، فأخذت أتأمله في تعجل لمعرفة الأخبار منه.

اقترب إلى مسافة يصل لها صوتي، فصحت:

- ما الأخبار؟

لم يجبني وتوجه إلى الجنود المرافقين لي وتحدث معهم بضع كلمات وكاد أن يكمل طريقه، فصحت مجدداً:

- أخبرني ماذا حدث.

لم يجبني وأكمل طريقه ببطء كأنه يقصد استفزازي، فزمجرت غاضباً وقلت:

- ما الذي يضرك أن تخبر شخصاً مقيداً أيها الأحمق؟

نظر لي في لا مبالاة ثم تجاهلني، فحاولت جره إلى الحديث بطريقة عكسية، قائلاً:

- يبدو أن القائد المسكين قد خسر دون وجودي.

وضحكت في شماتة، فسمعت منه ضحكة ساخرة واستكمل طريقه بجدية هذه المرة، فاستنتجت من سخريته وثقته أن القائد قد انتصر على معسكر (مارير)، بالتأكيد قد واجه صعوبات ولربما كوراث نظراً لغياب انتصاره كل هذا الوقت، ولكن...

هذا يعني أن الخطوة التالية هي إمارة (ماريرشونا ير) الكبرى، والسيطرة عليها ستكون ضربة كبيرة للملك الشمالي (جاسيرشونا ير) بعد السيطرة على واحد من معسكرين كبيرين لمملكته، وما أن فكرت في هذا حتى ضربت الصندوق بركبتي وقلت:

- أريد أن أستعيد مكاني في الجيش، متى سيأتي رد الملك؟

ابتسم بعض الجنود متهكمين، لكني لم أصرخ بهم هذه المرة، فالكل متيقن من غضب الملك عليّ وأريد أن أصدم غرورهم بدعم الملك لي، فهم لا يعلمون أي شيء.. نعم، لا يعلمون أي شيء.

***

وصل الرسول وحراسته برد الملك بعد أربعة أيام أخرى قرب الشروق، فتحفزت وذهب النعاس عن عيني، كان من المؤكد أن الملك قد أمرهم بالإسراع عن المعتاد، فقد اختصروا يومين وعادوا بخيول جديدة عن التي ذهبوا بها، وعندما قرأ الرسول على الجنود الرسالة نظروا إليّ متعجبين، فتساءلت:

- ماذا؟

أومأ كبير الجنود نافياً غير مصدق، ثم قال فيهم:

- حرروه.

فتقدم الجنود إليّ في تردد وبدأوا بفك قيدي، وما أن تحررت حتى تمطيت وأخذت أحرك أطرافي كثيراً حتى تعود إلى حركتها الطبيعية، ثم تناولت الرسالة من الرسول وقرأتها.. كان العقاب صادماً لي في تلك المرحلة، لكن كان لدي يقين بأن عفو الملك يعني أنه ما زال معتمداً عليَ، فنظرت نحو

الأفق حيث بدأت الشمس تظهر وابتسمت في شيء من الثقة والراحة، ثم صحت في الجنود:

- هيا، لنلحق بالجيش.

❋❋❋

وصلنا إلى معسكر (مارير) بعد الغروب، كان محطماً بأسواره وساحته الكبيرة التي تكشف عن تفاصيل معركة شرسة دارت هنا، لعلها أكبر معركة في تاريخ مملكتنا، وأصعب ما واجه الجيش حتى الآن، بالتأكيد كانت أشد من معارك (شاداسكيري) أضعافاً، فأصابني الضيق والغيظ لأني لم أشهدها.

أمرت الجنود بإعداد مخيم لقضاء الليلة في المعسكر والتحرك عند الفجر، وقد قضيت تلك الليلة ساهراً عند ساحل البحر الشمالي الكبير، لم يكن بحراً محاطاً كمثل بحر قلب المملكة التي تظهره الخرائط، بل كان يبدو على الخريطة وكأنه يمتد إلى الأبد، كنت أتأمل وأفكر.. لقد مضى الكثير.. ولربما لم يبق بالفعل إلا القليل وإن كان أصعب.. كنت في صراع شديد مع أفكاري، وكنت أنظر إلى البحر والنجوم في تأمل ولا أسمع إلا أصوات الطبيعة الهادئة، وكأن العالم في أول لحظاته بالوجود، بينما وراء ظهري نيران ودمار وعلامات تدل على الوحشية، يكفي فقط أن أدير رأسي كي أنتقل بين هذين العالمين.

استمرت أفكاري وتأملاتي حتى الفجر، حتى رأيت شيئاً كاد يستهلك نظري وتفكيري، حتى كدت أصيح كالمجنون موقظاً الجنود، لكنني تحاملت وانتظرت كي لا ينظرون إليّ نظرة الذي أثر العقاب على عقله.

اقترب الشروق فصحت فيهم أوقظهم لنكمل طريقنا، وما هي إلا

ساعات قليلة وكنا نخترق صفوف الجيش الذي يحاصر إمارة (ماريرشونساير) الضخمة، حيث كان ينظر الجميع نحوي بين تعجب واستنكار، لكني لم أبال.. لم أبال حتى بصدمة القائد المتوقعة، فقد كان كل ما يهمني هو استمرار اعتماد الملك عليّ وثقته بي.

ووصلنا للقائد الذي انتظرنا عند باب خيمته، وسلمه الرسول رسالته، وحدثت الصدمة.. لقد أصبحت ردود أفعال الحمقى متوقعة لدرجة مملة حقاً، فصاح القائد مستنكراً:

- كيف هذا؟!

ثم دخل خيمته وسمعنا كلاماً غاضباً غير مفهوم وأشياء تُلقى على الأرض، فابتسمت ساخراً وقلت في الجنود:

- سأذهب إلى خيمتي.

وأسرعت في شوق لرؤية (رازام) الذي كان منتظراً خارج خيمته، فرحب بي بحرارة، ثم قال:

- أنت مجنون، لم أر من هو أكثر منك جنوناً يا (كازان).

ابتسمت مجيباً:

- لا يهم جنوني الآن وأخبرني ماذا حدث في معسكر (مارير)؟

أدخلني الخيمة وأشار لي بالجلوس أولاً بينما الحماسة تشتعل بي، ثم تنهد وقال:

- كانت معركة شديدة، كانت معركة بحق، معركة تستحق فعلاً ما قد دربونا عليه.

قلت في نفاذ صبر:

– أريد تفاصيلاً.

– كان بالمعسكر أكثر من ستة آلاف جندي بأسلحتهم الكاملة، بالإضافة إلى مجانيق وكتائب لرماة السهام وكرات النار، لكن رغم هذا كان لدينا نقاط في صالحنا، فقد سيطرنا على مصدر تموينهم بالطعام، وسيطرنا على الطريق الشرقي الرابط بين المعسكر وإمارة (ماريرشوناير)، فبدأنا الزحف بالدوران حول المعسكر والهجوم من ناحية البحر، كانت معركة طاحنة.. أظن أن جيشنا قد خسر أكثر من ألفي جندي.

– ألفي جندي؟!

– ولربما أكثر.

– وكم قتلتم منهم؟

– أظن ما يزيد عن الألف ونصف.

– فقط؟!

ضحك (رازام) وأجاب:

– تذكر أن عددنا الكبير في محاصرتهم جعل ضرباتهم بالمجانيق والنار من فوق الأسوار تصيب العشرات، وذلك قبل أن نقتحم السور الغربي ونشتبك معهم.. لكنهم ما أن أيقنوا أننا مع خسائرنا نفوقهم بثلاثة أضعاف حتى ضغطوا بعددهم على كتائبنا التي تقطع الطريق إلى (ماريرشوناير)، واستطاعوا الانسحاب فارّين إليها.

زفرت في سخرية وقلت:

– هذا رائع، لقد زادت الآن صعوبة السيطرة على (ماريرشونايز)، هذا إن لم يفر منهم عدد إلى معسكر (ماجود) لاستنفاره.

– لا تقلق، لقد طاردناهم دون راحة حتى هنا، فأعلن القائد أوامر بمحاصرة المنطقة وتمشيطها من أي فرد أو رسول هارب، واستمرار مراقبة المنطقة لرصد أي أحد في طريقه لهنا، والآن ليس أمامنا إلا وضع خطة للسيطرة على الإمارة.

– لكن (ماريرشونايز) ضخمة كما ترى، وبالتأكيد لديهم مؤن تفوق ما لدينا.

– قد نرسل بكتائب لتزويدنا بالطعام من واحة (عان).

– تزويد جيش بأكمله من واحة؟!.. إن نجح هذا فإلى متى؟!

رفع (رازام) كتفيه بحيرة وأجاب:

– لا أعلم، كل ما أعلمه أنه لم يبق الكثير حتى نهاية هذه الحرب.

أجبته في صرامة:

– لا تعلم يا (رازام)، لعل المدن القليلة المتبقية تكلفنا وقتاً وخسائر أكثر مما كلفتنا جميع المدن التي قضينا عليها.

زفر (رازام) ثم نكس رأسه وقال بهدوء:

– لا أعلم أي شيء سوى أني أريد انتهاء هذه الحرب لأعيش بقية حياتي في راحة، أريد أن أحيا في مدينة لا معسكر، أتناول أي طعام بشراهة وأنام وأستيقظ وأتنزه، أحلم كثيراً حتى في استيقاظي بزوجتي وأبنائي، أريد أن أكون إنساناً يا (كازان).

زفرت بدوري وسألته:

- وماذا أنت إذا؟!

رفع (رازام) رأسه وأجاب بين المرارة والتهكم:

- انظر لنفسك يا (كازان) وأنت تعلم.

لم أتقبل مزحته -إن كانت مزحة- وقمت قائلاً بغضب:

- لا أريد اكمال هذا الحديث.

وانصرفت من الخيمة.

❋❋❋

قررت أن أستغل الساعات المتبقية قبل اجتماع التخطيط في تأمل أسوار (ماريرشوناير)، تلك الإمارة الضخمة بأسوارها وأبراجها وقلاعها الشاهقة، كان الجيش يتمركز خارجها من الجنوب والغرب على مسافة ألف قدم تقريباً، بينما كتائب التمشيط تنتشر في جميع الاتجاهات.

وكان المخيم الذي أقيم فيه بمواجهة البوابة الجنوبية للمدينة، العملاقة المزخرفة والمنحوتة مع أسوارها بدقة وبراعة، ومؤدٍ إلى البوابة منحدر صاعد بدرجة ميل كبيرة، ذا وضع غريب.. حيث كانت حافتاه الجانبيتان محدبتان وعاليتان بشكل ملحوظ عن درجاته الصغيرة العريضة في المنتصف، التي لا تكاد ترتفع إحداها عن الأخرى إلا بمقدار إصبع.

أما عن القلاع فتتوزع خلف البوابة يميناً ويساراً بطريقة جعلتني أتخيل أن وراء البوابة شارعاً عريضاً، لعله مرصوفاً بالأحجار ويستخدم في الاحتفالات والمواكب، ولعله الآن يحوي آلاف الجنود بخلاف المئات

المتمركزين فوق الأسوار، والمسلحون بأسلحة الرماية المختلفة، ما رأينا منها وما لم نر حتى الآن.

طال تأملي بينما أحاول وضع خطة لاختراق الأسوار قبل موعد الاجتماع، وعندما كنت أجد صعوبة في اكتمال خطة أزفر وأضرب الأرض بقدمي صائحاً في نفسي:

– هيا أيتها المدينة، أريد الانتهاء من هذا الأمر.

***

بدأ الاجتماع بينما لم أتوصل إلى خطة مكتملة بعد، وبدأ القائد الكبير الاجتماع بقراءة رسالة الملك بإطلاق سراحي أمامٍ الجميع، ولم أعطه أي اهتمام حتى وهو يتلو قرار عقابي وأنا أعلم أن نفوساً عديدة هنا تشمت بي.

وبعدما انتهى منها وضعها جانباً وقال:

– والآن ننتقل إلى المهم، فلتخبرنا يا (عادوف) بتطورات الموقف.

اقترب (عادوف) بصدره من المائدة قائلاً:

– بما أننا وصلنا لهذه المرحلة المتطورة من الحرب، خاصة ونحن أمام معركة فاصلة تنتظرنا، فسأذكر ما يحويه الجيش الآن وليس ما خسره.. لدينا الآن ثلاثة وعشرون ألفاً وثمانمائة وستة وخمسون جندياً، وأضفنا على خيولنا من غنائم معسكر (مارير) فأصبح لدينا ما مجموعه خمسة آلاف وستمائة وثلاث من الخيول، ولدينا أسلحة تكفي جميع جنودنا بالإضافة إلى أربعة مجانيق صالحة من معسكر (مارير).

قال القائد:

– يجب الآن أن نفكر في طريقة مثلى لاستغلال ما لدينا، فبرغم أننا لا نعلم أي شيء قد تخفيه الإمارة من أعداد وعدة، إلا أننا لسنا بالعدد والعتاد القليل أو حتى المتوسط، كما أن الإمارة بالرجوع إلى مساحتها فأظن أنها تحوي ثمانية عشر ألفاً من السكان تقريباً.. لذا فهي مزدحمة، ولن تكفي لأن ينضم إليها جيش يقرب من خمسة آلاف جندي بأسلحتهم وخيولهم، لذا.. فبحساب خمسة آلاف جندي محتمل يملؤون المدينة.. بالإضافة لحساب عدد السكان الذين يستطيعون حمل السلاح في معركة شرسة كهذه، قد نصل إلى أن الإمارة تحوي قوة عسكرية تساوي تقريباً عشرة آلاف فرد.

قال (سروجا):

– أرى أن حصارنا قد يدفعهم للخروج إلينا وقتالنا على الأرض بدلاً من فوق الأسوار.

فأجابه القائد:

– سيكون هذا أفضل.. لكننا لا نعلم كم سيستغرق الحصار من الوقت.

قال (عزاروس):

– نحن لا نعلم مقدار ما لديهم من المؤن أيها القائد (سروجا)، قد يكونون يمتلكون أضعاف ما نملك، وعند...

قاطعه (سروجا):

– فلتلحظ أن هناك أربعة أو خمسة آلاف جندي زائد من معسكر (مارير)، وهذا يعني أن المؤن ستنفد منهم بسرعة أكبر، أما نحن وحتى إن نفدت المؤن فقد نتزود بالطعام والشراب من واحة (عان).

- إذا ستكون خطتنا هي مجرد الحصار والانتظار؟

- قد تكون هكذا، وقد نجرب بضعة مناوشات لقياس قدرة المدينة على حماية الأسوار والبوابة، لعلنا نكتشف بعض نقاط الضعف بها.

نظر (عادوف) إليّ وقال:

- وماذا عنك يا (كازارشان)؟

انتبهت إليه متسائلاً:

- ماذا؟

- فلتخبرنا إن كان لديك خطة.

أومأت برأسي نافياً وقلت:

- ليس الآن.

قال (تاركس) ساخراً:

- يبدو أن القائد الهمام قد قلّت قدراته.

توجهت إليه برأسي في بطء وقلت بلا مبالاة:

- ويبدو أن نكاتك السخيفة هي الوحيدة التي تتزايد برأسك.

حدقت عينا (تاركس) بغضب ثم عقد حاجبيه، كاد أن يرد لولا أن سبقه القائد بصرامة:

- لا أريد معارك كلامية هنا، فلنركز على المصاعب التي تواجهنا.

أومأ (عادوف) برأسه موافقاً وقال:

- أنت محق أيها القائد، كفى أساليب صبيانية.

فالتفت (تاركس) إلى (عادوف)، فقال الأخير:

- ماذا؟ هل تود تكذيبي أو معارضتي؟

ضم (تاركس) شفتيه بغيظ وعاد يستمع للقائد الذي رجع يتابع حديثه:

- سنقوم بمناوشة عند الغروب وأخرى عند منتصف الليل، سنستخدم المجانيق والرماة، وستحاول كتائب الهجوم الوصول إلى الأسوار والاحتماء أسفلها حتى يمكنها اختراق البوابة إن أمكن...

ثم صمت لحظة وتابع:

- هل هناك من رأي أخر؟

لم يرد أحد، فأمر القائد بفض الاجتماع.

***

كنت أسير إلى خيمتي في بطء بينما أفكر في أحداث الاجتماع، وأحاول وضع خطة لأجل اقتحام الإمارة، حتى وصلت إلى خيمتي فرأيت القائد (عادوف) ينتظرني عندها، فأبديت له اندهاشي بينما أقول:

- مرحباً أيها القائد، تفضل داخل الخيمة.

أمسك بمعصمي الذي ارتفع داعياً إياه للدخول قائلاً:

- لم آت للضيافة يا (كازارشان)، ولكن لأتحدث معك في أمر هام.

- ماذا حدث؟

- ألم تلحظ أي شيء غريب في هذا الاجتماع؟

صمتُّ قليلاً وتصنعت التذكر والتفكير، ثم أجبته ساخراً:

- نعم، يبدو أن القائد يزداد ذكاءً.

أجابني بقلق:

- نعم يا (كازارشان)، لكنه يتصنع كل هذا، الهدوء والرصانة وحتى الذكاء.. فبينما كنت مقيداً ورائنا عند (ساحوم) كان القائد يجتمع كثيراً ببعض القادة دون حضوري، رأيت أحدهم يسير معه عدة مرات، واثنين آخرين يدخلون أو يخرجون من خيمته كل يوم تقريباً خارج أوقات الاجتماعات، ولقد أبلغني بعض الجنود المخلصين لي بأنهم رأوهم عدة مرات في غيابي أيضاً.

- وهذا معناه!

- أنه يريد أن يكون أمام الجيش صانع القرار وواضع الخطط ومحقق الانتصارات.. وأمامك أنت قبلهم، وأنا متأكد أن خطة السيطرة على معسكر (مارير) لم تكن خطته وحده كما ذكرها في اجتماع حدث أثناء عقابك، بل ناقشها مع البعض قبل الاجتماع واتفقوا أن يظهر القائد كواضع هذه الخطة.

ابتسمت بسخرية وأنا استمع إليه، فقال:

- لا تستخف بالأمر يا (كازارشان)، فأنت لم تر كيف كانت ملامحه وهو يصرخ ويصيح في (ساحوم)، إن هدوءه هذا يخفي جنوناً، ولا أستبعد أن يدبر لاغتيالك.

عقدت حاجبيّ مستنكراً وقلت:

- اغتيالي؟!.. إن اصابني مكروه سيكون هو المشتبه به قبل أي أحد،

والكل يعلم.

- نعم، ولكن بالتأكيد لا يؤخره عن هذا إلا وضع خطة محكمة، وقد يكلف أحدهم باغتيالك ولو بسهم طائش أثناء القتال.

صمتُّ طويلاً في تفكير، ثم قلت في قلق لم أخفيه عنه:

- أأنت متأكد من هذا؟

- لا أعلم يا (كازارشان)، ولكني أحببت أن أحذرك فقط من هذا المجنون.

- ولِمَ أنت حريص عليّ هكذا؟

تردد (عادوف) قليلاً قبل أن يجيب:

- آ.. أعتقد أن هذا لم يكن ما أردته من هذه الحرب، وعندما سألتني منذ فترة عما الذي يفاجئني في حرب كلنا نعلم أنها قد قامت للإبادة!.. لم أعلم بِمَ أرد عليك، كنت فخوراً بكوني جندياً وقائداً، وكنت أظن أن الحرب ستكون أيسر على نفسي وأرحم بها عما هي عليه، لكني الآن رغم ارتدائي للرتبة والدروع لا أشعر أني ما زلت محارباً.

نظرت طويلاً في عينيّ (عادوف) ولم أرد بشيء، وطال الصمت حتى قال:

- سأنصرف إلى خيمتي الآن، خذ حذرك يا بني.. آ.. أقصد يا (كازارشان).

ثم استدار منصرفاً وتركني أتأمل في أثره.

***

بدأت المناوشة الأولى عند الغروب هجوماً بالمجانيق والسهام على أسوار الإمارة وحراسها، واستمر الضرب في الأسوار لنصف ساعة تقريباً، كان من الصادم لنا أن الأسوار لم تتضرر كثيراً وظلت صامدة، فتوقفت المجانيق عن الضرب بينما استمرت حرب الرماية المتبادلة بين كتائبنا وحرس الأسوار.

ومع استمرار ذلك حاولت أربعة كتائب للهجوم وكتيبة من مقدمة الجيش الوصول لأسفل الأسوار، لكن تم امطارهم بوابل من السهام، ومن نجح منهم في الوصول إلى أسفلها صب عليهم الحرس سائلاً اشتعل بعدد منهم، فأمر القائد بسحب الجنود.

على إثر هذا تم تأجيل مناوشة منتصف الليل إلى الفجر، حيث كان الهجوم بالرماية هو الحل الأفضل حتى يتم تقليل عدد رماة الأسوار قدر المستطاع، فالقدرة على التصويب والرماية لا يملكها إلا عدد محدد في الجيوش، ولهذا كان التقليل من أعدادهم ولو بمقدار ضئيل يُعتبر تطوراً وإن كان بطيئاً.

كانت هذه فكرتي التي نطقت بها في اجتماع منتصف الليل، وهي أيضاً الشيء الوحيد الذي نطقت به بنفس الاجتماع، وتركت القائد ينعم بسيطرته المزعومة أمام الجميع.

﴿ الفصل الثامن والعشرون ﴾

حققت مناوشة الفجر المطلوب منها رغم أنها كما قلت تطوراً بطيئاً، فطلب القائد اجتماعاً عاجلاً عند الظهيرة، وعندما انضم إلينا آخر فرد حول المائدة قال القائد في عصبية:

- لن نخرج من هذا الاجتماع إلا وقد أعددنا خطة لفتح هذه الإمارة اللعينة، هل هذا مفهوم؟

أجابه (سروجا):

- هذه الإمارة هي أصعب ما واجهناه يا حضرة القائد، ولن نحل هذا الأمر بالتوتر والعصبية.

- أأنت راض عن الخسائر التي واجهناها بالأمس؟ لقد فقدنا عشرات الجنود دون أي داع.

- لابد أن تكون كل خطوة لها خسائر مفترضة ما دمنا بحرب.

- ليس لهذه الدرجة.

ثم التفت ونظر في أوجه بقية القادة قائلاً:

- ها.. ألا من خطة حتى الآن؟

عاد (سروجا) يقول:

- لن يُحل هذا الأمر بـ...

قاطعت الحديث قائلاً:

– هل نستطيع بالمجانيق التي لدينا أن نصوب إلى ما أعلى الأسوار؟

لم يجب أحد، فعدت أقول:

– أعلم أن الأسوار عالية وأيضاً فوق ربوة، لكني أقصد أنه بدلاً من ضرب الأسوار.. هل نستطيع أن نضرب داخل المدينة؟

أدار القائد نظره في وجه عدد من القادة وكأنه ينتظر ردهم، أو كأنه لا يريد أن يرد عليّ، فأجاب (عادوف):

– لا أعلم، لكننا قد نجد طريقة لهذا.

– هذا جيد.

قال (سروجا):

– ما فكرتك يا (كازارشان)؟

– إن استطعنا أن نضرب داخل الأسوار فقد نلحق خسائر مفاجئة وأكبر مما نتخيل بها وبجنودها من الجهة الجنوبية، وبذلك نستطيع أن نتقدم من البوابة بخسائر أقل، ومن ثم نتسلق الأسوار وندخل إلى الإمارة.. والباقي مفهوم.

قال القائد الكبير بهدوء:

– تبدو خطة متوقعة، لا أستريح لها.

عدت بظهري إلى مقعدي قائلاً:

– حسناً، لقد ذكرت خطتي.. دورك أيها القائد.

التفت إليّ القائد -أخيراً- في حدة قائلاً:

- دوري؟!

أملت إليه رأسي قليلاً ناظراً إليه بينما أجيبه:

- بالطبع، فالقائد الذكي الذي خطط للسيطرة على معسكر (مارير) لابد أن لديه خطة لفتح (ماريرشوناير).

حدق بي بشدة، فأشحت بوجهي في لا مبالاة، بينما قاطع هذا الموقف (عزاروس) قائلاً بصرامة:

- إن الاجتماع ما زال في بدايته يا (كازارشان)، والكلمة الأخيرة ستكون للقائد.

ابتسمت متهكماً وكدت أن أرد بكلمة لولا أن انطلقت صيحات وسط المخيم، فهب كل من في الخيمة بتحفز متسائلين، ثم خرجنا لنجد أن مقدمة المعسكر تتعرض لأمطار من السهام المشتعلة المنطلقة من أعلى الأسوار.

أخذنا نتقهقر للخلف في سرعة مع الجنود في كل مكان حتى نخرج من مجال الرماية، والتقط بعضاً منا الدروع الملقاة على الأرض كي يحتمي بها بينما نركض، حتى وصلنا لأسفل المنحدر الواسع المواجه للربوة وأصبحنا خارج مجال الرماية.

ظللنا نتأمل المعسكر الذي ظل تحت ذلك الهجوم طويلاً، والجنود الذين يسقطون قتلى وهم يحاولون الركض إلينا، فصاح أحدهم بالقرب مني:

- كم يمتلك هؤلاء الملاعين من السهام؟!

فالتفتُّ إلى الجندي الصارخ بجواري والذي أخذ يلهث ويتصبب

عرقاً، ولم أجد ما أرد به، فعدت أنظر للمعسكر الذي تم امطاره بالآلاف من السهام ومئات الحراب، وظل الوضع هكذا حتى انتهى أخيراً بعد مدة طويلة.. أو بدت لنا هكذا.

***

عندما عدنا للمعسكر رأيناه في حالة فوضوية كأنه خراب من صنع أيدينا، ورأيت القائد يتجول بين الخيام المحترقة هنا والمنهدمة هناك، وجثث الجنود المتناثرة بكل مكان، لم يتحمل خسارة المناوشات التي كانت على حد وصفه "دون أي داع" فأتته خسارة أكبر دون أدنى محاولة تستحق خسارة جندي واحد، فصاح بتوتر:

- قادة الجيش.

انتظرت لحظة ثم تقدمت إليه وكذلك بقية القادة من جميع الاتجاهات، فقال في صوت منخفض متمالكاً غضبه وصدمته:

- (عادوف)، أريد إحصاءً بالخسائر خلال ساعة على الأكثر.. (سروجا)، أريد نقل المعسكر إلى الأسفل خارج نطاق رمايتهم.. (عزاروس)، يجب حمل كل تلك الجثث عن طريقنا إلى الإمارة.. هيا، بلا تأخير.

انطلقنا جميعاً، فذهبت أبحث عن (رازام) وسط هذا الزحام، حتى وجدته عند مقدمة المعسكر يجر بعض الجثث خارج الخيام المائلة وهو متأثر، وعندما لاحظني أقترب منه صاح بهلع:

- جنودي يا (كازان)، هؤلاء جنودي.

فذهبت إليه وأخذت أساعده في جرّهم، وقلت له:

- القائد أمر بنقل جميع الجثث عن هنا.

زمجر في غضب ثم صاح:

- لن أنقل أي شيء، اذهب عن هنا يا (كازارشان)، اذهب.

نظرت إليه متفاجئاً من مقدار غضبه هذا، فترك ما كان يفعله واندفع نحوي ودفعني بقوة صارخاً:

- هيا من هنا، لا أريد رؤيتك أنت ولا قائدك.

فقبضت على يده بقوة قائلاً:

- فلتخفض صوتك أيها المجنون.

- هل تخاف؟ فلتركض إليه أيها الجبان.

- لا أريد أن يصيبك أنت سوء أيها الأحمق.

دفعني (رازام) مرة أخرى، ثم ذهب إلى الجثة التي كان يجرها وهبط على ركبتيه بجوارها، ثم انهار قائلاً:

- وهل يهتم أي أحد بالسوء الذي أصاب (دامير)؟ كان سيصبح أباً رائعاً.

اقتربت منه بهدوء وسألته بين تعجب ظاهر واستنكار خفي:

- أب؟!

- نعم، لقد أخبرني بسره.. لقد تزوج بإحدى الإجازات وترك زوجته وقد حملت منه، كان يؤكد عليّ قبل كل معركة إن.. إن لم يخرج حياً منها أن أخبر ابنه أو ابنته بأن يغفر له ما اقترفه.. وأن...

ثم انهار في البكاء، بينما كنت أقف وراءه معدوم الحيلة لآت بأي إجابة أو رد فعل، كنت متيقناً من أن (رازام) يتصور الآن نفسه مكان (دامير) هذا، وقد مات قبل أن يرى ما يتمناه، وكأن (رازام) قد قرأ ما أفكر به، فعاد يقول وآثار البكاء في صوته:

– مات قبل أن يحقق ما يحلم به، لقد مات قبل أن يعيش كما قال لي، لقد أخبرني أنه لم يشعر بنفسه ولا بكونه حياً إلا عندما يعود لزوجته أو يكتب لها عن طريق رسائله لأهله، أما أنا.. أنا يا (كازان).. قد أموت قبل أن أعيش يوماً حتى.

أجبته في صوت متقطع:

– ستعيش.. ستعيش يا (رازام).

– هاه!.. وما أدراك؟

– لن أدع أي مكروه يصيبك، أعدك.

التفت إليّ (رازام) ثم ابتسم ابتسامة قصيرة ساخرة رغم دموعه، ثم وقف وأكمل جر جثة (دامير)، فتقدمت وساعدته في نقل بقية جنوده.

***

بعدما انقضت الساعة تقريباً، صاح القائد بالاجتماع مجدداً، فأسرعنا إليه تحت الشمس نجتمع دون خيمة، ووسط عملية نقل الجثث أيضاً، فسأل في صرامة:

– هل انتهيت يا (عادوف)؟

سارع (عادوف) بالرد:

- نعم أيها القائد، لقد حصرنا إلى الآن تسعمائة من القتلى، ولا أظن أن الذين لم نحصرهم يزيدون عن بضع عشرات أخرى، أما المصابون فتحت الإحصاء والتصنيف، وهناك خسارة بمائة وواحد وستين من الخيول، وكثير من الخيام و...

صاح القائد مقاطعاً:

- ومن يهتم بالخيام بهذه المصيبة التي حلت بنا؟

ثم استدار لبقية القادة، فقال (تاركس):

- المعسكر يتم نقله بالفعل يا حضرة القائد، وسننتهي من ذلك قبل الغروب.

وأضاف (عزاروس):

- الجنود نقلوا مئات الجثث بالفعل أيها القائد، سننتهي خلال ساعة أخرى على الأكثر.

أغمض القائد عينيه وزفر في غضب، ثم فتحها في بطء وقال بينما يكاد صدره ينفجر:

- ماذا سنفعل؟

صمتُّ مفكراً للحظات ثم قلت:

- نستطيع تعويض الكثير مما فقدناه.

انتبه كل القادة لقولي، وقال القائد موجهاً كلامه إليّ:

- كيف؟!

– هناك ألفي جندي تقريباً تابعين للملك في مدينة (غيروزا) الساحلية جنوباً، أرسلهم لفتح مدن على جبهة أخري من المملكة الشمالية، وهم على الأغلب يعسكرون هناك حتى الآن.

صمت القائد لمدة كأنه لا يعي ما أقول، ثم نطق أخيراً:

– حقا؟!

– نعم، لقد قدتهم بنفسي بعد لقائي بالملك إلى ساحل (شاداسكيري)، ومنه استقلوا سفناً مسلحة بالمجانيق لفتح (غيروزا).

– سفناً مسلحة بالمجانيق؟!

أخذ القائد يحملق فيّ وقد بدا له أخيراً أن هناك أموراً مخفية عنه في لقائي بالملك، لكني لم أنتظر رده، فقلت وأنا استعد للانصراف:

– سأرسل فصيلة من جنودي لاستدعائهم.

ثم انصرفت إلى بعض القوات من قلب الجيش، وأعددت فصيلة منهم لاستدعاء الجيش الصغير من (غيروزا)، وأعطيت لهم إشارة الاطمئنان والتواصل الخاصة بهم، كما أرسلت معهم رسالة مني لقائدهم (تافاريون) لتأكيد ضرورة الأمر.

وعندما انطلقت الفصيلة أخذت أتأمل في أثرها، ثم قلت:

– سيصبحون معاً، هذا أفضل.

❋❋❋

بعد ثمانية أيام من الحصار التي أمل فيها القائد أن الإمارة قد بدأت تقع تحت وطأة الجوع، وأن يسعوا للقتال بالخارج كي يكسروا هذا الحصار..

لم يحدث أن خرج منهم جندي واحد، تشرق الشمس وتغرب على البوابة المغلقة، والحرس الرابضون أعلى الأسوار.

وقبل غروب اليوم الثامن كان جنود (غيروزا) قد انضموا إلى الجيش الكبير، حيث جعلهم القائد في جنود المقدمة كي يعوض الخسائر الكبيرة التي حلت بهذا الجزء.

***

عند منتصف الليل كان القائد متحمساً بشكل ملحوظ، لدرجة أنه بدأ يوجه الحديث إليّ بعدما رضيّ عن قراري بتعويض الكارثة التي حلت بنا قدر الإمكان، كما قرر أن يتم تنفيذ فكرتي عند الفجر بهجوم للمجانيق إلى ما أعلى الأسوار، وأن تقترب المجانيق نحو الإمارة أكثر وأكثر في حماية متبادلة مع رماتنا، ثم تتقدم كتائب الهجوم ومقدمة الجيش لاعتلاء الأسوار على السلالم والحبال، أما عن قوات قلب الجيش فتتقدم إلى البوابة في انتظار فتحها، إما بواسطة جنودنا من الداخل بعد سيطرتهم على الأسوار، أو بواسطة جنود الإمارة الذين سيقعون تحت ضغط حينئذ يضطرهم للخروج فيتم الاشتباك معهم وجهاً لوجه.

وبعدما انتهى الاجتماع قمنا جميعاً للانصراف، وكان من الغريب أن بقى (عزاروس) مكانه بينما ننصرف، لكني لم أهتم بهذا الأمر حتى جاءني (عادوف) لخيمتي قبل الهجوم وكان يبدو على وجهه التوتر، فقال:

- (كازارشان)، لقد حدث ما كنا نخشاه.

- ماذا؟

- لقد خطط القائد لاغتيالك.

صمتُّ قليلاً، ثم قلت متمالكاً نفسي:

- كيف علمت؟

- حارس الخيمة هو أحد المخلصين لي، وقد استطعت تجنيده لصالحي بخدعة، فقد أخبرته أن هناك مَن ينوي اغتيال القائد، وطلبت منه اخباري بكل ما يراه وما يستطيع التصنت عليه في الخيمة حتى نتأكد أن الذي يكون في صحبة القائد لن ينجح في هذا، لكنه مع مرور الأيام تأكد من أن القائد لا ينوي لك خيراً، حتى سمعه بعد الاجتماع يتفق مع (عزاروس) لإعداد جنديين من الرماة الذين سينتظرون أسفل الأسوار، وآخران من قلب الجيش لاغتيالك وسط المعركة.

لم أرد بشيء، فعاد يقول:

- لقد كنت تمثل تهديداً لصورة القائد يا (كازارشان)، ولكن ما أخبرته به اليوم كان بمثابة القطرة التي طفح بها الكيل، فعندما علم أن هناك أموراً خاصة قد أخبرك بها الملك، زاد حقده وقرر التخلص منك كي يعود لمكانته كأقرب شخص للملك، وأكبر الأفراد شأناً في الجيش، وقد تساءل أيضاً.. من يعلم؟.. لربما تخطط للتخلص منه بعد انتهاء الأمر بموافقة ومباركة الملك شخصياً.

بدت مني ابتسامة ساخرة، ثم ما لبثت أن ذابت، فقال في قلق:

- ألا تصدقني؟

- ليست هذه المشكلة يا قائد (عادوف) فأنا أصدقك، لكن المشكلة فيما سار إليه حال الجيش.

- أنا أنظر في هذا الأمر لا تقلق، سأنصرف الآن يا (كازارشان).

وانصرف سريعاً تاركاً إياي أفكر فيما قال وما سيحدث الساعة المقبلة...

هل ستمر على خير؟ أم لن أرى شروق شمس هذا اليوم؟

❋❋❋

انطلق بوق الهجوم.. فبدأت قذائف المجانيق في الانطلاق، وأخذت تعلو حتى اختفت خلف الأسوار، ووصلتنا أصوات التحطم والصياح داخل الإمارة، وبدت لي كل هذه الضوضاء هنا وهناك كأنها تأتي من بعيد، فقد كنت أقف بمركزي أفكر في أمر الجنود الأربعة المكلفين باغتيالي، كان شعوراً.. أعترف أنه سيء.. أن تعلم أنك قد تموت خلال ساعة تقريباً، وليس من جندي واحد تستطيع النجاة إن أخطأ، بل من أربعة جنود مجهولين.

تقدمت المجانيق وكتائب الرماة، وتبعها جنود المقدمة والقلب ببطء، وأنا أحدق في البوابة ولا يهزني أي شيء، ولا التفت لأي شيء في ترقب فتحها وبدء الهجوم.

لم أعلم كيف أتصرف.. فإن وجهت تركيزي نحو جنودي كي أرى من يحاول اغتيالي فلن أنتبه لتهديد جنود الإمارة.. إنه أمر سيء.. سيء بحق.. ولا أعلم.. هل أتخلف عن الهجوم؟ أم أحارب في منطقة أخرى بخلاف البوابة؟ ليس لدي صلاحيات لكبح جنودي أو تغيير هجومهم بخلاف ما أمر به القائد.

كان أملي أن يغير أي شيء من خطة الهجوم...

بل وتمنيت أن يفشل هجوم اليوم ولا يتم فتح البوابة...

وانتظرت...

وتقدمت المجانيق حتى الأسوار...

وانتظرت...

وتسلقت كتائب الهجوم الأسوار وتبعها جنود المقدمة...

وانتظرت...

ونظرت...

وإذ بأبواب الإمارة تُفتح من قِبل جنودها ويندفعون نحونا، لم يكن لدي شيء لأفعله إلا الهجوم وأخذ الحذر قدر الإمكان.. وربما الاستسلام لقدري، فتقدمت بقواتي نحو البوابة حيث اشتبك الطرفان في معركة عنيفة، أخذت أقتل يميناً ويساراً وأنا أعلم أن ظهري ليس محمياً، وفجأة.. أتى نداء برأسي من حيث لا أدري، فصحت في الجنود ورائي:

- فلتحموا ظهري كي نضغط عليهم، لا نريد أن نتراجع خطوة واحدة.

وبكل تلقائية تجمع العديد منهم ورائي بكثافة وأخذوا يقاتلون، بينما أخذت أصب تركيزي على قتال جنود الإمارة والضغط عليهم حتى الوصول إلى أسفل البوابة، ولكن بينما نقترب إذ سقط علينا أحد الجنود.. كان أحد كتائب الهجوم الخاصة بجيشنا، وسقط آخر.. فآخر، فتراجعنا قليلاً ونحن نقاتل، فقد كان جنودنا يتساقطون من فوق الأسوار.

ومن فوق رؤوس الجنود استطعت رؤية كتائب من رماة الإمارة داخل المدينة تمطر الأسوار أعلانا بالسهام حيث يتمركز جنودنا، ودبت الفوضى عندئذ.. فنحن نتراجع.. وجنود الإمارة كذلك، وبيننا يتساقط عشرات الجنود من أعلى، أما الناجون فيهبطون سريعاً على السلالم والحبال، ويحل محلهم كتائب جديدة من جنود الإمارة، وانطلق بوق الانسحاب.

ولم يكن الانسحاب هو نهاية الأمر، بل تم امطارنا بالسهام والحراب مجدداً، بينما بقية جنودنا الذين حوصروا عند البوابة بين الأسوار وأمطار السهام علينا تم القضاء عليهم بالسائل الحارق.

كانت كارثة وراء كارثة، ولكن رغم هذا كنت على أمل أن يكون الجنود المكلفين باغتيالي قد سقطوا بهذه المذبحة، وعلى أمل في سلامة (رازام) بالطبع الذي لا أعلم ما مصيره من كل هذا.

﴿ الفصل التاسع والعشرون ﴾

اكتمل انسحاب الجيش بينما كنت أبحث عن (رازام) بين الجنود، وأخذت اسأل عنه الذين نجوا من كتيبته، لكن لا إجابة مبشرة بأي أمل، لم يره أحد عند الانسحاب، ولا أجده عند أحد من الأطباء، حتى أيقنت أنه لم يعد فركضت إلى طرف المعسكر باتجاه بوابة (ماريرشونواير) كي أبحث وسط القتلى، فأوقفني حرس المعسكر وسألني أحدهم:

- إلى أين تذهب أيها القائد؟

دفعت يده عني وأنا أتابع طريقي قائلاً:

- لا دخل لك.

أمسك بمعصمي بقوة وقال:

- سيدي القائد هذا خطر عليك، وأنت تعلم أن هذا غير...

قاطعته وأنا أمسك بيده وأدفعها عني:

- قلت لا دخل لك.

وتابعت طريقي، فصاح من خلفي:

- إن لم تتراجع سأخبر القائد.

لم أعره اهتماماً وتابعت طريقي لخطوات ثم ركضت باتجاه البوابة، وأخذت أبحث بحذر بين الدروع والجثث عن (رازام) وأنا أناديه في خفوت:

- (رازام).. (رازام).. هل تسمعني؟.. أين أنت؟

ثم بدأت أقلب في الجنود بينما أناديه، وفجأة سمعت صراخاً من أحدهم خلفي، فاستدرت إليه في حدة كي أجده جندياً يصيح:

- انقذني، أرجوك.

فقلت له في خفوت وصرامة:

- اخفض صوتك أيها الأحمق.

فظل يصرخ في ألم:

- انقذني، سأموت.

وتابع يصرخ في ألم، فزمجرت في شراسة قائلاً:

- ألم تشعر بألمك إلا الآن؟!

فأسرعت إليه بينما مستمر في صراخه وضربت عنقه بعنف فأخرسته للأبد، واستدرت كي أتابع بحثي، ثم سمعت ما بدا لي كنداء متقطع خافت، فحاولت أن أركز أكثر حتى تأكدت أنه بالفعل صوت ينادي، فاقتربت في هدوء أكثر حتى بدأ يتضح لي...

" (كازان).. (كازان) "

فتسارع نبضي أكثر وقلت:

- (رازام)!.. إني آتٍ.

واقتربت أكثر من مصدر الصوت حتى وجدته ملقى على ظهره وهناك سهم يكاد يخترق كتفه، وسهمين في بطنه، وجرح عريض في جبهته، فركضت

هابطاً على ركبتي بجواره قائلاً:

- (رازام)!.. هل أنت بخير؟.. أقصد.. هل تستطيع التحمل؟

ضغط على أسنانه في ألم، وحاول أن يبتسم في سخرية قائلاً:

- بالطبع.. أنسيت أني محارب أيها القائد؟.. ساعدني على النهوض.

أخذت أساعده على هذا حتى انتصب واقفاً، فقلت له في قلق:

- أتستطيع السير؟

ضغط على أسنانه بقوة أكبر، ثم مد يده ونزع السهام المخترقة جسده وهو يتأوه من بين أسنانه، ثم قال لاهثاً:

- الآن أستطيع.

نظرت إلى ما فعله في دهشة، فكثيراً ما أنسى قدر قوة (رازام)، فابتسم ساخراً أخيراً وقال:

- هل سأعود وحدي؟

تقدمت خطوة وأسندته ثم سرنا جنباً إلى جنب، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق قال:

- شكراً لعودتك يا (كازان).

لم أرد عليه وتابعت سيري في صمت، ثم بعد لحظات قلت:

- لا تشكر من أنقذت حياته مَن قبل.

- وأنت أنقذت حياتي الآن.

- لم أفعل هذا كي أرد جميلك.

ابتسم (رازام) وأجاب بشيء من الخفوت:

- هذا رائع.

فأجبته ساخراً:

- لا تأمل كثيراً.

ولم أكد أكمل جملتي حتى اخترق سهم ناري الهواء فوقنا واصطدم بأعلى الأسوار، فقلت مستنكراً:

- ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟ سينبهون حرس الأسوار.

سألني (رازام) بتعجب:

- أهناك هجوماً الآن؟!

التفتُّ إليه في حدة وعلى وجهي علامات التعجب بدوري، ثم انتبهت فجأة وقلت:

- لا، أركض بقدر ما تستطيع.

فأخذت أساعده على الركض بجواري، وهو يحاول كتم تأوهاته فلم يستطع، فقلت له:

- تحمّل يا (رازام).

فرد عليّ:

- ماذا يحدث؟

- إنه القائد، يحاول أن ينفذ خطته باغتيالي.

- اغتيالك؟!

صحت فيه:

- لا وقت للحوار، أركض.

وبدأت السهام النارية الآتية من فوق الأسوار تضرب الأرض خلفنا، فصحت به:

- أسرع يا (رازام)، إنها حياتك.

فصرخ من بين أسنانه في قوة، ثم بدأ يركض في سرعة أدهشتني حتى تخطاني، فركضت أسرع حتى أدركته، وذلك حتى وصلنا إلى حرس المعسكر، فهبط (رازام) على ركبتيه محاولاً التقاط أنفاسه، ومنع الدماء التي أخذت تنزف أكثر من جراحه، فهبطت بجواره قائلاً:

- هل أنت بخير؟

فحاول كتم آلامه كي ينطق، وأجاب:

- لا، إطلاقاً.

فكشف يده التي تغطي بطنه وإذ بالنزيف يزداد، فوضعت يدي فوق جرحه وصحت في الجنود:

- الطبيب.

فركض أحد الجنود نحو المعسكر، بينما قال الذي اعترضني عند ذهابي:

- أهذا ما ذهبت من أجله أيها القائد؟!.. إنه يبدو كالميت.

فقال (رازام) في صدمة:

- ماذا؟!

لم أدع (رازام) يكمل كلمته فنهضت وقبضت على عنق الجندي في قوة، فحاول أن يدفع يدي عنه حتى تغير لون وجهه، فقلت في شراسة:

- الآن تبدو كالميت أيها الحقير.

ثم قبضت أكثر وأكثر حتى حطمت حنجرته، ثم تركت عنقه ليسقط على الأرض، فتوجهت إلى بقية الحرس قائلاً بتوعد:

- والآن، من أطلق السهم؟

ارتبك الجنود، فصرخت:

- من أطلقه وإلا سأمزقكم.

لم يرد أحد، فشهرت سيفي وكدت أن أتقدم، لكن قاطعني أن وجدت الجندي الذي هرع كي يستدعي الطبيب يعود ومعه القائد، فصحت مستنكراً:

- ألم أرسلك لاستدعاء الطبيب أيها القذر؟

فصاح القائد:

- أتصيح في حضرتي يا (كازارشان)؟ فلتحترم وجودي.

أجبته صائحاً:

- إن (رازام) يموت أيها القـ...

ولم أكمل جملتي لانعدام فائدتها، فاستدرت وحملت (رازام)، وركضت به نحو قلب المعسكر حيث خيمة الطبيب، وعندما اقتحمت بابها صرخت:

- استيقظ أيها الطبيب.

قفز الطبيب فزعاً من مكانه، وقال:

- ماذا حدث؟

- إن (رازام) يموت، أنقذه وسأعطيك كل ما تريد.

هرع الطبيب إلى أريكة العلاج حيث وضعت (رازام) وقال:

- لا تقلق.

وبدأ على الفور في إسعافه وعلاجه بينما أراقبه في قلق بينما لم يعد قادراً على كبح صراخه، فأخذت أطمئنه أنه سيكون بخير، وبعد لحظات اقتحم القائد باب الخيمة قائلاً بغضب:

- (كازارشان)، لقد تخطيت الكثير من الحدود.

أجبته في غضب جارف:

- لا أهتم الآن إلا بحياة (رازام).

عقد حاجبيه والتفت إلى (رازام) للحظة، ثم عاد بنظره قائلاً:

- إنك تهتم بحياة رجل ميت، وأنت تعلم ماذا نفعل في هذه الظروف.

وأشار بيده خارج الخيمة، فدخل أربعة من الحرس شاهرين سيوفهم...

" خذوا هذه الجثة من هنا "

قالها القائد، فشهرت سيفي ووجهته إليهم قائلاً بشراسة:

- أقسم بكلٍ ما يمكن القسم به.. إن تقدم أحدكم خطوة واحدة نحوه سوف أمزقه حياً.

فرد القائد في هدوء:

- (كازارشان)!.. أعفيك من مهام منصبك كقائد وكجندي محارب.. اقتلوهم.

تقدم الحرس نحوي، فتقدمت بدوري راكلاً الأول بقدمي اليمنى وبارزت الثاني بعدة حركات حتى قبضت على يده التي تمسك سيفه، وطعنت بسيفي الجندي الثالث وراءه وركلته فوق الأول، ثم لويت يد الجندي الثاني أمامي ودفعت سيفي نحو الرابع أبارزه في ضربتين ففصلت يده بالسيف الذي تحمله، وتوجهت بسيفي إلى الثاني -بينما يحاول التملص من قبضتي- ذابحاً إياه، ولم أدعه يسقط حتى توجهت إلى الجندي الأول الذي دفع الثالث عنه، وقام نحو (رازام) الذي نهض منسحباً في سرعة شاهر سيفه، فقبضت على رقبته ودفعته للخلف بقوة، وانقضضت عليه.

استغل القائد انشغالي وشهر سيفه متجهاً نحو (رازام) الذي رفع سيفه ليصد الهجوم، فضرب القائد بسيفه سيف (رازام) محاولاً اسقاطه، لكن (رازام) خفض يده سريعاً فضرب القائد الهواء، فاستغل (رازام) هذه اللحظة حيث ركل ركبة القائد فلواها، ثم بضربة من سيفه فصل يد القائد بسيفها، وعلى صراخ هذا الأخير اقتحم جنديان آخران الخيمة ليشاهدا معارك تدور داخلها، أنا أقاتل جنديان أحدهما بيد واحدة، بينما (رازام) يهدد القائد.

فتوجها نحو (رازام) الذي ضغط على جرح بطنه وتراجع إلى فراش العلاج مبعداً سيف الجندي الأيمن بسيفه، ثم هبط بجسده متجنباً سيف الجندي الأيسر، فترك جرحه الذي يضغط عليه ودفع بكوعه ركبة الأيسر فلوى مفصلها، ثم انتصب واضعاً يده على جرحه مجدداً وبارز الجندي الأيمن الذي تقدم بعد تفاديه تلويح الأيسر بسيفه.

حتى استغل (رازام) فرصة سنحت له في لمح البصر أن أدار مقبض

السيف حول أصابعه بينما يده تتراجع، فجعل حد السيف في اتجاه عودة يده إلى التقدم ودفعه إلى قلب الجندي الأيمن، ثم ركل صدر الجندي الأيسر وهو يحاول الوقوف على ركبته الوحيدة ثم أجهز عليه بسيفه.

وحاول القائد أن يتماسك ورفع سيفه بيده الأخرى ثم قال (لرازام):

- أيها الملعون.

ثم هجم على (رازام) مبارزاً إياه، بينما (رازام) قد أخذ يترنح والضعف يستولي على جسده من كثرة ما نزف، فضرب القائد يد (رازام) الحاملة للسيف فأسقطه منها، فما كان من (رازام) إلا أن استجمع قواه وركل القائد في صدره فدفعه للخلف حيث قبضت على عنقه بذراعي الأيسر، ويمناي تدفع السيف في ظهره ببطء، فرفعت يدي كي أكتم صراخه بينما أقول في أذنه بشماتة:

- حياتك القذرة تنتهي الآن، مثل جنود الممر الذين عبرت فوقهم بأقدامك وكان بينهم أخي، وأخي الأكبر الذي ذبحه (نابيروس) بعد أن استمد عجرفته من موافقتك، لقد أخبرني بكل شيء قبل أن أجعله يولول ويترجى كالساقطات عند موته.

وصل مقبض سيفي حتى ظهره بينما يبرز حده أمام بطنه، فسحبته ودفعته به مرة أخرى، فصرخ صرخة مكتومة خلف يدي، فعدت أقول بينما أعتصر فكه:

- و(رازام).. لا تدري كم أقسمت على قتلك بيدي إن أصابه مكروه!.. والآن أنت تحت يدي وقسمي بتمزيق من هدده حياً.

ثم سحبت السيف ودفعته مجدداً.. ومجدداً.. ومجدداً.. وذلك حتى بدأت

ألهث من الانفعال بينما عيني معلقة في الفراغ، كأني أنظر إلى الموت يحاول جاهداً انتزاع روحه من بين يديّ.

ثم تركته ليسقط كالحجر عند قدمي، والتفتُّ نحو الطبيب المنزوي صائحاً في انفعال:

- تابع عملك أيها الطبيب.

كان الطبيب يرتجف في ركن الخيمة، فعدت أصيح:

- أيها الطبيب!

اهتز لصرختي، فنهض مرتجفاً ومرتبكاً إلى (رازام) الذي كان يحدق بي، فأرقده وتابع مداواته، فقال (رازام) في يأس وهلع حاول تداركه:

- لقد قتلنا القائد يا (كازان)، لقد انتهى أمرنا.

صمتُّ قليلاً ثم أجبته:

- لا تقلق.

ثم تراجعت وأطليت برأسي خارج الخيمة فلم أر أي أحد، فعدت إليه قائلاً:

- سأتصرف في هذا الأمر قريباً، تابع عملك أيها الطبيب.

***

عندما اطمأننت على (رازام) وقد خاط الطبيب جراحه جميعها وضمدها، غادرت الخيمة في حذر نحو خيمة (عادوف) وناديته، فخرج لي قلقاً:

- إنها أول مرة تأتي إليّ يا (كازارشان)!

- إن الأمر جاد أيها القائد.

حدق بي للحظة محاولاً معرفة ما جئت لأجله، ثم أشار إليّ أن أدخل الخيمة، فأومأت برأسي نافياً وقلت:

- بل سنتحدث هنا كي نرى من يقترب منا، لا أريد أن يتجسس علينا أحد دون أن ندري.

فأجابني في قلق زائد:

- يبدو الأمر خطيراً، ماذا حدث؟

- عندما حاولت إنقاذ (رازام) ليلاً قرب الإمارة، أمر القائد أحد الرماة بتوجيه سهم ناري أعلى الأسوار، فانتبهوا لهذا كما كان مخططاً فأمطرونا بالسهام.

- ماذا؟!.. لقد تمادى هذا...

- إنه جثة هامدة الآن...

انقطعت كلمات (عادوف)، فأكملت:

- وأريد منك خدمة.

تحرك عنق (عادوف) وكأنه يحاول ابتلاع حجر، ثم قال بارتباك وخفوت:

- أتمزح؟.. أعلم أنك لا تمزح.. ولكن جثة؟!.. أهو ميت حقاً؟!

أجبته بهدوء:

- بل تم قتله.

- هل قتلته؟!

- لا يهم الآن، أريد عدداً من أخلص الجنود إليك أن يحرسوا خيمة الطبيب الذي يرعى (رازام)، ثم نجمع القادة لاجتماع عاجل.

حاول (عادوف) أن يرتب كلماته قائلاً:

- ولكن.. يا (كازارشان).. لو علم القادة بهذا فسيرسلون بجنود كي يقتلوا (رازام)، وسيتقاتلون مع جنودي، وستدب الفوضى.

- لا تقلق.

- وكيف لا أقلق؟ إن القائد له مكانته في أنفس الكثيرين كما أنت لك.

- سأخبرهم بأني مَن قتله، وبموافقة الملك.

- أتظن أن هذا الجواب سيرضي أحدهم حتى لو كان حقيقياً؟!.. أم تظن أنك بهذا ستسيطر على الوضع؟ ففي حالة موت (جاساك) سيكون (عزاروس) هو القائد الجديد حتى يوافق الملك على تغيير هذا.

- لا تقلق، سيوافق.

مسح (عادوف) جبهته بضيق وقال:

- لَم يبدو الأمر هيناً بالنسبة لك؟ هناك أكثر من احتمال خطير لما سيؤول إليه الأمر يا (كازارشان)، أقلهم أن يكون (عزاروس) القائد لمدة عشرين يوماً تقريباً حتى يتم إعلام الملك بالأمر ويصلنا رده بموافقته على تنصيبك قائداً للجيش لو تظن هذا، وأنت تعلم أن (عزاروس) يحقد عليك بدوره، كما كان أحد المقربين من (جاساك)، وأيضاً أحد الذين ساعدوه للتخطيط كي يكون بهذه السطوة والذكاء المزعوم، والأهم أنه كان شريكاً في خطة اغتيالك.

- سأتولى أمره.

- ربما يحاول اغتيالك كما فعل سابقه.

- هل سنتجادل هكذا طويلاً؟!.. سأتصرف في هذا الأمر أيها القائد.

***

أرسل (عادوف) ستة جنود داخل خيمة الطبيب كي يحرسوا (رازام)، بجانب جثث القائد وجنوده التي أحكمت تغطيتها حتى يظن أحدهم إن دخل أنهم ضحايا لم يستطع الطبيب انقاذهم.

أما بالخارج فكان هناك ثمانية جنود لمتابعة الخيمة من بعيد كي لا يلفتوا الأنظار، ثم أرسل (عادوف) في القادة يدعوهم للاجتماع، وعندما دخل القادة إلى الخيمة وجدوني جالساً معه بينما كرسي القائد الكبير فارغاً، فقال (عزاروس) في صرامة:

- أين القائد؟

أجابه (عادوف) في هدوء:

- إنه موجود.

- أين هو؟!

- فليجلس الجميع أولاً.

فتوجه كل منهم إلى كرسيه، حتى استوقف (عادوف) (عزاروس) قائلاً:

- ليس هنا يا قائد (عزاروس)، فهذا هو كرسيك.

وأشار إلى كرسي القائد الكبير، فنظر إليه (عزاروس) مستنكراً وقال:

- ماذا تقصد؟

- أنت من الآن قائد الجيش.

صاح العديد من القادة بكلمات تتعجب وتستنكر ما يقول (عادوف)، فقلت أنا بنفاذ صبر:

- صمتاً من فضلكم إن أردتم الفهم، سيشرح القائد (عادوف) الأمر.

فتردد الجميع بكلمات حتى التزموا الصمت وجلسوا أماكنهم، ما عدا (عزاروس) الذي رفض أن يجلس مطلقاً حتى يعلم الأمر، فقال (عادوف):

- لا أعلم كيف أشرح وهناك على الأقل واحد منا يعلم بهذا الأمر، ولكن بكل احترام أقول أن القائد الكبير قد خطط لاغتيال (كازارشان) في عدة مواقف، أربعة محاولات أثناء المعركة عند بوابة (ماريرشونايرِ)، ومحاولة عند عودته الليلة الماضية إلى أسوار الإمارة للبحث عن أحياء وسط الجثث، وعندما عاد أيضاً...

قاطعه (عزاروس) بغطرسة:

- ما الدليل على ما تقول؟

قلت في صرامة واندفاع:

- أنا.. أنا الدليل.. لقد شهدت بعيني محاولات قتلي عدة مرات، حتى القائد بنفسه حاول ذلك أمامي فاضطررت للدفاع عن نفسي.

هب القادة واقفين، وصاح (تاركس):

- أتقصد أنك اعتديت على القائد؟

- بل قتلته.

صاح (عزاروس):

- أيها الخائن اللعين، سأقتلك.

وشهر سيفه متقدماً نحوي، فقمت وشهرت سيفي، فتحفز كل من بالحجرة بسيوفهم كذلك، فزفر (عادوف) وهو يرخي جسده، ثم وجه سيفه نحو المائدة صائحاً:

- لا أريد أن أوجه سيفي تجاه أحد أيها القادة، أرجو أن تزنوا الأمر في عقولكم أولاً.

صاح (عزاروس) بينما يحاول أحد القادة إيقافه:

- لا تراجع عن قتل هذا الخائن.

التفت (عادوف) إلى (سروجا) قائلاً:

- قائد (سروجا)، أنت رجل حكيم وذو كلمة.. قل شيئاً.

نظر له (سروجا) للحظات، ثم هدأ تحفزه وأعاد سيفه إلى مكانه، ثم قال وهو يجلس:

- حسناً، حسناً أيها القادة، لن أقاتل أي أحد، ومن يريد قتلي لن أمنعه، ولكن قبل هذا سأقول أن أي معركة ستحدث بين القادة ستقضي على الحرب والجيش وكل شيء، فلنجلس جميعاً ونفكر سوياً، فلا شيء لدينا الآن لنفعله إلا الاستماع لما يقوله (كازارشان)، وأن نبلغ الملك كي يحكم في هذا الأمر.

قال (تاركس) معترضاً:

- أتقصد الملك الذي وهب العفو لهذا المتمرد؟

أطبق الصمت على الجميع، حتى قطعه (سروجا) قائلاً:

- لا أقول أني مع العفو الأخير عن (كازارشان) ولا ضده، لكن هذا الشاب قد تمرد من قبلٍ مما نتج عنه قتل القائد الأول للجيش، ولكن رغم هذا لم يتم اعتباره تمرداً من قبل القائد الحالي، ثم أنها حرب الملك وقرارات الملك.

خبط (عزاروس) المائدة في غضب، فقال (سروجا) موجهاً الكلام إليه:

- أيها القائد (عزاروس) أريد منك الآن أن تخبرنا جميعاً إلى من توجه إخلاصك وطاعتك.. إلى الملك؟.. أم إلى القائد السابق الذي نثق بأن إخلاصه وطاعته كانا للملك أيضاً؟

رفع (عزاروس) نظره إلى (سروجا) رامقاً إياه وظل صامتاً.. طويلاً.. ثم أشار لي بالتحدث عما حدث، فذكرت له ما حدث عند الأسوار وعند حرس المعسكر، وما حدث في الخيمة، وأسقطت من حديثي (رازام) وخيمة الطبيب، حيث أوصلت لهم وكأن القائد قد تبعني إلى خيمتي بالحرس كي يقتلني، ثم حدث ما حدث، واضطررت لجر جثة القائد خارج المعسكر مؤقتاً كي لا يكشف أحد الجنود الأمر قبل حكم القادة.

وبعدما انتهيت، لم يدر أحدهم بما يرد، لكن أعين العديدين كانت تكاد تشتعل أو حتى تنزف من التحديق بغيظ، حتى نطق (سروجا) موجهاً كلامه (لعزاروس):

- أكرر لك سؤالي أيها القائد، فما قولك؟

رمقه (عزاروس) ثم شرد بينما ينظر إلى وسط المائدة، حتى تنهد وقال بهدوء لم يخف صرامته وغضبه:

- حسناً.. أنا (عزاروس).. القائد الأكبر لهذا الجيش، والمأمور بأمر

الملك، أعلن مقتل القائد (جاساك) نتيجة دفاع (كازارشان) عن نفسه كما يزعم دون شهود على قيد الحياة، سوى حرس المعسكر بنوبة منتصف الليل، وسأرسل للملك كي يقضي في الأمر بعد أخذ شهادة كل حارس منهم.

التقط أغلب القادة أنفاسهم في صوت مسموع، فذهب (عزاروس) إلى كرسي القائد فجلس عليه، وقال:

- والآن، ماذا؟

أجابه (عادوف) في هدوء:

- القرار الآن قرارك أيها القائد، هل نعجل بإخبار الجيش بمقتل القائد (جاساك) أم نؤجله؟

- لا، سأعجل بإخبارهم اليوم بعد الاطلاع على جثة القائد في الوقت المناسب، حتى لا تتزعزع ثقة الجنود بنا إن أخفينا خبراً هاماً كهذا.

أجابه (سروجا) مبتسماً في هدوء:

- أنت رجل ذكي يا (عزاروس).

أجابه بإماءة من رأسه، ثم تنهد وقال بلهجة أعلى:

- أريد تقريراً عما حدث بمعركة أمس يا قائد (عادوف).

تنهد (عادوف) بدوره كي يزيل انفعاله، ثم قال:

- نحن الآن لدينا عشرون ألفاً وستمائة وسبع من الجنود، وخمسة آلاف وأربعمائة وست من الخيول، وأربعة مجانيق.

فاجأ (عزاروس) الجميع باستمرار هدوؤه، حيث أجاب:

- لابد أن نجد خطة جديدة لتعويض الخسائر الكبيرة التي تلحق بنا دون أن نتقدم خطوة، فلنجتمع مرة أخرى عند منتصف النهار.

ثم أشار بفض الاجتماع، فقمنا جميعاً وأدينا التحية له، ثم خرجنا و(عادوف) ينظر إليّ بينما يسير على مقربة مني، حتى ابتعدنا عن الخيمة بمسافة فسألني:

- ما رأيك؟

- هذا جيد.

التفت إليّ محدقاً في وجهي كي يعلم ما أقصد، فتساءل:

- ما هو بالضبط؟

ابتسمت في لا مبالاة وقلت:

- لا عليك.

﴿ الفصل الثلاثون ﴾

تنحنح (عزاروس) بقوة ثم قال:

– ما رأيك فيما حدث يا (تاركس)؟

– إن هذا الشاب يزداد خطورة يوماً بعد يوم دون أن يوقفه أحد، تمرد على القائد الأول، وها قد قتل الثاني، هذا غير قتله (لنابيروس)، إنه تهديد متحرك لا يمكنك التغاضي عن جميع ما فعله.

– يجب أن نقتله، خاصة قبل إخبار الجميع بهذه المصيبة.

– لا، لا يا (عزاروس)، فلنفكر قليلاً قبل أن نقرر أي شيء.

– نفكر بماذا؟!

صمت (تاركس) قليلاً ثم أجاب:

– لماذا ذهب هذا الشاب إلى الأسوار ليلة أمس؟ بالتأكيد كي ينقذ شخصاً يستحق مخاطرته بحياته، وبالطبع لا يوجد غير (رازام)، الذي رافقه (كازارشان) كثيراً ورفض حتى أن يترك خيمته بعد ترقيته.

– وبعد؟

– إن كان (كازارشان) قد أنقذه فأين يمكن أن يوجد الآن؟ غالباً في خيمة الطبيب.

– هل تقصد قتله؟

– إنه كما يبدو نقطة ضعف (كازارشان)، لا يوجد شيء مفهوم حول سبب اهتمامه به، إنه جندي رغم قوته وبراعته به قدر من الطيبة مشهود لها، فلمَ يهتم به إلا لهذه النقطة؟

– ربما بسبب قوته التي ذكرتها.

– لا يمكن، (فكازارشان) لم يكن اجتماعياً كما يذكر رفاقه منذ دخوله معسكر التدريب، ولو نظرنا إلى قوة (رازام) وحتى (كازارشان)، سنجد أن الجيش يضم من هو أكثر منهما قوة.

– ربما الذكاء؟

– صدقني إنها الطيبة.

ارتفعت لهجة (عزاروس) وهو يرد مستنكراً:

– أي طيبة تتحدث عنها يا (تاركس) قد يهتم بها وحش مسعور مثل (كازارشان)؟

ضحك (تاركس) ضحكة قصيرة ثم أجاب:

– سنرى.. في وقت الاجتماع التالي سأرسل بعض الجنود للقبض على (رازام).

– فلتفعل أي شيء، من المهم أن نستغل اللجام الوحيد الذي وجدناه لهذا اللعين.

***

عندما حان الاجتماع التالي، وقبل دخولي الخيمة بصحبة (عادوف) استوقفه حارس الخيمة بإشارة بسيطة، فوقف (عادوف) ونظرت إليه كي

استفسر، فقال بخفوت:

- لتدخل أنت يا (كازارشان)، سألحق بك.

فدخلت الخيمة وانتظرت (عادوف) الذي دخل بعد لحظات، فجلس بجواري وأخبرني في خفوت ما سمعه حارس الخيمة من حديث (عزاروس) و(تاركس)، فضحكت ضحكة قصيرة أمام الجميع، كي ألغي بداخلهم أي ظن بخطورة همهمة (عادوف) لي، ولكن رغم ذلك كنت أشتعل داخلي قلقاً على (رازام).

وحضر (عزاروس) وأعلن بدء الاجتماع قائلاً:

- لدينا حتى الغروب لنجد خطة فعالة لاقتحام الإمارة.

كان تحديد موعداً طويلاً للاجتماع شيئاً غير مألوف، فمن المعتاد أن يخبرنا القائد بهدف انقضاء الاجتماع مهما كلف من وقت، فقلقت أكثر وربطت هذا الأمر بما قد يحدث (لرازام)، فقلت للقائد:

- لدي خطة قد لا يستغرق شرحها ونقاشها ساعة أو أقل.

فابتسم (تاركس) في سخرية وقال:

- فلتدع غيرك يفكر يا (كازارشان)، لا تتعجل.

انتصبت واقفاً في غضب وقلت (لعزاروس):

- حضرة القائد، هل تسمح لي بالانسحاب من الاجتماع؟

أجاب بصرامة:

- اجلس يا (كازارشان).

ظللت واقفاً دون أن أرد، فصاح:

- قلت اجلس يا (كازارشان).

- اسمح لي أيها القائد.

ثم تركت مقعدي وتوجهت نحو باب الخيمة، فنادى:

- أيها الحرس.

فدخل ثلاثة من حرس الاجتماع معترضين طريقي، فقلت مستنكراً:

- ما هذا أيها القائد؟!.. كقائد لي الحق في الانسحاب من الاجتماع.

- نحن في مرحلة حساسة ومصيرية، لا وقت لحقوقك الآن.

استدرت ونظرت في عينيّه ثم قلت:

- مرحلة حساسة ومصيرية للجيش؟ أم لك؟

انتصب واقفاً بحدة وصاح:

- ألن تكف عن وساوسك هذه؟!

- إن مس (رازام) أي سوء سأقتلك يا (عزاروس).

دب الارتباك في الاجتماع، بين مستنكر من تهديدي للقائد، وحائر في اتهامي له، فابتسم (عزاروس) في شر وقال:

- أعطيك فرصة أخيرة للولاء لي وإلا سأقوم بإعدامك أمام الجيش وحرس الأسوار أيضاً، لن أنتظر رد الملك، ولا تصدق كم سيوفر إعدامك العذر المناسب أمام الجميع عند إخبارهم بمقتل القائد!

كدت أن أرد عليه لولا أن انطلق فجأة ضجيج عال انتشر بالمنطقة كلها،

فصمتنا والجميع يتبادل نظرات الدهشة والقلق، وبعد لحظات عقدت حاجبيّ وكدت أن أرد مرة أخرى لولا أن انطلق صوت حاد أعلى من السابق، فصاح القائد:

- ما هذا الصوت؟!

قال (عادوف):

- يبدو أنه يصدر من الإمارة.

لم يرد أحد، فصمت قليلاً ثم تابع:

- قائد (عزاروس)، أيمكن أن أقول شيئاً؟

نظر إليه (عزاروس) وعاد من قلقه إلى غضبه دون أن ينطق بشيء، فالتفت (عادوف) موجهاً كلامه (لسروجا):

- قائد (سروجا)، يمكنني أن أضمن ولاء القائد (كازارشان) للقائد (عزاروس) بحياتي، ولكن يجب أن يطمئن هذا الشاب للقائد أنه لن يتصرف مثل سابقيه، أي لا يتهمه بالتمرد والخيانة أو يلجأ لاغتياله...

ثم توجه بحديثه (لعزاروس) متابعاً:

- لا أتهمك بشيء قائد (عزاروس)، ولكن (كازارشان) عاصر جميع القادة عن قرب، وعانى من ذلك، ويجب أن تسعى لكسب ثقة قائد بارع مثله لا مقاتلته.

ابتسم (تاركس) ساخراً قائلاً:

- هل سنحول اجتماع التخطيط والحرب لاجتماع إثبات حسن النية والمصالحة؟

أجابه (عادوف) في غضب:

- هذا أفضل من أن تقوم حرب هنا في الخيمة، ولن يكون هناك تخطيط ولا حرب وسط هذا النزاع.

سأل (سروجا) في هدوء:

- ما رأيك يا قائد (عزاروس)؟

ضم (عزاروس) شفتيه في غضب، ثم زمجر مجيباً:

- لا اجتماع لعين الآن، سنعاود الاجتماع عند منتصف الليل.

لم أنتظر دهشة القادة ولا قيامهم البطيء بعد هذا الرد غير المتوقع، فدفعت الحرس خارجاً من الخيمة، وركضت نحو خيمة الطبيب، فوجدت (رازام) مستيقظاً يتناول الطعام، وما أن انتبه لي حتى قال في حماس رغم لهجته الضعيفة:

- كيف مر الاجتماع؟

- ليس هذا المهم، لقد أصبحت في خطر يا (رازام).

تراجعت يده عن وضع الطعام في فمه وحدق بي متسائلاً بقلق:

- أنا؟!.. لماذا؟

- إن القائد يتآمر على حياتك كي يسيطر عليّ.

- أنا أفتديك بحياتي يا (كازان)، ولكن.. ما الذي أدخلني في ذهن القائد؟

زفرت في احباط وقلت:

- إنقاذي لك، إنهم يعلمون الآن قدر مكانتك عندي دون الجميع.

صمت (رازام) ولم يرد بشيء، فقلت:

- لكن لا تقلق، لقد وعدتك بألا يصيبك أي سوء.

- أقدِّر هذا منك يا (كازان)، ولكني أحلّك من وعدك هذا، فلن تستطيع أن تحميني طوال الوقت، لقد أصبت في المعركة الأخيرة دون أن يستطع أحد منع ذلك، وكنت على وشك المَوت.. ثم أتيت لإنقاذي.. ثم الآن حياتي مهددة من الجيش نفسه.

- كم أتمنى انتهاء هذا الأمر!

ابتسم (رازام) وقال:

- لا تقلق، سينتهي.

- ولِمَ هذا التفاؤل؟

- لقد حلمت اليوم حلماً رائعاً، حلمت بأننا كنا وسط ظلام حالك، وكنت أنت قلقاً وفزعاً بينما أنا أهدئك مطمئناً ومبتسماً.

- وبعد؟

- هذا فقط.

- وما تفسير هذا؟

- لا أعلم، لكنه موقف لم يحدث بيننا من قبل، وهذا ما جعلني أظن أنه يعني أن ما أريده لهذه الحرب سيتحقق بينما أنت لا.

ثم ضحك في مرح، فقلت:

- أنت شخص مجنون.

ثم اقتربت منه وجلست على كرسي، وسألته:

– على كل حال، لقد تأجل الاجتماع لمنتصف الليل، والأهم من هذا.. كيف حالك الآن؟

– ما زلت اتألم كثيراً لكني متحمل، نصحت الطبيب ببضعة وصفات كمثل التي وضعتها لإسراع شفاءك، أما عن حالتي المعنوية فمرتفعة بسبب الحلم.

أومأت برأسي دون أن أعني شيء، ثم قلت:

– هذا جيد، فلتكمل طعامك إذاً.

❊❊❊

اقترب منتصف الليل دون أن تتكرر الضوضاء التي أزعجت الجيش بأكمله، فتركت (رازام) نائماً وأكدت على جنود (عادوف) ألا يتركوا الخيمة مهما حدث، وأن ينتبهوا جيداً بشأن أي جنود يمرون من هنا، ثم خرجت إلى الاجتماع فوجدت الجو شديد البرودة رغم المشاعل المنتشرة في المعسكر، وأكملت طريقي في حذر حتى وصلت للخيمة دون اعتراض من أحد، فدخلتها لأجد الجميع قد حضروا بالفعل، فانضممت إليهم دون أن أنطق بكلمة أو التفت لأحد.. حتى (عادوف).

طرق (عزاروس) على المائدة بأصابعه وهو ينظر في وسطها إلى الخرائط والوثائق بلا أي شعور ملحوظ، ثم مر ببصره في سرعة في أوجه القادة دون أن يحرك رأسه وقال:

– الوضع أصبح مقلقاً للجنود، الأصوات التي انطلقت اليوم أثارت توترهم عما يدور وراء هذه الأسوار.

قال (عادوف):

- ما الممكن أن يكون مصدراً لهذا الصوت؟ منجنيق مثلاً؟

قال (تاركس):

- ربما منجنيق عملاق.

فقلت:

- وربما شيء لم نره من قبل.

التفت بعضهم لي بينما رد (سروجا) عليّ في جدية:

- نحن لسنا في حاجة لأن نقلق مما نصنعه في خيالنا يا (كازارشان)، يكفي ما نواجهه.

- ليس بخيال أيها القائد (سروجا)، هل رأيت بنيان الإمارة وتخطيطها؟ لابد أن يحمي إمارة كهذه شيء لم نره من قبل يناسب ما نواجهه الآن من عقبات، ويناسب هندسة الأسوار والبوابة الغريبين.

- وما الغريب في أسوار عالية وبوابة كبيرة؟

- لا أعلم بالضبط، لكنني أشعر أن كل شيء بها غريب ومترابط في نفس الوقت لسبب ما.

زفر (عزاروس) في ضيق، ثم قال:

- أريد وضع خطة الآن.

فرد عليه (عادوف):

- يجب أن نضع خطة مناسبة لما نراه ونتصوره أيها القائد.

فأومأ نافياً ورد:

- لن أشغل بالي بهذه...

قطع كلماته صوت هادر تردد في الصحراء، ففزع جميع من في الخيمة.. حتى أنا شعرت بقلق كبير حد الاضطراب، ومن خارج الخيمة سمعنا الكثير من الصيحات والحركات المتوترة في المعسكر، ثم سمعنا الصوت مرة أخرى، فهب الحاضرون حولي وصاح القائد:

- لا اجتماع الآن، فـ...

فجأة اهتزت الأرض من تحتنا وسقط العديد من القادة على الأرض، فاستندت على مقعدي كي لا أقع، وعلا الصوت واشتد ارتجاج الأرض، شعرت بأن هناك وحش يقترب منا، ثم اجتاحت المعسكر موجة من الاهتزاز والحطام والصراخ، فسقطت على الأرض من شدة الارتجاج، وزحفت محاولاً الخروج من الخيمة كي أرى ما يحدث.. أو ما حدث بالفعل.

بمجرد أن أطليت برأسي خارج الخيمة رأيت الظلام التهم معظم المعسكر، بينما المشاعل المتبقية -الصامد منها والمائل- تكشف عن كارثة حلت بالمعسكر.. كارثة؟!.. أظنها صاعقة.. طوفان.. أي شيء قوي مثل هذا.

وبمجرد أن بدأت أعي الأمر نهضت فحملت أحد المشاعل وركضت متجهاً نحو خيمة الطبيب، وكلما اتقدم في ركضي تكشف النار أن أجزاءً كبيرة من المعسكر قد سُويّت بالأرض، فركضت أسرع في هلع نحو المكان الذي من المفترض أن تكون به خيمة الطبيب، وما أن وصلت حتى رأيتها منهارة، فصحت بأعلى صوتي:

- (رازام)!

ركضت إلى الخيمة وحاولت أن أحرك أجزائها المنهارة حتى كشفت عن جسد قد سُويّ بالأرض، فكدت أن أصرخ لولا أن ملابسه أعلمتني أنه الطبيب، فتابعت بحثي الملهوف تحت قماش الخيمة حتى وجدت جسد (رازام)، وقد.. كان النصف السفلي من جسده مـ...

آ...

***

- أيها الملك.. أريد...

- استرح يا (كازان).

قالها الملك في شفقة وهو يلحظ وجه (كازان) الذي يكاد ينفجر مما يكبته من البكاء، وفكه الذي يهتز في قوة ويريد أن ينطق بشيء، فمسحت (راسيا) على صدره وهي تبكي بالفعل، كادت أن تنطق بشيء لولا أن سالت دموع (كازان) أكثر وقال بصوت يغلبه البكاء:

- لا أعلم كيف أقول هذا.. لقد كان...

***

كان النصف السفلي من جسده مسحوقاً، فصرخت وأنا أرفع رأسه بين يديّ:

- (رازام)!.. أجبني.. أرجوك.

وضعت يدي على وجهه وأنا أرجو أن ينطق بشيء، فأخذ يسعل دماً ويحاول أن ينطق، فقلت له في قمة فزعي:

- التقط أنفاسك أولاً.. تنفس.. تنفس يا (رازام).

حاول أن يتنفس ولكن يبدو أن الدم كان يملأ حلقه وصدره، فاستمعت له:

- كـ.. كز.. (كازان)!

- أنا معك، أنا معك لا تقلق.

- سأموت.. سأموت يا (كازان)!

ثم سعل في قوة فتناثر الدم على وجهي، فدمعت عيني وقلت:

- لن تموت يا (رازام).. ستعيش.. أرجوك، ستعيش.

- ليت هناك رجاء في الـ.. موت.. إني أشعر به.

انفجرت في البكاء ولم أرد، فعاد يقول لي:

- هل تذكر والدك؟

لم أهتم لسؤاله وتابعت بكائي، فعاد يقول:

- لم تكن.. لم تسمح لي بالحديث عنه.. اسـ.. اسمع لي.. يجب أن تعي ما يدور حولك.. يجب أن تستمع من شخص كان حريص أشد الحرص على الحياة.. لا شيء يستحق يا (كازان).. كـ...

قطع جملته وضم شفتيه كي يتحمل آلامه، ثم تابع:

- كل شيء.. كل شيء كان جريمة.. كنا جزءً من جريمة يا (كازان) لا يُمكن أن تُنسى أو نتخطاها لمجرد أمل بانتهاء الحرب أو بعالم جديد.. آسف على الاعتراف المتأخر ولا أعلم لَمن.. ولكن.. عند الموت لن ترى قيمة لما

كان كبيراً في نظرك.. اعلم يا (كازان) إن كل شيء مررت به كان جزءً من جريمة.. كل شعور بالشجاعة.. الفخر.. الذكاء.. كله كان جزءً من جريمة.

أجبته وأنا أبكي:

- لا يهم هذا الآن يا (رازام)، حياتك هي الأهم.

حاول مجتهداً أن يبتسم ابتسامته الساخرة، لكنه لم يفلح.. وقال:

- إنها لرحمة لي أن أموت قبلك.. لن أتحمل أكثر بهذه الحياة.. إن الحياة ترفض أن تأتيني.

- ستعيش يا (رازام).

- ربما أنت أحق مني بالعيش يا (كازان)، فأنت تعرف كي ترهق الدنيا كما ترهقك، يجب أن تعيش أنت.. عش كإنسان ومت كإنسان.. لا كجندي في هذا الجيش.

صحت وأنا أبكي:

- تباً لهذا الجيش، وهذه الحرب، وكل الملوك والقادة، أريدك أن تعيش.. لقد كنت أشعر بقيمة الحياة بسببك أنت.. تباً لعجرفتي.. لقد كنت مثلك أحلم بأن أحيا كإنسان.. أتظن أني قد نسيت والدي؟.. أو (راسيا)؟.. لقد أخبرتها.. لقد...

مسحت دموعي التي أغشت عيني ثم نظرت إليه.. وذابت ملامي.. وحملقت به...

"آ.. (رازام)!"

قلتها في صعوبة وأملت كثيراً أن يرد عليّ، فانهمرت دموعي بغزارة ثم

صحت:

- (رازااام).. لا.. لا.. رد عليّ أرجوك.. ستعيش.. لقد وعدتك بأن تعيش أيها الأحمق.

ثم نظرت إلى وجهه الساكن وأنا آمل أن يتحرك ولو ملمح به.. أي شيء، ثم قلت أناديه في خفوت:

- (رازام).. (رازااام).. هل أنت معي؟

بدأت أنفاسي تتسارع في انتظار أن ينطق أو يتحرك، فاقتربت بأذني من فمه وأنا أهزه كي ينطق.. ولكن لا شيء، فابتعدت برأسي أنظر إليه ودموعي تنهمر على وجهي.

﴿ الفصل الحادي والثلاثون ﴾

ظللت بجوار (رازام) حتى الفجر أنظر في اللا شيء، علمت بعدها أني ظللت هكذا ساكناً يخشى الجميع أن يقترب مني، بينما يتحركون من حولي في تفقد آثار الكارثة التي حلت بالمعسكر.

لم أعبأ لرؤيتهم دموعي الغزيرة وملامحي المنهارة لأول مرة، ولا اهتمامي الشديد (برازام)، كانوا يعلمون أني رغم ما بي أشرس مَن بهم، وإن نطق ولو القائد بكلمة لي في هذه اللحظات سأفتك به.

حتى تقدم أخيراً بعض الجنود بحذر وحركوا حطام الخيمة في ترقب لردة فعلي، لكنني لم أهتم، حتى وهم يكشفون عن الجثث أسفلها والتي كان من بينها جثة (جاساك) التي تشوهت، فأثارت مفاجأة مقتله التوتر والهلع بين الجنود مجدداً.. ولربما ظنوا أن الكارثة هي التي قتلته لا شيء أخر.

فهبطت بعيني إلى وجه (رازام) الساكن وقلت له في هدوء:

- لقد انتهى كل شيءٍ يا (رازام)، لم يعلم هؤلاء كم كنت قوي، لن يكرموك أو يقدروك، ولم يفعلوا؟!.. حتى جثة اللعين (جاساك) ملقاة هناك بين جثث الجنود لا فرق بينها وبينهم، لا الوحوش تفرّق ولا الديدان، اللحم كله شهي لهم.

أتعلم؟.. نظرة واحدة إليك حتى وأنت ميت تؤكد لي كم كنت أفتقد الكثير!.. كنت أرفض الاستماع إليك لأني أعلم ما ستقوله، لم أكن أحب أن تتحدث عما يراه الناس بي قوة وأراه ضعفاً، عما يراه الناس بي اكتمال وأراه

حاجة، لم أكن أستحق هذا يا (رازام).. حقاً لم أستحق هذا.. لقد خسرت كل شيء.

لم يشفع لي كوني جندياً ولا قائداً أن أعوض ما خسرته، إننا نكاد نُلقى من بطون أمهاتنا إلى المعسكر كي لا تنشأ روابط قوية بمن نحن في أمس الحاجة إليهم، وعندما أرى كيف تحتضن الأم طفلها قبل أن تنزل عليها سيوفنا.. لا.. لا يساوي كل ما لدي وجودي في حضن أمي الذي أشعر أني لم أسكنه يوماً كما ينبغي، وكم حاولت أن أستشعر ما به!.. لهذا كنت ضحية لصراع شديد مع نفسي.. نفسي التي رأت وشعرت وعانت في إجازة قصيرة كل شعور يمكن أن يمر على أحدهم بحياته.

أودعك يا (رازام)، أودعك جسداً، وسأتذكرك ما دمت حياً، أما الآن فيجب أن أتركك، هناك واجب ينتظرني، ومعركة عليّ خوضها.

ثم قبّلت جبهته وغطيته بقماش الخيمة الذي سحب الجنود بقية الجثث من تحته، ثم نزعت سيفي وغرزته بجانبه كي لا يقترب أحد منه، واستدرت واقفاً أنظر في المعسكر الذي أصبح أثراً بعد عين، ورأيت تحت أضواء الفجر صخرة أسطوانية كبيرة ترقد في نهاية الوادي، فقلت لنفسي في صوت مسموع:

- لهذا كان المنحدر والبوابة العملاقة والهندسة الغريبة أيها القادة الحمقى.

ثم ابتسمت في سخرية ابتسامة لم تدم إلا للحظة حتى امتلأت ملامح وجهي بالحزن على (رازام)، ثم استدرت عائداً إلى قلب المعسكر، آخذاً بتأمل الجنود وهم يسحبون جثث رفقائهم من كل مكان، ومع استمرار هذا تباطأت خطواتي حتى وقفت أنظر في الوجوه المشوهة والمحطمة، وعدد من الوجوه الحية التي لانت تحت وقع الكارثة، والأخرى التي انهارت تحت

وطأة الفزع، فتنهدت بعمق وصحت فجأة:

- انتباه.. انتباه أيها الجنود.

تجمد الجنود حولي واستداروا برؤوسهم لي، فقلت:

- هناك.. بجوار ذاك السيف.. يرقد شخص قد لا يعلمه الكثير منكم، لكنه علمني أنا من تعرفونه جميعاً، ربما ما سأقوله لكم سيبدو غريباً على ما علموكم إياه، لكني واثق تمام الثقة أني أتحدث بلسان الكثيرين هنا.

أنا القائد (كازارشان ماثير بوتابيرون) قائد قلب الجيش والجندي المحارب الذي خدم الملك والقادة، بعد كل ما خضته ورأيته في هذه الحرب، وبعد كل ما نلته من مكانة ومناصب.. أقول طفح الكيل.. طفح الكيل.. إني أتخلى عن كل شيء كي أعود إنساناً، إنسان لا يهمه أن يعيش بمدينة ولا قرية ولا واحة، لا يهمه العيش بالجنوب أم بالشمال، إنسان كل ما يهمه أن يعيش كما ينبغي...

بدأ الجنود يستديرون إليّ بأجسادهم ويقتربون مني، فتابعت:

- ما الذي يضطرنا لكل هذا أيها الجنود؟ ماذا فعل بنا أهل هذه المدينة والذين من قبلهم؟.. لم يفعلوا أي شيء سوى الدفاع عن أنفسهم، أجبرناهم على أشياء لم يكن عليهم فعلها أبداً، نحن من اعتدى على أمنهم وسكنهم وأموالهم وعائلاتهم وكل شيء، لقد جردونا من كل الروابط الإنسانية كل لا نملك أي شفقة على هؤلاء، وكي لا نشعر بقيمة ما يدافع هؤلاء الناس عنه.

جاء (عزاروس) من ورائي ودفعني صارخاً:

- هل فقدت عقلك أيها المجنون؟

التفت إليه في نظرة حادة غاضبة، ثم صحت أمام الجنود:

- الكل يعلم أيها القائد أني أستطيع التغلب عليك الآن، لكني لم أعد أطيق فعل أي شيء داخل هذا المعسكر، بعد كل ما هددتني به وأنت تعلم ما أقصد.. لن أقاتلك أيها القائد (عزاروس).

ثم نزعت خنجري -حيث كان السلاح الوحيد الذي أحمله- وتركته يسقط من بين أصابعي إلى الأرض بلا مبالاة، وقلت:

- لن أقاتل مرة أخرى، وأفضل نعتي بالمستسلم والخائن على أن أكون قاتلاً، وفي الحالتين لا أريد أن أكون محارباً.

تجمدت عينا (عزاروس) في استنكار، فصاح (تاركس) من ورائه:

- أنتم تحاربون وتموتون من أجل الملك.

فصحت بأعلى صوتي:

- وإلام يسعى هذا الملك أيها الجنود؟.. إلام يسعى؟.. وماذا ستنالون من سعيه؟.. وماذا نال من قُتلوا اليوم والأمس وأول أمس؟.. ومن قُتلوا منذ بداية التفكير بهذه الحرب اللعينة؟

ثم زفرت متهكماً وقلت:

- لم ينالوا شيء، لماذا؟!.. لأن هذا الملك قد دفع ثمنكم من قبل إلى آبائكم وأمهاتكم، حتى شرف الجندية لم ينالوه وهم يتم إلقائهم كغذاء للحشرات والديدان، مغانم هذه الحرب للأحياء فقط، فمهما كانت مكانتك في هذا الجيش.. إن مت فلن تساوي شيئاً...

ثم نظرت إلى (عزاروس) وتابعت:

– لعلك تتأكد أني لم أكن أطمع بأي شيء، ولعلك ترى أيضاً أين جثة (جاساك).. إن قتلتك الآن، فماذا نلت أيها القائد؟!.. أموال؟.. قصور؟.. نصب لتخليدك؟.. مقبرة مزينة؟.. عائلة تفتقدك؟.. أتباع يبكون من أجلك؟.. لا شيء.. لا شيء أيها القائد.

ثم عدت أنظر في أوجه الجنود وأصيح:

– أما أنا.. فلن أضحي بحياتي من أجل ملك مهما كانت أهدافه، ربما لا مال لي، ولا عائلة، ربما دفع الملك ثمني قبلاً إلى أبي، ولكني لست ملك له، إن حياتي تساوي أكثر من المملكة كلها، فما بالكم بحياة الآلاف منا؟!.. إذا أراد الملك استرداد أمواله التي دفعها من أجلي فليستردها من عظام والدي.

هنا بدأت دموعي في الظهور، فقلت وقد لانت لهجتي:

– إنها لرحمة لي أن أموت الآن.. هكذا قال لي (رازام)، والآن أقول ما قد يؤدي إلى إعدامي بأمر القائد (عزاروس) لكني لم أعد أهتم، فإما أن أعيش كما ينبغي أو أموت الآن، فلا قيمة لأي يوم إضافي بحياتي لا أعيشه كما أريد.

ثم التفتُّ إلى القائد (عزاروس)، وقلت في هدوء:

– أتنازل عن منصبي وكل ما يربطني بهذا الجيش قائد (عزاروس)، فما قرارك؟

نظر القائد في عينيّ للحظات.. لحظات طوال، ثم نطق بعدها بهدوء:

– اذهب.. اذهب يا (كازارشان)، أنت حر.

ترددت الكلمة داخل كياني عدة مرات حتى بدأت أعيّها.. أحقاً أصبحت حراً؟!.. بعد كل تلك السنين الدموية؟!.. أهذه هي الكلمة التي وضعت

الحد لتلك الملحمة التي جرّوني إليها منذ طفولتي؟!.. حاولت الاستدارة في تردد فزفر القائد وأومأ لي قائلا:

- أعطيتك كلمتي يا (كازارشان)، أنت حر وعليك مني الأمان.

فاستدرت في هدوء وبدأت السير ببطء مخترقاً الجنود، حاول بعضهم مد يده كي يلمسني مودعاً بينما تابعت سيري، وفجأة سمعت صياحاً من خلفي فاستدرت.. وإذ (بتاركس) يصيح بالقائد (عزاروس) وكاد أن يتخطاه شاهراً سيفه في اتجاهي، لكن القائد جذبه بشدة ناحيته ولكمه في وجهه، فاشتعل وجه (تاركس) غضباً ودفع السيف إلى كبد (عزاروس)، فركضت إليه بينما سبقني (عادوف) فقيد (تاركس) من الخلف بمساعدة عدد من الجنود، وهبطت على ركبتي حاملاً رأس (عزاروس) سائلاً إياه بانفعال:

- هل تستطيع الـ...

فقاطعني قائلاً:

- أخبرونا قديماً أنها قد لا تكون النهاية.. أرجو أن يكون عفوي عنك سبباً لعفو الرب عني يا (كازارشان).

ثم بدأت ملامحه تهدأ حتى سكن تماماً، فتركت جسده في هدوء ونظرت إلى (تاركس) قائلاً له في صرامة:

- بعد مقتل القائد (عزاروس) من المفترض أن تصبح أنت القائد حتى وصول أمر الملك بتنصيبي قائداً للجيش، لكني لا أظن حتى يحين هذا أن الجنود سيكنون طاعة أو احترام لقاتل قائدهم، ثم أني لا أريد شيئاً من الملك ولا منكم جميعاً، أستطيع قتلك الآن لتهديدي، لكني لن أقتلك ولا غيرك بيدي بعد اليوم، فأنت شهدت الآن بعينيك ويديك ما صار إليه قائدك

السابق.. لا شيء.

ثم نهضت وتوجهت في الجنود صائحاً:

- من يريد أن يصير حراً وبريئاً تماماً من هذا الجيش فليتبعني.

ثم تابعت سيري كما كنت، وبالفعل.. بدأ العديد من الجنود يتحركون في ارتباك كي يتبعوني، فصاح (تاركس) كالمجنون:

- إياكم!.. إياكم!.. سأقتل كل من ينشق عن جيشي.. الملك!.. الحرب!.. العالم الجديد!.. (كازارشان)!.. ستدمر الجيش هكذا أيها الخائن.

فتوقفت واستدرت له قائلاً في تهكم:

- أي جيش؟!

***

تبعني ما يقرب من خمسة آلاف جندي نحو الجنوب، كان من بينهم القادة (سروجا) و(عادوف)، بجانب (تافاريون) قائد الجيش الصغير، حتى وصلنا إلى وسط هضبة (ماجود) العظمى بعد ساعات، فاستدرت للجميع متأملاً للحظات، ثم قلت:

- أعلم أن ما سأقوله الآن ستسمعونه لأول مرة في حياتكم...

ثم تابعت وأنا أدير نظري فيهم:

- أيها الرفاق.. أنتم أحراراً الآن.. فليبحث كل منكم عن وطن يسكن إليه، يكوّن أسرة، يزرع أو يتاجر.. أي شيء، لا أعلم.. عليكم أن تفخروا بما أنتم عليه الآن.

قال (سروجا) مبتسماً:

- بنيّ.. حتى وإن تخليت عن الحياة العسكرية، إن أسمينا ما مررنا به بهذا، فستظل قائداً عظيماً في نظري، لقد علمتني وأنا من تخطى الخمسين ما لم يعلّمه لي مَن رباني وعلمني ودربني.

أومأت له برأسي مبتسماً وقلت:

- وأنت شخص حكيم وعظيم يا قائد (سروجا)، وأنت يا قائد (عادوف)، وأنت يا (تافاريون)، وكلكم جميعاً.. أنتم لم تأتوا معي إلا لشعوركم بقيمة كل منكم.

ثم نظرت إلى الشرق للحظات وقلت:

- سنفترق هنا أيها الرفاق، فليذهب كل منا لهدفه وحياته، ولتقض بقايا هذا الجيش على نفسها بنفسها، فالملك (كاسارشونابر) لا خوف منه الآن حيث أننا كنا قوته لردع أي شيء، وسيحتاج لعقود أخرى كي يعيد ما بدأه وأنهيناه.

تساءل (عادوف):

- وماذا عنك يا (كازارشان)؟

- لا تقلق، هناك أمر ما عليّ فعله.

صمت (عادوف) قليلاً لأنه يعلم أني لن أخبره بشيء، ثم سأل:

- هل سأراك مجدداً؟

ابتسمت مجيباً:

- ما دمنا نحيا بهذه الأرض الصغيرة فلا تستبعد لقاء لنا.

* * *

بعد ثلاثة أيام، وعند العصر كنت استكمل طريقي ركضاً نحو الشرق، كادت الحرارة أن تقتلني بالإضافة إلى الجوع والعطش، وعندما لاح معسكر (ماجود) في الأفق كنت قد وصلت إلى حالة بشعة يُرثى لها، فأخذت أقترب بسرعة قدر ما أستطيع.. لكني بعد أقل من ساعة علمت أني قد لا أدركه فأخذت أصيح بينما أتخبط في خطواتي لعل أحد الحراس يسمعني، وظللت أصيح بأعلى صوتي وسط الصحراء حتى عجزت قدماي عن حملي فسقطت أرضاً، ورأيت أبواب المعسكر تُفتح من بعيد ويتقدم ثلاثة من الفرسان باتجاهي، حتى وصلوا إليّ فهبطوا بحذر بينما تقدم أحدهم ورفع رأسي قائلاً:

- من أنت؟.. ومن أين أتيت؟

سعلت بشدة وحاولت جاهداً التقاط أنفاسي قائلاً بصعوبة:

- أنا.. من جيش (كاسارشونايد).

تحفز الجنود بينما قال أحدهم:

- أأنت أحد جنود ذلك الجيش اللعين؟

وتساءل آخر ساخراً:

- لَم أتيت إلى هنا بقدمك أيها المجنون؟ هل ضللت طريقك؟

قلت:

- أنا قائد قلب الجيش أيها الحمقى.

فقال الجندي:

- هل نعتنا هذا المخبول بالحمقى؟

صحت في غضب:

- ألم تسمع عني أيها الأحمق؟ أنا وحش ذلك الجيش اللعين، فلتسأل قائدك إن كان لديه معلومات بهذا، أنا أطلب مقابلته.

نظروا إلى بعضهم بتعجب، ثم اقتربوا مني في حذر وتحققوا من عدم حملي لأي سلاح، فناولوني بعض الماء ثم حملوني في رفق على أحد الخيول وأدخلوني المعسكر حتى حجرة قائدهم، فتقدم أحدهم وطرق الباب ثم دخل، فقال له القائد:

- ما الأمر؟

فأجابه:

- هناك شخص في حوزتنا الآن من جيش (كاسارشونير).

- حقاً؟!

- نعم أيها القائد، ويزعم أن لديك معلومات عنه.

تساءل القائد في تعجب واستنكار:

- معلومات عنه هو؟!.. ومَن يكون هذا؟

- آ.. اعذرني أيها القائد لقد نسيت اسمه، هل ادخله؟

أذن له القائد، فخرج من الحجرة وأشار للجنديين بمرافقتي للداخل، فقال القائد في صرامة:

- من تكون يا هذا؟

نظرت في عينيّ القائد رغم الضعف الذي تملّك مني وقلت:

- أنا (كازارشان ماثير بوتابيرون).

اهتزت أصابع يد القائد بشكل ملحوظ، فحدق بي للحظة ثم قال للجنود في صرامة:

- من الآن كل ما يحدث في هذه الغرفة هو أمر غاية في السرية بأمر من الملك، هل هذا مفهوم؟

أومأ الجنود برؤوسهم قائلين في صرامة:

- أمرك أيها القائد.

فالتفت إليّ القائد قائلاً:

- أنت إذا؟!.. لقد أرسل ملكك رسالتين للملك (جاسيرشوناير) يطلب فيهما الخضوع له، ويخبره عن أسطورة ووحش يحويه جيشه، وذكر اسمك وبعض ما فعلته.. لقد أعد الملك جائزة لمن يأتي بك حياً أو ميتاً.

أومأت برأسي نافياً:

- ليس لي ملك ولا قائد ولا جيش، وأطلب اللجوء لحماية الملك (جاسيرشوناير).

سألني ساخراً:

- بهذه السهولة؟!.. وما هو المقابل؟

فأجبته في صرامة:

- جيش (كاسارشوناير) بأكمله.

أطبق الصمت والدهشة على الجميع، فتابعت بعد لحظات:

- هذا كثير وغير متوقع، أليس كذلك؟

أجابني القائد:

– لا أخفي عليك فأنت قائد مثلي وتعلم، بالفعل عرض كبير وغير متوقع.

– هذا جيد، ولهذا لي شروط مقابل تنفيذه.

– شروط؟!

– لا تقلق، ليست صعبة بتاتاً، وأظن أن عرضي يستحق.

حدق بي القائد للحظة ثم قال:

– حسناً، فلتخبرني.

– أن أشهد التنفيذ بنفسي، وألا يتم التحفظ عليّ بمجرد نجاح المهمة، وأن يتعهد الملك بعدم ملاحقتي أو إصدار أية أحكام ضدي.

صمت القائد مفكراً، ثم قال في تردد:

– ربما علينا أن نستشير الملك نفسه في هذا الأمر.

– وكم سيأخذ هذا من وقت؟

– يومان على الأكثر، وليس أقل من يوم.

– لا لا، هذه مدة طويلة.

– وما العمل؟ لا يمكنني أن أتصرف تجاه جيش (كاسارشونا ير) بقراري الشخصي إلا لو كنا في حالة دفاع.

– لا، ستتصرف في هذا الشأن دون اللجوء للملك.. استمع لي.. أنت الآن أمام صيد ثمين، وعرض للقضاء على كل الخطر الذي هدد المملكة

لعقود في ساعات قليلة، وأما عن تركي حراً، فأظن أن ما أقدمه الآن يعوض كثيراً عما فعلته وأكثر، كما أني لم أعد جندياً ولا قائداً ولا أمثل خطراً عليكم، فما رأيك؟

تأملني القائد للحظات، ثم قال:

- حسناً، لقد اقتنعت بشروطك.

تنهدت في راحة وقلت:

- هذا جيد، هل تتعهد بهذا بما يمنحه لك الملك من صلاحيات؟

- لقد اقتنعت بشروطك وليس خطتك.

- حسناً.. جيش (كاسارشونابر) يعيد تنظيم صفوفه الآن أمام إمارة (ماريرشونابر)، وقد وقعت بالجيش خسائر فادحة، ربما لم يبق به الآن إلا عشرة آلاف جندي على الأكثر صالحاً للقتال، والمدينة التي يحاصرونها لا تزال قوية ومنيعة وتذيقهم خسائر بعد أخرى، فإن هجمت بجنود معسكرك هذا سيُحاصَرون من الجهتين ويتم القضاء عليهم بسهولة لن تعوضها مجدداً.

اعترض القائد قائلاً:

- وماذا إن كانت هذه خطة لإخلاء معسكري من الجنود ثم محاصرتنا؟

- أتظن أني بحالتي هذه التي تعرضني للموت قبل حتى وصولي لباب معسكركم، دون طعام وشراب وسلاح، قد أتيت لتنفيذ مؤامرة؟.. هل سيضحي جيش بشخص مثلي بمكانته ومنصبه وتأثيره بمعنويات الجنود كي يهلك؟

لم يرد القائد، فتابعت:

- لك كامل الحرية في الأخذ بما أقول، لكنك الآن تهدر فرصة للقضاء على خطر المملكة بضربة واحدة، ولك أن تعلم أنه في حالة يرثى لها بعد أن أطلق جنود الإمارة سلاحهم السري، إن كان هذا سيؤكد لك صدق ما أقول.

لمعت عينا القائد وقال:

- وهذا السلاح هو...!

زفرت في ضيق وأجبت:

- صخرة عملاقة أسطوانية الشكل، تم اطلاقها كي تنحدر على الربوة في اتجاه الجيش فسوّت أجزاءً كبيرة منه بالأرض.

ضرب القائد بيده على مكتبه في حماسة وقال:

- هذا عظيم.. هيا بنا.

الفصل الثاني والثلاثون

خرج القائد من حجرته وأمر بجمع جميع الجنود بساحة المعسكر في أسرع وقت ممكن، ولم تمر نصف ساعة حتى كان يقف في شرفة مكتبه المواجهة للساحة، حيث بدأ يلقي خطاباً بأن تطورات كثيرة قد حدثت خلال يوم، وشرح لهم الكارثة التي حلت بالجيش الجنوبي عند إمارة (ماريرشونايز)، وانشقاق قائدهم الشهير ولجوؤه إلى هنا اليوم، مع خطة للقضاء تماماً على ذلك الخطر، كما قام بشرح الخطة وأمرهم أن يكونوا مستعدين للزحف خلال ساعة على الأكثر.

وبعد أن أنهى خطابه استدار داخلاً لمكتبه حيث كنت موجوداً هناك، فقال لي:

– حسناً.. إن ساعة الحسم تقترب، وأرجو أن يتقبل الجنود خطتك وطريقة إنهائك لهذا الأمر.

أومأت برأسي متفهماً، وأجبته:

– لقد تعلمت من هؤلاء الحمقى أن أتجنب أي خسارة لا داع لها، وبما أنك ستواجه جيشاً من الوحوش، حتى إن قلّ عدده إلى عشرة آلاف فإنه يظل عدداً كبيراً، قد يكلفك حياة الآلاف من الجنود للقضاء عليهم إن فضلت مواجهتهم سيفاً بسيف.

– ولكنهم...

قاطعته بصرامة:

- لا تفكر للحظة.. إنهم لن يترددوا عن إبادة جنودك بأبشع صورة ممكنة، بل هذه هي خطتهم بالفعل، فلا تفكر بإنسانية الخطة أم لا، ودع الأرض كلها تستريح بنهاية هذا اليوم.

خفض القائد بصره مفكراً بكلماتي، ثم قال في بطء دون أن يرفع بصره:

- لدينا بالمعسكر هنا اثنا عشر منجنيقاً.

أجبته في لا مبالاة:

- أظن أن ستة أو ثمانية على الأكثر كفيلة بإنجاح المهمة.

لم يرد القائد عليّ، فقد كان صمته دليلاً على أنه لا يود أن يزيد صراع نفسه بكلمات إضافية بعد أن استسلم للأمر الواقع.

***

بعد يومين ونصف من الزحف كنا نقترب من (ماريرشوناير)، كان قلبي يزداد قلقاً من قرب المواجهة، والخفقان تزداد قوته كما لم يحدث من قبل بأي معركة، حتى وصلنا إلى بداية الوادي المؤد إلى الإمارة فانقسم الجيش.. حيث تقدمت كتائب الهجوم والرماة وورائهم المجانيق، بينما القادة وبقية القوات صعدوا نحو الهضبة العالية المطلة على الوادي.

وصعدت معهم حتى رأينا الجيش الذي تركته منذ أيام قد أعاد تنظيم صفوفه، كما رأينا المجانيق وهي تتقدم أسفلنا نحو فتحة الوادي، وما أن أصبح الجيش في مرماهم حتى اطلقت المجانيق الست قذائفها بمواقع مختلفة بقوات الجيش.

" إنها مجزرة! "

قالها أحد القادة بجواري وهو مصدوم من سحق الجنود تحت الصخور، بينما هناك جنود آخرون يحاولون الفرار قبل أن تصيبهم سهام الرماة من ناحيتنا فيصيبهم رماة الأسوار الذين اشتركوا بدورهم في الهجوم.

أثناء ذلك كنت أنا ولأول مرة أجد نفسي ارتجف لرؤية ما يحدث، وكأني قد انكشف لي أني قد بلغت حدود تحمل نفسي، فوضعت يداي على أذنيّ كي لا أستمع للصياح البعيد، وبدأت أرى منظراً صامتاً للمجزرة، حتى القائد حاول أن يستفسر عما يحدث لي فدفعت يده دون أن أستمع له أو أن أنزع يدي من فوق أذني، وأخذت ارتجف وألهث.

حتى انتهى كل شيء.. سكنت المجانيق وتوقف الرماة.. فأبعدت يداي وبدأت وسط صمت مهيب أطبق على الكل أتأمل ما حدث للتو.. لقد انتهى جيش (كاسارشوناير) تماماً.. إلى الأبد، وذهب معهم الرعب الذي طارد الآلاف قلقاً على مصيرهم، وذهب معهم الغرض الذي اختطفوني من أجله طفلاً.. والغرِض الذي من أجله واجهت الحياة والموت كي أنجو، لا أعلم مم أنجو أو لمَ!.. لكني نجوت.. وشعرت كأنه قد ذهبت معهم كل تلك السنوات الطويلة، فإذا بي يتناقص عمري عودة إلى الماضي، حتى شعرت بأني الآن ذو عشر سنوات وسط هؤلاء الكبار حولي.

وفجأة.. صاح حرس الأسوار بصوت عال لهذا الانتصار، فأخرجوا جنود الجيش الشمالي عن رهبتهم فصاحوا معهم، وفُتحت أبواب (ماريرشونايرِ) والتقى الجنود من الناحيتين يهنئون بعضهم بالقضاء على كابوس استمر لعقود، لقد حل السلام مجدداً على المملكة العظمى.

وبينما القادة يهنئون بعضهم من حولي التفت إليّ قائدهم، ودفعني في رفق

قائلاً:

- كله بفضلك يا (كازارشان).

التفتُّ إليه في هدوء وقلت:

- لابد أن تكمل الخطة الآن بلا أي تأخير.

- حسناً أيها القائد.. لـ...

- لم أعد قائداً.

أجابني مبتسماً في هدوء:

- حسناً، لقد صدقت في وعدك لي، وها أنا أصدق في وعدي، أنت حر يا (كازارشان).

أومأت له ثم قلت:

- أؤكد عليك أيها القائد، بلا تأخير.

- لا تقلق، سننطلق الآن نحو المعسكر الجنوبي لتدميره عن بكرة أبيه، ولو بالمجانيق كما اقترحت، ثم سننطلق بعدها فوراً نحو قصر المملكة الجنوبية، وأعدك.. سينتشر خبر أسر (كاسارشوناير) في أسرع وقت بأنحاء المملكة.

أومأت له مبتسماً في راحة، ثم قلت:

- سأذهب الآن أيها القائد.

- تفضل يا (كازارشان)، أتمنى أن أراك مرة أخرى.

❊ ❊ ❊

قرب شروق اليوم التالي كنت أركض بأحد الخيول جنوب الهضبة

حتى لاحت لي واحة (خامر) من بعيد، كنت قد قطعت الطريق مفكراً عما حدث بالأمس، فخلال ساعات فقط أصبحت حراً، وتم القضاء على جيش (كاسارشوناير)، وبعد أيام قليلة سينتهي كل شيء، وها أنا حر بعد كل تلك السنين التي انقضت بين القتال والدماء والصراخ والأوامر، يمكنني الآن أن أذهب إلى أي مكان أريد، يمكن أن أتزوج ويكون لي أبناء.. إنه حلم، وقد تحقق بالطريقة الصعبة، ها أنا أعيش حراً، أحلم وأتمنى بفضل (رازام)، الذي دفعني رحيله المؤسف دفعاً بأن أنجز كل هذا أسرع مما نويت.

ثم تذكرت والدي.. آه لو كان حياً هذه الأيام كي يراني.. وأمي.. كم أتمنى أن أرتمي ساكناً حضنها كي أجرب هذا الشعور، ربما خسرت كل شيء تقريباً، لكن ربما لولا خسارتي لما كسبت كل هذا، أعتقد الآن أن لدي الكثير لأحققه، فبرغم انقضاء حياتي بأكملها حتى الأمس ضائعاً ومقيداً، إلا أني على أمل أنه ما زال بعمري حتى ولو بضع سنين أحياها جيداً، لدي أم.. وشقيقات.. و.. (راسيا).

وما أن ذكرت (راسيا) حتى تخيلت وجهها بابتسامته ودموعه.. بضحكتها وعتابها...

" لا أرى أمامي من يستطيع أن يفعل "

ترددت في رأسي جملة (راسيا) التي تحدثني بها، فابتسمت في شيء من الحنين وقلت:

- لقد استطعت يا حبيبتي.

ثم عادت ذاكرتي إلى الوراء.. إلى محادثتي الأخيرة معها.

***

" هل هناك ما أفعله لأصلح به موقفي عندك؟ "

صمتت للحظات ثم قالت:

- عندما آتيتني بأسورتي شعرت بأنك قد تستطيع اختراق الأرض وفعل أي شيء لأجلي.. أما الآن...

تابعت متحسرة:

- لا أرى أمامي من يستطيع أن يفعل.

عقدت حاجبيّ في شدة ثم رفعت أحدهما قائلاً:

- هكذا؟.. حسناً.

أشحت بوجهي غاضباً، ثم تنهدت وأومأت برأسي نافياً في يأس، زفرت متهكماً على حالي المتقلب بمفاجآته، والجهات التي أصارع لها أو ضدها، وعندها لم أجد من ينافس مكانة (راسيا) عندي، فهدأت أنفاسي وإلتفت أنظر لعينيها في تحدٍ وقلت:

- سأثبت لك أني قد أفعل أي شيء.. أي شيء من أجلك، هذا وعد من شخص قلما يعد.

نظرت في عينيّ بقوة خفق لها قلبي، وقالت:

- وعد؟

- نعم.. وعد.. إن كلمتي سيف دائم على عنقي.

لانت حدة نظرتها لي ثم قالت:

- حسناً، أريد انتهاء هذه الحرب.. وأريد أن تنهيها أنت.

عدت للصمت مجدداً، فتنحنح العم (شوهان) وكاد أن يرد بشيء لولا أن قاطعته قائلاً:

- وإن فعلت هذا، هل ستسامحينني؟

أومأت برأسها لي، فعدت أقول:

- وستعودين لحبي؟

رفعت رأسها لي في هدوء ثم أجابت:

- لا، عندما يعود من أحببته بحق، في هذه الحالة سيجد حبي الذي لم يغب قط.

تلعثمت ابتسامتي قبل أن تتكون، ثم قلت:

- حضور حبك يا (راسيا) سيعينني على الكثير، ما كنت لأتوقع أن أحب.. ما كنت لأتوقع أن يلقى لي حظي بالاً للحظة فأحبك أنتِ.. وما كنت لأتوقع أن تغفل قسوة الدنيا عني لحظة فتحبينني أنا.. فليكنَ حبك حاضراً يا (راسيا) وسترضى عني الظروف وتلين لي الأسباب لأحقق لكِ ما تتمنين في نفسي وفي هذا العالم.

***

ابتسمت في راحة ثم أكملت طريقي حتى وصلت واحة (خامر) فتزودت بالماء والطعام، وأكملت طريقي نحو قصر (قلب المملكة) الذي وصلته في نهاية اليوم التالي، رأيته من بعيد وأنا ابتسم داخلي بينما أتذكر عرض الملك بتنصيبي أميراً للمملكة الوسطى وتزويجي بجميلتين من بناته.

ثم تابعت طريقي لمدة ثلاثة أيام أخرى حتى وصلت إلى واحة (راماس)،

فأرحت خيلي وتزودت بالطعام والشراب مجدداً، ثم انطلقت بأسرع ما يمكنني جنوباً نحو واحة (باكور) التي تحوي حبيبتي (راسيا).

بعد يوم آخر دون استراحات طويلة وصلتها، بقلب يخفق حباً طغى على أي شعور بداخلي، وصعدت الربوة وطرقت الباب، وما أن فتحت حتى شهقت في فرح، فدمعت عيناي لأول مرة فرحاً برؤيتها، وقلت:

- لقد فعلت كل شيء من أجلك يا حبيبتي، كل شيء.. إلا.. شيء واحد.

ثم ذابت ملامحي ودمعت عيناي أكثر، وقلت بكل أسف:

- لم أستطع أن أفي بوعدي لنفسي.. كي أحول بين (رازام) ومصيره.

ذابت ملامح (راسيا) ثم اكتست بالحزن ودموعها تتساقط وتتسابق بغزارة، وخرج والدها فجأة فارتمت عليه تعانقه وهي تنوح، ففهم من نظرتي إليه ما جئت به، فنكس رأسه بينما يحتضن ابنته أكثر، لكنه لم يستطع تمالك نفسه طويلاً فأخذت ركبتاه في الارتجاف وبدأ يتساقط من بين يدي ابنته، فتقدمت أساعده، فقبض على يدي محاولاً الوقوف وقال بوهن:

- تفضل يا بنيّ.

***

قضيت عند عمي (شوهان) أكثر من أسبوعين نحاول فيه تعزية أنفسنا في فقد (رازام)، لكننا لَم نستطع بسهولة، فبرغم أن عمي و(راسيا) لم يكونا متأكدين من عودته سالماً من الحرب ولا عودتي، لكن الصدمة لم تدع للتوقعات السابقة فرصة أن تخفف منها، وحاولت كثيراً أن أقضي معظم الأيام خارج جدران الدار كي أستعيد صحتي وأحاول التأقلم على الحياة الطبيعية، لكن لم يكن الأمر كما في السابق بإجازة المعسكر، فلم أكن أذهب

في النوم حتى تغزوني الكوابيس عن الحرب والمذابح فأستيقظ صارخاً وباكياً، ولم أكن أقضي اليوم بين الحقول والبحيرة حتى تأتيني الهلاوس والاضطرابات فأتفاجأ بأن (راسيا) بجواري وتحاول التخفيف عني.

حتى جاء يوم بخبر سيطرة جيش (جاسيرشوناير) على قصر المملكة الجنوبية وإعلانه انتهاء الحرب إلى الأبد، وتم أسر (كاسارشوناير) في قفص توجه في موكب إلى المملكة الشمالية، وتناقلت الأخبار أنه كان يُقدم له الطعام كما الحيوانات، فسعدت نفسي أخيراً لهذا الخبر.. خاصة في هذا التوقيت لأنه ساهم في تخفيف أعباء نفسي، وشعوري بالراحة والرضا لأني السبب في هذا.

لكن إن انزاح جبل عن صدري فلا تزال هناك جبال، حيث ظلت حالتي لمدة أشهر تسوء أكثر فأكثر، فضعف جسدي ولازم الارتجاف أطرافي وكدت أن أجن، لكن العم (شوهان) ظل بجواري مُصراً على رعايتي، وقرر في النهاية بأن يزوجني (راسيا) دون أي انتظار لعل حالتي تتحسن.

وتم تحديد يوماً الزفاف، والنية لدعوة أهل الواحة جميعهم، وشعرت أني مقدم على مرحلة كبيرة بحياتي لا أعلم إن كنت مستعداً لها، وإن كانت (راسيا) ستعاني معي أو بسببي أم لا!.. فبدأت أبث لها قلقي من هذا لكنها كانت ترد عليّ بإصرارها وتمسكها بحبي ووجودها بجواري.

وتم زفافنا إلى بعضنا، في يوم كان بمثابة ميلاد ثالث لي، بعد ميلادي لأبي وأمي، وميلادي لنفسي، لكن ميلادي بين يدي (راسيا) كان الأجمل مكاناً وزماناً، وبعد شهرين آخرين في الواحة قررت أن أرحل بزوجتي نحو المملكة الشمالية، كي نعيش في أجواء وأماكن جديدة، بعيدان قدر الإمكان عن الذكريات القديمة والمملكة الجنوبية بهذه الفترة، ونكون بأقرب مكان من الملك العادل (جاسيرشوناير).

***

رفع (كازان) رأسه نحو الملك قائلاً:

– وبعد أشهر أخرى توصلت إليّ أيها الملك، وها أنا أجلس في حضرتك بين مستشارك وكبار رجالك، وجنودك.. وقائدهم الذي تمنى أن يراني مرة أخرى.

ابتسم الملك وقال:

– ولي كل السعادة بوجودك هنا يا (كازان).

ابتسم له (كازان) ولم يقل شيئاً، فقال هو:

– أرى أن سردك ومواجهة نفسك جعلاك أكثر راحة عن أول يوم رأيتك فيه.

تنهد (كازان) وأجاب:

– نعم أيها الملك.. وأي راحة!.. أشعر براحة كبيرة تجعلني لا أهتم بعد اليوم بأي يوم يخلفه، لقد واجهت نفسي كثيراً أثناء سرد قصتي هذه بكل تجرد وصدق، كنت أذكرها لنفسي قبل أن أذكرها لكم، وأعتذر عن تفاصيل بشعة آلمتكم، لكن كان لابد منها كي أخرج كل ما بي وأرى حكمكم، ومن قبله حكم نفسي على نفسي التي أراها تغيرت، مع حرص كبير على عكس حقيقة الحرب.. إنها البشاعة نفسها ولا داع لتزيينها أو إخفائها، ولعلي أعود وأرى أن ما فعلته لإصلاح هذا لم يساو ما اقترفته، حتى لأتمنى الموت الآن أملاً في اكتمال راحتي.

قبضت (راسيا) على ذراعه في قلق، بينما قال الملك:

- لا يا (كازان)، لقد أصلحت الكثير.. إنك لم تحم آلافاً ممن هم على قيد الحياة الآن، بل والآلاف الذين سيأتون إلى هذه الحياة ويجدونها آمنة.. ومن يدري؟.. لعلك إن سقطت أثناء الحرب لانتهت بانتصار (كاسارشوناير)، قارن بين موتك في الحرب وموتك بعد ما فعلته وما تستطيع فعله، ستجد أنك في الحالة الثانية أفضل بكثير أيها البطل.

- إني لست ببطل يا حضرة الملك.

- بالطبع بطل، ألم تعلمك تجاربك هذه شيئاً؟!

نظر (كازان) في الأرض وقال:

- شيئاً؟!.. لقد تعلمت أشياءً أيها الملك، لقد أحط (كاسارشوناير) من مسمى الجندية ووهبها إلى وحوش يأتمرون بأمره، ويسعون بحياتهم من أجل مطامعه وشره، وقد حلت الحماسة العمياء مكان شعورهم بالإجبار، وكذلك مكان سعيهم الدائم للحفاظ على حياتهم خلال كل تدريب وكل اختبار وكل مرحلة بالحرب.

عندما ذهبت لمقابلته وجدت فيه رجلاً مضيافاً كريماً متواضعاً وصريحاً، أي شخص مكاني سيجد هذه الصفات به، لكن الحقيقة هي الموجودة على الأرض، الحقيقة هي هؤلاء الوحوش الذين يخترقون المدن دماراً وقتلاً بأمره، وأنا من رأى الوجهين أيها الملك.

ومن ينسى؟.. من ينسى هؤلاء الأشخاص الذين أغدق عليهم بالمال كي يحولهم إلى وسيلة لإنجاب أفراد يغذون جيشه؟.. ستجد بعضهم الآن يذكرونه بالطيبة والكرم هناك، ولا أستبعد أن يصفونه بالبطولة أيضاً لأنه لم يتعرض لهم بسوء، لم يتعرض لهم هم فقط...

ثم صمت قليلاً كي يرتب كلماته، وتابع:

- أحاول الآن تخيل أب وأم ينعمان بمنح الملك، فيأكلان ويشربان ويتسامران، ولا يدران لربما في هذه اللحظة أن الذي هو جزء منهما يصرخ ألماً أو يصيح فزعاً أو يتعرض لجرح أو بتر أو للافتراس، أو بينما هما في لحظات متعتهما يكون ابنهما يُطاح بجثته فوق جثث أخرى.. واتساءل.. أيختلفون فعلاً عن أبنائهم الذين جردهم المعسكر من الإنسانية؟.. أم أني سأظلم جندياً نبضت به الإنسانية وهو يرى كيف هو تصرف آباء وأمهات آخرين؟

لو كان باستطاعتهم.. لم أكن لأستبعد أن يختطفونا من بطون أمهاتنا مباشرة كي لا نشعر أكثر بقيمة ما يدافع الآخرون عنه، ونتعجب.. ماذا يفعل هؤلاء الحمقى الضعفاء؟!.. علام يدافع هؤلاء الذين لا يحملون أي سلاح؟!.. حتى أيقنت أننا الحمقى أمام مَن يدافعون عن أهم شيء.

قال الملك:

- ما تعلمته هذا يا (كازان) يجعلك بطلاً، لا تقتصر البطولة على الفرسان وحاملي السيوف يا بني، فأباك كان بطلاً، عمك (شوهان)، (رازام)، حتى زوجتك (راسيا).. هؤلاء أبطال دون أن يرتدوا درعاً ويحملوا سيفاً، أما على الجانب الآخر.. فالدرع العسكري لا ينقي من هم ملوثي النفس، حتى وإن ارتدوا دروع الذهب.

أومأ (كازان) للملك، فقال الأخير:

- لقد انتهى الكتاب هنا يا (كازارشان)، أرجو ألا يزال بداخلك شعور بأننا أجبرناك على هذا.

- ما بداخلي من شعور يجعلني أشكرك يا جلالة الملك، أشكرك لراحة بي

كأني قد ولِدت مجدداً.

ابتسم (تاسيرون) وقال (لكازان):

– وبما أنك قد ولِدت الآن، ما الذي تود أن تفعله بحياتك؟

التفت (كازان) لزوجته مبتسماً وقال:

– إن (راسيا) هي حياتي الآن، أريد أن أرعاها وأريحها أكثر، وأعوضها عما عانته مع ذلك الأحمق المجنون الذي كان حتى الأمس.

ابتسمت (راسيا) وكادت أن تضحك، لكنها قبضت على يده كأنها تخبره أنها معه دائماً، فابتسم الملك لهما قائلاً:

– شخص عظيم مثلك لابد أن يكون له دور أكبر من هذا.. مع زوجته العظيمة...

رفع (كازان) رأسه مستفهماً للملك، الذي تابع:

– أريدك مستشاراً ومعلماً لجيشي يا (كازارشان).

فأجابه (كازان) نافياً برأسه بكل جدية:

– لا.. لا يا جلالة الملك، لا أريد أن أعود لأي منصب عسكري، ولا حتى أن أقترب منه كتعليم أو إشراف.. ثم ما الحاجة لجيش بعد انتهاء الحرب واتحاد المملكة مرة أخرى؟!

– من أجل حفظ الأمن والاستقرار يا بنيّ.

تنهد عميقاً ثم أجاب:

– سيدي الملك.. صدقني، إنك لا تحتاج جيشاً كي تحمي أمناً واستقراراً

بقدر ما تحتاج لشعب يحميه، فلترع شعبك كما أنت أيها الملك العادل، ولتزد على هذا فأنت على عرشك من أجله، إن تحقق هذا سيحمي شعبك أمنه واستقراره أفضل من مائة جيش يمكن أن تتصور براعته في خيالك.

ابتسم الملك راضياً وقال:

- حسناً يا (كازان)، لكني ما زلت أريدك في جواري.

- إن كان هذا طلبك يا سيدي فلتجعلني تحت رعايتك وإشرافك ضمن القائمين على إصلاح وإعمار المدن ضحايا الحرب، أريد أن يعود النبض لتلك المناطق مرة أخرى.

اتسعت ابتسامة الملك ثم نظر إلى (تاسيرون) الذي اتسعت ابتسامته بدوره، فعاد الملك بابتسامته (لكازان) مجيباً:

- إن كان هذا ما تريد، فهو لك.

أومأ (كازان) في سعادة، وكاد أن يشكر الملك لولا أن رفع الملك يده مستوقفاً إياه وقال:

- وهناك شيء آخر.

ثم أشار نحو باب حجرة العرش حيث...

" (كازان)! "

التفت (كازان) في حدة تجاه الصوت الذي عرفه على الفور.. والدته.. والدته هناك مع شقيقاته، فقام مسرعاً مخترقاً الحضور حتى وصل إليها، لكنه لم يضمها إليه بقدر ما استسلم تماماً لضمتها كما تمنى، وكم تمنى هذا أثناء لياليه الأولى بالمعسكر التي كان يقضيها في الظلام باكياً!.. مشتاقاً لضمة

مشجعة من أبيه أو ضمة مهونة من أمه، حتى علم مع زيارة ظلام الليل له في وحدته أنه قد لا يكون هناك أمل من عودته مرة أخرى، وأن هذا الظلام لن ينتهي إلا مع نفير طابور الفجر، وعليه أن يستعد.. وينجو.. ويتخطى كل هذا، وترك الأيام تغير ما به.. وتأخذ ما بصدره نهشاً وتمزيقاً.. وهو راض ومتحمل، لكيلا يعود ألم تلك الليالي إليه مجدداً.

" ألم تشتق لأمك يا (كازان)؟! "

تذكر قول والده، فضم أمه بحب أكثر وشوق حقيقي لها، وزادت ضمته قوة وهو يتمنى لو كان يضم الآن والده ووالدته معاً، وظلا هكذا للحظات حتى أبعدته عنها برفق تتأمل في ملامحه، ثم قالت:

- لقد أخبرني مستشار الملك بكل شيء، أنا فخورة بك يا بني.

فقبّل (كازان) جبهتها والتفت ينقل بصره بين الملك ومستشاره في امتنان، ولم يستطع أن ينطق بأي كلمة شكر، فابتسم الملك مشجعاً وأومأ مستشاره في رضا، وبينما (راسيا) تقدمت نحو والدته لتضمها، تقدم (كازان) نحو شقيقاته يضمهن ويطمئن عليهن.

***

باشرت مهام مسؤوليتي الجديدة منذ اليوم الأول لتعيين الملك لي، فقد انضممت إلى الفريق الكبير القائم منذ عامين على إصلاح ما دمرته الحرب، وقد ضم الكثير من الجنود والعمال والمزارعين بجانب سكان المدن، بينما يشرف علينا العديد من المهندسين.

لم أمل يوماً من محاولة إصلاح ما اقترفته، ولم تمر عليّ لحظة ظننت بها أني قد رضيت عن نفسي تماماً، وهكذا.. استمررنا في العمل متنقلين بين مدينة

وأخرى دون تأخير، فأساعد في البناء وأساهم في الزراعة قدر الإمكان، كما طلبت أن يعلمني ذوو الخبرة المزيد كي أساهم أكثر.

قمنا خلال تلك الأشهر بإعادة إعمار المدن.. وترميم أسوارها.. ورفع أعمدتها وبنيانها.. وتزيين حدائقها وساحاتها، وقمنا بدفن آلاف القتلى وتنظيف الممر من بقايا الجثث، وكذلك الغابة ومضيق (راسوم).

لم أفرق بين قتيل من جيش (كاسارشونايز) وقتلى المدن قبل انشقاقي، لأني لم أعلم أي من الجنود كان وحشاً راضياً وأيهم كان مضطراً مُعذب الضمير، ولم أرد أن أشغل تفكيري بالحكم على أي أحد خلال تلك الكارثة، وإلا فأنا جدير بسباقهم إلى الجحيم، أما عن جيش (تاركس) الذي ظل على وحشيته فأوصيت بدفنه في مقابر جماعية في مناطق موحشة لا يصل إليها إنسان إلا بصعوبة.

كما سمح لي الملك بأن أقيم نصباً فوق قبور أشقائي وقبر أبي، وكذلك فوق قبر (رازام) أمام أسوار إمارة (ماريرشونايز) حيث رحل عني، ونقشت عليه "الإنسان العظيم (رازام شوهان) الذي حلم بحياته وساهم بمماته في انتهاء الحرب إلى الأبد".

***

أما عن حياتي مع زوجتي الحبيبة، فلقد أنجبنا ولدنا الأول (رازام) الذي قد تعلم بالكاد كيف يحبو، وأعيش معهما أجمل أيام حياتي وأسعدها، بعد أن أثبتُّ لحبيبتي أني قد أستطيع فعل أي شيء من أجلها، خاصة بعد أن خططت لكل شيء من أجل إنهاء الحرب كما طلبت، لكن جاءت الأحداث لتحل الأمور بأكثر الطرق إيلاماً، لكنني في عالم جديد الآن أكاد أطير فرحاً لفخرها بما أنجزته وأحاول انجازه.

أحببت شعور الناس بالأمان وأماني بينهم، وشعوري بالحياة عندما أرى الأطفال يعيشون طفولتهم كما ينبغي، والأمهات يقمن بواجباتهن ودورهن كمثل أعلى، والآباء يعملون بحب من أجل أسرهم، وكلاهما يقدّران قيمة ابناءهم وسلامتهم وحريتهم، وكانت فرصة لي كي أكون منهم، أن أربي (رازام) الصغير كما أحببت، وكما تمنى أخي وصديقي ومعلمي (رازام)، الذي علمني ألا أعي إلا كوني إنساناً.

لقد تمنيت وحققت بفضل (رازام)، وأرجو أن يكون سعيداً وبمكان أفضلٍ الآن، لقد افتقدته بشدة، وأرجو أن ألحق به بعد عمر أصبحت أرجوه طويلاً كي أبقى فيه برفقة من أحبهم، وتمنيتهم، وحاربت كل شيء من أجلهم.

فحربي من أجل إنسانيتي، وحبي، وحياة الآخرين، هي الحرب التي أفخر بها...

وهي الشرف الوحيد الذي أستحق أن أنال لقب محارب من أجله...

وهي الأشياء التي علمتني كيف أتمنى.. فكانوا لي أمنيات...

(راسيا).. (رازام).. و(رازام) الصغير هم أمنياتي...

أمنيات محارب...

مذكرات المحارب (كازارشان ماثير بوتابيرون)

❊❊❊

التعريف بالكاتب

أحمد ع. عزالدين، كاتب مصري، من مواليد الإسكندرية عام ١٩٩٢م.

صفحة فيسبوك:

https://www.facebook.com/Ahmed3Ezzeldien

صفحة جوودريدز:

https://www.goodreads.com/ezzeldien2121